وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر2

كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية

قسم التاريخ

الحياة الفكرية في مصر والشام خلال الفترة العثمانية

من الربع الأول من القرن 16م/10هـ

إلى منتصف القرن 19م/13هـ

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر (الدولة العثمانية والمشرق العربي)

من إعداد الطالبة :

فتيحة علواش

تحت إشراف الأستاذ الدكتور:

الغالي غربي

السنة الجامعية:

2013م – 2014م/1434هـ - 1435هـ

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر2

كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية

قسم التاريخ

الحياة الفكرية في مصر والشام خلال الفترة العثمانية من الربع الأول من القرن 16م/10هـ إلى منتصف القرن 19م/13هـ

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر (الدولة العثمانية والمشرق العربي)

من إعداد الطالبة :

فتيحة علواش

تحت إشراف الأستاذ الدكتور:

الغالي غربي

لجنة المناقشة

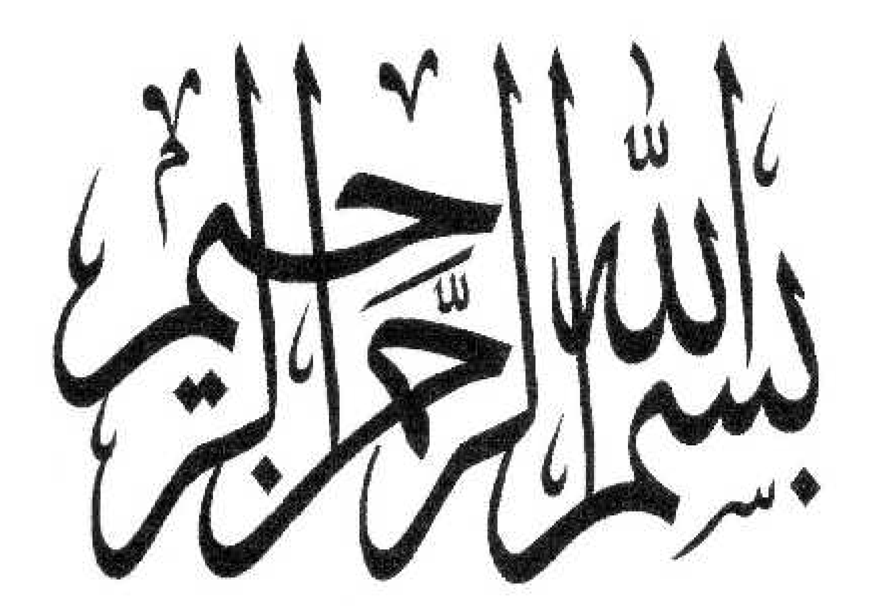
1- الدكتور أرزقي شويتام..........................رئيسا

2- الدكتور الغالي غربي ....مقررا

3- الدكتور عبد الرحمن أولاد سيدي الشيخ............عضوا

4- الدكتور محمد بلقاسم ....عضوا

السنة الجامعية: 2013م ـ 2014م/1434هـ - 1435هـ


بسم الله الرحمن الرحيم



كلمة شكر

قال الله تعالى: ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾

سورة البقرة الآية 152

إن الشكر الأول والأخير لله عزّ وجلّ، الذي أغدق علينا بنعمه

ظاهرة و باطنة

ومنّ علينا بنعمة العلم وقدرنا على طلبه

فله الحمد عدد خلقه و مداد كلماته

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى مرشدي وموجهي الأستاذ الدكتور الغالي غربي

على كل نصائحه وتشجيعاته

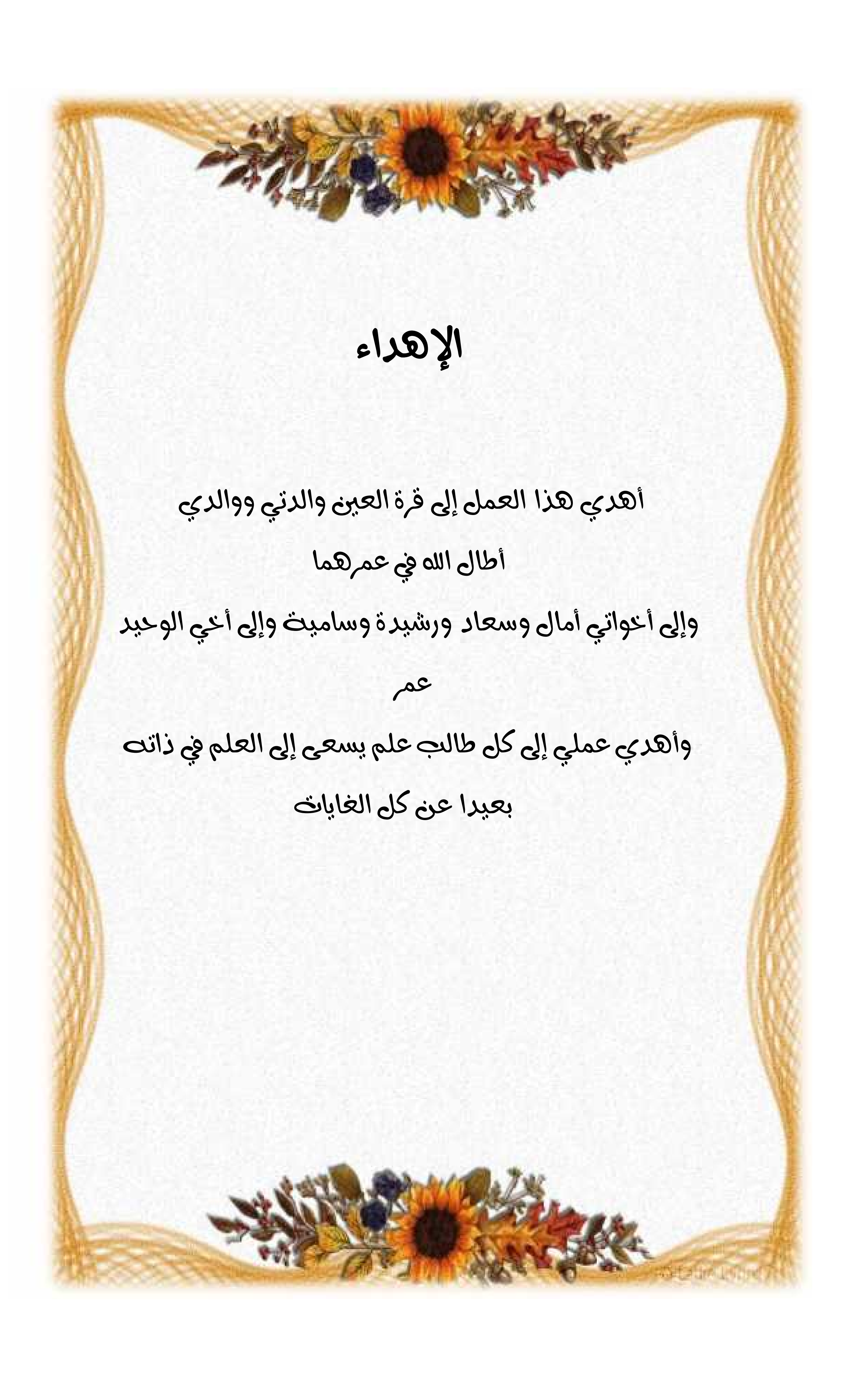
والشكر أيضا للأستاذة الدكتورة طرشون على نصائحها

وأقدم بالغ الشكر لكل من ساعدني من أهلي أوغيرهم ممن أعانوني

وشجعوني ولو بكلمة طيبة

فجزاهم الله خيرا





الإهداء

أهدي هذا العمل إلى قرة العين والدتي ووالدي

أطال الله في عمرهما

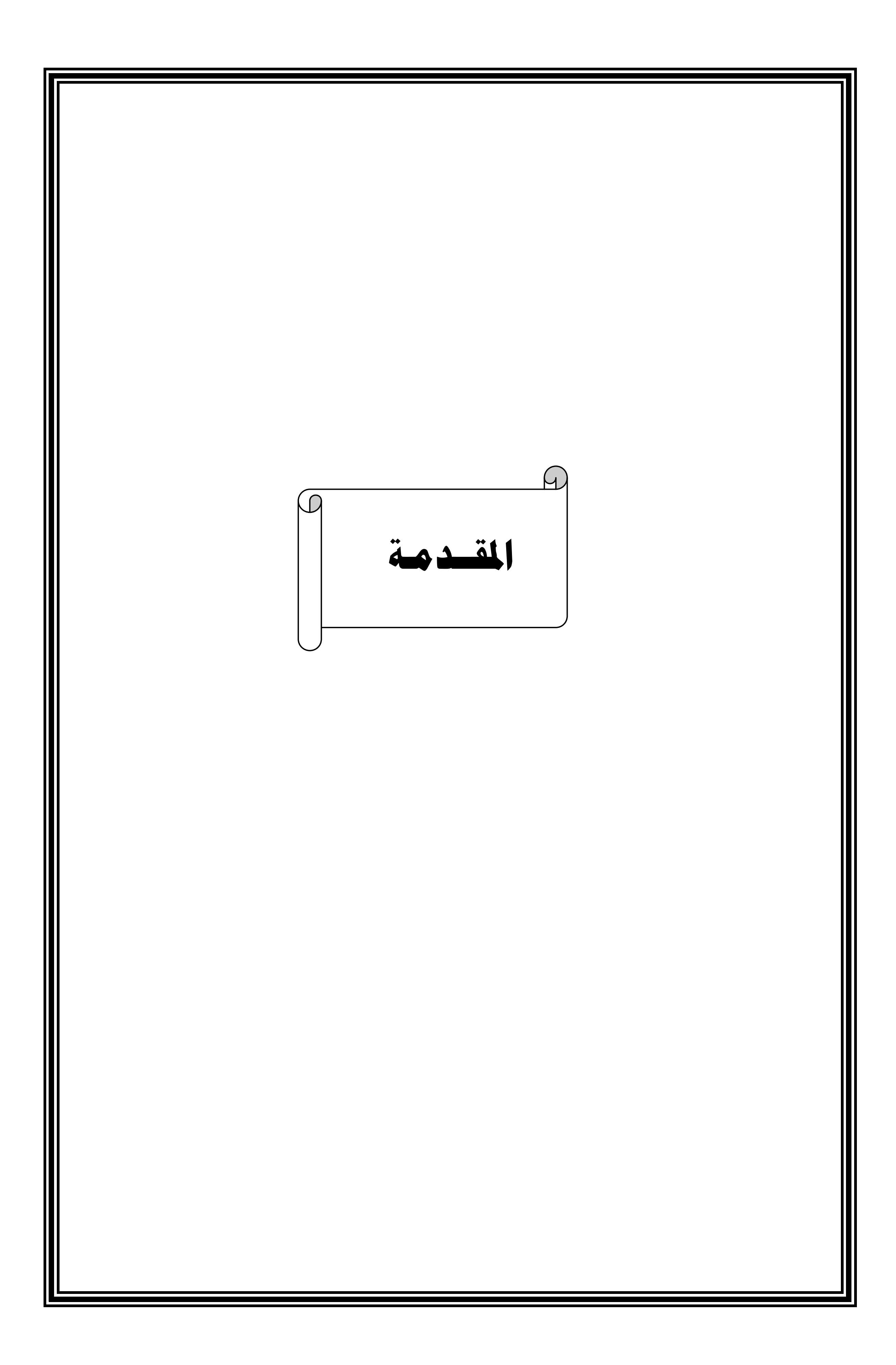
وإلى أخواتي أمال وسعاد ورشيدة وسامية وإلى أخي الوحيد

عمر

وأهدي عملي إلى كل طالب علم يسعى إلى العلم في ذاته

بعيدا عن كل الغايات

قائمة المختصرات	
تر	ترجمة
تح	تحقيق
مج	مجلد
تع	تعليق
ج	الجزء
د.ت	دون تاريخ النشر
دط	دون رقم الطبعة
ط	الطبعة
ص	الصفحة
ص1،3	صفحة 1 و صفحة 3
ص1ـــ 3	من صفحة 1 إلى صفحة 3
د.د	دون دار النشر
دم	دون مكان النشر
تص	تصحيح
ت	توفي
ع	العدد
مر	مراجعة
تق	تقديم
To	Tome
P	Page



المقدمة

مقدمــة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

أما بعد

أهمية الدراسة:

ينصب الإهتمام في التاريخ عادة، على التاريخ السياسي والعسكري، ثم الإقتصادي و الإجتماعي. ولكن قليلة هي الدراسات التي تهتم بالحياة الفكرية ،على الرغم من أنها تؤثر وتتأثر بسيرورة الأحداث السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية . ولعل قلة الدراسات في هذا المجال، تعود لصعوبة تناول الحياة الفكرية، التي ترتبط بمتغيرات متشعبة، تمس كل جوانب الحياة حتى الحياة النفسية للأفراد، الذين عاشوا في تلك الفترة، فأفكارهم المصاغة في أنماط العيش، ومؤسسات العلم والمؤلفات المختلفة. كلها مرتبطة بظروف ومؤثرات داخلية وخارجية لا يمكن تجاهلها، وهي كلها تعبر عن تطورات الفكر في مرحلة ما.

والحياة الفكرية في الدولة العثمانية، تعرضت للكثير من الأحكام المرتبطة بخلفيات ذاتية و إيديولوجية. ولذلك فإن معظم الدراسات التي قدمت حولها تقريبا، أعطت صورة باهتة عن حياة الفكر سواء في الآستانة أو في الولايات التابعة لها ، على الرغم من وجود دراسات حديثة ،قدمت نظرة مغايرة إلا أنها قليلة . فرغم أن الحياة الفكرية في العهد العثماني، عاشت مرحلة من مراحل الضعف، إلا أنها شهدت مراحل للإنتعاش. فلو قورن هذا العهد بما سبقه، لكان عهدا مليئا بالمتغيرات الفكرية ،أما لو قورن بما كان يحصل في أوروبا في نفس الفترة، فتكون حينها المقارنة بين حالتين غير متكافئتين، وبين حضارتين مختلفتين جذريا. تشهد إحداهما ربيع عهدها وهي أوروبا، و حضارة بلغت مرحلة الشيخوخة، لكنها تقف على رصيد حضاري وفكري ثقيل، لا مجال لمقارنته بما كان في أوروبا في نفس الفترة، وهي الحضارة العربية الإسلامية.

ولذلك كانت دراسة الحياة الفكرية، من خلال الرصيد الفكري الذي خلفه ذلك العصر، وبعيدا عن الخلفيات الذاتية أمرا مهما، لتوضيح الصورة بموضوعية أكثر، في سبيل كشف الستار عن جزء هام من تاريخ الحياة الفكرية ظل لفترة طويلة غامضا . ولذلك كان عنوان بحثي هو : " الحياة الفكرية في مصر والشام خلال الفترة العثمانية من الربع الأول من القرن 16م/10هـ إلى منتصف القرن 19م/13هـ " . أما عن أسباب اختياري لهذا الموضوع فهي: الرغبة في دراسة مراحل التطور الفكري في مصر والشام، خلال العهد العثماني دون قطع الصلة بين مرحلة وأخرى . ودراسة مظاهر الحياة الفكرية، و تقديم صورة نقدية وتحليلية لها خاصة مع قلة الدراسات حول الموضوع في المرحلة الأولى من العهد العثماني.

ولما كان من غير المفيد دراسة الحياة الفكرية، في الدولة العثمانية ببعديها المكاني و الزماني، لأن ذلك من شأنه أن يكون استعراضا سطحيا، ارتأيت دراستها في رقعة جغرافية ومدة زمنية محدودة، واخترت مصر والشام لكونهما تمثلان وحدة جغرافية، وشكلتا وحدة سياسية وتاريخية لفترة طويلة من الزمن، إذ شهدتا الوجود المملوكي معا ،وانضوى كل منهما تحت السلطة العثمانية في نفس الفترة ،وطبقت فيهما نفس التنظيمات، وإن كانت هناك بعض الإختلافات . واكتسبتا و هما ولايتين عثمانيتين أهمية كبيرة، ومكانة مميزة مقارنة مع باقي الولايات.

هذا فضلا عن الوحدة الحضارية، لكونهما كانتا وظلتا حتى خلال الفترة العثمانية، مراكزا للإشعاع الفكري والثقافي في العالم الإسلامي، بفضل علاقات العلماء في المنطقتين ببعضهم البعض . فقد كانتا الملجأ الوحيد لعلماء العالم العربي والإسلامي، بعد سقوط بغداد و نيسابور وقرطبة و إشبيلية وغيرها من الحواضر فاستقبلتهم القاهرة والإسكندرية و دمشق، وحمص وحلب وحماة والقدس. إضافة إلى التأثير المتبادل بين مصر والشام حتى أن المظاهر الفكرية بهما تكاد تكون واحدة . وكل هذه دواعي جعلت من دراسة الحياة الفكرية في المنطقتين معا أمرا مهما.

ولما كانت حياة الأفكار تدوم لفترة طويلة، أطول من عمر أصحابها ،وتستمر إلى قرون وقد لا تطرأ عليها تغيرات جذرية إلا تدريجيا . فإننا سندرس الحياة الفكرية في مصر والشام خلال ثلاثة قرون وربع ،من الربع الأول من القرن 16م/10هـ إلى منتصف القرن 19م/13هـ ،أي منذ دخول العثمانيين إلى المنطقة عام 1516م ـ 1517م إلى عام 1841م . ويرجع هذا الإختيار لكون التاريخ الأول يمثل دخول العثمانيين إلى الشام ومصر على التوالي، بينما يمثل التاريخ الثاني معلما هاما يعد نقطة تحول هامة في تاريخ المنطقتين ، حيث بدأ الحكم الوراثي لأسرة محمد علي باشا، على مصر بموجب معاهدة لندن 1841م ،وهو استقلال ذاتي عن الدولة العثمانية . كما يمثل نفس التاريخ انسحاب الحكم المصري عن الشام، والذي دام عشرة سنوات، وعودة السيطرة العثمانية على المنطقة. ويمثل هذا التاريخ بداية تراجع الإصلاحات، التي قدمها محمد علي باشا بمصر و الشام، وبداية مرحلة جديدة في تاريخ المنطقتين .

وقد عرفت مصر والشام خلال هذه الفترة نفس المميزات الفكرية بالتقريب، دون تجاهل التغيرات التي حصلت بمصر، في النصف الأول من القرن 19م، والتي انتقل جزء منها إلى بلاد الشام . فمع أنه يمكن

للمؤثرات الداخلية والخارجية، أن تقلب الأوضاع الفكرية، إلا أن ذلك يستغرق على الأقل نصف قرن، أو قرنا كاملا كي تظهر معالمها السطحية، وقد تستغرق أكثر من ذلك، كي تختمر في العقول و الذهنيات . و لذلك لو أردنا الوقوف على معالم الحياة الفكرية في المنطقة كان لابد من دراستها في فترة طويلة.

وفضلا عن ذلك فإن معظم المؤرخين، اهتموا بدراسة الحياة الفكرية خلال القرن 19م، وأسهبوا في الحديث عن الإنجازات، التي حصلت فيما أسموه بالنهضة المتأثرة بالمؤثرات الغربية، بينما أهملت الفترة التي تسبقها، منذ بداية العهد العثماني في القرن 16م إلى نهاية القرن 18م . واعتبرها الكثيرون فترة جمود و تخلف، و يجمع أغلب المؤرخين على اعتبار الحملة الفرنسية على مصر والشام، في نهاية القرن 18م ومطلع القرن 19م، نهاية لتلك المرحلة وبداية لأخرى مغايرة لها تماما . على أساس أنها شهدت بوادر لنهضة فكرية، معتبرين أن الإنتعاش الفكري مرتبط ارتباطا وثيقا بالإحتكاك بالفكر الغربي .

ومع ذلك لا يمكن على الإطلاق، إهمال الفترة السابقة منذ القرن16م/10هـ إلى نهاية القرن 18م/12هـ ، فرغم غلق باب الاجتهاد وسيادة التقليد والمحافظة، إلا أنه كانت هناك بوادر ازدهار فكري لدى العلماء، سواء من حيث حركة التعليم التي لم تنقطع، أو الاتصالات الثقافية والفكرية، التي ازدادت خلال العهد العثماني بين علماء مصر والشام و اسطنبول، وباقي أقطار العالم الإسلامي. وبالنظر كذلك إلى حجم المؤلفات التي كتبت في هذه الفترة في مختلف العلوم ،والتي لا يمكن التقليل من شأنها حتى وإن كانت شروحا وحواشي ، فإنها قدمت معرفة إضافية على الأقل .

ولذلك كانت دراسة الحياة الفكرية في هاتين المرحلتين من القرن16م إلى منتصف القرن 19م ، ستمكننا من تتبع التحولات الفكرية التي عرفتها المنطقة، وتقييم كل مرحلة وتبيان الاتصال غير المنقطع بين المرحلتين. فقد حملت الحياة الفكرية العديد من السمات السابقة، حتى منتصف القرن 19م . ولم تحصل قطيعة فجائية بين المرحلتين.كما أن العلماء الذين نشأوا في المرحلة الأولى من العهد العثماني، ساهموا في صناعة بعض التحولات، التي شهدتها المنطقة على الصعيد الفكري خلال النصف الأول من القرن 19م، ولذلك لا يجوز دراسة مرحلة ما، على أنها منفصلة عن المرحلة التي تسبقها لأنها مرتبطة مع بعضها البعض . و قد تعمدت دراسة المعالم الفكرية عامة، خلال المرحلتين دون الفصل بينهما وتتبعت تطوراتها إلى النصف الأول من القرن 19م.

الإشكالية:

سنحاول في هذه الدراسة الوقوف على معالم ومظاهر الحياة الفكرية في مصر والشام خلال العهد العثماني، وتبيان مدى تأثير البنى الداخلية للمجتمع في بنائه الفكري ، و معرفة إلى أي حد استجابت المنطقة للمؤثرات التي اجتاحتها من الغرب . و مستوى التحولات التي عرفتها الحياة الفكرية في مختلف مجالاتها كمؤسسات التعليم وأنظمته، و التواصل الفكري، وحركة التأليف خلال الفترة المدروسة وقيمتها، والمقارنة بين المظاهر الفكرية خلال المرحلتين المدروستين .

منهج الدراسة:

لقد اعتمدت للإجابة عن هذه الإشكاليات، على المنهج التاريخي الإستقرائي التحليلي، وذلك لما تتطلبه هذه الدراسة، من تقصي للمعلومات المتناثرة بين مختلف المصادر، التي تحدثت عن مجالات سياسية وإقتصادية وإجتماعية، وذكرت بين ثناياها إشارات حول الحياة الفكرية مثل كتب الرحلات. وحتى ضمن كتب التراجم، يتطلب الأمر استقراء ثم تحليلا للأفكار الواردة فيها، بغرض الوصول إلى معالم الحياة الفكرية .

خطة الدراسة:

مقدمة : قدمت فيها للموضوع وأهميته التاريخية، و إطاره الزماني والمكاني، وطرحت فيها إشكاليات الدراسة، و المنهج المعتمد فيها ومصادرها و صعوباتها.

مدخل : عرضت فيه الأوضاع السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية للدولة العثمانية، ولمصر والشام خلال الفترة المدروسة .

الفصل الأول : تعرضت فيه للعوامل المؤثرة على الحياة الفكرية بمصر والشام، وهي في مجملها عوامل داخلية مثل تأثير الطرق الصوفية في المجتمع، ودور طبقة العلماء في التطور الفكري، من خلال وظائفها وأدوارها. و تأثير مؤسسة الوقف التي كانت عصب الحياة العلمية، إضافة إلى دور الأمراء والولاة في دعم العلماء وطلبة العلم. وعوامل خارجية نعني بها المؤثرات الغربية، التي تسربت إلى المنطقة عبر الجاليات الأجنبية والرحالة الأوروبيون إلى المنطقة. والإرساليات التبشيرية والحملة الفرنسية، والمؤطرين الذين استقدمهم السلاطين والأمراء للإستفادة من خبراتهم. خاصة مع ازدهار حركة الطباعة والترجمة فضلا عن دور الرحالة العرب إلى أوروبا، سواء منفردين أو في إطار البعثات العلمية، والتي ساهمت في نقل الأفكار الغربية إلى المجتمع العربي.

الفصل الثاني : تناولت فيه بشيء من التفصيل ، مظاهر التواصل الفكري بين مصر والشام والعالم الإسلامي ، عرضت فيه لملامح التأثر والتأثير بين المنطقتين ببعضهما البعض ، وعلاقتهما بالآستانة عاصمة الدولة العثمانية ، ودور الحج في تمتين الروابط الفكرية بين الحجاز ومصر والشام ، ومختلف بقاع العالم الإسلامي ، لكونها كانت ملتقى ديني وفكري يتكرر كل سنة . وتطرقت أيضا إلى بلاد المغرب وبعض الأقطار الإسلامية الأخرى كالفرس والأكراد واليمن والهند . وصورت ذلك التواصل الفكري ، من خلال الحركة التعليمية ، وانتقال الطلبة والعلماء ، وتبادل الأفكار و الكتب ، والمجالس العلمية التي كانت مظهرا رائعا للتواصل بين علماء العالم الإسلامي خلال الفترة العثمانية.

الفصل الثالث : خصصت هذا الفصل لدراسة مظهر من أهم مظاهر الحياة الفكرية ، في أي مرحلة من التاريخ ، والذي على أساسه يمكن الحكم عليها بالتطور أو بالتخلف ، فقد عرضت فيه بالتفصيل للمؤسسات التعليمية ، في المنطقة خلال الفترة المدروسة سواء التقليدية ، مثل الكتاتيب والجوامع ومدارس المذاهب الأربعة ومدارس الطرق الصوفية . وكذلك المؤسسات الحديثة ، ونخص بالذكر مدارس محمد علي بمصر والشام . ومراكز التعليم الحرة ومدارس الطوائف الدينية والإرساليات . وتطرقت أيضا إلى تنظيم المؤسسات التعليمية عامة كهيئة التدريس والطلبة ، وإدارة المؤسسات ومناهج التعليم وطرائقه ، والعلوم المدرسة. وأخيرا تناولت الحديث عن المكتبات ، التي كانت إحدى النوادي العلمية في ذلك العصر.

الفصل الرابع : عرضت فيه نماذج من الإنتاج الفكري لتلك الفترة ، في مختلف المجالات كالدراسات الدينية والأدبية و الإجتماعية والعلمية .

خاتمة : تطرقت فيها لمجمل الإستنتاجات التي توصلت إليها في هذه الدراسة.

وتضمنت هذه الدراسة سبعة ملاحق .

مصادر الدراسة:

لقد اعتمدت في هذه الدراسة بالخصوص ، على كتب التراجم التي أرخت لسير علماء العصر العثماني ، خاصة بمصر والشام وأهمها مؤلفات نجم الدين الغزي مثل كتاب "الكواكب السائرة " في ثلاث مجلدات ، أرخ فيها لتراجم علماء القرن 16م/10هـ ، وذيّله بكتاب "لطف السمر" في جزئين ترجم فيه لأعيان الربع الأول من القرن 17م/11هـ . وكتاب المحبي" خلاصة الأثر " ، الذي جاء في أربعة أجزاء ترجم فيها

لعلماء و أعيان وأمراء القرن 17م ،في مختلف أقطار العالم الإسلامي . وهو بمثابة الموسوعة بما احتوى عليه من معلومات في مختلف المجالات خاصة الفكرية . أما خلال القرن 18م/12هـ فاعتمدت على كتاب التراجم "سلك الدرر " للمرادي ، وكتاب عبد الرحمن الجبرتي "عجائب الآثار في التراجم والأخبار"، وهو كتاب قيم جمع فيه صاحبه حوليات وتراجم ،و أرخ فيه للأحداث المهمة في عصره ،بشكل دقيق وشمل الفترة بين القرن 18م ومطلع القرن 19م ،وعاصر مؤلفه فترة الحملة على مصر وإصلاحات محمد علي باشا ،و كان في حد ذاته نموذجا عن مفكري عصره، الفاعلين والمؤثرين في الحياة الفكرية بمصر. كما اعتمدت على تراجم أخرى لا تقل أهمية مثل، " ريحانة الألبا " للخفاجي المصري و تراجم ابن شاشو الشامي.

ومن المصادر الهامة التي اعتمدت عليها كتب الرحلات،مثل رحلات عبد الغني النابلسي في مصر والشام والحجاز،وهي" الحقيقة والمجاز " و" الرحلة الطرابلسية "،والتي صورت مظاهر الحياة الفكرية خلال القرن 17م، ومظاهر التواصل الفكري بين علماء العصر. فضلا عن رحلات العرب إلى الغرب مثل رحلة رفاعة الطهطاوي "تخليص الإبريز في تلخيص باريس ". كما اعتمدت على كتب التاريخ العام و المؤلفات التي أرخت للحياة الفكرية، والتعليم والحياة الثقافية و الإجتماعية،بمصر والشام والدولة العثمانية . خاصة المؤلفات التي اعتمدت على سجلات المحاكم الشرعية والأرشيف العثماني. إضافة إلى المجلات المتخصصة مثل " مجلة دراسات تاريخية "، و " المجلة التاريخية المغربية " و" المجلة التاريخية المصرية " .

صعوبات الدراسة:

وعلى العموم لا يخلو أي عمل مهما كان من الصعوبات،ولا شك في أن ذلك هو أساس البحث العلمي الجاد،ولذلك تأتي في مقدمة الصعوبات قلة الدراسات حول الحياة الفكرية ،سواء في مصر أو في الشام خلال القرون الأولى من الفترة العثمانية بين القرنين 16م و18م. وحتى الدراسات التي وجدت لم تكن تقدم معلومات كافية وشاملة لكل النواحي الفكرية، واقتصرت على دراسة سطحية فحسب وركز بعضها على قرن واحد خاصة في مصر، حيث كانت أغلب الدراسات حول القرن 18م أو19م ،والأمر الغالب عليها أنها قدمت نفس النظرة للحياة الفكرية إلا البعض.

والأمر الثاني الذي نعتبره من الصعوبات، هو صعوبة الوصول إلى الأرشيف العثماني، الذي هو مصدر هام لكنه باللغة العثمانية ،وكذلك سجلات المحاكم الشرعية بمصر والشام ، ولكن حاولت تعويضها

بالإعتماد على الدراسات، التي استفادت من الأرشيف والسجلات، وأرخت للحياة الفكرية في تلك الفترة. إضافة إلى صعوبة الحصول على بعض الدراسات الحديثة حول الحياة الفكرية، لعدم توفرها في مكتباتنا و تعذر الإستفادة منها عن طريق المكتبات الإلكترونية .

ورغم ذلك قدر الله سبحانه وتعالى ، أن يتم هذا العمل المتواضع ،الذي أتمنى أن يكون قد أجلى قليلا من الغموض حول الحياة الفكرية، بمصر والشام خلال العهد العثماني.

مدخل:

الأوضاع السياسية و الإجتماعية و الإقتصادية

1 ـ في الدولة العثمانية .

2 ـ في مصر والشام .

مدخل: الأوضاع السياسية و الإجتماعية و الإقتصادية

1ـ في الدولة العثمانية

لقد بدأت في الواقع بوادر الضعف والتراجع في الدولة العثمانية، منذ منتصف القرن 16م، فقد نبهت الأفكار الأولى لدى رجال السلطة بتدهور مؤسسات الدولة، حيث قدم في أواسط القرن 16م لطفي باشا أحد وزراء سليمان القانوني، رسالة بعنوان" آصاف نامه"، جمع فيها الأفكار الأولى حول الإنحطاط. [1] فمنذ ذلك الوقت انتقصت قوة السلطان وصلاحياته، وغابت صورة السلطان مطلق التصرف، ومع مطلع القرن 17م ظهر أنه غدا يتعرض لمؤامرة صريحة، من فئات تنازعه السلطة، وظهر أن السلطة العثمانية أصبحت تتجاذبها ثلاثة أطراف، وهي السلطان، الإنكشارية ورجال الدين. [2]

وبالرغم من أن سلاطين المرحلة الثانية في القرن 17م وما بعده، لم يكن لهم من الأمر شيء في كثير من الأحيان، فقد بقوا حكاما مطلقي السلطان إلى حد ما، لكونهم لم يتعرضوا إلى منافسة قوية تهددهم، ولكن في الوقت نفسه كانت أحكام الشرع تعرضهم للعزل عمليا، ولا أدلّ على ذلك من أن ستة سلاطين تخلوا عن العرش أو خلعوا وأنّ اثنين منهم قتلا.* و لذلك يمكن القول أن الدولة العثمانية، دخلت منذ القرن 17م دور تعاقب فيه سلاطين ضعفاء. [3]

فقد ضعف اهتمام السلاطين بشؤون الدولة باستثناء البعض**، كما كان لنساء القصر التأثير الكبير على سياسة السلطان في القرن 17م خاصة، إذ تحكموا في شؤون الحكم في كثير من الأوقات، أمام ضعف شخصية السلطان، الذي كان في هذه الفترة إما صغير السن مثل أحمد الأول وعثمان الثاني، الذي حكم في سن 14 سنة، ومحمد الرابع في سن 7 سنوات، ومنهم من كان معتوها مثل مصطفى الأول. [4]

---

(1) خالد زيادة ، اكتشاف التقدم الأوروبي، دراسة في المؤثرات الأوروبية على العثمانيين في القرن 18م، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، يونيو، 1981م، ص19.

(2) نفسه، ص 115، 116.

* هما السلطان، عثمان الثاني 1623م وسليم الثالث عام 1808م.

(3) هاملتون جب، هارولد بوون، المجتمع الإسلامي والغرب، تر. أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د.ط)، ج1، 1971م، ص 56. أنظر أيضا:

J. Hammer, Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine jusqu' à nos jours ,Trad.J.J .Hellert , Bellizard , Paris ,France,1856 ,To.7, pp.2-8

** مثل محمد الثالث (1595ـ 1603م) وعثمان الثاني (1523-1617م)، ومحمد الرابع(1648ـ 1687م) الذين كانوا ما يزالون يقودون الجيوش في المعارك على عادة أسلافهم.

(4) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط2، 2008م، ص248.

وقد صور قوجي بيك* في رسالته إلى السلطان مراد الرابع (1623ـ 1640م / 1032 هـ ـ 1049 هـ) والتي قدمها له عام 1630م/ 1039 هـ)، فساد مؤسسات الدولة، نتيجة ازدياد نفوذ المحظيين، وتدخلهم في شؤون الحكم، والوشايات على الوزراء، مما انجر عنه قتل الكثيرين دون ذنب. الأمر الذي حذا بالوزراء إلى الصمت على المظالم خوفا وطمعا، وساهم ذلك في استمرار تدهور أنظمة الدولة كالتيمار** و الزعامت*** ولحق بالإقطاعات العسكرية الخراب، وكذلك رجال الدين والجهاز التعليمي والإنكشارية.(1)

وقد توالت الرسائل التي تصف مظاهر الإنحطاط في الدولة، فيرجع قوجي بيك رسالة أخرى إلى السلطان إبراهيم (1615م ـ ت 1648م/ 1023 هـ ـ 1057 هـ). ورفع كاتب جلبي (حاجي خليفة (1608م ـ1657م/ 1021 هـ ـ 1070 هـ) ، رسالة مماثلة إلى السلطان محمد الرابع (1648 ـ1057 هـ/ 1687م ـ1198 هـ) عام 1653م/ 1063هـ بعنوان "دستور العمل لإصلاح الخلل"، وقد كتبها عقب دعوة السلطان معاونيه للبحث عن أسباب الخلل المالي في الدولة، وأكد شخص آخر على نفس المسائل السابقة وهو حسين هزارفن (1601م ـ 1679م / 1009 هـ ـ 1089 هـ)، في كتابه " تلخيص البيان في قوانين آل عثمان "عام 1669م/ 1079هـ ، وكان في نقده للأوضاع أكثر جرأة من سابقيه.(2)

واستمر الأمر خلال القرن 18م و/ 12 هـ، حيث كتب عدد آخر من رجال الدولة رسائلهم. ووجهوها إلى السلاطين، ناقشوا فيها مظاهر الضعف، ولكن في الوقت الذي نادت فيه لوائح القرن 17م/ 11 هـ بأفكار نظرية حول الإصلاح، كانت تصبّ كلها في العودة إلى النظم القديمة للدولة دون التخلي عنها، فإن لوائح القرن 18م نادت بالأخذ بنظم الغرب، والتخلي عن الأنظمة البالية.(3) وحتى الأوضاع الإقتصادية لم تكن في حال أحسن ،فقد عانت الدولة أزمة نقدية.(4) بدأت مع مطلع القرن17م/11هـ، وأثرت سلبا على

---

*قوجي بك أو قوجا مصطفى من لأهل مقدونيا أو ألبانيا، جاء إلى إسطنبول ونشأ في السراي السلطانية وأصبح عضوا في إدارة السلطان. أنظر: خالد زيادة، المرجع السابق، ص19.

** التيمار: أصله فارسي معناه كل ما يعطى للمريض أو الحيوان من مؤونة، وأطلق في العهد العثماني على الإقطاع الحربي الذي كانت تمنحه الدولة لأحد الرعايا من ضباط وجنود السباهية، على شكل مرتبات مقابل خدمتهم في الجيش، وهو نوعان يكون بتذكرة ببراءة من السلطان لا يقل مردوده السنوي عن 6 آلاف أقجة، و تيمار بدون تذكرة يقل مردوده عن 6 آلاف أقجة وكان من وظيفة صاحب التيمار إعداد الفرسان وقد ألغي تماما في عهد محمود الثاني 1247 هـ/ 1831 م . أنظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب،معجم المصطلحات و الألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1996م، "ت"، ص 113.

*** **الز**عامت: هو نظام إقطاعي كان السلطان يمنح بمقتضاه مناطق معنية الفرسان (السباهية) للمحافظة عليها وتجهيز الجنود وألغي في عهد محمد الرابع 1049 هـ/ 1639م. نفس المرجع، "ز"، ص 222.

(1) أنظر حول مظاهر الضعف: جب و بوون، المرجع السابق، ج1، ص 252 ـ 263، 269.

(2) حيث كتب ساري محمد باشا عام 1703م/ 1114 هـ بعنوان" نصائح الوزراء والأمراء" وكتب إبراهيم متفرقة كتابا عام 1731م/ 1143 هـ بعنوان" أصول الحكم في نظام الأمم" وقد نادوا بالإصلاح و الإقتباس من الغرب. =

الولايات التابعة لها ، خاصة وأن السلطة العثمانية حاولت أن تعوض النقص في قيمة العملة الفضية، بزيادة الضرائب في الولايات.[1] وفي الوقت الذي كان فيه التدهور يتسلل إلى أجهزة الدولة العثمانية ،أدى اكتشاف الطرق التجارية الجديدة، إلى حرمانها قسطا كبيرا من تجارتها الخارجية.[2]

أما على الصعيد الخارجي سياسيا، فقد فشلت الدولة في التقدم في أوروبا، بعد عجزها عن اختراق فيينا مرتين، ثم اصطدامها بالقوة الروسية، التي شكلت حاجزا في وجه محاولات الوصول إلى أواسط آسيا والهند . فقد عملت في الواقع الدول الأوروبية في هذه الفترة على إضعاف الدولة ،ومضاعفة عوامل انحطاطها الداخلية بإثارة النعرات القومية والدينية ،ودعم حركات الإنفصال، وخسر نتيجة لذلك العثمانيون ما بقي لهم من مقاطعات في أوروبا.[3] وجاءت هزيمة كارلوفيتس عام 1699م ،لتترك آثارها السلبية على الدولة العثمانية ،والمناطق التابعة لها وتصل بها إلى قمة الإنحطاط، واكتمل وعي رجال الدولة بذلك. لكنها فتحت في الآن ذاته، المجال أمام تعديلات كبيرة في السياسة العثمانية.[4]

فسيظهر مجموعة من السلاطين المصلحين، الذين دخلت الدولة معهم عصرا جديدا هو عصر الإصلاح فقد قاد العديد من السلاطين العثمانيين المنفتحين، حركات إصلاحية للنهوض بالأوضاع في الدولة العثمانية، وإخراجها من الانحطاط والضعف الذي كانت فيه. وقد شغلت فكرة الإصلاح أذهان المفكرين ورجال السياسة، وحتى السلاطين منذ القرن 17م في عهد السلطان عثمان ومراد الرابع، وكانت تنبع في هذه الفترة من واقع حركة التاريخ العثماني، وفي إطار الثقافة الإسلامية، ولكن منذ بداية القرن 18م، أخذت وجهة الإصلاح تتجه نحو الاقتباس من الغرب الأوروبي.[5] فقد ظهر منذ القرن 18م وحتى أوائل القرن 19م جملة من السلاطين، والصدور العظام المثقفين ساهموا في تغيير معالم الحياة في الدولة وولاياتها، على

= (3) نفسه، ص 39.

(4) حصلت هذه الأزمة على إثر اكتشاف مناجم الفضة في البيرو، فلم تقوى الدولة على شرائها ،فعملت على بيع احتياطها من الذهب حتى كاد ينفد.

(1) جب وبوون، المرجع السابق، ج1، ص244 ـ251. أنظر حول التاريخ المالي والأزمات التي واجهت الدولة العثمانية: شوكت باموك ، التاريخ المالي للدولة العثمانية ،تر.عبد اللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي ،بيروت ،لبنان، ط1، ج1، 2005م، ص50 ـ53.

(2) خليل إينالجيك، التاريخ الإقتصادي والإجتماعي للدولة العثمانية، تر. عبد اللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، ج1، 2007م، ص363 ـ367.

(3) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص250.

(4) لقد وصف الرحالة الإيطالي (رجل الدين) تودريني، الذي دخل اسطنبول في عهد السلطان أحمد الثالث ووصف حال العلوم في الدولة العثمانية ،بأنها كانت زاخرة بالعلماء والشعراء ،المكتبات المتعددة التي تحوي كتبا فارسية وعربية .كما وصف المدارس والمطبعة .أنظر كتابه :
L'Abbé Toderini, De la Littérature des Turcs ,Trad. L'Abbé de Gournand, royal libraire, Paris, France, To .1, 3 ,1989 .

(5) المرجع السابق، ص 258.

مختلف الأصعدة خاصة الفكرية. وكانت أول محاولة في عهد السلطان أحمد الثالث (1717 م ـ ت 1730 م /1129 هـ ـ ت 1142 هـ)، والذي حكم بين (1703م ـ1730م/1114 هـ ـ 1142هـ) وقد كان شاعراً وخطاطا وأديبا ومن رعاة الأدب والعلم،ومؤمنا بالتطور الثقافي،وعرفت فترة حكمه بعهد "التوليب"* حيث سعى إلى تطوير الدولة بمساعدة الصدر الأعظم إبراهيم باشا،ومجموعة من المثقفين العثمانيين بالاقتباس من الغرب، فشجع العلماء على إتباع خطوات علماء الغرب، وكلف لجنة مكونة من 25 عضواً بترجمة مؤلفات عربية ويونانية إلى التركية. وأرسل بعثات خاصة إلى أوروبا، وقد نبغ في عهده عدد من الكتاب والشعراء، والأطباء والفلكيين والرياضيين.(1) ومن أهم انجازاته إدخاله المطبعة.(2) التي كان لها دور كبير في الحياة الفكرية بالدولة العثمانية وولاياتها.

وقد استمرت محاولات الإصلاح، والتحديث طيلة عهود خمسة سلاطين بين 1703 م /1114 هـ و 1789م/1202 هـ)، واهتمت بالإصلاح العسكري بالدرجة الأولى، ولكن نتج عنها تحديث في المعاهد والمدارس وإدخال علوم جديدة. ففي عهد السلطان محمود الأول** (1142 هـ ـ1167هـ/1730 م ـ1753م) حصلت تطورات كانت الأولى من نوعها، من خلال مشروع الإصلاح الذي تولى إدارته الفرنسي دي بونفال Le pacha Bonneval*** (1675م ـ1747م/1088هـ ـ1159هـ)، الذي سعى لإنشاء مدرسة الهندسة وأقام جسما جديدا للمدفعية، وأدخل قسما خاصاً بالطب في الجيش، ودرب رجال الدولة إيجابيات التكتيك الحديث والدبلوماسية الأوروبية، فكانت تلك الخطوة الأولى لتحديث المؤسسات.(3) كما قام هذا السلطان بإنشاء أربع كتبخانات ألحقها بجوامع آيا صوفيا، ومحمد الفاتح وغلطة سراي.(4)

---

* عهد التوليب هو فترة حكم أحمد الثالث (1703 ـ 1730م) سمي كذلك لاشتهار زهرة التوليب (الزنبق) في الدولة العثمانية التي أحضرت من أوروبا وكان عهده مرحلة من مراحل الانفتاح على الغرب.

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تر.صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية اسطنبول، تركيا، (د.ط)، ج2، 1999م ، ص 367.

(2) Toderini, op.cit,To. 3 ،PP .7-9.

** السلطان محمود الأول ولد 1108 هـ/1696م هو ابن مصطفى الثاني.

أنظر : فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح. إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط1، 1981م، 321 ـ 326، عزتلو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، تق.محمد زينهم، محمد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط1، 1995م ، ص 116 ـ 119.

*** الكسندر دي بونفال ولد عام 1675م فرنسي اشتهر بخدمته في الجيش الفرنسي ، وعمل بعد ذلك تحت العلم النمساوي وحصل على مكانة وسمعة عسكرية هامة، ثم انضم إلى الأتراك حيث لقب بـ "الباشا" وعمل في الحكومة واعتنق الإسلام وتلقب باسم "أحمد" . أنظر :

Albert Vandal, Le pacha Bonneval, Cercle Saint – Simon, Paris, France, 1885, P . 1, 4, 34, 36. Ibid, pp.38-40

(3) خالد زيادة، المرجع السابق، ص 46.

(4) فريد بك المحامي، المصدر السابق، ص 326.

وفي عهد السلطان مصطفى الثالث* ،الذي حكم بين(1171هـ ـ1187هـ/1757م ـ 1774م)، ظهرت إصلاحات أخرى، فقد كان مثقفا ومحبا للعلوم خاصة الرياضية والنجومية، وكان يكرم العلماء وذكر الجبرتي أنه كان يكرم علماء مصر ،مثل والده حسن الجبرتي والشيخ الدمنهوري، يراسلهم ويهديهم، إذ بعث إلى حسن الجبرتي ثلاثة كتب نفيسة من خزانته الخاصة،وهي كتاب القهستاني الكبير وفتاوى أنقروي ونور العين في إصلاح جامع الفصولين في الفقه الحنفي.[1]

كما أنه شجع على ترجمة العديد من المؤلفات، في علم الحساب والتنجيم والمنطق، واهتم بتاريخ الدولة العثمانية.[2] فكان بطبعه ميالا للإصلاح ومحبا للتقدم، وساعده وزيره راغب باشا** في ذلك، و اشتهرت في عهده شخصية الفرنسي المستشار العسكري، البارون دوتوت Le Baron de Tott***، الذي ساهم في دفع حركة الإصلاحات العسكرية، واستمر إلى عام 1776م/1189 هـ، ثم عاد إلى فرنسا ومن أبرز أعماله في المجال الفكري إعادته للمطبعة، وتشجيعه ترجمة الكتب الفرنسية العسكرية والتقنية، كما أنشأ مدرسة للرياضيات الحديثة.[3]

ثم شهد عهد السلطان عبد الحميد الأول (1774م ـ1789م/1189 هـ 1203هـ).[4] إصلاحات في المؤسسات العسكرية والعلمية، خاصة خلال عهد الصدر الأعظم خليل حميد باشا(1782م ـ1785م/1196ـ 1199هـ)، بدعم من السفير الفرنسي شوازال غوفييه Choiseul Gouffie ، حيث استقدم المدربين والمهندسين

* السلطان مصطفى الثالث بن أحمد الثالث ولد 1129 هـ/1716م وتوفي 1187 هـ/1774 م كان ميالا للإصلاح وعادلا له مآثر عديدة كبنائه للمدارس والتكايا، وحصلت في عهده عدة تمردات في الولايات كمصر والشام، مثل علي بك الكبير وظاهر العمر ومحمد أبي الذهب. ، فريد بك المحامي، المصدر السابق، ص 329 ـ 340.

(1) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الفارس، مصر،(د.ط)، ج1، (د.ت.ط)، ص 437، 438.

(2) عبد الجليل التميمي،" تاريخ العلاقات الثقافية بين استنبول والمغرب الأقصى خلال العصر الحديث "،المجلة التاريخية المغربية ،ع. 21ـ24، السنة الثامنة، تونس، نوفمبر 1981م، ص 102.

** هو الصدر الأعظم محمد باشا المعروف براغب، هو من العلماء والحكماء، له مؤلفات في المنقول والمعقول والفروع والأصول، حصر إلى مصر واليا عام 1159 هـ/1746م ولما رجع إلى اسطنبول تولى الصدارة (ت 1176 هـ/1763م) . المصدر السابق، ص 325.

*** دوتوت : هو مجري الأصل ولد بفرنسا عمل ضابطا في الجيش الفرنسي، وعين في سفارة فرنسا بالآستانة عام 1755م تعلم التركية وعمل ما يقارب 10 سنوات، مبعوثا للسفارة الفرنسية ومفتشا للمؤسسات التجارية الفرنسية في المشرق، عينه السلطان مصطفى مستشاراً للإصلاحات العسكرية ثم عاد إلى فرنسا عام 1776م، ودخل في خدمة الملكية إلى نهاية الثورة الفرنسية حيث أنهت خدماته عام 1790م فهاجر إلى المجر وبقي إلى وفاته عام 1793 م أنظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى، أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط2، 1993م، ص 172.

(3) نفس المرجع . أنظر: فريد بك المحامي، المصدر السابق، ص 336 ـ337 . ومحمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 259.

(4) السلطان عبد الحميد الأول: ولد عام 1137 هـ/1724م توفي عام 1203هـ/1789م هو ابن أحمد الثالث . أنظر: فريد بك المحامي، نفسه، ص341 ـ 362.

ونوقشت حتى فكرة إرسال طلبة إلى باريس لكنها لم تتم.[1] لقد سمحت هذه المحاولات الإصلاحية التي قام بها السلاطين العثمانيون، بتكوين جيل منفتح من المتنورين، هيأ الجو لنمو فكر إصلاحي أكثر تقدما لا يتجاهل ضعف الدولة ولا قوة أوروبا. وكانت له اليد الطولى في تبديل النظرة التقليدية إلى الآخر، وازدياد الرغبة في الاقتباس من نظمه وعلومه. وهنا تظهر تجربة السلطان سليم الثالث (1807م ـ 1789م/1220 ـ 1202 هـ)* الإصلاحية المتكاملة، التي أدخلت الدولة العثمانية، عصراً جديداً تبدلت فيه الذهنيات .[2]

فقد سعى إلى إقامة مشروع إصلاحي، شامل ومتكامل لمؤسسات الدولة، بالاعتماد على خبراء فرنسيين وغيرهم. فرغم الظروف السيئة التي عاشتها الدولة في عهده، إلا أنها كانت تعج بالفرنسيين خلال فترة الثورة الفرنسية، الشيء الذي ساهم في انتشار الأفكار الجديدة.[3]و شملت إصلاحاته المجال العسكري حيث أعلن عن النظام الجديد** ، كما شملت المجال العلمي، فقد أنشأ مدارس ومعاهد تعليمية عديدة في أنحاء الإمبراطورية، وشجع تدريس اللغات خاصة الفرنسية إلى جانب التركية والعربية، كما أعاد عمل المطبعة وأسس مطبعة بمدرسة الهندسة، طبعت أكثر من 50 كتابا من بينها كتب باللغة الفرنسية. واعتمد السفارات الدائمة في أوروبا، وأجبر السفراء على تعلم اللغات، و دراسة نظم تلك الدول وشجع الترجمة.[4]

وما إن اعتلى السلطان محمود الثاني العرش، بين (1808م ـ 1839م/1222 هـ ـ 1252هـ)، حتى قدم تجربة إصلاحية أكثر نجاحاً، اقتداء بتابعه محمد علي باشا بمصر، وجعل ضمن أولوياته الشمولية، ووجوب تدمير النظم القديمة حتى لا تعترض مسار الإصلاح، وبذلك فتحت إصلاحاته القرن 19م بنمط إصلاحي جديد وأكثر فعالية، رغم الظروف التي جاءت فيها.[5] ومن أهم إصلاحاته أنه أعاد النظام الجديد، وأباد الانكشارية في الواقعة الخيرية عام 1826م الموافق 1239هـ*** وحل الطريقة البكتاشية، وقضى على مفاسد نظام الوقف وألغى التيمار. كما شملت إصلاحاته المجال التعليمي حيث أنشأ المدارس العسكرية والمدنية،

---

(1) خالد زيادة، المرجع السابق، ص 49.

* السلطان سليم الثالث بن مصطفى الثالث عاش بين (1175 هـ/1762م ـ 1223هـ/1789م)، كان محبا للإصلاح وحاول إصلاح الجيش ولكنه عزل بعد ثورة العلماء ضد إصلاحاته. فريد بك المحامي، المصدر السابق، ص 370 ـ393.

(2) المرجع السابق، ص 117.

(3) أنظر حول الظروف التي عاشتها الدولة خلال عهده : أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص 173 ـ 175.

** النظام الجديد: هو تنظيمات لإصلاح المجال العسكري والمالي، حيث أنشأ جيش منظم على الطراز الأوروبي، تحت تدريب خبراء أوروبين. نفس المرجع ، ص 175 ـ 178.

(4) نفس المرجع، سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 260، 261، فريد بك المحامي، المصدر السابق، ص 370، 371.

(5) أحمد عبد الرحيم مصطفى، نفسه، ص 187، 188، أنظر تفاصيل حول تلك الظروف: محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 334، 362. =

وأرسل البعثات لأوروبا واهتم بمراحل التعليم كلها خاصة المرحلة العالية، وأنشأ المدارس الخاصة ؛ مثل الطب والهندسة والموسيقى ومكتب للترجمة.[1] واستمر السلاطين المستنيرين في دفع عجلة التحولات الفكرية، بالدولة العثمانية وولاياتها. ففي عهد السلطان عبد المجيد الأول(1255 هـ ـ1277 هـ/1839م ـ1861م)، ستبدأ المرحلة الأولى من التنظيمات الخيرية* ، التي ستستمر طوال عهده وعهد خليفته فقد أعلن عن منشور كلخانة عام 1839م /1255 هـ في قصر كلخانه .[2]

وبذلك تبدأ مرحلة هامة من مراحل التحديث العثماني ، وعليه فإنه رغم ظهور بوادر الضعف منذ أواخر القرن 16م، إلا أن الفترة الممتدة من منتصف القرن 17م إلى غاية منتصف القرن 19م، تعد فترة التحولات الكبرى في الدولة العثمانية، قادها السلاطين ورجال الدولة المثقفين، والتي ساهمت في تطور الحياة الفكرية في الآستانة، والولايات العربية التي مستها تلك الإصلاحات.

2ـ في مصر والشام :

أ ـ الوضع السياسي :

لقد كان أسلوب الحكم العثماني، في الولايات يعتمد على تقسيم المقاطعات إلى إيالات تتساوى في وضعها نظريا، وتحكم كل منها نفسها بنفسها تحت رياسة الباشا أو الوالي، الذي كان يملك السلطة الحربية والمدنية العليا، و مسؤولا عن الأمن والضرائب وإرسال الخراج السنوي للآستانة. ولكن رغم ذلك كان هناك من يقاسمه السلطة، ويحد من قدرته على الإشراف على باقي الإدارات ، مثل الدفتردار والقاضي.[3]

ورغم أن الوجود العثماني في مصر والشام، اكتفى بإجراء بعض التعديلات التي تقتضيها تأكيد السيادة، مع الإبقاء على النظم الموجودة، إلا أنه أثر إيجابا في عدة مواطن ؛ فقد استفادت بلاد الشام خاصة دمشق وحلب، من اهتمام الباب العالي وذلك من خلال قافلة الحج والتجارة . وحتى مصر ضمن لها الحكم

= *** وذلك على طريقة محمد علي باشا في قضائه على المماليك، في مذبحة القلعة وأنشأ بدلا منها فوات عسكرية سماها "العساكر المحمدية المنصورة".

* اصطلاح مأخوذ من "قانون تنظيم إتمك" ويقصد بها الإصلاحات، التي أدخلت على أداة الحكم والإدارة، في الدولة العثمانية مع مطلع عهد السلطان عبد الحميد. واستهلت بالقانون المعروف باسم خط كلخانه . وورد هذا الإصطلاح لأول مرة في نهاية عهد محمود الثاني، وانتهى عهدها عام1880م مع بداية عهد عبد الحميد الثاني . دائرة المعارف الإسلامية، تر.محمد ثابت الفندي، أحمد الشنتاوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، (د.م.ط)، (د.ت)، مج5، ص499.

(1) أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص 188 ـ 196، محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 332 ـ 334.

(2) محمد سهيل طقوش، نفسه، ص 399 ـ 402.

(3) جب و بوون، المرجع السابق، ج2، ص 7،8.

العثماني، على الأقل حتى القرن 18م فترة من الإستقرار النسبي، قبل أن يضمحل رخاؤها الاقتصادي وتعمها الفوضى.[1] غير أن الأوضاع الداخلية التي عاشتها الدولة العثمانية، خلال القرنين 17 و 18م أثرت على ولاياتها، خاصة مصر والشام، فلم تكن الأوضاع الإدارية فيهما مستقرة، إذ كثرت الفتن وعجز الجيش العثماني عن حفظ الأمن وإدارة أمور الولايات، حيث تعاقب عدد كبير من الولاة على حكم الولاية في ظرف قصير، والواقع أن العناصر المحلية هي التي كانت تمسك مقاليد الحكم الحقيقي، وتجسدت في الأسر الإقطاعية والزعماء وشيوخ القبائل البدوية. ففي مصر أصبح الباشا الموفد من القسطنطينية حاكما شكليا، بينما كان المماليك قد استبدوا بالسلطة، وأصبحوا الحكام الفعليين.[2]

أما في الولايات الشامية، فرغم أن ارتباطها بالسلطة المركزية كان أوثق في أوج الحكم العثماني؛ فدمشق كانت مركزا لتنظيم الحج، وحلب مركزاً للتجارة الدولية. إلا أن السلطة الفعلية تفرعت بين الزعماء المحليين.[3] فقد ترك تسيير الأمور لهذه الأسر المحلية، التي اعترفت لها الدولة العثمانية بالسلطة، ضمن حدود معينة، وقد دخلت هذه الأسر في صراعات أفقدت المنطقة استقرارها. والأمر الذي ساعد على ضعف الاستقرار، أن الدولة العثمانية أقامت الحكم في الولايات، على أن لا تجمع السلطة في يد فرد واحد أو هيئة واحدة، بل تقاسمها الوالي مع هيئات أخرى، وإلى جانبها أصحاب العصبيات الذين أقرت الدولة حكمهم في مناطقهم، فأصبحوا محل نزاع وفوضى بالنسبة للسلطة فسياسة الدولة المذهبية والعصبية حفظت لتلك العصبيات قوميتها، مما جعلها تتطلع للإنفصال عن الدولة. ولذلك عرفت هذه الفترة سلسلة لامتناهية من التمردات، مما اضطر الدولة إلى خوض حرب على جبهات داخلية وخارجية.[4]

ففي الشام حكم آل سيفا طرابلس، واستمر حكمهم حتى الأربعينيات من القرن 17م، وكان عهدهم ذهبيا بالنسبة لباقي المناطق الشامية. وعين أول ولاتهم من طرف الدولة العثمانية، وهو يوسف باشا بن سيفا

---

(1) جب و بوون، المرجع السابق، ج2، ص 18، 30، 31.

(2) ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة 1798ـ1939م، تر. كريم عزقول، مراجعة أديب القنطار، نوفل، بيروت، لبنان، بيروت، ط4، 1997م، ص 42، 43.

(3) من الزعماء والأسر المحلية التي كانت تتولى السلطة في الشام: بنو معن، بنو علم الدين، وبنو جان بولاذ (جنبلاط)، وبنو سيفا، وبنو حرفوش، بنو شهاب. أنظر: نفس المرجع. وأنظر حول التنظيم العثماني للولايات العربية مصر والشام: فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، 2007م.

(4) أحمد عزت عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1970م، ص 183. و محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 249. للمزيد من المعلومات حول الحركات الانفصالية في مصر والشام عد إلى: عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون 1516ـ1916م، مكتبة أطلس، دمشق، سوريا، (د.ط)، 1974م.

عام 1579م/986 هـ إلى وفاته عام 1624م، وقد دخل في صراع مع فخر الدين المعني الثاني* الذي دخل طرابلس عام وفاته.[1] وقد عمد العثمانيون في القرن 18م إلى استرضاء أسرة آل العظم، وسيروا لها أسباب النهوض آملين في أن تكون قاعدة للإحياء العثماني، وقد سطع نجمهم في بلاد الشام (دمشق)، وتسلموا زمام الحكم في الولايات الشامية قبيل عام 1730م. وكان لهم السلطة على دمشق وحدها، تسع مرات بين عامي1725م و 1808 م (1137 هـ و 1222 هـ).[2]

ولما فقد آل العظم مكانتهم في أواخر القرن 18م، ظهرت محاولات للسيطرة على السلطة في دمشق من تحالف بين أمير مصر على بك الكبير وظاهر العمر بفلسطين، الذي تمكن من أن يجعل نفسه عام 1750م/1163 هـ، سيداً على عكا، والمنطقة المجاورة لها لمدة ربع قرن.[3] غير أن العثمانيين قضوا عليه وولي بـدلا منه أحمـد باشا الجـزار** الذي بسط نفوذه هو الآخر ،على سوريا منذ عام 1775م/1188 هـ كانت الدولة العثمانية تأمل في أن يعيد لها سيطرتها على الساحل السوري. فحكم فلسطين 30 عاما بين (1775 م ـ 1804م/1188 هـ ـ1218 هـ) من موقعه حاكما لصيدا، كما تقلد ولاية دمشق في الأعوام (1784 م ـ1785م / 1198 هـ ـ1199 هـ)، و (1790 م ـ1795 م/1204 هـ ـ1209 هـ) و (1799 م ـ1803م/1213 ـ1217 هـ)، وتصدى لحملة الفرنسيين على الشام عام1799م/1213 هـ.[4]

أما في جبل لبنان فقد حكم الأمير بشير الشهابي بين 1785م ـ 1840م/1199 هـ ـ1255 هـ وكان سياسيا محنكا، لكن الدولة العثمانية استولت على بيروت وصيدا، وتم نفيه إلى مالطة.[5]

---

* هو فخر الدين بن قرقماس بن معن الدرزي توسع على عدة مناطق مثل صيدا، صفد، بيروت، محاولا الانفصال عن الدولة العثمانية ولما بعثت له الأمير أحمد باشا الحافظ فر إلى إيطاليا وبقي 7 سنوات وعاد عام 1027 هـ/1614م وجرت بنيه وبين آل سيفا حروب كثيرة كان له مجالس شعر مدحه فيها الشعراء، وقتل من طرف السلطة عام 1043 هـ/1630م . أنظر: محمد الأمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د. ت)، ج3، ص 266 ـ 268.

(1) نهدي صبحي الحمصي، تاريخ طرابلس من خلال وثائق المحكمة الشرعية في النصف الثاني من القرن 17م. دار الإيمان، طرابلس، لبنان، ط1، 1986م، ص 48، 49.

(2) ميخائيل مشاقة، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، (د. د. النشر)، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1908م، ص 62ـ65.

(3) ليندا شيلشر، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تر.عمرو، دينا الملاح، مر. عطاف ماردينى، دار الجمهورية، دمشق، سوريا، ط1، 1998م، ص 41ـ43ـ49.

** أحمد باشا الشهير بالجزار (1132 هـ ـ ت1219 هـ/1720م ـ 1804م) أصله من البوسنة، والي عكا في فلسطين عمل عند علي باشا حكيم أوغلي وصحبه إلى مصر فحج وعاد إلى مصر واستقر بها، وخدم عبد الله تابع علي بك الكبير ثم سار إلى الشام وتقلد الوزارة بعكا، وتصدى لجيش نابليون في حصاره لها 1799 م توفي بالشام. عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تح. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دارالكتب المصرية ، القاهرة ،مصر، (د.ط)، ج3، 1998م، ص 508 ـ 510.

(4) ليندا شيلشر، المرجع السابق، ص 41ـ43ـ49 .

=

و خلال القرن 19م/13 هـ خضعت بلاد الشام للحكم المصري طيلة عشر سنوات بين (1831م ـ1246/1841هـ ـ1256 هـ)، وتولى حكمها إبراهيم باشا* بن محمد علي والي مصر. وقد سجلت الشام في عهده مرحلة جديدة من تاريخها، حيث انفتحت على أوروبا أكثر، ووضعت تحت إدارة قائمة على مبادئ حكومة فرنسا، وصار لها جيش مدرب، وعمت المساواة بين جميع الطوائف الدينية، وتأثرت الشام بالطابع العصري الذي أدخله محمد علي، حيث أعطيت الحرية في عهده للإرساليات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية، التي أنشأت بدورها المدارس وكونت جيلا مثقفا، اطلع على أفكار أوروبا في القرن 19م/ 13 هـ. ومع ذلك ثار الشعب الشامي على تلك الإصلاحات ورفضها. (1) وبعد انتهاء عهده، بدأت مرحلة جديدة من الحكم العثماني في دمشق، إذ أعاد العثمانيون سيطرتهم على الشام وشرعت في تطبيق إصلاحات نافعة في إطار التنظيمات العثمانية. (2)

أما في مصر فقد ظل الولاة العثمانيون، محتفظين بسلطاتهم على المنطقة إلى غاية عام 1119هـ /1707م، حيث اختفت قوتهم وحل محلها نفوذ شيخ البلد، وكان يشغله أحد بكوات المماليك اللذين انقسموا إلى حزبين هما القاسمية والفقارية، ودخلوا في صراع دائم على المشيخة، فقامت المعارك بين الفريقين حتى انتصرت الفقارية ، وانفردت بالسلطة عام 1142 هـ/1729م. (3) ومن الفقارية ظهر علي بك الكبير، الذي تولى مشيخة مصر عام 1767م/1180 هـ وأصبح زعيما للأمراء المماليك، وهو أول من حاول إصلاح المؤسسات مستعينا بمستشارين أوروبيين، فبعد عشر سنوات من تسلمه السلطة، أمر بسك العملة باسمه وكان ذلك رمزاً للسيادة، وحتى بعد وفاته عام 1773 م/1186 هـ ،تابع خلفاؤه ما بدأه إلى غاية حملة نابليون بونابرت عام1798م/1211 هـ. (4)

= (5) ميخائيل مشاقة، المرجع السابق، ص 132،134 ، 137، جب و بوون، المرجع السابق، ص 100 ـ 102. أنظر حول تاريخ الشهابيين : مجهول، تاريخ الأمراء الشهابيين، تنقيح وفهرسة سليم حسن هشي، منشورات دار لحد خاطر، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1984م.

* إبراهيم باشا بن محمد علي (1204 هـ ـ ت1265هـ/1790م ـ ت 1848م) ولد في قوله تولى ولاية مصر بعد والده، كان يجيد الفارسية والتركية والعربية وعلى إطلاع بتاريخ البلاد الشرقية، حارب الوهابيين ودخل سوريا غازيا وحكمها باسم والده توفي قبل والده فحزن عليه. أنظر: خليل مردم بك، أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والإجتماع ،تق، تع. عدنان مردم بك، لجنة التراث العربي، بيروت، لبنان ، ط1، 1971م، ص 120، 121.

(1) ليندا شيلشر، المرجع السابق، ص 59 ـ 61، ميخائيل مشاقة، المرجع السابق، ص 100 ـ 102. لقد خلف الحكم المصري بالشام سلبيات أيضا أدت لثورة الشعب أنظر حول هذه الفترة : لطيفة محمد سالم، الحكم المصري في الشام 1831- 1841م، مكتبة مد بولي، القاهرة، مصر، ط1، 2001م.

(2) ليندا شيلشر، نفسه، ص 66، 67 ، و ميخائيل مشاقة، نفسه، ص 123.

(3) فاضل بيات، المرجع السابق، ص 414، 415.

(4) خالد زيادة، المرجع السابق، ص 114. أنظر: =

غير أن عهده لم يخلو من اضطرابات سياسية، فقد نشبت حروب طاحنة بينه وبين محمد بك أبو الذهب* . وعرف عهد كل منهما على التوالي بالعلويين و المحمديين، واستمر الصراع بعدهما بين أتباع كل منهما على السلطة، مما أثر سلبا على الاقتصاد والمجتمع المصري، وقد صورت الكتب المعاصرة ذلك .(1) وفي مطلع القرن 19م/13 هـ شهدت مصر مرحلة فوضى كبيرة خلال عهد الحملة الفرنسية، التي قادها نابليون بونابرت** بين 1798م ـ1801م/1211 هـ ـ1215 هـ).(2)

ورغم ذلك كانت بمثابة الصدمة التي أيقظت المصريين، وأدت إلى تقارب طوائف المجتمع. فقد بزع في ظل ذلك فجر جديد من الوعي القومي. وفي الفترة التي تلت خروج الحملة، مرت مصر بأسوء فترات الفوضى السياسية؛ فقد دخل العثمانيون والأمراء المماليك في صراع لأجل استرداد السلطة على مصر، وأدى عجزهم عن ذلك إلى الانهيار النهائي للنظام التقليدي، فكان انهيار العناصر الداخلية لهذا النظام، بعد ثورة المصريين على الباشا العثماني، وتعينهم محمد علي باشا*** قائد الفرقة الألبانية العثمانية واليا على مصر.(3)

=

Gabriel Guémard, Les Réformes en Égypte (d'ALI- Bey El Kébir à Mehmet –Ali) 1760-1848, Thèse pour le Doctorat), Imprimerie Paul Barbey, Caire, Égypte, 1975. et: C.F.Volney, Voyage en Égypte et en Syrie pendant les années 1783, 1784 et 1785, Bossange Frères Libraire, Paris, France, 5éme Ed, To.1, 1822 , PP.94 -116.

* محمد بك أبو الذهب : هو تابع علي بك الكبير اشتراه. وتقلد الصنجقية، سمي أبو الذهب لكونهه كان يرمي البقاشيش ذهبا على الفقراء لما لبس الخلعة، صار له مماليك كثيرة وصار الأمر له بمصر بعد خروج علي بك، ترك العديد من الأوقاف واشتهر بمدرسته المحمدية.(ت 1183هـ /1769 م) . أنظر: علي مبارك،الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، المطبعة الأميرية، بولاق(القاهرة)، مصر، (د.ط) ، ج 5، 1305هـ ،ص 105، 106.

(1) أنظر: الجبرتي، المصدر السابق، ج2، (دار الكتب) تكلم بالتفصيل عن ذلك.

** نابليون بونابرث الأول (1769 ـ1821م)، قائد عسكري فرنسي توج نفسه إمبراطورا لفرنسا ،وأنشأ إمبراطورية ضمت معظم غربي أوروبا ووسطها، ولد في أجاكسيو بجزيرة كورسيكا عام 1779م. دخل مدرسة عسكرية فرنسية و عام 1785م، تقلد رتبة ملازم ثان في سلاح المدفعية، ثم رقي إلى ملازم أول ثم نقيب عام 1792. وعام 1798م احتل مصر وعام 1799م غزا عكا، انتخب عام 1804م إمبراطورا لفرنسا، هزم في معركة و اترلو 1814م ونفي إلى سانت هيلانة وتوفي 1821م.

(2) أنظر حول الحملة الفرنسية على مصر كتب معاصرة: الجبرتي، المصدر السابق، ج 3 (دار الكتب) ، ص1 . وما بعدها و: نقولا الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية أو الحملة الفرنسية على مصر، تح. تق. ياسين سويد، دار الفرابي، بيروت، لبنان، ط1، 1990م، و : عزت حسين أفندي الدارندلي، الحملة الفرنسية على ضوء مخطوط عثماني "ضيانامه"، تر. جمال سعيد عبد الغني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1999م.

*** جندي ألباني ولد بمدينة قوله باليونان (1182 ـ ت1266 هـ/1768م ـ ت1849م) ، دخل مصر مع الفرقة العسكرية لطرد الجيش الفرنسي، عين واليا على مصر 1805م، تخلص من المماليك في حادثة القلعة 1811م، قام بإصلاحات في مصر، وقع معاهدة لندن 1840م حيث انسحب من البلاد التي احتلها في الولايات العثمانية. أنظر: خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 115ـ120.

(3) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص 225، 226.

وقد تمت توليته على مصر في 20 ربيع الأول 1220 هـ الموافق 19 جويلية 1805م، وجاء عهده بعصر جديد في مصر، واعتبر المؤرخون فترة حكمه لمصر ، نهاية للعهد العثماني وبداية عهد مصر الحديثة؛ لكونه اقترح أول مشروع تحديثي متكامل، وضع الأسس العملية لنهضة شاملة، كما أنه سار في حكم مصر على نهج خاص، أدى إلى تكوين شخصيتها كدولة حديثة، واتضحت في عهده معالم السياسة الخارجية لها بحيث خرجت من العزلة، بل إن إصلاحاته أثرت على التكوين الفكري للمنطقة العربية كلها.(1)

ومنه يمكن القول أن الأوضاع السياسية لمصر والشام، كان لها تأثير كبير على الحياة الفكرية، فقد أثرت فترات عدم الاستقرار سلبا على مسيرة الفكر، فكثرة الفتن واستبداد الحكام والجند ساهم في نشر مظاهر الجهل بين العامة، وحتى بين بعض الفئات من الطبقة المثقفة. غير أن الفترات التي استقرت فيها الأوضاع شهدت حركية فكرية خاصة في عهد بعض الأمراء، الذين اهتموا بالإصلاح وشجعوا العلماء.

ب ـ الوضع الاجتماعي والاقتصادي :

لقد توزع أفراد المجتمع بين طوائف مختلفة، لكل طائفة كيانها وتقاليدها الخاصة، وكانت تملك تنظيمات معينة. وتعايش أهل الذمة مع المسلمين ككيان واحد، فلم تكن العلاقة بين الحكومة والرعية تندرج إلا في إطار الطائفة؛ فمثلا الفلاحين كان يهيمن عليهم نظام الالتزام، والصناع كانوا منتظمين في طوائف الحرف، وأهل العلم و العلماء المجاورين لهم طائفة و كيان خاص، وحتى المتصوفة وأرباب الأشاير* لهم طرقهم والبدو كان لهم عشائرهم، والأجناد أوجاقاتهم.(2)

ولقد صحب فترات عدم الاستقرار السياسي بمصر والشام، اختلال في النظام الاجتماعي فكان يكثر النهب والسلب، من طرف العساكر خاصة إذا تعطلت رواتبهم، فينهبون أموال الشعب الذي عان من تجبر بعض الأمراء، وسوء معاملتهم إذ صادروا أملاكهم، وأغلقوا حوانيتهم، بل وأزهقوا أرواحهم لأتفه الأسباب، وهتكوا أعراضهم.(3) ومما زاد من تفاقم أحوال المجتمع، هو انتشار قطاع الطرق وتسلط العربان (البدو)؛ الذين كانوا ينهبون الناس وقوافل التجار والحج، وكان من الصعب السيطرة عليهم.(4)

---

(1) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق ، ص 268. الجبرتي، المصدر السابق، ج3(دار الكتب)، ص 521. أنظر:
G .Guémard, op.cit, PP.245-287, 307-332

* الأشاير وهم المتصوفة الدراويش.

(2) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص 221.

(3) الجبرتي، المصدر السابق، ج3(دار الكتب)، ص 469.

(4) جب و بوون، المرجع السابق، ج2، ص 9، 10 و قد ذكر الجبرتي في كتابه الكثير عن البدو.

وحتى خلال القرن 19م/13م وصف أحد الرحالة الفرنسيين بمصر، حالة البؤس التي كان يعيشها الشعب، من فقر وجهل في الوقت الذي كان فيه محمد علي باشا يشيد صرح الدولة الحديثة.(1) أما الأمر الذي كان يزيد من سوء حالة الشعب، فهي الأزمات الاقتصادية، وتوالي سنين القحط والغلاء، وتفاقم الضرائب، فكانت تقل الغلال في الأسواق، وترتفع أسعارها مما كان يعرض الشعب إلى المجاعات. فقد شهدت مصر والشام سنين من هذا البؤس على امتداد القرن 17م/11هـ؛ فالشام مثلا تعرضت لمجاعات خلال السنوات 1621م/1030 هـ و 1631 م/1040 هـ و 1644م/1053 هـ و 1647م، 1056 هـ و 1663م/1073 هـ، أما مصر فبين عامي 1016 هـ/1607 م و 1071 هـ/1660م.(2) وقد فتكت الأوبئة بالمجتمع في هذه الفترة من تاريخ مصر والشام، خاصة وباء الطاعون، فقد وصفت المؤلفات المعاصرة كيف كان يحصد هذا الوباء ،الآلاف من السكان كلما حل بمنطقة ما. و الواقع أن ذلك الرعب الذي كان يعانيه الشعب من هذا الوباء، إنما مرجعه إلى تدني المستوى الصحي في تلك الفترة.(3)

ولم تخرج الأوضاع الاقتصادية في الغالب عن السيئة، إلا في فترات قصيرة حيث كان الاقتصاد زراعي بالدرجة الأولى ومحلي، لا تربطه بالاقتصاد العالمي صلة كبيرة، وحركة التبادل الداخلية كانت ضيقة المدى، وانكمشت التجارة الخارجية مما انجر عنه قلة النقد المتداول، وضعف التمويل فلم تكن هناك أية سياسة اقتصادية ترسمها الدولة، مما أدى إلى الركود الاقتصادي.(4) و خلال عهد محمد علي باشا في النصف الأول من القرن 19م، حقق الاقتصاد المصري والشامي تحسنا، نتيجة اهتمامه بالزراعة والصناعة باعتماد الأساليب الأوروبية ،واهتمامه بالطوائف الحرفية، وإقامة المنشآت الاقتصادية والاجتماعية.(5)

وأدت هذه الظروف التي عاشها المجتمع المصري والشامي خلال العهد العثماني، إلى الإيمان الساذج بالخزعبلات،وشاعت بينهم المفاسد وسوء الأخلاق وشرب الخمر والحشيش من جهة،ومن جهة أخرى انتظم أغلبهم في الطرق الصوفية ومالوا نحو الزهد والتدين، حتى كاد الرأي العام كله يقوم على الدين

---

(1) بريس دافين، إدريس أفندي في مصر، مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسي بريس دافين في مصر (1807م ـ1879م)، تر. أنور لوما، دار الكتب، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1991م، ص 52، 70،72.

(2) علي باشا مبارك، المرجع السابق، ج1 ص 57. أنظر حول هذه الأزمات التي استمرت في القرن 18 و 19م بمصر والشام : المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 86، الجبرتي، المصدر السابق، ج3، ص 469 و ج 2(دار الكتب)، ص 361 ،362. ميخائيل مشاقة، المصدر السابق، ص 112 ـ117. محمد خليل المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، مكتبة المثنى، بغداد، العراق، (د. ط)، ج3، (د. ت.ط)، ص 82، 182.

(3) الجبرتي، المصدر السابق، (دار الفارس)، ج3، ص 265، 266.

(4) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص 224. =

وحده. فكان الناس لا اهتمام لهم إلا بعلوم الدين، ولا ثقافة جديرة بالعناية إلا الثقافة الدينية، ولا رجالا أجدر بقيادته إلا رجال الدين. وكاد يتلاشى الفرق بين العرف و الدين.[1] ووصل مستوى تفكير العامة إلى اعتقادهم أن القيامة قائمة، وحددوا لها يوماً استعدوا له، وقد ذكر ذلك الجبرتي في أحداث عام 1147 هـ /1734م ، ولما ما قامت اعتقدوا أن شيوخ الصوفية قد تشفعوا لهم.[2]

إن هذا المستوى من التفكير يوحي بالجهل والتخلف، الذي خيم على عقول الناس حتى شاعت بينهم روح الاستسلام و الرضا بالأمر الواقع، والإذعان للقضاء والقـدر. ولعل ذلك الشعور السلبي هو الذي سـمح بتفاقم الأزمة الفكرية؛ فقد وصف أحد الرحالة الفرنسيين، روح الاستسلام هذه، حتى في القرن 19م بين عامة الشعب، بأنه لم يكن لدى فنانيهم الشجاعة لتطوير أنفسهم، بل كانوا يتوارثون مهنهم على ما هي، دون إبداع وراضين بحياتهم ، دون رغبة أو أمل في التغيير والتجديد.[3]

ولذلك لا يمكن التغاضي عن هذا الواقع، غير أنه على الرغم من أن العامة، كانت تعيش في هذا التخلف، الذي لـم يلـقى معـارضة كبيرة من مجتمع العلماء إلا في نطاق ضيـق، وأنـها كانت تخضع لأحكام وقوانين العادات والتقاليد والمحافظة، نجد أنه في الوقت نفسه ظهرت أطراد ازدهار فكري من ناحية أخرى عند طبقة العلماء؛ التي كانت الروح المعنوية لديهم مرتفعة، والمراكز الثقافية بقيت في حركية مستمرة تتلاءم مع ظروف الفترة و مستجداتها، مما يعني أن صفة الجمود لا يمكن إطلاقها على كل الفترة، مادام أنها شهدت في نفس الوقت علماء مثقفين وأمراء اهتموا بالعلم.[4] وخير دليل على أنه رغم الظروف السيئة التي كانت تغذي التخلف، إلا أن العـلماء كانوا متفاعلين بشكل واضح مـع كل المستجـدات التي عرفها مجتمعهم؛ فلما

= (5) أنظر: بيتر جران، الجذور الإسلامية للرأسمالية في مصر 1760 ـ 1840م، تر. محروس سليمان، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1992م. وأنظر : سلوى العطار، التغيرات الاجتماعية في عهد محمد علي، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1989م. وقد ذكر الجبرتي في كلامه عن فترة حكم محمد علي، العديد من المساوئ التي انجرت عن إصلاحاته، وفي رأيه أنها أدت لارتفاع الأسعار وزيادة الضرائب. أنظر: الجبرتي، المصدر السابق، (دار الفارس)، ج3، ص 247، 250، 259، 496.

(1) توفيق الطويل، التصوف في مصر إبان العصر العثماني، مكتبة الآداب، الإسكندرية، مصر، (د.ط)، 1946م، ص 23، 110.

و : جب و بوون، المرجع السابق، ج2، ص 12.

(2) الجبرتي، المصدر السابق (دار الكتب)، ج1، ص 219، 220.

(3) جون أنتيس، مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن 18م، من خلال وصف الرحالة جون أنتيس (1770 ـ 1782م)، تر. أحمد علي الناصري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1997م، ص 116. قارن مع :

جب و بوون، المرجع السابق، ج2، ص 27.

(4) مصطفى عبد الغني، الجبرتي والغرب رؤية حضارية مقارنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1995م، ص 23-25.

أنظر حول نفس الفكرة: بيتر جران، المرجع السابق.

دخلت القهوة اختلف الفقهاء في حكمها الشرعي، وكتبوا الفتاوى، ومدحها الشعراء وهجاها آخرون. وغدت المقاهي نوادي ذلك العصر، حيث ارتادها الأدباء والشعراء وحتى الفقهاء، وألف المتعصبون للقهوة رسائل في بيان فضائلها، ونظم الشعراء القصائد مشيدين بمزاياها. كما أنهم ألفوا رسائل وأصدروا فتاوى متعددة، لما ظهرت المواد المخدرة كالحشيش ولما انتشر بينهم الدخان، تعصب له المتصوفة ونظم بعض الشعراء شعرا فيه.[1] و منه يمكن القول أن الأوضاع الداخلية، أثرت على مسيرة الفكر في مصر والشام، وأعاقته في كثير من الأوقات، ولكن مراحل الاستقرار كانت تعرف محاولات الازدهار بين وقت وآخر.

(1) محمد سيد كيلاني، الأدب المصري في ظل الحكم العثماني (1517 ـ1805م)، دار الفرجاني، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1965م، ص 20ـ24.

الفصل الأول
العوامل المؤثرة على الحياة الفكرية
بمصر والشام

المبحث الأول : تأثير الطرق الصوفيـة على الحياة الفكرية .

المبحث الثاني: تأثير العلـماء و الأوقاف و الأمراء في الحياة الفكرية.

المبحث الثالث: الأوروبيون بمصر والشام و دورهم في التواصل الفكري.

المبحث الرابع: تأثير الطباعة وحركة الترجمة و الرحلات العربية إلى أوروبا.

الفصل الأول: العوامل المؤثرة على الحياة الفكرية

لقد حكم الكثيرون على الحياة الفكرية في الدولة العثمانية، والولايات العربية بالجمود الفكري و الركود و الانحطاط، بين القرنين 16م و18م، واعتبروا مطلع القرن 19م بداية الانفتاح والنهوض، وحمّلوا الدولة العثمانية مسؤولية ذلك، على اعتبار أنّ الحكم العثماني بقي بعيدا عن العطاء الحضاري، وغريبا عن الأصالة الإسلامية العربية، رغم اعتناق الأتراك للإسلام. وقد وصف فولني أحد الرحالة الفرنسيين حالة الجمود الفكري التي كانت عليها مصر في أواخر القرن 18م. بقوله " ... الجهل عام في هذه البلاد، مثل سائر تركيا وهو يتناول كل الطبقات، ويتجلى في كل العوامل الأدبية والطبيعية، وفي الفنون الجميلة، حتى الصناعات اليدوية، فإنها في أبسط أحوالها ويندر أن تجد في القاهرة من يصلح الساعة، وإذا وجد فهو إفرنجي... أمّا العلم فوجود الأزهر فيها جعلها مرجع الطلاب في الشرق الإسلامي... " .[1]

كما ذكر أحد المؤرخين قولا لأحد الأوروبيين، الذين دخلوا مصر ووصفوا الحياة الفكرية، والثقافية بها في العهد العثماني، وهو مارسيل كولومب بقوله" ...إن الآداب والعلوم والفنون، التي كانت قد تألقت في السابق... قد أصيبت بالاسترخاء في القاهرة... [خلال القرن] السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ذلك لأنّ التفكير يصبح أقل، والكتابة تشحّ، ولا يجري إنشاء عمائر إلا على فترات زمنية متباعدة ... ويبدو أن مصر تغرق في سبات عميق."[2]

وحتى الذين كانوا ضمن طبقة المثقفين العثمانيين في القرن 17م، قد تحسسوا هذا الضعف والتأخر، ويظهر ذلك من خلال رسالة قوجي بك، التي شخصّ فيها حال العلم والعلماء في الدولة العثمانية في تلك الفترة، ووصفها بانطفاء أنوار العلم وتقلب القوانين التي كان يسير عليها، وتراجع مستوى العلماء الذين صار العلم آخر اهتماماتهم، بل غدا الجهلة يحصلون على إجازات، تخوّل لهم الوصول إلى مناصب لا يستحقونها وليسوا أهلا لها.[3] وقد سار العديد من المفكرين، على اعتبار الجمود الفكري سمة بارزة وثابتة

---

(1) C.F.Volney, op.cit , To.1, pp .166,167

النص العربي منقول عن: جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة في عهد الحملة الفرنسية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 2000م، ص10.

(2) روبير منتران، تاريخ الدولة العثمانية، تر. بشير السباعي، دار الفكر، القاهرة، مصر، ط1، ج2، 1993م، ص 404، 405.

(3) خالد زيادة، المرجع السابق، ص 24، 25.

خلال الفترة العثمانية، في الولايات العربية التابعة للعثمانيين بل حتى في الشرق كله، فقد وصفها أحد المؤرخين بقوله: "... إن البلاد السورية، ظلت كما ظل الشرق العربي بأجمعه، طوال خمسة قرون مقاطعات خاضعة للسلطة العثمانية، المترامية الأطراف، تعيش في غيبوبة سادرة... في دياجير الجهل، فلا مدارس ولا صحف... وقد ران على صدر بلاد الشام الجمود، وانقطعت عن العالم إلا ما يتصل بالتجارة ..". (1)

وحسب بعض المؤرخين المعاصرين للفترة العثمانية، فإن مستوى تفكير المجتمع قد انحطّ، فلم يكن همه سوى كيف يؤمّن طعامه، ويتق شر الأوبئة والمجاعات، ويدفع شرور أصحاب النفوذ، فقد صوّر الجبرتي حالة المجتمع المصري في القرن 18م بما يوحي بتدني المستوى الفكري. (2) وقد أرجع العديد من المؤرخين أسباب هذا الجمود، إلى الحكم العثماني الإقطاعي وطبيعته، والذي كانت فيه وظائف الدولة تنحصر في جمع الضرائب، والدفاع عن البلاد، وما عدا ذلك فيما يدخل في خصائص الدولة كالإشراف على الحياة التعليمية مثلا، فلم يكن له وجود في تقدير الدولة. (3)

ومع الإضطرابات التي شهدها الحكم العثماني، وتغير الولاة والأزمات المستمرة، صار الحكم الإقطاعي عاجزا عن إحداث تغيير جذري في حياة المجتمع المصري والشامي، رغم بقائه لفترة طويلة . فلم يولّد الوجود العثماني لدى المفكرين في تلك الفترة، ردود فعل إنتاجية، فمالت الحياة الفكرية إلى الركود. (4)

وقد أرجع البعض أسباب هذا الجمود إلى العزلة التي فرضتها الدولة العثمانية على ولاياتها، حتى حالت دون إتصالهم بالأمم الأخرى خاصة الأوروبية. و هذه العزلة فرضها تحول طرق التجارة العالمية عن الشرق باكتشاف رأس الرجاء الصالح، مما جعل مصر والشام منطقة بعيدة عن التيارات الحضارية التي اجتاحت أوروبا منذ عصر النهضة الإيطالية، حتى عهد الثورة الفرنسية. (5) بينما علل البعض الآخر، الركود الفكري بانحطاط الأنظمة المتبعة من طرف الدولة، وعدم ملاءمتها للعصر، وذهب البعض إلى أبعد من

---

(1) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية (الصحافة السورية في العهد العثماني 1880 ـ 1980م)، دار المعارف، مصر، (د.ط)، ج1، 1969م، ص26.

(2) ذكر الجبرتي: " ...انهمكوا في عمل موالد الأضرحة التي يرون فرضيتها، وأنها قربة تنجيهم بزعمهم من المهالك وتقربهم إلى الله ...فرحوا في غفلاتهم مع ما هم فيه من الأسر وكساد غالب البضائع وانقطاع الأخبار.." الجبرتي، المصدر السابق، ج3 (دار الكتب)، ص74.

(3) محمد أنيس، مدرسة التاريخ المصري في العهد العثماني، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ، مصر، (د.ط)، 1962م، ص13.

(4) ليلى الصباغ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، (د.ط)، 1973م، ص 167، 168.

(5) محمد أنيس، المرجع السابق، ص13. لقد اعتبر بعض المفكرين العرب، أن الوحدة السياسية التي كونها الحكم العثماني، في الأقطار العربية كانت" وحدة سكونية صورية عاطلة" بعيدة عن الحركية السياسية و الاجتماعية والثقافية، التي تفرضها كل وحدة حقيقية، وأدت بدلا من الازدهار، إلى تراجع الدور القيادي للبلاد العربية. أنظر: فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت .ط)، ص96.

ذلك حين اعتبروا أن حتمية انتقال مراكز العلم والإشعاع من مكان لآخر، هي السبب في تحول الريادة عن المسلمين وانتقالها إلى أوروبا، كما كانت من قبلهم بيد الفرس والفراعنة واليونان .[1] والواقع هو أن العثمانيين لم يكن لهم دور مباشر أوكلي، في الوضع الفكري السائد بمصر والشام فالدولة العثمانية لم تمنع فتح المدارس، ولم تضيق على الفكر والتعليم ولم تقف في وجه الإبداع و الإبتكار، بل تركت الأمور على حالها تسير في مجراها الطبيعي،الذي كانت عليه قبل الوجود العثماني،وأبقت لمؤسسات التعليم أوقافها وسعت للحفاظ عليها،وأنشأت المزيد منها. لكنها في مقابل ذلك ساهمت في استمرار تقليدية الفكر، والمحافظة على معالم الحياة الفكرية،التي عرفتها المنطقة منذ العهد المملوكي.[2]

كما أن القول بأن الدولة العثمانية أدخلت البلاد العربية في عزلة أمر غير واقع، فهي لم تمنع الاتصالات بين الولايات العربية، ولا بينهما وبين أقطار العالم الإسلامي والدول الأوروبية، فالاحتكاك مع الغرب كان قائما في المجال الاقتصادي، ومن خلال الجاليات المتواجدة في المدن العربية، والطوائف الدينية والتبشيرية التي كانت منتشرة منذ القرن 16م، فقد ظلت الكتب المطبوعة في أوروبا توزع بين النصارى في بلاد الشام،عن طريق البعثات الكاثوليكية و البروتستانتية طيلة القرن 17م.[3]

والحقيقة هي أن مصر والشام كانت في العصر المملوكي، مراكز للإشعاع الحضاري بعد انتقال مراكز العلم و الأدب، من بغداد وبخارى وقرطبة وغيرها من الحواضر، إلى القاهرة والإسكندرية وأسيوط والفيوم ودمشق،حمص،حلب،حماه،فكانت ملجأ للعلماء في العصر المملوكي.[4]غير أن هذه الإشعاعات الفكرية، بدأت تخبو مع أواخر العصر المملوكي ودخلت الحياة الفكرية في أزمة، ومالت نحو الخمول والركود التدريجي،وفقدت روح الإبداع والتجديد،كما اتجه أصحاب الفكر والقرائح نحو التقليد والتركيب حتى سمي العصر بعصر الموسوعات والجمع والترجمة. [5]

فلما جاء العهد العثماني،كانت مصر والشام ما تزال تعاني من الشلل الفكري،وقلة إنتاجها العلمي، ولم يحدث الوجود العثماني أية صدمة فكرية تغير الأوضاع جذريا. [6] فلم يكن العثمانيون يملكون رصيدا

(1) سيد مصطفى، نقد حالة الفن العسكري والهندسة والعلوم في القسطنطينية 1803م، تح. خالد زيادة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (د.م.ط) ، ط1، يونيو 1979م ، ص 36.

(2) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص168.

(3) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية ، ص 436.

(4) جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مر. و تع . شوقي ضيف، دار الهلال،القاهرة، مصر، (د.ط)، ج3، (د.ت)، ص122.

(5) ليلى الصباغ، المرجع السابق ، ص 166، 167.

(6) نفسه ،ص167،168.

حضاريا ليقدموه للحياة العلمية بمصر والشام، مختلفا عما كان موجودا فاكتفوا بتنظيمها تحت سلطانهم، مع الحفاظ على ذلك والعمل على أن لا يحصل فيها أي تغيير.[1] قد يؤدي إلى الخلل و الإنهيار في النظام الذي كان يسير عليه المجتمع، رغم أن تلك الأنظمة اعتراها الضعف، وغدا الكثير منها لا ينسجم مع روح العصر ولكن حتى وإن لم يؤدي ذلك إلى قلب الأوضاع ، إلا أنه سمح للمجتمع بأن يحافظ على قوميته.[2]

فالمناخ الفكري المزدهر خلال العهد السابق، كان قد انقضى بدخول العثمانيين إلى مصر والشام، وكان من العسير أن يقوم في ظل الكيان العسكري العثماني، مناخ فكري يتمتع بالاستقلالية عن المركز، وعن إيديولوجية الدولة، فكان رجال العلم جزء من النظام ، ولم يحصل لهم استقلال عن السلطة، إلا في بعض الاستثناءات المحدودة. كما أن مفهوم العلم كان يقتصر على الاستيعاب الجيّد، للإنتاج العلمي القديم، ونقله وعرضه بما يناسب الحال، والعالم هو من يفلح في إنجاز ذلك. ثم إن ظهور الخطر الشيعي في أوائل القرن 16م حتم على الدولة العثمانية أن تكلف العلماء، بوضع الأسس الفكرية والعقائدية للدفاع عن المذهب السني، مما جعل العلماء منذ ذلك الوقت ينحصرون، في إصدار الفتاوى في الأمور الخاصة بالسلطة، وفي تقوية المذهب السني وجعله أكثر ترابطا. فقد أثر التشيع الصفوي تأثيرا قويا، في دفع الفكر الديني خاصة عند العثمانيين، إلى التشدّد و الإنطواء على الذات.[3]

وعامل آخر فرض استمرارية التقليد والمحافظة، هو التهديدات الخارجية التي كانت تتعرض لها الدولة وولايتها خاصة مصر والشام، من طرف القوى الأوروبية ، مما لم يسمح بصرف الفكر إلى العلوم والآداب.[4] ولكن هذا لا يعني أن حركية الفكر قد توقفت، وخمدت وسارت على وتيرة واحدة، فالفترة الممتدة بين القرن 16م وحتى مطلع القرن 19م، شهدت سلسلة من التحولات في المجال الفكري، رغم أنها بدأت بطيئة في أواخر القرن 17م، وبدت واهية في بعض الأوقات، لكنها تسارعت وأتت ثمارها في مطلع القرن19م.

(1) جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة، ص9. فرغم أن الدولة العثمانية دولة إسلامية، من عناصر تركية مغايرة للعنصر العربي، إلا أن الثقافة والبنية الفكرية الأساسية لها، لم تكن بعيدة عن نظيرتها العربية، وحتى اللغة العربية نفسها، لم تكن غريبة عن علماء الدولة العثمانية، فهم كانوا يعتبرونها لغة ثقافتهم، وكتبوا بها مؤلفاتهم فالأتراك استمدوا منابع ثقافتهم من العرب، لذلك لم يكن لهم تأثير قوي على الحياة الفكرية يمكنه أن يحدث انقلابا جذريا فيها. أنظر: أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 307، 308.

(2) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص182، 186.

(3) أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق ، ص 121، 122.

(4) لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط3، 1991م، ص6.

ثم إن الحياة الفكرية في القرنين 17م و 18م في مصر والشام، كانت حياة فاعلة وحركية على نحو ما ينسجم مع معطيات عصرها، وقيمه الاجتماعية والفكرية.[1] فالمجتمع ظل يعيش فعاليات متنوعة، ليست أدنى مما كانت عليه في العصر المملوكي، الذي تميز بالخصب مع عدم التجديد، على الرغم من أن النشاط الفكري في هذه الفترة كان يطغى عليه الفكر الديني والتصوف الشعبي.[2]

لذلك لا يمكن اعتبار هذه الفترة، مرحلة تخلف مطلق، وقد ظهرت خلالها بوادر الإستفاقة حتى وإن لم تكن كافية، لإحداث إنقلاب في الأوضاع. فالقرنين 17م و 18م شهدا محاولات للنهوض حصلت بين الفينة والأخرى، غير أن القرن 19م توفرت فيه الظروف الملائمة، و ظهرت عوامل جديدة، أعطت دفعة قوية لمحاولة النهوض التي كانت متواجدة على طول تلك القرون، ولكن لم تكن تكتمل، وذلك لأنه أصبح من الضروري، أن تلقح الحضارة الإسلامية بعدما استنزفت كل مدخراتها، بحضارة أخرى أكثر تطورا ،وفي طور النمو والعطاء، فالحياة الفكرية في الدولة العثمانية سارت بمراحل مكملة لبعضها.[3]

ولم تكن لحظات التغيير و الإنقلاب فيها فجائية ،بل سارت بالتدريج حتى ظهرت بوادر النهوض الفكري في القرن 19م، فكانت المراحل التي سبقت القرن 19م بما حملته من ميزات وقضايا، انبثقت من صميم الأصالة العربية الإسلامية، قد ساهمت في النهضة التي حصلت في مطلع القرن المذكور. ولعبت عوامل عديدة دورها في ذلك.

---

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية ، ص 301.

(2) ليلى الصباغ، من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول، محمد الأمين المحبي المؤرخ وكتابه خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1986م، ص 14، 39.

(3) منذ منتصف القرن 17م وبالذات في عهد محمد الرابع (1648 ـ 1687م) بدأت الدولة العثمانية تعي ضعفها وأطلق رجال الدولة البيروقراطيين (الموظفين)، لوائح شخصوا فيها مواطن الضعف، واقترحوا الإصلاح. وحاول محمد الرابع نفسه الإستماع لذلك، ففي عهده بلغت الدولة أقصى ضعفها، وفي نفس الوقت كان عهده بداية للوعي بضرورة الإصلاح، فبدأت أولى تلك المحاولات في القرن 18م ، لتصبح أكثر فعالية في القرن 19م، وكل ذلك كان يدفع حياة الفكر من مرحلة إلى أخرى مترابطة مع بعضها. أنظر حول اللوائح الأولى التي شخصت الضعف ونادت بالإصلاح في القرن 17م بالدولة العثمانية: خالد زيادة، المرجع السابق، ص 19 ـ 27.

المبحث الأول : تأثير الطرق الصوفية على الحياة الفكرية

1- الطرق الصوفية بمصر والشام :

لقد ظهر التصوف في ساحة الفكر الإسلامي، منذ القرن 2 هـ/8م في شكل نزعات من الزهد في الحياة الدنيا، كنتيجة لما وقع في العالم الإسلامي من حوادث، أثرت على جوانب الحياة، ويرجع البعض أسباب ظهور التصوف إلى الرغبة في محو الذنوب، والرعب الشديد من اليوم الآخر، وهناك تعاريف كثيرة له.(1)

ويعتبر الباحثون أن هناك عوامل معينة ساهمت في انتشار التصوف، واندفاع الشعب للإنضمام إلى الطرق الصوفية ؛ وهي تشجيع الحكام لحركات التصوف، بهدف إشغال الشعب عن التفكير في أحوال البلاد وحتى لا يجأ إلى الثورة على الحكام، بحيث انصرف الشعب إلى الزهد، وانشغل الحكام باللهو وفرض الضرائب. والعامل الآخر هو سوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، التي دفعت الشعب إلى الإنسحاب نحو الزهد في الحياة. و ذلك لأن التصوف العملي ازدهر في الواقع في فترات ضعف الحضارة الإسلامية، أما التصوف النظري فكان يزدهر في فترة ازدهار الحضارة الإسلامية.(2) وهناك من يرجع عوامل ظهوره إلى ظاهرة العقلنة المسرفة، التي تجسدت في علم الكلام والفلسفة الهيلينية.(3)

وقد كانت الدولة العثمانية تؤيد رسمياً التصوف، واعتمدت على طريقتين كبيرتين هما ؛ المولوية* و البكتاشية** ومدت الحماية في الوقت نفسه إلى جميع الطرق الأخرى، كما أنها شجعت العلماء على زيادة ارتباطهم بالأخوات الصوفية . وقد ساهم التلاحم بين التيار الفكري الصوفي والتيار السني، في مطلع العهد العثماني بمصر والشام، في اتساع نطاق التصوف، حتى انخرط عدد كبير من العلماء في الطرق، ولحقت بهم جميع فئات المجتمع، فأصبح للتصوف مراكز دائمة ونشاطات مستمرة، وأصبح من غير العادي أن لا يرتبط

---

(1) هناك من يربط لفظ الصوفية والتصوف بالصفاء الذي يغمر قلوب الزهاد، وهناك من يربط كلمة صوفي العربية بصوفيا اليونانية ومعناها الحكمة، لما يضفيه التصوف من الحكمة على أصحابه. وهناك من يربط لفظ صوفي بلباسهم الصوفي الذي يميزهم. وعرفه المستشرقون "أنه فلسفة حياة وطريقة في السلوك الفردي لتحقيق المثالية الأخلاقية والسعادة النفسية، ويصعب التعرف على حقائقها بألفاظ اللغة العادية لأنها وجدانية ذائبة..." وفي الواقع لم يجمع الباحثون على تعريف جامع وشامل. أنظر: عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط2، 199م، ص 21ـ25.

(2) عامر النجار، الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط5، (د.ت)، ص 98ـ 100.

(3) فهمي جدعان، المرجع السابق، ص 188.

* تنسب المولوية إلى جلال الدين الرومي، ولد في بلخ عام604هـ/1207م ، دخل نيسابور ، بغداد ، مكة، دمشق، .استقر آخر الأمر بقونية عام1226م، وانشغل بالتصوف ، وأنشأ هذه الطريقة المعروفة أيضا بالدراويش الراقصين، توفي عام672هـ/1273م بقونية. أنظر: دائرة المعارف الإسلامية ، مج7، ص60 ـ64.

** تنسب البكتاشية إلى حاجي بكتاش وهو ولي ولد في نيسابور بخرسان، دخل الأناضول واستقر بمدينة قيصري في بداية القرن 7هـ ، =

كل فرد بطريقة من الطرق الصوفية.[1] وقد عرفت مصر والشام الطرق الصوفية بأنـواعها ؛ كالمعتدلة والتـي مثلها العلماء، كما عرفت جماعات ريفية مزجت تعاليم السنة والصوفية، مع معتقدات غريبة عن الدين، و هناك جماعات صوفية ؛ هي وسط بين الاثنين انتشرت بين الطوائف المهنية في المدن، وهي أكثر سنية وسطحية أيضا، حولت مفاهيم الصوفية العقلية والروحية إلى أسس عملية في الحياة.[2]

وقد تسربت بعض الطرق الصوفية، من الدولة العثمانية إلى مصر والشام مع دخول العثمانيين ؛ مثل البكتاشية حيث ما يزال هناك أسرة بدمشق تدعى آل بكتاش، كما كان لها زاوية خارج القاهرة. ودخلت إلى جانبها المولوية، التي أصبح لها زوايا في دمشق وحلب والقاهرة.[3] وبلغ عدد الطرق في مصر نحو الثمانين طريقة من أشهرها الطريقة البكرية،[4] الشاذلية[5]، والدسوقية[6]، و الخلوتية[7]، وإلى جانبها انتشرت طرق عديدة بفروعها.[8] أما في بلاد الشام فكانت هناك طرق كبرى مثل اليونسية[9] و الشاذلية،[10] التي وجدت

= وجمع حوله الأتباع، توفي عام 738هـ/1337م . دائرة المعارف الإسلامية، مج4، ص37 ـ40.

(1) ليلى الصباغ ، المجتمع السوري، ص 188.

(2) نفسه، ص 184.

(3) نفسه، ص 186، 187، توفيق الطويل، المرجع السابق، ص 57. لقد ذكر عبد الغني النابلسي في رحلته إلى مصر في القرن 17م/11هـ، التكية المولوية وذكر أيضا زاوية مولوية في جبل لبنان. عبد الغني النابلسي، الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، تح. رياض عبد الحميد مراد، دار المعرفة، دمشق ،سوريا، ط1، ج1، 1989م، ص 207، 209، 385. وأنظر: نفس المصدر، تق. وإعداد أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1986م، ص 204، 209، 210 . وذكر معها الزاوية البكتاشية بمصر.

(4) البكرية "تنسب إلى أبو بكر الوفائي المتوفي في حلب عام 902 هـ /1496م وتعرف أيضا بالوفائية وينتشر أتباعها في مصر وسوريا ". مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية"، "ب" ، ص 85. وقد ذكرها المرادي عند ذكره حسين بن علي محمد الوفائي شيخ السجادة الوفائية بزاوية الشيخ أبي بكر أبي الوفا بحلب (1135 هـ ـ ت 1156هـ) . محمد خليل المرادي ، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، مكتبة المثنى، بغداد، العراق، (د.ط)، (د.ت) ، ج2، ص 58،59.

(5) الشاذلية "تنتسب لها جماعة نشأت بالإسكندرية على يد أبي الحسن علي بن عبد الله الإدريسي المشهور بالشاذلي نسبة لقرية شاذلة بالمغرب (ت 656 هـ/1258م) وينتشر أتباعها في واد النيل في مصر والسودان ". مصطفى الخطيب، نفسه، "ش"، ص 266، أنظر تفاصيل حولها في مصر : عامر النجار، المرجع السابق، ص 124 ـ 154.

(6) الدسوقية تنسب إلى برهان الدين إبراهيم الدسوقي، يعود نسبه إلى آل البيت (653 هـ ـ 696 هـ). أنظر تفاصيل حولها : عامر النجار، نفسه، ص 155ـ167.

(7) الخلوتية هي فرقة صوفية تنسب إلى محمد الخلوتي. الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 347 ـ351.

(8) مثل : الطريقة البرهانية، الكشيرية، المدينية، الفردوسية، الهمدانية، الخضرية، العزيزية، الحسينية المطاوعة بالشرقية والصعيد، البسطامية، الأدهمية، المسلمية، الملامتية، الحيدرية، والعيسوية. أنظر : توفيق الطويل، المرجع السابق، ص 75- 77.

وحول العيسوية ذات الأصل المغربي أنظر : الجبرتي، المصدر السابق، ج3(دار الكتب)، ص 67.

(9) اليونسية هي "طريقة صوفية اتهم أتباعها بالإباحية والشطارة والشطح، ينسبون ليونس بن يوسف مساعد الشيباني المخارقي (ت 619 هـ/ 1222م) " . مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، "ي"، ص 449.

(10) لقد دخل بها من المغرب إلى دمشق عام 1096 هـ/1684 م الشيخ محمد بن أحمد المزطاري المغربي المكناسي الشاذلي المالكي (ت 1107 هـ/1695م)، وأخذها عنه محمد بن خليل العجلوني، واشتهرت منذ ذلك بدمشق. المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 33.

لها زوايا وخوانق في مطلع العهد العثماني واستمرت خلاله، وإلى جانبها كانت هناك طرق صوفية أخرى مثل الطريقة القلندرية.[1] والحيدرية والقادرية.[2] والحريرية كما ظهرت طرق جديدة مثل الصمادية والعمرية.[3] والدندراوية والنقشبندية.[4] حيث انتشرت زواياها في دمشق وحلب والقدس وبعض المدن الصغرى الأخرى.[5]

2 ـ أثر التصوف في الحياة الاجتماعية :

لقد كان للطرق الصوفية في العهد العثماني نفوذا كبيرا بين أفراد المجتمع والسلطة، وارتبطت ارتباطا وثيقا بالطوائف الحرفية، مما سمح بتغلغلها في أوساط الشعب، فقد كان الناس يقابلون استهتار الأولياء في أمور العرف والدين بالرضا؛ لأنه في عرفهم قد سقطت عن هؤلاء كل التكاليف الدينية.[6] بل كان كل أفراد المجتمع يخشون سلطان الأولياء الروحي، ويخافون آذاهم مما سمح لهم باستباحة المحرمات، وانتهاك الحرمات و تخلصوا أيضا من التكاليف الدنيوية، فحتى الدولة والحكام والأمراء. كانوا يهابون نفوذهم ولا يردون لهم شفاعة، ودعموا زواياهم بالمال، وسمحوا لهم بتطبيق قوانينهم الخاصة دون تدخل الدولة.[7] و منه فقد أصبح التصوف في العهد العثماني يكاد يكون دروشة، وابتعد عن التصوف الصحيح* . حتى أن البعض كان

---

(1) القلندرية "تميز أتباعها بحلق رؤوسهم وشواربهم ولحاهم وحواجبهم، أول ظهور لها كان في عهد الظاهر بيبرس، و قلندرية كلمة أعجمية معناها المحلقون، انتشر أتباعها في مصر وبلاد الشام والعراق ،وكان للفقهاء موقفا متشددا منها لتحللها من الفرائض. مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، " ق"، ص 253، ذكرها: عبد القادر بن محمد النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، فهرسة إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ج2، 1990م ، ص 165، 166.

(2) القادرية هي طريقة تنسب إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني (ت 561 هـ/1165م). مصطفى الخطيب ،نفسه، "ق" ،ص 344 . ذكرها النابلسي، الحقيقة والمجاز، ج1(دار المعرفة)، ص 153ـ155، محمد جميل الشطي، أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر 1201 هـ ـ1350 هـ، المكتب الإسلامي، دمشق، سوريا، ط2، 1972م، ص 115، 144، 145.

(3) العمرية "تنسب إلى عمر الإسكاف الحموي الصوفي (ت 951 هـ/1544م) لها أتباع في دمشق، كانوا يلبسون الفروة مقلوبة ويركبون قصبة ويعلقون في رؤوسهم معلاق . مصطفى الخطيب، نفسه، "ع"، ص 327، 328، ذكرها : النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص 170ـ172. و الصمادية ذكرها: المحبي، ج4، ص 363 ، محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 185.

(4) النقشبندية تنسب لبهاء الدين محمد بن أحمد الفاروقي النقشبندي (ت 791 هـ/1381م) و النقشبندي معناه النقش، الرسم، أكثر أتباعها في الصين، تركسان و الهند، تركيا. مصطفى الخطيب، نفس المرجع، "ن"، ص 424.

(5) كان هناك طرق صوفية أخرى في الشام مثل: البدوية، السعدية، الشيبانية، السفرجلانية الخلوتية. أنظر: محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 115، 131، 144، 145، المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 41، 52، 53. و الكلنشية بحلب. المحبي المصدر السابق، ج1، ص 419. أنظر: ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 191، 192 ـ 195.

(6) أنظر حول منكرات الصوفية : توفيق الطويل، المرجع السابق، ص 112ـ 114 ـ 85.

(7) نفسه، ص 116، 117.

* ذلك لأن التصوف هو نزعة فلسفية، أما الدروشة فهي أساليب خاصة في العبادة و الذكر، وانحصرت تقريبا في الأغراض العملية كالانقطاع لله والعبادة والزهد.

يدعو إلى عدم التعلم وتجنب التفكير، مما كاد يقضي على الحياة العلمية عند أهل الطريق فقد تحول التصوف "من ظاهرة وجدانية فردية إلى ظاهرة اجتماعية". [1] وانتشرت زوايا التصوف وازداد نشاطه في القرن 17م، وتفاقمت معه البدع والخزعبلات التي مارسها العامة، رغم كونها لا ترتبط بالتصوف الحقيقي بصلة، ودون إدراك منهم لمعنى التصوف الحقيقي الديني المتأمل الصحيح، مما انعكس سلبا على الحياة الاجتماعية والفكرية بمصر والشام، فقد انصرفت فئات المجتمع الفاعلة عن التفكير وتطوير الحياة، وانشغلت بدلا من ذلك بالزهد و اللاعمل وحلقات الذكر في الزوايا وتعاطي القهوة والمخدرات، والاعتقاد بالكرامات وبالقدر المطلق وبممارسات لا صلة لها بالدين. [2]

وبما أن ادعاء هذا النوع من التصوف كان أمراً سهلا، مع ما يحظى به مدعي التدين من احترام في وسط ساده هذا الاعتقاد، فقد ازداد عدد من ادعى التصوف، وصار لهم المريدين والأتباع والزوايا، وضمنوا كفالة الدولة لهم. [3] وانتشرت إلى جانب ذلك مظاهر التنجيم والسحر والتمائم، مما ضيق نطاق التفكير والإبداع. [4] وقد وصف أحد الرحالة الفرنسيون، الذين جاؤوا إلى مصر في القرن 19م، عادة لدى النساء، وهي التبرك بالمعابد والأحجار، والاعتقاد فيها دفعا للضرر أو جلبا للحظ، فعقب على ذلك بقوله "...إن عبادة الصور لم تندثر تماما بين أهل مصر، رغم احترامهم للقرآن واتباعهم ما نص عليه من الفروض...". [5]

ومما صبغ المجتمع بعادات غريبة، هو احتفاظ معظم الطرق الصوفية بالعديد من البدع التي ظهرت في الإسلام، مثل الرقص التعبدي القديم وهو من طقوس الشامانية؛ وهي الديانة الوثنية للأتراك، كما بقيت راسخة فيها العديد من معتقدات المسيحية. [6] وساد الاعتقاد في المجتمع المصري والشامي أعيانا وعامة على حد سواء بكرامات الأولياء والمجاذيب*، واعتقدوا فيهم كشف الغيب، وذكرت كتب التراجم في ذلك العصر العديد من الدلائل على ذلك. [7] فقد ذكر الجبرتي المجذوب علي البكري الذي كان يمشي في

---

(1) توفيق الطويل، المرجع السابق، ص 54ـ 56.

(2) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 336ـ337، توفيق الطويل، نفسه، ص 211ـ213.

(3) توفيق الطويل، نفسه، ص 55.

(4) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 198.

(5) بريس دافين، المصدر السابق، ص 54. أنظر وصف آخر للدراويش وممارستهم الغريبة بمصر: جيراردي نارفال، رحلة إلى الشرق، تر.كوثر عبد السلام البحيري، مر.سهير القلماوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، مصر، (د.ط)، ج1، (د.ت.ط)، ص 203ـ204.

(6) لويس برنار، اسطنبول حضارة الخلافة الإسلامية، تر. سيد رضوان علي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط2، 1982م، ص 186.

*المجذوب أو المعتوه، كان يعتبر من أولياء الله، لكونه مستغرق في ملكوت الله، فالجذبة في نظر الصوفية؛ هي انجذاب إلى الله وولوه في ملكوته.

(7) لقد ذكرت كتب التراجم ترجمات المجاذيب في القرن 17م و 18م وحتى القرن 19م وإن كان البعض انتقد بعض أعمالهم فإن الغالبية =

الأسواق متشردا، فتهافت عليه الناس بالنذور والهدايا، ولما مات عام1207 هـ/1794م جعل قبره مزاراً.[1]وتمتع المجذوب بالاحترام والتكريم، حتى من طرف الأمراء والأعيان؛ مثل الوالي بمصر مصطفى باشا ،الذي مال إلى الشيخ المجذوب، علي بن حجازي بن محمد البيومي(ت 1182 هـ)، واعتقده وبشره أنه سيدعى للصدارة، فلما تحقق ذلك بنى له مسجداً وكتّابا.[2]وذكر المرادي الشيخ المجذوب حسين الحموي، نزيل دمشق (ت 1106هـ /1694م)، أنه كان صاحب كرامات واعتقد فيه الوزراء والأعيان، حتى أن أحد وزراء آل عثمان، بعث إليه بهدايا فبشره بتولية منصب دمشق 6 سنوات.[3] ولم يكتفي هؤلاء بالتبرك بالأولياء وهم أحياء، بل آمنوا بكراماتهم حتى بعد الموت، فبنوا لهم الأضرحة وأقاموا فيها الموالد، فكان في القاهرة ثمانين مولداً خلال السنة، تكثر في زمنها حركة الناس في موضع الضريح، وتروج البضائع وينتفع المشعوذون والسحرة، وأصحاب المراجيح، وتكثر النذور والصدقات على الأضرحة.[4]

وكان في دمشق مزارات وأضرحة يتبرك بها الشاميون.[5] ذلك لأن المجتمع كان يعتقد اعتقاداً جازما باستمرار كرامات الأولياء حتى بعد الموت. لقد كان يحصل في هذه الموالد الكثير من المنكرات؛ كإيقاد الشموع وضرب الطبول والمزامير، وأمور لا علاقة لها بالدين.[6] وقد وصف أحد الرحالة الفرنسيين في القرن 19م حفلة ذكر داخل مسجد بمصر؛ وهو مولد من الموالد بدمياط، وقد استغرب كثيراً من الطقوس التي قام

= الساحقة كانوا معتقدين فيهم ولولا ذلك لما خصصوا لهم قسطا كبيراً من تراجمهم. أنظر: المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 454، 455. وقد ذكر المحبي أن أحد المجاذيب وهو حسن المجذوب المعروف بالغريق (ت 1018 هـ)، كان يجتمع عنده مائة إمرأة لاشتهاره بالكشف على الغيب. أنظر: المحبي، المصدر السابق ،ج2، ص 77. محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 153، 154، 119، 231، 232. وحتى المرادي والجبرتي، غير أن هذا الأخير كان له موقف مغاير إلى حد ما، تجاه المجاذيب وكراماتهم مقارنة مع معاصريه.

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج2(دار الكتب)، ص 375، 376.

(2) نفسه، ج1(دار الفارس)، ص 321.

(3) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 67، 68.

(4) علي مبارك، المرجع السابق، ج1، ص 90 ـ 92. و قد ذكر الجبرتي كيف تحول قبر الصوفي عبد الوهاب بن حجازي المالكي (1759م / ت 1172 هـ)، مقاما مقصوداً للزيارة ثم صار له موسم يختلط فيه النساء بالرجال، وتحصل المنكرات. الجبرتي، المصدر السابق، ج1، ص 304. وذكر الشطي أن أحد مجاذيب الشام و هو محمد أبو تقالة (ت 1217 هـ)، أنه كان معتقدا وصاحب كرامات، ولما مات حضر جنازته جم غفير وصار قبره مقصدا للزيارة والتبرك و هذا في القرن 19م . محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 231، 232.

(5) مثل المشهد الحسيني كالذي بمصر وهو بباب الفراديس. أنظر: النابلسي، الحقيقة والمجاز، ج1(دار المعرفة)، ص 163، 164. وفي طرابلس مثلا كان في القرن 17م/11 هـ ، عدد كبير من المزارات مثل مزار سيدي القنواني، مزار الشيخ قنديل، مزار الشيخ داود، والشيخ عز الدين وغيرها، وهي مزارات ارتادها الناس وتبركوا بها . أنظر: نهد ي صبحي، المرجع السابق، ص 180.

(6) ذكر الجبرتي أن الناس كانوا يقترفون المنكرات الكثيرة في الموالد، خواص الناس و عوامهم، فكانوا يطؤون القبور، ويرمون القاذورات ويلعبون ويرقصون ويرتكبون المحرمات دون أن ينكر عليهم أحد. الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 304.

بها الناس الحاضرين من دوران وقرع للطبول، وصياح وتصفيق داخل المسجد. أما خارجه فكانت هناك احتفالات أخرى مصاحبة للمولد وسط خليط من المنكرات، كالرقص والشعوذة والأعمال غير الأخلاقية، وعلق بقوله : "...ويمكن لهاتين اللوحتين المتقاربتين أشد التقارب أن تعطياكم فكرة عن الأخلاق والتربية هنا، إن الحكومة تترك هذا الفساد قائما وتتباهى بما أدخلت من إصلاحات في الدولة..." .(1)

وقد أبدى الفرنسيون من قبل في فترة الحملة الفرنسية، هذا الموقف الساخر من المستوى الفكري الذي كان عليه أهل مصر، فشجعوا الموالد وأحيوها وغرضهم من وراء ذلك أنهم استحبوا انهماك المصريين في جهلهم، و غطوسهم في الخلاعة. وكان الجبرتي قد تفطن إلى ذلك، حين أرجع أسباب تشجيع الفرنسيين للموالد إلى حبهم في الخروج عن الشرائع والاختلاط بالنساء، و اتباع الشهوات والمحرمات.(2) ولذلك فإن هذه المظاهر التي لا يمكن إخفاؤها، جعلت الكثيرين يحكمون على المشهد الثقافي بمصر والشام، بالتخلف ويحصرونه ضمن هذه الحدود، إلا أنه في نفس الوقت كانت هناك أصوات تنتقد وترفض وتدعو للإحياء.

3- الصوفية والأزمة الفكرية في الدولة العثمانية ومصر والشام :

إن التلاطم الفكري الذي أحدثته الصوفية، لم يشغل طبقة معينة من الشعب، بل حتى العلماء أنفسهم آمنوا بالأولياء والكرامات، وكان بعضهم مرشحا لأن يكون واحداً منهم. فقد اهتموا بقراءة أدب الكرامات، وكان العديد منهم يقومون بطقوس الصوفية ويؤمنون بها.(3)

فلم يكن مرتضى الزبيدي (1145 هـ - ت 1205 هـ/1732 م - ت 1792م) *، رغم كونه عالما مشهوراً في مصر وخارجها في علوم الدين، ينكر على ما كان يفعله الناس معه من اعتقاد في قطبانيته، واعتبار زيارته من القربات، حتى صار الحجاج المغاربة لا يعتبرون حجهم صحيحا، إلا إذا مروا عليه وباركهم. ولا ينكر عليهم اعتقادهم كشفه على الغيب، وسجودهم له وتبركهم به.(4) وكان العديد من الفقهاء والعلماء غيره لا ينكرون ما يشاهدونه، من منكرات تحصل في الموالد، وبذلك أصبح العلماء قدوة لمن دونهم من فئات المجتمع.(5)بل إن الكثير من العلماء آمنوا بكرامات الأولياء والمجاذيب، وإن كانوا أميين وبدر منهم أسوء

(1) بريس دافين، المصدر السابق، ص 56 -59.

(2) الجبرتي، المصدر السابق، ج3(دار الكتب)، ص 24، 25، 68، 138.

(3) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 196.

* هو محمد بن محمد بن عبد الرزاق الشهير بمرتضى الزبيدي الحسيني، أصله من ز بيد واشتهر بالحديث والفقه والنحو، وكان راسخا في علم اللغة والأنساب وتخريج الأحاديث، دخل مصر وتلقى عن علمائها، وله مؤلف مشهور هو شرح القاموس "تاج العروس"، وشرح كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، وكان يجيد التركية وعقد د روسا عديدة. الجبرتي، المصدر السابق، ج2(دار الكتب)، ص 303 - 321.

(4) نفسه، ص 309 - 310. =

الأعمال مثل الشيخ أحمد العروسي أحد علماء مصر، الذي اختص بالشيخ المجذوب أحمد بن حسن النشرتي(ت 1184 هـ/1770م)، وقد بشره بمشيخة الجامع الأزهر.(1) ووصف عبد الغني النابلسي في رحلته العديد من كرامات ومزارات المجاذيب، ونعتهم بالصفات الجليلة، بل إن من أهداف رحلاته التي قام بها هي زيارة قبور الأولياء والتبرك بهم وكان هو ذاته صوفيا و عالما في علوم شتى.(2)

وكان الكثير من العلماء المتصوفة يقفون في وجه غيرهم من العلماء المعارضين لأفعال الصوفية فحصلت الصراعات بينهم، مثل إنكار الشيخ يونس العيثاوي الشافعي*، إمام أحد المساجد بدمشق على أتباع الشيخ الصوفي الصمادي، ضربهم الطبل في حلقة الذكر، فعارضه عدد كبير من شيوخ الشافعية والحنفية والحنابلة، واعتبروا ذلك جائزاً لكونهم لم يضربوه في المساجد.(3) وذكر الجبرتي أن الشيخ الشبراوي** كان شديد الحب في المجاذيب، ودليل ذلك أنه انتصر للشيخ المجذوب، علي بن حجازي بن محمد البيومي الشافعي الخلوتي (ت 1183 هـ/1770م)، الذي أنكر عليه العلماء ذكره وجماعته بالمشهد الحسيني بسبب سيرهم حفاة، وتلوثيهم المكان، بل دعاه ليعقد درسا بالجامع الأزهر، فقرأ في الطيبرسية الأربعين النووية بحضور غالب العلماء، وقرر لهم فسكتوا عنه.(4)

ولما سمع علماء الأزهر بفتوى الواعظ التركي، عام 1123 هـ /1711م حين جلس بجامع المؤيد، وأنكر أعمال أهل مصر وتبركهم بالأضرحة، وإيقاد الشموع والقناديل على قبورهم، ونفى أن يكون الأولياء قد اطلعوا على اللوح المحفوظ، أجابه الشيخ أحمد النفراوي*** والشيخ الخليفي(5)، بفتوى جاء فيها أن

= (5) نفسه، ج1(دار الفارس)، ص 304.

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص404.

(2) عبد الغني النابلسي، الحقيقة والمجاز، ج1(دار المعرفة)، ص 67، 78، 156، 202.

* يونس بن عبد الوهاب بن أحمد بن أبي بكر العيثاوي الشافعي، فقيه دمشقي المولد والوفاة (898 ـ976هـ /1492 ـ1569 م)، له كتب منها "الجامع المغنى لأولي الرغبات."في فقه الشافعية و"شرح العناية"و"شرح الورقات" تصحيح الغاية و"توضيح التصحيح" أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، مطبعة كوستاتسوماس، (د.م.ط)، ط2، ج9، ص346.

(3) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 196.

** عبد الله بن محمد بن عامر الشافعي المشهور بالشبراوي (1091 هـ ـ ت 1172 هـ/1680 ـ 1758 م)، أخذ عن علماء مصر مثل الخرشي، اللقاني، الخيلفي. وصار شيخا للجامع الأزهر، وكان بارعا في النثر والنظم، ترك مؤلفات نافعة، وديوان شعر مسمى "منائح الألطاف". أنظر: المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 107 ، الجبرتي، المصدر السابق، ج1، ص 297.

(4) الجبرتي، نفسه، ص 380.

*** أحمد بن سالم النفراوي المالكي (ت 1207 هـ/1793م) كان فقيها ونحويا وأديب حاز على وظائف والده بعد وفاته، جلس للإقراء في رواق الأرواM والأتراك بالجامع الأزهر وتصدر مشيخته. نفس المصدر السابق، ج 2 (دار الكتب)، ص 377، 378. =

كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت، وأنه لا يجوز إنكار إطلاعهم على اللوح المحفوظ، وقد انتهى أمر الواعظ بأن تقرر نفيه وفرقوا جماعته.[1] وقد كان بمصر عدد من المتصوفة العلماء يلقون دروسهم في رحاب المساجد على طريقة الفقهاء، وكانوا أصحاب نفوذ على طلبة العلم، وازدحمت حلقتهم بمئات الطلبة مثل عبد الرؤوف المناوي* في القرن 11 هـ (17م)، والبيومي والدردير** والشبراوي و الحفناوي في القرن 12 هـ (18م)، مما أضعف من عادة الجهالة من أهل التصوف، كما تمكن العديد من المتصوفة من الوصول إلى معاقل العلم، والتغلب على الفقهاء في الأزهر مثلا حين تولى مشيخته بعض من كانوا علماء ومتصوفة معا كالشبراوي (1171هـ-1758 م) والحفناوي 1181 هـ (1768م) .[2]

وكان معظم العلماء في القرن 17م و 18م بالشام منتمين إلى إحدى الطريقتين الصوفيتين السنيتين (النقشبندية والخلوتية). وسادت بينهم معتقدات الصوفية الملامتية، وتصوف الحلاج*** ووحدة الوجود لابن عربي، ومثنوي جلال الدين الرومي.[3] كما حظي المتصوفة العلماء عند المصريين والشاميين بنفوذ كبير، إذ انقاد لهم الشعراء فمدحوهم والمجرمون فتابوا، والأغنياء فتجردوا من أموالهم وحتى الحكام ضعفوا أمام نفوذ الصوفية، وقد أثر ذلك على الحياة الفكرية، خاصة وأن المتصوفة اعتبروا الانشغال بالعلوم سواء الغريبة أو اللسانية أو العقلية، إنما هو انصراف عن عبادة الله، وهاجموا كل العلوم وتعصبوا لعلوم الدين، وكان لذلك أثر كبير في ثورة الناس على السياسة العلمية لمحمد علي باشا ومدارسه، التي أدخلت العلوم الحديثة وأثرت في مقاومة الأزهر لإدخال غير العلوم الدينية في برامجه الدراسية.[4]

= (5) أحمد بن يونس الخليفي الشافعي الأزهري (1131 هـ-1029 هـ/ 1718 م/1719 م - 1794) ، نحوي، منطقي، أصولي تلقى العلوم عن علماء عصره، تقلد وظيفة الإفتاء بالمحمدية وترك مؤلفات مثل شرح الشمسية وحاشية على شرح السمرقندية وغيرها.
نفس المصدر، ص 391، 392.

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 84، 85.

* عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين، الملقب زين الدين الحدادي المناوي القاهري الشافعي (952 هـ - ت 1031 هـ) 1545م - ت 1622م) كان من أجل علماء عصره عارفا بعلوم شتى الأدب، الحديث، الفقه، التصوف تقلد النيابة الشافعية ودرس في الصالحية وله تآليف عديدة منها الكواكب الدرية في مناقب السادة الصوفية . المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 412 - 416.

** أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي حامد العدوي المكي الخلوتي الشهير بالدردير (1127 هـ - ت 1201 هـ/1715م - 1786م) أصله من مكة ورد مصر وعاش فيها ودرس على علمائها مثل الدفري محمد وغيره، تلقى الحديث، الفقه وطريق الخلوتية تعين شيخا على المالكية وعلى رواق الصعايدة. له مؤلفات منها في الفقه "أقرب المسالك لمذهب مالك" . أنظر: الجبرتي، المصدر السابق ،ج1، ص 223، 224.

(2) توفيق الطويل، المرجع السابق، ص 209، 210.

*** هو أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج، قتل بأمر الخليفة العباسي المقتدر بالله سنة 309 هـ/922م، لأنه ادعى الربوبية وفي تصوفه حلول وإلحاد. مصطفى الخطيب ، معجم المصطلحات التاريخية، "ح"، ص 147. دائرة المعارف الإسلامية، مج8، ص17 -19.

(3) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 197.

(4) توفيق الطويل، المرجع السابق، ص 208.

غير أن الملاحظ وسط هذا الإنحدار الفكري، أن التفكير النقدي في الواقع، لم يكن غائبا تماماً بل إن تلك المظاهر السابقة كانت محفزا لعلماء آخرين ومفكرين، انتقدوا الأوضاع الفكرية السائدة من خلال دروسهم ومؤلفاتهم، وعبروا عن رفضهم لتلك الظواهر المنافية للدين؛ مثل حسن البدري الحجازي (ت 1131 هـ/1718م)* الذي انتقد علماء عصره، وانتقد الأزهر والمتصوفة شعراً بقوله :

ليتنا لم نعش إلى أن رأينـا	كل ذي جنة لدى النـاس قطبا
علماؤهم به يلوزون بل قد	اتخذوه من دون ذي العرش ربا
وإذا مــات يجـعلوه مزاراً	وله يهـرعون عـجما وعـربا

وذلك على الرغم من أن له أرجوزة في التصوف مؤلفة من 1500 بيت، وليس هناك شك من أن شعره النقدي، كان مظهراً من مظاهر حركية الحياة الفكرية. فهو ينتقد المتصوفة ويحذر منهم، كما أنه اعترض على العلماء ميلهم إلى المال، وإهمالهم العلم، واتهمهم بالتواطؤ مع الحكام والسكوت عن المنكرات. ومن مظاهر التفكير النقدي كذلك، أن الشيخ عبد الله الإدكاوي** قال هو الآخر شعراً في الرد على المنجمين.(1)

ففي النصف الثاني من القرن 18م (12 هـ)، ظهر نوع من النهوض والنمو الفكري المقاوم لتلك المظاهر بمصر مثل علي الصعيدي*** (1112 هـ ـ ت1189هـ/1700م ـ ت1775م)، الذي حرم شرب الدخان، وهاجم دوران الصوفية وغناءهم أثناء الذكر.(2) وكان عبد الرحمن الجبرتي(3) هـو الآخر من أحد

---

* حسن البد ري الحجازي الأزهري هو عالم فصيح ومتكلم ومنتقد لأهل عصره له طريقة بديعة في الشعر ونظم رسالة الوضع للعلامة العضد. الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 131، 132.

** عبد الله بن عبد الله بن سلامة الإدكاوي المصري الشافعي (1104 هـ ـ ت 1184 هـ/1693 م ـ 1770م)، كان بارعا في الأدب والفنون الأدبية فنظم ونثر وطارح الأدباء وتظم المدائح، حج عام 1147 هـ/1734م وله تصانيف منها: الد رة الفريدة، المنح الريانية في تفسير آيات الحكم العرفانية القصيدة الرذية وغيرها له ديوان شعر. نفس المصدر ، ص 400، 401.

(1) نفسه، ج3، ص 137، 138.

*** علي بن أحمد بن مكرم الله المنسفيسي العد وي المالكي الأزهري الشهير بالصعيدي كان متكلما روى عن جماعة من الأئمة في مصر مثل النفراوي، ولبس الخرقة الأحمدية وصار أحد علماء الأزهر وله مؤلفات منها حاشية على شرح الجوهرة لعبد السلام وحاشية على شرح السلم للأخصري وغيرها. أنظر: المراد ي، المصدر السابق، ج3، ص 206. الجبرتي، المصدر السابق، ج1، ص 476، 477.

(2) الجبرتي، نفسه، ص 478.

(3) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي (1167 هـ ـ ت 1237 هـ/1754 م ـ1822م)، ولد بمصر واشتغل بطلب العلم في الأزهر ولما دخل بونابرث لمصر، جعله من كتبة الديوان وانقطع للكتابة والتأليف من مؤلفاته "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" ذكر فيه حوادث مصر من الفتح العثماني إلى عام 1236 هـ، وكتاب آخر "مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس"، اعتزل بعد مقتل ابنه حتى مات. أنظر: خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 144.

الناقمين على الوضع الفكري بمصر؛ ففي كتابه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار"، ما يعبر عن موقفه الناقد الرافض والمستاء من تلك الأوضاع، ولا أدل على ذلك من أنه كان معجبا بالحركة الوهابية * ؛التي نادت بالإصلاح السلفي، وقادها محمد بن عبد الوهاب في الحجاز خلال القرن 19م، ثم إنه استغرب عدم إنكار بعض العلماء والفقهاء، للمفاسد الأخلاقية بل اقترفوها أيضا.[1] ورغم ذلك كان هناك من العلماء والشيوخ من ينكر قطعا، ما يفعله الدراويش والمجاذيب من منكرات.[2]

وحتى السلطة في مصر كانت تحاربهم، فقد قتلت العساكر بالقلعة الشيخ العليمي، الذي قدم إلى القاهرة من الفيوم عام (1110 هـ/1698م) وأقام بالمقهى، فاجتمع عليه العوام واختلط الرجال بالنساء، وحصلت مفاسد كبيرة بسببه.[3] كما أنه كانت فئة كبيرة من الناس، على وعي بدجل بعض المتصوفة وأنكروا عليهم، بل وتهجموا عليهم وسخروا منهم. ويصور المحبي والجبرتي مظاهر هذا الإنكار عند الناس. فمثلا كان الشيخ إبراهيم النبتيتي من أهل القرن 11 هـ (17م)، يقيم بجامع اسكندر باشا بالشام نحو عشرين عاما، كان الناس طوالها يسخرون منه، ويسبونه وبعضهم يطرده من المسجد خشية أن يلوثه بقذارته.[4]

واتخذ النزاع بين العلماء والمتصوفة في العصر العثماني، مظهرين أحدهما عن طريق العنف والآخر عن طريق المقاومة النظرية، بتأليف الرسائل للطعن في مزاعم الآخر، وكان غرضهم من ذلك هو الانتصار للدين والرغبة في الزعامة الدينية. والأمثلة كثيرة على تنكيل العلماء بالمتصوفة، حتى وإن كان تصوفهم عن فقه بالدين، فلما تولى عبد الرؤوف المناوي التدريس في المدرسة الصلاحية ثار العلماء ؛لأن التدريس فيها كان وقفا على الشافعية، وكان هو من أهل التصوف، ولكن لما حضر درسه شيوخ المذاهب لانتقاده تصدى لهم وأقنعهم بتقريره، و مع ذلك انتهى أمره بأن دس له السم، حتى شلّ بدنه ومات عام1031 هـ/1622م.[5] وكذلك الشأن عندما ثار الفقهاء ضد علي بن حجازي(ت 1182هـ/1768م)، لما قام بتدريس الأربعين

* الحركة الوهابية "هي حركة دينية تزعمها محمد بن عبد الوهاب (ت1206 هـ/1792م)، وهو أحد رجالات النهضة الدينية الإصلاحية الحديثة دعا إلى التوحيد الخالص، ونبذ البدع وما علق بالإسلام من أوهام". مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، "و"، ص 444.

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج3 (دار الفارس)، ص 74، 75، 137، 138، 401، 402.

(2) وقد ذكر الجبرتي أن الجنرال مينو في عهد الحملة الفرنسية بمصر أرسل للمشايخ يسألهم عن الدراويش و منكراتهم، هل هي مخالفة للدين أم لا، فأجابوه بحرمة ذلك ومخالفته للدين فأمر بملاحقتهم. نفس المصدر، ص 231.

(3) نفسه، ج1، ص50.

(4) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 62. وصور الجبرتي أيضا مظهراً لإنكار الناس، عند حديثه عن علي البكري (ت1027 هـ/1618م)، الذي صحبته امرأة فكان بعض الناس يضحك ويسخر منهم، وقام أحد الجنود وهو جعفر كاشف بضرب الذين كانوا يتبعونه وأدخل المرأة إلى المارستان. أنظر: الجبرتي، نفسه، ج 3، ص 137، 138.

(5) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 412، 413.

النووية في الطيبرسية لكنه أدهشهم بتقريره.[1] أما مظاهر الإنكار النظرية ؛ فتمثلت في التأليف كالفتاوى التي أصدرها الفقهاء في حق المتصوفة وأفعالهم، أو كتابة الرسائل القصيرة الحافلة بضروب السبّ والشتم، وهي مقتبسة من كتب السلف وقليل منها ما كان فيه فكر مبتكر، ومن الرسائل التي هاجم بها العلماء أهل التصوف رسالة باسم الصاعقة المحرقة، كتبها أحد العلماء عام 1105 هـ /1694م في الفقراء الذين اتخذوا الرقص واللعب دينا وعبادة، ومنهم من دافع عن التصوف، لكونهم جمعوا بين الفقه والتصوف معاً.[2]

ومن الواضح أن مظاهر النقد الفكري لم تنقطع طوال العهد العثماني، سواء في الدولة العثمانية أو في ولاياتها، وذلك لأن الأزمة التي غلبت على الحياة الفكرية والدينية خاصة ؛ هي تناقض ممارسات الصوفية مع ما ينص عليه الإسلام السني، ففي كل مرة كان ينقسم العلماء إلى مؤيد ومعارض، ففي القرن 16م مثلا برز في القسطنطينية خلال السنوات (1558م ـ1565م/965 هـ ـ972هـ)، الشيخ محمد البرغوي (1522 م ـ1573م/928 هـ ـ980هـ)، في عهد السلطان سليمان القانوني، والذي ثار منتقداً الأوضاع الفكرية، واعتبر أنه من واجبه حماية الأمة من مفاسد أصحاب علم الكلام والصوفية، وممارساتها المنافية لتعاليم الإسلام، وكرد على ذلك أصدر شيخ الإسلام أبو السعود، فتوى تقر بشرعية كل ما رفضه البرغوي.[3]

ويرجع ذلك إلى أن العلماء الرسميون في الدولة، كانوا يؤيدون الصوفية وممارساتها، ويستند رأيهم هذا إلى مبدأ الإجماع الذي يقوم عليه المذهب الحنفي الأكثر تسامحاً، ولذلك لم ينظروا إلى تلك الممارسات على أنها منافية للدين، مادام حصل الإجماع على صحتها. فالعلماء الرسميين لم يروا في الغناء والرقص عند الصوفية من منكر، وإنما غرضه الحصول على النشوة الدينية. واعتبروا الصوفية هي الوسيلة الحقيقية للوصول إلى المعرفة الدينية.[4]

ومهما يكن فإن آراء البرغوي وأفكاره العملية الرافضة للبدع، قد لقيت شعبية سواء بين الناس أو رجال الدين، خاصة كتابه الذي ضمنه آراءه وهو بعنوان "الطريقة المحمدية في السيرة الأحمدية"، وشكلت هذه المبادئ نوعا من المدارس الفكرية، فهو مهد لميلاد فكر سني ثان ذي صبغة "سلفية"، بديلا للفكر السني

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 380.

(2) توفيق الطويل، المرجع السابق، ص 175 ـ 178.

(3) خليل إينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الإنحدار، تر. محمد .م.الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، ،2002م، ص 278. ومن آراء البرغوي : رفض إحياء المناسبات في المقابر وزيارة الأضرحة واعتقاد كرامات الموتى ورفض الانحناء وتقبيل اليد واعتبرها مناقضة للإسلام السني الصحيح وكانت كتاباته ترفض التعاويذ والرقص والغناء في المناسبات الدينية. ولا شك في أن أفكاره انبثقت من أفكار ابن تيمية العالم السلفي الشهير في القرن 14م (661 هـ ـ 728 هـ/1263 م ـ 1328م).

(4) نفسه، ص277.

الذي تتبناه السلطة العثمانية.[1]وفي القرن 17م (11هـ) خلال عهد محمد الرابع (1648م ـ1687م/1058 هـ ـ 1098هـ)، ظهرت دعوة مجموعة من الوعاظ اشتهروا باسم "الفقهاء"، قادها تلميذ البرغوي قاضي زاده محمد أفندي(ت1635م)، و الذين نادوا بمثل آراء البرغوي، وشنوا حملة من منابر الجوامع في اسطنبول، غير أنهم كانوا معارضين للصوفية مطلقا، وقد لقيت دعوتهم رغم ما كان يصحبها من مصالح ذاتية، تأييد بعض رجال البلاط، بل حتى السلطان أصدر عدة مراسيم منع فيها التدخين وشرب الخمر، ووصل بهم الأمر إلى الثورة عام 1656م/1066هـ، وهجموا على التكايا الصوفية، بهدف التخلص من الهرطقة الدينية، وكان من أتباعهم العديد من الطلاب الفقراء في المدارس وصغار التجار.[2]

والواضح أن أغلب الدعاة الرافضين لمظاهر الصوفية، كانوا من العلماء الشعبيين الذين يعظون في الجوامع، وخطباء المساجد والمدرسين، ورغم مكانتهم العلمية، إلا أنهم لم يكونوا قادرين على قلب الأوضاع، رغم الصدى الشعبي الذي يمكنهم إحداثه، ولولا تعصب هذه الثورة، ومعارضة أتباعها للعلوم الرياضية وعلم الكلام والفلسفة.[3] لكانت عدت نهضة على غرار ما فعلت الوهابية في الحجاز في القرن 19م. ومنه فإن هذه الحركات التي لم تنقطع في الفترة العثمانية، تؤكد على وجود الأزمة، كما تؤكد من جانب آخر على وجود الصحوة الفكرية، ومحاولة التجديد والإحياء، حتى وإن كان الأمر في إطار الدين فقط لكنها كانت تكبت بسبب عدم دعم السلطة.[4]

وعلى كل لا يمكن أن يطغى التصوف العامي السلبي الأثر، على الفكر التأملي الفلسفي لبعض المفكرين المتصوفين، كتلك التي طرحت من قبل في أيام ازدهار التصوف على يد محي الدين بن عربي* (560 هـ ـ638 هـ/1165م ـ1240م)، فقد ظلت مثلا "وحدة الوجود"، مدار نقاش وجدل بين كبار المتصوفة والعلماء على الرغم من معارضتهم لها وتكفيرهم للقائل بها. كما أن بعض الطرق الصوفية كانت تقوم بعمليات تربوية، وسعت لتطبيع اجتماعي، مهامه الدعوة إلى التربية الدينية والروحية فقد أدت

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 250، 251.

(2) خليل إينالجيك ،تاريخ الدولة العثمانية، ص 279، لويس برنار، اسطنبول، ص 193، 194. لقد قضى الصدر الأعظم محمد كوبرولو (ت 1661م) على هذه الثورة بإبعاد الفقهاء زعمائها عن اسطنبول ،وقد وصف حاجي خليفة في كتابه "ميزان الحق في اختيار الأحق" هذه الثورة والقضايا التي عالجتها وقد اعتبرها وغيره من المفكرين ، أنها عبرت عن التعصب أكثر من كونها فكر ديني نقدي بالمعنى الحقيقي. أنظر : أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق، ص 252.

(3) خليل إينالجيك، نفسه، ص 276 ـ 278.

(4) نفسه، ص 280. و ذلك لأن السلطة كانت على المذهب الحنفي أما تلك الحركات فكانت تستند إلى آراء الحنابلة.

* محي الدين بن عربي هو أبو بكر محمد بن علي بن عربي الطائي، مفكر وشاعر ووشاح صوفي أندلسي المولد ،أثرى القاموس الصوفي =

الطرقية دوراً هاما في الحفاظ على التراث الديني والقيم الروحية بين الشعب، وهي تضم مستويات تعليمية متباينة، كان لها أثر على المجتمع.[1] إذ كان شيوخ الطريقة النقشبندية مثلا بمصر، يعلمون الطلبة أصول الطريق مثل أحمد بن محمد الدمياطي(ت 1117هـ/1705م)، الذي أخذ أصول الطريق باليمن، وعلمها بمصر وتخرج عليه أئمة كثيرون.[2]

وهناك طريقتان في مصر، كان لهما دور كبير في الصحوة الثقافية في أواخر القرن 18م، ومارستا نفوذها حتى في النصف الأول من القرن 19م ؛ وهما الطريقة "الخلوتية" والطريقة "الساداتية الوفائية"، فقد ظل الأدباء في ظل الطريقة الوفائية ينشدون الشعر، ويشيرون إلى التراث الثقافي الفاطمي والفارسي في كتاباتهم، ووصل أعضاؤها إلى أغلب الوظائف الهامة لمعرفتهم باللغة والأدب، وعمل بعضهم في الصحيفة الرسمية"الوقائع" و مطبعة بولاق، و اشتغلوا في الترجمة والتدريس، وكذلك الشأن بالنسبة لأتباع البكرية.[3]

كما أن الطرق الصوفية بمصر، خلال القرن 18م حصلت في كتاباتها تحولات هامة ، خاصة في ميدان "الحديث"، والأدعية التي تتضمنها الشعائر الدينية، حيث حصل إحياء هام في دراسات الحديث، من طرف علماء الصوفية، ففي كتب التفسير والحديث والشروح التي وضعها أولئك المتصوفة، كانت هناك نقاط لم تكن موضع اهتمام كتب الحديث المتقدمة أو المتأخرة.[4]

ومنه يمكن القول أن الصوفية كان لها تأثير هام، سواء بشطرها السلبي أو الإيجابي على الساحة الفكرية في مصر والشام، وساهمت بشكل واضح في تحديد السمات البارزة لمسيرة الفكر العربي، في مراحل انحطاطه ونهوضه، لكونها كانت الطابع الغالب في العهد العثماني، بحيث اتضح أن الفكر في هذا العصر كان على مراتب، فبينما كان في انحطاط بالنسبة للشعب، فإنه شهد صراعات فكرية بين طبقة العلماء، ظهر من خلالها أن حركية التفكير لم تخمد بل كانت مستمرة.

= بما أضافه من ثروة لغوية ، فهو يرى أن لكل لفظ معنيين ظاهر وباطن وهو من أنصار وحدة الوجود. له ديوان شعر يعرف بترجمان الأشواق ،وفصل رؤيته الصوفية في كتابيه "فصوص الحكم" و"الفتوحات المكية "، توفي مقتولا بدمشق، وأقر السلطان سليم الأول بسنيته وجعل كتبها ضمن المناهج الدراسية ورمم ضريحه بدمشق . دائرة المعارف الإسلامية ،مج1، ص231 ــ236 .

(1) منال عبد المنعم السيد جاد الله، أثر الطريقة الصوفية في الحياة الاجتماعية لأعضائها، دراسة أنثروبولوجية في مصر والمغرب، رسالة دكتوراه في الأداب (منشورة) ، إشراف محمد علي أبوريان فاروق أحمد مصطفى، (د.د.النشر)، (د.م.ط)، 1990م ، ص 53.

(2) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس) ، ص 141، 142.

(3) بيتر جران، المرجع السابق، ص 213، 214.

(4) نفسه، ص 82.

المبحث الثاني : تأثير العلماء و الأوقاف والأمراء في الحياة الفكرية

1ـ العلماء:

أـ مكانة العلماء بمصر والشام

لقد كانت مرتبة العلم بفروعه، النقلية والعقلية، بالنسبة للمجتمع العربي، وللسلطة العثمانية الحاكمة في أسمى مراتبها، خاصة العلم الديني ويلحق به علوم اللغة العربية. وقد كانت مكانة العلم والعلماء معاً راسخة في أذهان مجموع الناس والمثقفين، حيث اعتبروا ورثة الأنبياء، وأن مرتبتهم تفوق الحكام. واحترمت الدولة العثمانية العلماء عامة، سواء كانوا على المذهب الحنفي (الرسمي) أو على المذاهب الأخرى، وسواء كانوا أتراكاً أم عرباً، فكانت الدولة تقبل وساطتهم بينها وبين رعاياها، وعملت على استرضائهم رغم كونها عاملتهم في أحيان أخرى بشدة.[1]

وحتى في الفترة المدروسة بين القرنين 16م و 18م، وإلى منتصف القرن 19م ظل للعلم قيمة اجتماعية محببة، يتطلع إليها المجتمع بمعظم فئاته، وقد بدا ذلك من خلال أقوال بعض العلماء مثل، أحد شيوخ دمشق "عمر القاري الدمشقي*(ت 1046 هـ/1636) قوله :

لولا ثلاث هن أقصى المراد	ما اخترت أن أبقى بدار النفاذ
تهذيب نفسي بالعلوم التي	بها لقد نلـت جميـع المــراد.[2]

ومن مظاهر اهتمام الدولة العثمانية وحرصها على نهضة ورقي العلماء و الرفع من شأنهم، أنها اهتمت بإنشاء المدارس الكبرى، لتخريج هذه الفئة في بورصة وأدرنة واسطنبول، وحتى في المدن الكبرى بالولايات (الشام، مصر)، كما كانت تدقق في مستوى خريجي تلك المدارس، وفرضت شروطا كثيرة على من ينضم إلى طبقة العلماء**، وقد أوجدت لهذه الطبقة تنظيماً خاصاً في عهد سليمان القانوني.[3] واستمر هذا

---

(1) ليلى الصباغ، من أعلام الفكر، ص 15.

* عمر بن محمد بن أحمد وقبل عبد القادر بن أحمد الملقب بزين الدين القاري الشافعي الدمشقي كان مفتيا محدثا وفقيها وأصولي حسن الخط، درس الحساب، البيان والهيئة وأخذ إجازة في الحديث وكان شيء من الشعر (958 هـ ـ ت 1046 هـ/1551م ـ 1636م) . المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 223 ـ 224.

(2) نفسه، ص 224.

** تتمثل طبقة العلماء في الفئة المتفقهة في الدين وتشمل رجال الدين أو رجال القانون، ولكن بمفهومها الواسع هي تشمل أعضاء محاكم العدالة والمؤسسات الدينية و التعليمية كالجوامع، المدارس وغيرها، إضافة إلى الطلبة و المسؤولين عن الجماعات الصوفية وطوائف الأشراف. أندري ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، تر. لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1991م، ص 63.

(3) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 121. J. Hammer , op.cit , To.6, PP. 257,258

التنظيم إلى غاية القرن 19م، ولكن مستواه وتأثيراته تغيرت بتغير الظروف التي شهدتها الدولة.[1] وشكل العلماء عربا وأتراكا نواة المؤسسة الدينية في جهاز السلطة العثمانية، فقد انتظموا في سلسلة من المراتب، وبدرجات مختلفة يترأسها شيخ الإسلام.[2]

وقد كان تأثير التنظيم العثماني، في طبقة العلماء في الشام أقوى منه في مصر، فقد بقي نشاطهم وحريتهم في نطاق ضيق، بسبب توزع نفوذهم بين عدة مدن كحلب، طرابلس، دمشق. ونتيجة لكثرة المدارس الدينية وتبعثر العلماء بينها، صعب وجود ترابط فيما بينهم يجعلهم قوة واحدة. الأمر الذي مهد السبيل أمام السلطة، لتمارس حقها التنظيمي بين الآونة والأخرى.أما في مصر فكانت حرية العلماء أكبر بسبب وجود الأزهر، الذي كان عاملا قويا في تدعيم مركزهم، ووقوفهم قوة في وجه السلطة العثمانية.[3]

فقد كان الحكام والأمراء في مصر خلال القرنيين 17م و 18م يخشون علماء الأزهر، ولا يستطيعون رد لهم مطلبا أو شفاعة، وحتى علماء دمشق كانت لهم مكانة سياسية بفضل ما تمتعوا به من تأثير معنوي وديني وفكري على المسلمين عموماً، فكانت أهميتهم تنبع من تضلعهم في الفقه وعلوم الشريعة الأخرى، و توليهم وظائف التدريس والخطابة وغيرها.[4]

ب ـ وظائف العلماء:

كان العالم يسعى جاهداً ليكون ضمن أعضاء الدواوين، والمجالس ويحتل مواقع رئيسية في المؤسسات المدنية القضائية والدينية والتعليمية.[5] وكانوا يعينون في هذه الوظائف من قبل القاضي، ويتقاضون رواتبهم من الأوقاف. غير أنهم لم يشكلوا جهازاً حكوميا ملحقا بالإدارة المركزية، فقد كانوا يمارسون إلى جانب وظائفهم الرسمية أعمالا أخرى، خاصة في مجال الحرف، ويرجع ذلك إلى أن الرواتب التي يتقاضونها لم تكن كافية في كثير من الأحيان.[6] ورغم أن العلماء كانت لهم نظرة متدنية إلى حد ما، لأصحاب الحرف مقارنة مع نظرتهم لأرباب العلم، إلا أن هناك العديد من العلماء، الذين جمعوا بين الحرفة والعلم والأدب

---

(1) J. Hammer , op.cit , To.8, PP. 365,366.

(2) وجيه كوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1982م، ص 42.

(3) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 125.

(4) ليندا شيلشر، المرجع السابق، ص 144.

(5) نفسه.

(6) وجيه كوثراني، المرجع السابق، ص 44.

مثل محمد بن علي بن أحمد الحريري الدمشقي (ت 1059 هـ/1649 م)، كان نحويا وأديبا شاعراً، ومع ذلك كان له حانوت يصنع به القماش المتخذ من الحرير، فكان الكثير من الطلبة يقصدونه هناك فيقرؤون عليه، وهو يشتغل ولا يشغله شاغل عن العلم.[1] ومحمد بن يحي الخباز المعروف بالبطنيني الدمشقي الشافعي (ت 1075 هـ/1664م)، الذي كان خبازا في أول أمره ثم تدرج في العلوم وصار فقيها ومحدثا .[2] ومن أمثلتهم أيضا خير الدين بن أحمد العليمي الرملي، (993 هـ ـ ت 1081هـ/1585ـ 1670م)، الذي تولى الإفتاء والتدريس بالرملة، ومع ذلك كان يشتغل في البستان وجمع أملاكا وعقارات، ورمم بأمواله الجوامع والمساجد ومدافن العلماء. [3]ومحمد ميرزا السروجي الدمشقي (ت 1088 هـ/1677م)، الذي كان يصنع السروج ويبيعها ويطلب العلم أيضا.[4] ويحي الحلبي الشهير بالعقاد (عاش في القرن 18م)، الذي كان بارعاً في الشعر وله نظم عجيب، وكان يشتغل بحرفة العقادة بسوق الباطية، ويحضر عنده أحبابه للمذاكرة معه.[5]

ورغم أن محمد بن أحمد الشافعي العاني الدمشقي(ت 1191هـ/1777م) كان له وظائف تدريس بالجامع الأموي والسليمانية، إلا أنه كان يشتغل بالزراعة في القرى.[6]وهناك أسر في دمشق وفقت بين العلم والأدب و التجارة، مثل حسن بن أحمد الدمشقي المعروف بابن الحجار (988 هـ ـ ت 1051 هـ/1580 م ـ 1641م)، الذي كان من عائلة تجار. [7] وآل المحاسني الذين كانوا يشتغلون في الخطابة والتدريس بالجامع الأموي وعملوا كذلك في التجارة. [8]

أما في مصر فكان عبد الرحمن بن شحاذة، المعروف باليمني الشافعي المصري (975 هـ ـ 1562م ـ ت 1050 هـ /1640م) شيخا في القراآت، واشتغل بالتجارة أيضا وكان يكرم الطلبة.[9] وخلال القرن 18م، نذكر الشيخ مصطفى الخياط (ت 1203 هـ/1790م)، الذي اشتغل بحرفة الخياطة وعقد حلقات الدرس في مكان اشتغاله بصنعته.[10]و منهم الفقيه سليمان بن عمر بن منصور العجيل الشافعي الأزهري المعروف

---

(1) المحبي، المصدر السابق، ج 4، ص 49.

(2) نفسه، ص 264.

(3) نفسه، ج2، ص 138.

(4) نفسه، ج4، ص202.

(5) المرادي، المصدر السابق، ج 4، ص 235.

(6) نفسه، ص 29.

(7) المحبي، المصدر السابق ، ص 15.

(8) المصدر السابق، ج1، ص 250، 254.

(9) المصدر السابق، ص 358.

(10) الجبرتي، المصدر السابق، ج2(دار الكتب)، ص 28.

بالجمل (ت 1204 هـ/1790م)، الذي كان يشتغل إماماً وخطيباً بالمسجد، وفي نفس الوقت كان مدرساً في الأشرفية والمشهد الحسيني.[1] و لكنهم رغم ذلك ساهموا في دعم الحياة العلمية بإنشائهم المدارس، ووقفهم الأوقاف على أهل العلم ومؤسسات التعليم.

وفي حين فضل الكثيرون الاشتغال بالحرف وممارسة العلم في آن واحد، فضل غيرهم الدخول في صراعات فيما بينهم على المناصب و وظائف الدولة، سواء الدينية أو التعليمية، خاصة مع انتشار ظاهرة الرشاوي ووراثة المناصب، وتزكية العلماء لبعضهم البعض، وأدى ذلك إلى ازدياد الأحقاد فيما بينهم، وازدياد الوشايات التي كثيراً ما كانت تنتهي بفقدان العالم منصبه؛ مثل علي الصعيدي وهو عالم مصري الذي تنافس على منصب الإقراء ومناصب أخرى، مع أحمد بن سالم النفراوي (ت 1207 هـ/1792م) الذي حاز على مناصب والده بعد وفاته، فأوغر الصعيدي صدر الأمير أبي الذهب فجرده من مناصبه.[2]

وفي المقابل كان هناك من العلماء من ترفع عن تلك المناصب، فقد عرض على محمد بن أحمد بن حسن الخالدي (1151 هـ-1215 هـ/1738-1800م)، الإقراء في الأزهر والمشهد الحسيني بعد وفاة أخيه الأكبر الشيخ أحمد، إلا أنه رفض وفضل البقاء في إملاء الدروس بالأشرفية، ثم إنه رفض منصب مشيخة الجامع الأزهر، لما عرضوها عليه بعد موت الدمنهوري*، وأشار عليهم من يتولاها عوضا عنه.[3] وحتى في الشام خلال القرن 19م، كان هناك علماء يفضلون التفرغ للعلم، فيعرضون عن المناصب التي تقدم لهم، مثل محمد شاكر العمري العقاد الدمشقي** (1157 هـ - ت1222هـ/1744م/1807م)، الذي كانت تعرض عليه الوظائف المختلفة فلا يقبلها، ويحب الاختفاء في الزوايا والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.[4] ونسيب بن حسين المعروف بابن حمزة الدمشقي(1201 هـ - ت1265 هـ/1788 م/1852م)*** الذي رفض منصب

---

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج2(دار الكتب)، ص 284.

(2) نفسه، ص 377، 378.

* أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهوري المذ اهبي الزهري (1101 هـ - ت 1192 هـ/1689م - 1778م) من دمنهور بمصر، أجازه العلماء في المذاهب الأربعة في الفقه، وأفتى على كل المذاهب و له معرفة بالعلوم الغريبة، درس بالمشهد الحسيني وتولى مشيخة الأزهر. نفس المصدر، ج1(دار الفارس)، ص 525 . المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 117.

(3) الجبرتي، نفسه، ج3، ص 267.

** محمد شاكر بن علي بن سالم العمري الشهير بالعقاد الدمشقي الخلوتي . تلقى المعارف على علماء دمشق ولازم الكزبري محمد 50 سنة وأجازه أكثر الذين أخذ عنهم، كما أنه أخذ التصوف على طرق عديدة وكان حسن التقرير في درسه ولذلك كثرت طلبته كان لا يقبل الوظائف ويتجنب الاجتماع بالأمراء. محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 140، 141.

(4) نفسه، ص 141.

*** نسيب بن حسين بن يحي بن حسن بن حمزة الحسيني الدمشقي الحنفي أخذ علوما شتى عن شيوخ عصره مثل النحو والفقه والحديث=

الإفتاء ونابة الأشراف بدمشق.[1] وكان عبد الله بن سعيد الحنفي الدمشقي الحلبي الأصل (1223 هـ ـ ت1286 هـ/1808م/1869م)* ، يرفض المناصب الكبرى التي تعرض عليه، ويشير إلى غيره ليتولاها ؛ مثل نظارة الجامع الأموي وفتوى دمشق، التي عرضت عليه مرتين فرفضها.[2]

ج ـ علاقة العلماء بالسلطة :

لقد حرصت طبقة العلماء منذ العصور الإسلامية، على أن ترتكز السلطة الدينية والزمنية في يدها، ولكن التطورات التي عرفتها الدولة الإسلامية، أدت إلى أن اختصت الحكومة بمهام مغايرة لاختصاصات المؤسسة الدينية، مع بقاء التكامل بينهما.[3] فقد كانت السلطة العثمانية الحاكمة، تجل العلماء وتمنحهم الجرايات وتعفيهم من المصادرة، وتقبل وساطتهم بينها وبين الرعية في رفع المظالم، ولم يعرف عن السلطة قتلها العلماء أو التنكيل بهم إلا نادراً، فلم تكن تبيح قتلهم بل تطرد الذين يسرفون منهم إلى البلاد البعيدة.[4] ووجد العرب في مصر والشام خلال العهد العثماني، في قطاع الوظائف الدينية، مجالا للتعبير عن السلطة المحلية في الولايات، إذ كان المفتون والقضاة في أغلبهم من السكان المحليين.[5]

وكانوا يقومون في الهيكل العام للمجتمع، بدور الوسطاء بين الرعايا والسلطات، التي كانت تحتاج إليهم كمعاونين في العدالة والحكم، لكونهم دعائم قوانين الشريعة ومفسريها. فكانوا يجلسون في مجالس الحكام ويعملون مستشارين لهم أو حتى مراقبين، فكثيراً ما دافعوا عن حقوق الرعايا ولو بالعنف في وجه الحكام. وكانت مع ذلك السلطة والشعب يكنون الاحترام للعلماء، فقد وجد فيهم الشعب ملاذا يعتصم بهم من غضب الحكام، بل إن كثيراً من العلماء تصدروا الحركات الشعبية ضد الظلم. ومع ذلك كان البعض منهم، يسايرون الحكام للحصول على الوظائف والأموال، ولذلك كانت تستخدمهم السلطة في مناوراتها مع الرعية، فكانوا يميلون تارة إلى الرعية إذا ثارت، وتارة أخرى إلى الحاكم إذا تغلب، وينقسمون على أنفسهم إذا التبس عليهم الأمر.[6]

= وله مؤلفات مثل شرح على الكافي في العروض، ديوان شعر سماه "فريضة الفكر". أنظر: خليل مردم بك، المرجع السابق ، ص 24 ـ 26.

(1) خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 25، 26.

* عبد الله بن سعيد بن حسن الحنفي الدمشقي ولد بدمشق ونشأ بها جلس مكان والده للتدريس بالجامع الأموي وكانت معيشته من تجارة الحرير وكان يعقد الدرس في بيته فيحضره العلماء والتجار وانتفع به عدد كبير. أنظر: محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 187، 188.

(2) نفسه ، ص188.

(3) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 119.

(4) فقد قامت بصلب محمود البواب الذي ثبت عليه تهمة تحقير علماء دمشق فالدولة لم تكن تتسامح في أمور الدين خاصة الارتداد. أنظر: ليلى الصباغ، من أعلام الفكر، ص 234. =

ففي مصر خلال القرن 18م كان الأزهر بعلمائه وطلبته يمثل مركزاً لمقاومة الظلم والطغيان، فقد نصب فريق من العلماء في فترات مختلفة، أنفسهم مدافعين عن الرعية أمام الأمراء؛ على غرار أحمد السمنودي والصعيدي الحنفي ومحمد الجوهري، وأحمد العروسي * والشيخ البيلي ** وأحمد الدردير وغيرهم من الذين شاركوا المصريين ثوراتهم ضد الظلم . فكان لهؤلاء العلماء الجرأة في الحق ورفض الظلم، وشفاعتهم لا ترد؛ مثل تدخل الشيخ العروسي عند حسن باشا، بسبب شكوى الناس من ارتفاع الأسعار، فاستجاب له ووضع تسعيرة ثابتة للبضائع في الأسواق. كما أنه تدخل مرة أخرى ولنفس السبب لدى إسماعيل بك.[1] وكذلك أحمد الدردير (1127 هـ ـ1201 هـ/1715م ـ1787م)، الذي كان ينهى عن المنكر ولا يخاف في الحق أحداً غير الله.[2] واستمر دورهم حتى في فترة الحملة الفرنسية، سواء ضمن الديوان أو في الذود عن الرعايا.[3]

ولذلك كان الأزهر أكثر قوة وتأثيراً في مصر، بعلمائه وطلبته من الشام. ولم تتقهقر مكانة العلماء وتتراجع أدوارهم، إلا منذ قيام حكم محمد علي باشا في القرن 19م. الذي تجاهل الأزهر وسيطر عليه، بالالتفاف حوله أكثر من الاهتمام بإصلاحه من الداخل. كما أنه أكرم العلماء ،ولكن لم يمنحهم أي سلطة أو قوة مؤثرة، بل سحب منهم امتيازاتهم؛كإدارة مؤسسات الالتزام والأوقاف،التي كانت تدر عليهم أموالا ولذلك فإنهم عارضوا سياسته الإصلاحية.[4] غير أن محمد علي باشا مع ذلك لم يقضي على طبقة العلماء، أو يستبد بها أو يجبرها على قبول الإصلاح، ذلك لأنه لم يكن في الواقع يرغب أن تقف هذه الطبقة في وجهه بالقوة، خاصة وأنها كانت قادرة على أن تلف الشعب حولها، و لذلك كان يعمل على تحييد

= (5) وجيه كوثراني، المرجع السابق، ص 43.

(6) أندري ريمون، المرجع السابق، ص 65.

* هو أحمد بن موسى بن داود أبو الصلاح العروسي الشافعي الأزهري (1133 هـ ـ ت 1208 هـ/1720م ـ1795م) أخذ علوم الحديث والفقه عن علماء مصر مثل الملوي وعبد الله الشبراوي ولازم علي الصعيدي وأخذ العلوم العقلية كالرياضيات والجبر على حسن الجبرتي درس بالأزهر وشغل منصب مشيخته وقرظ الشعر وله مؤلفات منها حاشية على شرح الملوي للسمرقند ية.

أنظر: الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب) ، ص 382 ـ 384.

** هو أحمد بن موسى بن أحمد بن محمد البيلي العدوي المالكي، (1141 هـ ـ1213 هـ/1728م/1729م ـ 1798 ،1799م) جاور بالأزهر ولازم الشيخ الصعيدي وكان له براعة في علم الأوفاق درس ونفع الطلبة وتولى مشيخة رواق الصعايدة. نفس المصدر، ج3، ص 103.

(1) نفسه، ج2، ص 205 ـ 242.

(2) نفسه، ص 222.

(3) مصطفى عبد الغني، المرجع السابق، ص 33، 34.

(4) Afaf .Loutfi EL Sayed,«The Role of The Ulama in Egypt During the Early Nineteenth Century» In .P. M .Holt, Political and Social change in Modern Egypt,historical studies from the Ottoman conquest to the United Arab Republic ,Oxford University press, London, 1968, pp . 277 ,278. =

العلماء وتكريمهم،بإعفـائهم من الضرائب و تقديم العطايا لهم . وهذا ما يوحي بأنهم رغم كل شيء حافظوا على نفوذهم، وعلى قوة كان يعمل لها ألف حساب.[1] أما في بلاد الشام فرغم صعوبة تحقق الوحدة بين العلماء،إلا أنهم لعبوا أدواراً هامة؛على غرار علماء مصر بل كانت لهم جرأة كبيرة أمام الأمراء، في سبيل رد الظلم عن الشعب مثل الشيخ محمد العيثاوي الدمشقي (ت 1080 هـ / 1669م)* ،الذي كان متصلبا في أمر الدين، وذكر المحبي عنه أنه دخل على محافظ الشام في مصلحة متعلقة بالخانقاه السمسياطية فتشاغل عنه، فمسك الباشا من طوقه "وقال له أنظر في أمر هؤلاء الفقراء،واقضي مصلحتهم فالتفت إليه وقضى له ما جاء فيه".[2]

وفي القرن 18م/12 هـ كان أبو المواهب الحنبلي الدمشقي (1044 هـ ـ ت 1126 هـ/ت 1634 م ـ 1714 م)** يهابه الوزراء والأمراء، واشتكى له الناس عام (1115 هـ/1703م)، من ظلم والي دمشق محمد باشا بن كرد بيرم، فأرسل له ورقة مع خادمه فرفع المظلمة عن الناس.[3] وكان منهم من حرض الناس على الجهاد،مثل الشيخ أحمد بن عبد الله الحمصي الدمشقي، المعروف بالعطار إمام الشافعية (1138 هـ ـ ت 1218 هـ/1725 م ـ ت 1805م)، الذي نادى الناس للجهاد لما دخلت العساكر الفرنسية إلى عكا، وصفد ونابلس وجاهد هو بماله ونفسه.[4]

و خلال القرن 19م برز الشيخ سعيد بن حسن الدمشقي الحنفي الحلبي (1188هـ ـ ت 1259 هـ /1774م ـ 1843م)، الذي دافع عن الأهالي أيام استيلاء إبراهيم باشا على بلاد الشام.[5] والثابت أنه حتى الشعب، لم يكن يتوانى عن نصرة العلماء متى تعرضوا للظلم.[6]واستمر ذلك طيلة العهد العثماني.

=Nada . Tomiche, « Notes sur la hiérarchie Sociale en Égypte à l’époque du Muhammad Ali »,in, p.M. Holt , ibid , P . 254.

(1) بيتر جران، المرجع السابق، ص 210، 212.

* محمد بن محمد بن أحمد العيثاوي الدمشقي أخذ بأنواع الفنون ودرس وأفاد وانتفع به الناس له تحريرات على التفسير وغيره وولي آخر أمره تدريس البخاري تحت قبة النسر بالجامع الأموي. المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 201، 202.

(2) نفسه.

** أبو المواهب بن عبد الباقي بن عبد القادر بن عبد الباقي الحنبلي الدمشقي ، أخذ عن والده وعن علماء دمشق ومصر والحرمين قرأ صحيح البخاري وأخذ الأصول والفرائض والحساب ومن تآليفه منها رسالة في قواعد القراءة وبعض كتابات على صحيح البخاري. المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 67، 68.

(3) نفسه، ص 69.

(4) خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 32.

(5) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 127.

(6) فقد ثار الشعب في دمشق لما حبس القاضي عام 1262 هـ/1845م) حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي الشافعي (1206 هـ ـ 1272 هـ/1791م ـ 1855م) حتى أخرجوه واعتذر منه القاضي. نفس المرجع، ص 80.

د ـ دور العلماء في الحياة الفكرية :

لقد لعبت طبقة العلماء الممثلة في المؤسسة الدينية، دوراً هاماً في الحياة الفكرية، وأصبح لها في فترات عديدة تأثيرا عميقا على مسار الفكر العربي و خلال الفترة المدروسة. فقد مال الفكر لدى العلماء منذ منتصف القرن 16م إلى القرن 18م، نحو التشدد و الإنطواء على الذات، حفاظا على السمات الأساسية للدين خاصة، وخوفا من دخول أفكار مغايرة تهدم مقومات الإسلام السني.[1] و تفقد المجتمع مميزاته التي حافظ عليها منذ العصر المملوكي، ولذلك كانت طائفة العلماء خلال هذه المرحلة، منطوية على نفسها إلى حد كبير، وتسعى لبعث دينها ومذاهبها وفقهها، عن طريق التعليم والتأليف والوعظ. و صحب ذلك الانكفاء خوف دفين من كل جديد، عند مختلف فئات المجتمع، نظراً لتصلب العلماء المتشددين في آرائهم الدينية.[2]

ويمكن اعتبار هذا الأمر مؤثرا عميقا، في السمات التي بدت عليها الحياة الفكرية في القرن 17م و 18م في مصر والشام، وحتى في الدولة العثمانية ككل، فقد كادت الحياة العلمية تخلو من الإبداع واتخذت سبيلها في مجاري التقليد، وحتى مفهوم العلم كان لا يرتبط عند أغلب علماء هذه المرحلة باكتساب معرفة جديدة، بل التمكن من استيعاب الإنتاج الفكري للأجيال السالفة، وكان أعظم القدر يعطى للتفقه في الدين و الشرع الإسلامي، وإهمال ما دون ذلك إلا في نطاق محدود.[3]

وكان التعصب و غلق باب الاجتهاد ، من أسوء مظاهر التأثير السلبي للعلماء على الفكر، فقد وقفت المؤسسة الدينية في الدولة العثمانية ككل، وفي مصر والشام منذ أواخر القرن 16م إلى القرن 18م، موقفا معارضا للعلوم العقلية، كعلم الكلام والفلسفة وغيرها، وشاع التعصب الديني، واعتبر كل استحداث جديد بدعة، وخروجا عن التقاليد السائدة خاصة إذا كان من عند الكفار. ولذلك وقفت طبقة العلماء المحافظين في وجه التغريب*، فقد ألغيت قاعدة الاجتهاد في نظرهم بشكل حتمي، على اعتبار أن الفكر الديني الإسلامي قد اكتمل، ولم تعد هناك ضرورة للخوض في المسائل التي سالت في حقها أقلام كثيرة في الماضي، فلم يعد يسمح بعد ذلك بأحكام جديدة مستقلة، بل الراجح هو إتباع التقاليد السابقة دون تغيير.[4]

(1) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 119، 120.

(2) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 434.

(3) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تر. نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 5، 1968م، ص 482.

* وقفت في وجه كل الأفكار والأساليب المقتبسة من الغرب ورفضتها بحكم أنها من عند الكفار بغض النظر عن فائدتها. =

و من مظاهر الرفض القطعي للعلوم العقلية، أنه بلغ الأمر بالمفتي أبو اسحق إسماعيل أفندي بعد وفاة الوزير الأكبر داماد علي باشا* عام(1716م/1128م) تاركا مكتبة عظيمة، أن أصدر فتوى تحرم تخصيص هذه المكتبة للوقف؛ لكونها تشتمل على كتب في الفلسفة والتاريخ والفلك والشعر، ولذلك أرسلت الكتب إلى القصر الإمبراطوري.(1) والتاريخ يحتفظ بشهادات عديدة، عن فتاوى أصدرها رجال الدين، ذهب ضحيتها علماء مجددين أو مبدعين استبيح دمهم، فقط لكونهم خالفوا القاعدة التي تمنع الإبداع وتعتبره جرماً، وهناك فتاوى أخرى حرمت إبداعات علماء، وأحرقت كتبا نفيسة أو عارضت محاولات نهضوية تجديدية مبكرة.(2)

وبذلك تكون طبقة العلماء قد لعبت دوراً مؤثراً، في الحياة الفكرية في الدولة العثمانية ومصر والشام، فقد تحكمت في تحديد نتائج الإصلاحات، التي اقترحها السلاطين العثمانيين المستنيرين ووزرائهم، في الآستانة خلال القرنين 18م و 19م . كما لعبت دوراً في تحديد مصير المصلحين الأوائل، الذين ذهبوا ضحية حبهم في الإبداع ورغبتهم في تغيير الأوضاع الفكرية السائدة، ويمكن إرجاع ذلك إلى أن هذه الطبقة قد وصلت في القرن 17م إلى أقصى درجات الضعف والانحلال، حيث أصبح يصل إلى مصافها الكثير ممن تعوزهم الكفاءة والعلم.(3) فجاءت النتائج عكسية، فبدلا من أن تقف في سبيل تطور العلوم وازدهارها، وقفت في الكثير من الفترات في وجه العلم والتقدم، الذي كانت سبله متاحة في الدولة العثمانية وولاياتها، خاصة مع ظهور نخبة من السلاطين والوزراء ورجال الإدارة، وحكام الولايات في مصر والشام ممن كان لديهم أفكار جديدة في سبيل الإصلاح.

وعلى الرغم من أن طبقة العلماء المحافظين في مصر والشام، كانت أقل نفوذا من نظيرتها في الآستانة، إلا أنها لعبت نفس الدور، وخير مثال على ذلك هو معارضة إصلاحات محمد علي باشا بمصر وابنه إبراهيم باشا بالشام. غير أنه بدأت في الواقع هذه الفئة في القرن 19م، تفقد نفوذها سواء في الآستانة خاصة خلال عهد محمود الثاني** حيث أصبحت الأوقاف تحت إشراف الحكومة، مما أنهى نفوذهم المالي ثم

= (4) لويس برنار، اكتشاف المسلمين لأوروبا ، تر. ماهر عبد القادر محمد، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، مصر، ط1، 1996م، ص 268.

* داماد علي باشا جورلولو الصدر الأعظم في الدولة العثمانية بين (1706م ـ 1710م) وتوفي عام 1711م.

(1) لويس برنار، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ص 280، خليل إينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية، ص 271، 272.

(2) أنظر أمثلة عن ذلك : خالد زيادة، المرجع السابق، ص 45، 49، 50، 87.

(3) نفس المرجع، ص 24، 25.

** السلطان محمود الثاني بن عبد الحميد الأول (1785 م ـ1839م/1199 هـ ـ1255هـ) تولى الحكم بين 1808م ـ1839م ،كان يحسن الخط ويجيد الشعر، تولى الحكم والدولة في اختلال مثل ثورة اليونان واحتلال فرنسا للجزائر ولكنه مع ذلك قدم إصلاحات هامة في =

إن إنشاء المدارس الحديثة على الطراز الغربي، أنقص كثيراً من سلطتهم على مراكز العلم.[1] وكذلك في مصر خلال عهد محمد علي باشا حيث فقدوا مناصبهم كمدرسين و قضاة تدريجيا.[2]

ولكن هذا لا يعني أن طبقة العلماء، لم تلعب أدواراً إيجابية في هذه الفترة، بل ساهمت بشكل كبير في الحياة الفكرية، فقد كان على كاهلها التفرغ لأمور العقيدة و الشرع، وأسهمت في تواصل حركة التعليم، وكانت لها لمسات واضحة في الحياة الفكرية والاجتماعية، فقد حافظت على تقاليد المجتمع العربي والعثماني، التي اكتسبها من العصور السابقة، وتمكنت من جعله ثابتا في وجه كل التقلبات السياسية، التي طرأت عليه دون أن تشوب مقوماته أية شائبة. فطبقة العلماء كان على عاتقها، تلقين المبادئ الأساسية لكل طبقة في المجتمع بما فيها الحاكمة، وتعليمهم العادات الفكرية القديمة، وأسس الحكم المنسجمة مع تلك المبادئ، وهي التي كانت تعد مجموعة كبيرة من موظفي الدولة، الذين كانوا يعملون بدورهم على تأطير فئات المجتمع من خلال تأديتهم لمهامهم.[3]

فكانوا بهذا يعملون على استمرارية الثقافة التقليدية، من خلال نقل ما تتضمنه تعاليم السلف إلى الخلف، وبذلك ضمنت التواصل الثقافي بين الماضي والحاضر، بل حتى بين سائر الأوساط العلمية في أرجاء الدولة العثمانية.[4] كما أنهم لعبوا دوراً هاما في حركة التأليف، حيث تواصلت حلقاتها ولم تنقطع أو تضعف، وترك هؤلاء العلماء مؤلفات عديدة، شرحوا فيها ولخصوا ما تقدم من مؤلفات، وقدموا وجهات نظرهم في التراث الفكري السابق، فأضافوا بذلك رصيداً فكريا، لا تقل أهميته عن العصر السابق في مختلف المجالات العلمية.

كما حافظت طبقة علماء الدين على الإسلام السني؛ من خلال توليهم وضع الأسس الفكرية والعقائدية للدفاع عن الإسلام، خاصة خلال فترة الصراع الشيعي. وحتى بعد انحسار هذا الخطر كانت هناك مجادلات فكرية بين السنة والشيعة، ولذلك تجد أن حركة الفكر في البلاد العربية خلال هذه الفترة اصطبغت بالطابع الديني، وقدم العلماء رصيدا إضافيا في مجال الفقه والفتوى والحديث والتفسير.[5]

= الجيش وقضى على الانكشارية 1826م وأنشأ المدارس العسكرية والمدنية على الطراز الأوروبي. أنظر: خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 202 ـ209. عزتلو يوسف بك أصاف، المرجع السابق، ص 116 ـ119.

(1) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، ص 378.

(2) A. Loutfi , op.cit , pp.278-279.

(3) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 119، 120.

(4) نهدي صبحي، المرجع السابق، ص 179، 180.

(5) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 221 ـ 222.

ثم إن هذه الطبقة رغم بقائها لفترة طويلة منكفئة على نفسها وعلى تراث الماضي، بدأت مع مطلع القرن 19م تنفتح على المؤثرات الغربية، التي اجتاحت المنطقة، فتأثر علماء الأزهر مثلا بالمستجدات العلمية التي دخلت مع الحملة الفرنسية على مصر.[1] وتأثر حسن العطار (1180 هـ ـ1250 هـ/1766 م ـ1834 م)[*] بما جاء به علماء الحملة، حين اطلع على آلاتهم الفلكية والهندسية، وتجاربهم العلمية، حيث اعترف أن بلاده لا بد أن تتغير أحوالها، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها.[2]

بل إن فئة كبيرة من علماء الأزهر التقليديين، كانوا عناصر فاعلة و مؤثرة، في التجربة التحديثية لمحمد علي باشا خلال القرن 19م.[3] وساهموا برصيدهم في اللغة العربية في تنقيح الترجمات عن المؤلفات الأجنبية. ولعبوا دوراً بارزاً في مطابقة المصطلحات الغربية، بما يلائمها في اللغة العربية، وقد اعترف رفاعة الطهطاوي[**]، أن بلاده ينقصها تشجيع الإبداع والتجديد، و أن ذلك الأمر هو ما حال بينها وبين التقدم.[4]

ورغم أن الخوف من الجديد ظل موجوداً لدى العلماء إلا أنهم انفتحوا على كل جديد، وظهر الحوار بين أصحاب الفكر التقليدي والفكر المجدد، مما غير مناحي التأثير نحو الإيجابية أكثر منذ مطلع القرن 19م، وكسرت بذلك طبقة العلماء نفسها المبدأ الذي حافظت عليه طيلة قرون، وانفتح مجدداً باب الاجتهاد على مصرعيه.

---

(1) فقد قبلوا مثلا الإحصاء لما اقترحه عليهم الجنرال مينو الفرنسي في 16 شعبان 1215 هـ (2 يناير 1801م) رغم أنهم لم يكونوا على علم به، لكن قبلوه لما رؤوا فيه فائدة، مما يدل على أنهم أصبحوا يستوعبون المستجدات ويقبلون تبنيها رغم كونها من الكفار. أنظر: الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص 232.

* حسن بن محمد العطار (1180 هـ ـ ت 1250 هـ/1767م ـ1834م)، أصله من المغرب الأقصى وولد بالقاهرة، كان أبوه عطاراً، أخذ العلوم عن علماء زمانه ودخل الأزهر واتصل بالفرنسيين لما دخلوا مصر واستفاد من فنونهم وعلومهم وأفادهم في اللغة العربية وله تآليف في الأصول والنحو والبيان والمنطق والطب وله رسالة في الفلك والإسطرلاب وله شعر درس بالأزهر وتولى مشيخته عام 1246 هـ/1830م. خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 155، 157.

(2) فهمي جدعان، المرجع السابق، ص 110، 111.

** رفاعة بك بن بدوي بن علي بن محمد الطهطاوي ولد بطنطا بمصر (1801م ـ 1873م/1216هـ ـ 1289هـ) دخل الأزهر عام 1223هـ/1810م وبرع في الفقه واللغة، تعين عام 1241 هـ/1828م إماما للبعثة العلمية إلى فرنسا فدرس الفرنسية وكان مولعا بالتاريخ والجغرافيا والترجمة، ترجم مؤلفات عديدة إلى العربية وتولى عدة مناصب. خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 223ـ227.

(3) A. Loutfi , op.cit , pp.279-280.

(4) رفاعة رافع الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، دار الكتب، القاهرة، مصر، (د.ط)، ج2، 1993م، ص 168.

2 ـ دور الأوقاف في الحياة الفكرية

لقد ازدهر الوقف* في العهد العثماني، واتسع نطاقه أكثر، خاصة وأن الدولة العثمانية كانت تولي عناية لهذا التقليد الإسلامي، ولذلك فإن مصر والشام لما خضعت للسلطة العثمانية انتعشت الأوقاف فيها، إضافة إلى التي كانت موجودة من قبل، فقد كان أصحاب الأوقاف، عادة يقدمون عقارات ذات أهمية، في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية و الثقافية، فالمنشآت الاجتماعية والتعليمية، التي كانت بالمنطقة خلال العهد العثماني كان مصدرها الوقف، سواء من طرف السلاطين أو الأمراء أو التجار وغيرهم. ولم يكن الوقف يعني إنجاز المؤسسة فقط، بل تأمين مصادر إيرادات لها تسمح باستمرار الوقف لفترة طويلة، وكانت الاتفاقية المعروفة بـ"وقفنامة"** تشرح كيفية تشغيل الوقف، أما خدم الوقفية فيتسلمون رواتبهم من إيراداتها.(1)

وتكمن أهمية الوقف كعامل مؤثر في الحياة الفكرية في مصر والشام، من كونه ساهم في استمرار الحياة التعليمية، فالمدارس في ذلك العصر كانت تقوم وتزدهر حسب نماء وازدهار أوقافها، فكلما زادت هذه الأخيرة اتسعت المدارس لعدد أكبر من الطلاب والمدرسين، فقد كان هؤلاء يتلقون جراية شهرية من تلك الأوقاف، ويقيمون بها ويعيشون منها.(2)

وكانت الدولة تشرف على الأوقاف الخيرية، بين القرنين 16م و 18م لضمان عدم التلاعب بها واستمرار عملها، ففي مصر كان يجري فحص حسابات تلك الأوقاف سنويا أمام الباشا، ثم ترسل نسخة منها إلى اسطنبول، وعندما يشغر منصب متولي الوقف، كان القاضي الحنفي يقدم توصية رسمية إلى الباشا لصالح شخص آخر؛ من ذوي العلم والاستقامة. ويتم تعينه نهائيا بواسطة براءة التعيين؛ التي تصل من اسطنبول. وفي الولايات الشامية كانت هناك إدارة للأوقاف في مركز كل ولاية، تشرف على تعيين المتولين، وتوزع مداخيلها على من يستحق.(3)

---

*الوقف :هو حبس أملاك لغرض العمل الخيري، ويجعل الواقف متوليا على وقفه ،ويحدد في الوقفية وجوه الصرف على ما وقفه لجهة من جهات البر كالمساجد أو المدارس . حسان حلاق، عباس صباغ ،المعجم الجامع في المصطلحات العثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية والأيوبية والمملوكية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2009م، ص234-235.

** الوقفنامه وهي الوثيقة التي يدون فيها الواقف وقفيته ويذكر فيها كل ما يتعلق بشروط الوقف ونوعه .

(1) أوزوتونا يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، تر.عدنان محمود سليمان، مر.محمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، اسطنبول، تركيا، (د.ط)، ج2، 1988م، ص 491، 492.

(2) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 174 ـ 175.

(3) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 334.

و يضع صاحب الوقف في العادة شروطا عديدة، كأن يشترط في وقف مدرسة أو دار قرآن، أن يقرأ فيها صحيح البخاري أو أن يشترط في الخطيب أن يكون شافعيا أو حنفيا، أو من طائفة محددة. حتى أن الكثير من الواقفين كانوا يشترطون شروطا صعبة، لا يمكن أن يقوم بها الفقهاء والمدرسون. وإلى جانب تلك الشروط يضع الواقف مقدار ما يصرف على المدارس وطلابها، كمأكلهم وملبسهم وأجرة المدرس ومسكنه.[1] بل يحدد حتى عدد المشتغلين بالمدرسة حسب حجم الوقف.[2]

فقد ذكر الجبرتي أن محمد بك أبو الذهب لما بنى مدرسته وجامعه، وعين فيها المفتين الثلاثة المالكي والشافعي والحنفي، جعل المفتي الشافعي في رئاسة التدريس و مشيخة الشافعية، إضافة إلى اشتراطه الإفتاء في مكان خصصه لهم ،وقت الضحى من كل يوم بعد إلقاء الدروس. ورتب لهم ما يكفيهم وشرط عليهم عدم قبول الرشاوي والهبات.[3]

وقد كانت ثقافة الوقف سائدة في أوساط المجتمع ؛ لارتباطها بالرغبة في الحصول على الأجر عند الله، لذلك لم تقتصر أوقافهم، على بناء المدارس والمساجد ودور القرآن، بل كانوا يخصصون هبات دائمة لطلاب العلم، مثل إبراهيم بن محمد الغزالي بن محمد الدادة الشرايبي (ت 1205 هـ/1792م)، الذي كان يتفقد طلبة العلم الفقراء المنقطعين بمصر، ويقدم لهم المعونات، ويشتري لهم المصاحف والألواح، ويفرقها على مكاتب الأطفال المسلمين، ونفس الشخص كان ينفق على الشيخ الذي تفقه عليه ولازمه وهو الشيخ عبد العليم الفيومي، فكان يرزق عياله ويكسوهم.[4]

إن هذا دليل على أن الوقف، كان عاملا هاما جداً في إنعاش الحياة العلمية، فأغلب المدارس والكتاتيب، ودور القرآن والحديث و التكايا؛ التي كانت بمصر والشام منذ القرن 16م إلى 18 م، واستمر أكثرها إلى غاية القرن 19م، كان نتيجة للأوقاف. فمع كثرة ما كانت تملك مصر والشام من جوامع ومساجد ومدارس وزوايا و خوانق، قبل العهد العثماني فإن الولاة والنواب العثمانيين وأمراؤهم، بذلوا جهداً كبيراً

---

(1) فهناك من اشترط أن لا يدخل المدرسة امرأة، ومنهم من اشترط في المدرس والفقهاء أن يكونوا على مذهب معين وأن يكونوا من أهل الدين والصلاح وسلامة الاعتقاد. أنظر: النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص 12، 155 و ص 200، 201. وقد شرط مراد بن علي بن داود المرادي (ت 1132 هـ/1719م) في المدرسة التي بناها "أن لا يسكنها أمرد ولا شارب للتتن". المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 130.

وقد اشترط في وقفية المدرسة المحمدية بحلب عام 1166 هـ/1753م، أن يقرأ المجاورون بالمدرسة سورة الكهف جهراً كل جمعة في مدفن والد الواقف ويتبعوها بكلمة التوحيد 70 ألف مرة وغيرها . أنظر: كامل بن حسين بن مصطفى الحلبي الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية، حلب، سوريا، (د.ط)، ج2، 1342 هـ، ص 59.

(2) النعيمي، المصدر السابق، ص 228.

(3) الجبرتي، المصدر السابق، ج2(دار الكتب)، 255، 256. =

في تنمية أوقافها و أنشؤوا المزيد منها، بالقاهرة ودمشق وباقي المدن الأخرى. ففي مصر في القرن 17م شيد عثمان آغا دار السعادة عام 1019 هـ/1610م لصالح الملكة صفية جامعاً سماه باسمها، وفي أواخر القرن أسس الوالي إسماعيل باشا* عام (1107 هـ/1109هـ/ 1695م ـ1697م) المدرسة الإسماعيلية. وفي عام 1062 هـ/1651م 1652م قام إبراهيم آغا مستحفظان بترميم جامع "آرق سنقر" في القاهرة، وقام حسن آغا بتجديد جامع السلطان حسن عام 1082 هـ/1671م.(1)

وقد أنشأ الوزير سنان باشا** بمصر وبالشام، خلال القرن 16م منشآت عديدة مساجد ومدارس وخانات تزيد عن المائة.(2) وأنشأ المماليك مدارس عديدة، مثل إنشاء الأمير عثمان كتخدا مدرسة بالأزبكية ورتب فيها الدروس وأعاد علي بك الكبير ترميم المسجد الأحمدي بطنطا ورتب فيه الدروس.(3)

و في القرن 18م أيضا قام الأمير محمد بك أبو الذهب، والي مصر ببناء مدرسة عرفت باسمه "المحمدية" ، عام 1187هـ/1764م بالقرب من جامعه، ورتب فيها مدرسين، وجعل لهم وللطلبة رواتب وزودها بخزانة كتب.(4)وحتى الجامع الأزهر ظل الوقف من عوامل ازدهاره، فقد خصص الأمير عبد الرحمن كتخدا*** (ت 1190 هـ/1776م)، أوقافا للمجاورين في الأزهر، فجعل لهم طعام الهريسة في يومي الاثنين والخميس، وجعل لأولاد المكاتب التي أنشأها كساوي في كل سنة. (5)

ولم يقتصر الأمر على الأمراء بل حتى التجار، سواء من أهل مصر أو من الواردين والمستوطنين فيها خاصة المغاربة والشوام، فقد ترك هؤلاء مدارسا وكتاتيب أنشؤوها، وأوقفوا الأوقاف على أروقة الجامع الأزهر، مثلما فعل التجار المغاربة ؛ الذين كانوا يوقفون العديد من العقارات لصالح رواق المغاربة، وكان

= (4) نفسه، ص 326.

* إسماعيل باشا (ت 1205 هـ/1791م)، أصله من مماليك إبراهيم كتخدا، انضوى إلى علي بك بلوط قبان و قلده الصنجقية بعد موت سيدهم كان أميراً كفؤاً للإمارة وأكرم العلماء. الجبرتي، المصدر السابق، ج2(دار الكتب)، ص 334 ـ 336.

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 322.

** سنان باشا الوزير صاحب الآثار الجليلة والعمائر بدمشق مثل الجامع المعروف باسمه وله ببولاق بمصر وباليمن واسطنبول جوامع ومدارس ولي على مصر زمن السلطان سليم وولي على الشام ودخل اليمن وولي الوزارة العظمى باسطنبول في عهد مراد الثالث. المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 114ـ117.

(2) نفسه، ص 114.

(3) أكمل الدين إحسان أوغلي، صالح سعداوي صالح، الثقافة التركية في مصر، جوانب من التفاعل الحضاري بين المصريين والأتراك مع معجم للألفاظ التركية في العامية، مركز الأبحاث للتاريخ و الفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول، تركيا، (د.ط)، 2003م، ص 190.

(4) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس) ، ص 482 ـ 484.

*** عبد الرحمن كتخدا بن حسن جاويش القازدغلي، أحد المماليك بمصر، تقلد جاويشا للسردارية عام 1152هـ. حج عام 1155 هـ /1742 م وأقام هناك إلى عام 1161 هـ/1748 م ، ولما عاد تولى كتخدا الوقف وقام ببناء المساجد والكتاتيب و الأسبلة وله أوقاف كثيرة. =

شرط الواقف أن يكون المنتفع منه دارسي الفقه المالكي.[1] وفي القرن 18م أوقف الشـوام الكاثوليك أوقافا لبناء الكنائس والأديرة والمدارس بمصر.[2]

أما في بلاد الشام فقد قامت الدولة العثمانية عند دخولها، بحصر المؤسسات التي وجدتها وأوقافها، وعمل سلاطينها وولاتها حتى في مرحلة الضعف، على تشييد مؤسسات دينية وتعليمية جديدة، وترميم التي تخربت.[3] ففي القرن 17م مثلا قام الأمير برويز وهو أحد أعيان العثمانيين بدمشق(ت1015هـ/1606هـ) بتعمير مسجد بمحلة القيمرية جنوب جامع بني أمية.[4] كما قام أحمد باشا المعروف بالكجك، بتعمير تكية خارج باب الله ؛ بالقرب من قرية القدم الجنوبي بدمشق عام 1045هـ/1635م لشيخ الخلوتية.[5]

ورتب بهرام آغا كتخدا والدة السلطان درسا للحديث في الجامع الأموي، تحت قبة النسر بعد عام 1050 هـ/1640م. وقام الوالي أبشير مصطفى باشا عام 1061 هـ/1651م، والوالي عثمان باشا بتجديد الجامع الأموي.[6] أما الوزير الأعظم سياغوش باشا، فقد دفع المال إلى أحد صدور دمشق ،و هو حسن باشا المعروف بشوربزه حسن(ت 1027 هـ/1618م)، لبناء المسجد المعروف بالسياغوشية قرب حارة القصاعين.[7]

ولم تقتصر الأوقاف على الأمراء* فحسب، بل كان بعض الأعيان يسعون في تنمية إيرادات المؤسسات التعليمية بما يزيدونه في أوقافها، مثلما فعل يحي بن إبراهيم الدمشقي الشهير بالجالقي(ت 1185هـ /1771م)، وهو رئيس الكتاب بالقسمة العسكرية، والذي أوقف نصف دار على المدرسة المرادية، والربع

= أنظر: علي مبارك، المرجع السابق، ج5، ص 116، 117.

(5) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 ، ص 494، 495

(1) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المغاربة في مصر في العصر العثماني 1517ـ 1798م دراسة في تأثير الجالية المغاربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية، المجلة التاريخية المغربية، تونس، ط1، 1982م، ص 100.

(2) مثل إنشاء أنطون فرعون كنيسة جعلها تابعة لبطريرك الروم الكاثوليكي، وقفها لأبناء طائفته من الشوام الروم الكاثوليك، وأوقف التاجر موسى جرجس الطرابلسي أرضا بالقاهرة لفقراء النصارى الواردين. أنظر: عبد الله محمد عزباوي، " الشوام في مصر في القرن الثامن عشر"، المجلة التاريخية المصرية، مج. 28، 29، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، مصر، 1981م، 1982م، ص 300.

(3) كانت الدولة العثمانية تشكل لجنة لمعاينة أملاك الوقف إذا ما استأثر بها بعض أصحاب النفوذ للحفاظ عليها مثلما فعلت في حماه وحمص عام 1540م ،وكانت تعين موظفين من السكان للإشراف على الوقف، وخصصت سجلات لتنظيم تلك الأملاك الموقوفة .أنظر: محمود عامر ،"الوقف في الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر (حماه وحمص أنموذجا)"، مجلة دراسات تاريخية، ع .107ـ108، السنة الثامنة والعشرون، أيلول ـ كانون الثاني، 2009م، ص 285 ـ 292.

(4) ليلى الصباغ، من أعلام الفكر، ص 176.

(5) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 388.

(6) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية ، ص 316، 318.

(7) المصدر السابق، ج2، ص 25.

* في القرن 18م أنشأ أمراء آل العظم عدة مدارس مثل مدرسة إسماعيل باشا العظم عام 1141 هـ /1728م وأنشأ القاضي أحمد =

على المؤذنيين والربع على السميساطية.[1] ومن التجار عمر بن إبراهيم السفرجلاني الدمشقي(ت 1112هـ /1699م)، كان صاحب ثروة فبنى بدمشق أربعة مساجد، ورتب لها وظائف وشعائر وأوراد من القرآن تقرأ كل يوم.[2] وكذلك العلماء مثل مراد بن علي المرادي الحسيني(1050 هـ ـ ت1132 هـ/1640 ـ ت 1719م) الذي كانت له أوقاف عديدة ؛ من أشهرها المدرسة المرادية، و بنى كذلك مدرسة في داره تعرف بالنقشبندية البرانية مع مسجد هناك.[3]

حتى الواردين على دمشق، من ولايات الشام أو الواردين من أقطار أخرى، كانوا يساهمون في بناء المدارس ؛ مثل عمر بن يوسف الحنفي البقراصي نزيل حمص (ت 1150 هـ/1737م)، كان محققا في العلوم العقلية والنقلية جاء من بقراص* وقطن بحمص، وعمر جامعاً وبنى نحو الثلاثين حجرة لطلبة العلم وتولى تدريسهم.[4] واستمرت الأوقاف الخيرية في القرن 19م، غير أنها أصبحت تدار من طرف الدولة وخصصت لها مؤسسة خاصة بإدارتها سواء في مصر أو الشام، كنتيجة للإصلاحات التي جاءت بها التنظيمات العثمانية.

وبذلك تعتبر الأوقاف سواء الإسلامية أو النصرانية أو اليهودية ، من العوامل الهامة التي أسهمت في حياة المجتمع وفي استمرار الحياة التعليمية بمصر والشام فهي من صميم المؤثرات الحضارية الأصيلة في الدولة الإسلامية التي تألقت في العهد العثماني، ورعت حياة الفكر في مصر والشام في تلك الفترة. ولذلك كان ازدهار أو اندثار المؤسسات التعليمية والدينية، مرتبط باستمرار إيرادات الوقف . فكثيراً ما تخربت وأغلقت المدارس والكتاتيب مباشرة بعد وفاة واقفها. وخير مثال على ذلك، مدرسة محمد بك أبو الذهب التي توقفت عام (1188 هـ/1774م)، ولما مات تعطلت أوقافها.[5] كما أن الأوقاف التي أوقفها الأمير عبد الرحمن كتخدا (ت 1190 هـ/1776م)، والتي سبق ذكرها تعطلت هي الأخرى بعد وفاته.[6]

وفي الواقع هذا ما كان يعيق استمرار الحياة التعليمية على وتيرة واحدة، خاصة وأن بعض الأوقاف كانت تتعرض للنهب، أو يستولي عليها أصحاب النفوذ، فتتعطل مما كان يسبب مشاكل باستمرار في تموين تلك المدارس، ويدفع الطلبة والمدرسين إلى الإحتجاج لدى أصحاب السلطة. فقد ذكر الجبرتي في 1106هـ

= بن طه زاده المشهور بالجلبي "المدرسة الأحمدية" عام 1166 هـ/1753م . أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 318.

(1) المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 229.

(2) نفسه، ج3، ص 187.

(3) نفسه، ج4، ص 130.

* بقراص هي بلدة في الروم.

(4) نفس المصدر، ج3، ص 193.

(5) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس) ، ص 482ـ 484. =

/1694م) أن أرباب الأوقاف والعلماء والمجاورين بالأزهر، جاؤوا إلى علي باشا واشتكوا إليه امتناع الملتزمين من دفع خراج الأوقاف والأرزاق المرصودة على المساجد، فأمر الملتزمين بدفع ما عليهم من غير توقف فامتثلوا إلى ذلك.(1)وذكر في موضع آخر خلال عهد الحملة الفرنسية بمصر، أنه عام 1213 هـ/1798م حضر أولاد الكتاتيب والفقهاء والعميان، والمؤذنين وأصحاب الوظائف، والمستفيدين من أوقاف عبد الرحمن كتخدا، إلى الشيخ البكري .واشتكوا له انقطاع رواتبهم وأخبازهم، بعد استيلاء النصارى القبط والشوام على أوقافهم، بعد توليهم نظارتها. (2) وقد حصل أن تولى إبراهيم المكنى أبا الوفا الشيباني، وقف الجامع الأموي في الشام مدة سنين، فسلم إدارته لغيره من أولاد الخليفة حسن الكاتب، فاستولوا على جميع إيرادات الوقف، وتلاعبوا فيه كيفما شاؤوا مدة توليه ذلك الوقف.(3)

ومع ذلك لما كان أفراد عائلة الواقف، يتولون نظارة الوقف وإدارته، يسعون في تنميته وازدهاره، مثلما فعل آل العظم في الشام؛ فإنه لما تولى ابن إسماعيل باشا العظم، وقف المدرسة التي بناها والده. وهو المعروف بأسعد باشا، أنفق أموالا كثيرة في توسيع بنائها، وزاد في أوقافها، وعمّر جامعاً بجوارها. كما زاد من صندوق الأوقاف لتزيين الجامع الأموي.(4) وحتى الدولة العثمانية من خلال ولاتها وقضاتها المشرفين على تلك الأوقاف، لم يتوانوا عن معاقبة المستولين عليها، واسترجاع المسلوب منها. و بذلك يمكن القول أن الوقف كان روح الحياة العلمية في تلك الفترة، و لذلك تأثرت الحياة الفكرية بما جرى عليه من ازدهار أو اندثار.

= (6) نفسه، ص 494.

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج 1(دار الفارس) ، ص46.

(2) نفسه، ج3(دار الكتب)، ص 40.

(3) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 41، 42.

(4) ليندا شيلشر، المرجع السابق، ص 45.

3 ـ دور الأمراء في دعم العلماء و إحياء مجالس العلم

أ ـ الأمراء المثقفون ودعمهم للعلماء :

لم يعدم العهد العثماني في مصر والشام، في الفترة ما بين القرن16م ومنتصف القرن 19م، من أمراء مثقفين أعطوا قيمة للعلم ،وقدّروا العلماء . بل كان منهم من كتب الشعر، وألّف المؤلفات في مختلف العلوم، بل وعقدوا مجالس الذكر والأدب في بيوتهم وحضروها في المسجد، وحتى في بيوت العلماء . وكتب التراجم ذكرت أمثلة عن ذلك؛ ففي مصر مثلا كان حسن أفندي الروزنامجي الدمرداشي ت 1137 هـ/1724م ميالا للعلوم، خاصة الرياضيات والفلكيات وقد قرأ على رضوان أفندي صاحب الأزياج .(1)

والوزير المكرم عبد الله باشا الكبورلي، الذي كان واليا على مصر عام 1143 هـ/1730م، وصفه الجبرتي أنه من أهل الفضائل، وله ديوان شعر ومعرفة بالفنون والأدبيات والقراءات.(2) والشيخ الأمير سويلم بن حبيب من مشايخ القليوبية (ت 1183 هـ /1769 م)، الذي كان من أهل العلم والأدب فصيحا حافظا للأشعار والنوادر ، وكان يحقق الألفاظ ويطالع الكتب، مثل مقامات الحريري .(3)

ومن الأمراء من كان يهوى حضور دروس العلماء في الأزهر، فيلازم ويحصل على الإجازة؛ مثل الأمير علي بيك الدفتردار المعروف بكتخدا الجاويشية (ت 1213 هـ/1798م)، الذي كان يرغب في معاشرة العلماء و الصلحاء، فكان يحضر دروس العلماء كل يوم في الأزهر، ويستفيد من فوائدهم كما أنه لازم دروس الشيخ أحمد السليماني في الفقه الحنفي، ولما توفي تقيد بحضور دروس تلميذه أحمد الغزي.(4)

أما في بلاد الشام ففي القرن 17م، ذكر المحبي أمراء كانوا على قدر من العلم والثقافة؛ مثل الأمير حسين باشا جانبولاذ الكردي أمير أمراء حلب ، الذي كان محبا للعلماء، وله معرفة بعلم الفلك و الزايرجا* والتقويمات، والرمل وصرف عمره في ذلك.(5) أما في القرن 18م فمنهم الأمير أمين بن محمد القسطنطيني الدمشقي المعروف بابن الكمش، (1136 هـ ـ ت 1200 هـ/1724م ـ ت 1785م)، وقد عين رئيسا للجاويشية بديوان دمشق، ورغم ذلك كان له يد طولى في الأدب والشعر، والترسل وعلم الأوفاق ورافق

---

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس) ، ص 178.

(2) نفسه، ص 262.

(3) نفسه، ص 396.

(4) نفسه، ج3، ص 109.

* "كلمة فارسية أصلها "زيركاه" وهي شبكة مربعة على هيئة جداول فلكية تشتمل على مئة بيت يرسم بداخلها أرقام مقابلة مع الأحرف، يزعمن المشتغلون بها أنهم يستدلون من خلالها على المغيبات" أنظر : مصطفى الخطيب ،معجم المصطلحات التاريخية، "ز"، ص 218.

(5) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 85.

الشعراء كما اقتنى كتبا نفيسة، وكان يحفظ الأشعار والوقائع من تاريخ العرب، وطالع الكتب القديمة وحضر دروس العلماء. [1] ومصطفى بن عبد بن إبراهيم الدمشقي الدفتري بدمشق (ت 1107 هـ/1695م)، الذي كان مشهوراً بالأدب، ويطالع الكتب ويعاشر الأدباء ويسامرهم.[2] ودرويش بن عبد الله الحنفي الدمشقي وهو أحد أعيان الجند، وكان له مع ذلك حفظ لفنون الأدب والشعر، وماهرا بالفارسية والتركية، كما كانت له كتب نفيسة وكانت له مجالس أدبية مدحه فيها الشعراء. [3] وممن كانوا من أمراء القلم والسيف في الشام؛ محمد أفندي بن سنطة بيك بالسنطي الدمشقي(ت 1114 هـ/1702م)، الذي كان من أولاد الأمراء الجراكسة. ومع ذلك كان شاعراً وأديبا عارفا باللغة العربية و الفارسية والتركية، وتولى التدريس بالمدرسة الريحانية.[4]

وقد ساهم طبعا هؤلاء الأمراء المثقفون في تشجيع العلماء، ورفع منزلتهم ومن ورائهم مكانة العلم في الفترات التي حكموا فيها، فقد ذكر الجبرتي أن والده حسن الجبرتي* حظي بمكانة هامة، وإكرام وتقدير كبيرين من الأمراء والأكابر والوزراء، فلا يردون له كلمة أو شفاعة، وكان له عندهم منزلة زيادة على نظرائه من المشايخ بسبب معرفته باللغات، ورغبة منهم في معارفه التي اختص بها دون غيره. وخاصة كبار العثمانيين؛ مثل علي باشا بن الحكيم وراغب باشا وأحمد باشا الكور وغيرهم.[5]

كما كان الأمير ذو الفقار بك(ت 1142 هـ/1729م)، يرسل إلى أهل العلم بالأزهر في شهر رمضان ستين كسوة، ودراهم على فقراء المجاورين وكساوي.[6] وكان علي بك الكبير يكرم العلماء، ويقربهم إليه ورتب بمسجد الجامع والقبة، على مقام سيدي أحمد البدوي بمصر، عدداً من الفقهاء والمدرسين والطلبة المجاورين وجعل لهم طعاما كل يوم.[7] وكذلك كان الأمير محمد أبي الذهب، هو الآخر يكرم العلماء، فقد جاءه الشيخ علي بن موسى بن مصطفى المقدسي(1125 هـ 1186 هـ/ 1713م ـ1772م)، لما عاد من

---

(1) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 275.

(2) نفسه، ج4، ص 183.

(3) نفسه، ج2، ص 108.

(4) نفسه، ج4، ص 40.

* حسن بن برهان الدين بن حسن الزيلعي الجبرتي الحنفي (1110 هـ ـ ت 1188 هـ/1697م ـ 1774م)، أصله من الجبرتي دخل جده مصر، واستقربها. كان بارعا في علوم شتى كالفقه، الحديث، الآداب، النحو، العلوم الرياضية كالهيئة والحساب والهندسة أجازه عدد كبير من الشيوخ في مصر وخارجها وتخرج عليه عديد من الطلبة، له مؤلفات منها الدر اليتيم في علم الموازين وغيره .أنظر: الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 440 ـ 465.

(5) نفسه، ص 457 ـ 458.

(6) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 212.

(7) المصدر السابق، ص 433، 435.

اسطنبول فسأله عن حاله فاشتكى له فاقته و احتياجه، فأمر له بمائة ألف نصف فضة من الضربخانه، ولما مات أعطى لأخيه 500 ريال لتجهيزه.[1] فكان يعظم العلماء ويكرمهم بالعطايا والهبات.[2] ومن الهبات التي منحها الأمراء للعلماء مثلا، تلك التي أرسلها أيوب بيك الدفتردار، الشيخ مرتضى الزبيدي وهي خمسون أردباً من البر وأحمال من الأرز وغيره، و 500 ريال نقوداً وكساوي وأهداه حسن باشا، حصاناً مجهزاً بما قيمته ألف دينار.[3]

وهناك آخرون خلال القرن 18م/12هـ، أمثال الأمير خليل مملوك الأمير عثمان بك الكبير (ت 1188 هـ/1774م)، والأمير محمد أفندي جاوجان، الذي كان يحب العلماء ويحسن إليهم. والأمير حسن بك رضوان أمير محمد الحاج، وهو مملوك عمر بك بن حسين (ت 1192 هـ/1778م)، والذي كان محباً لأهل العلم، وقد قرب إليه الأديب شمس الدين السمربائي الفرغلي، وأحبه فكان لا يفارقه.[4] وكان في صعيد مصر أمير يكرم العلماء هو الأمير همام (ت 1183 هـ/1769م)، فقد كان يرسل إلى أهل العلم في مصر كل سنة أرزاقا، وكان يستقبل القادمين إليه منهم فيكرمهم، كما فعل مع الشيخ مرتضى الزبيدي.[5]

أما في بلاد الشام فذكرت كتب التراجم، أمثلة كثيرة عن الأمراء الذين قدّروا العلماء؛ مثل الأمير حسن باشا الأمين الكبير المعروف بشوربزه حسن، أحد صدور دمشق الذي كان يعظّم العلماء، وكان يتردد إليه جماعة منهم، فيكرمهم و يقضي حوائجهم.[6] وذكر المحبي في القرن 17م أمراء آخرين اشتهروا بحب العلم.[7] وفي القرن 18م كان وال الشام الوزير محمد باشا بن مصطفى، الشهير بابن الدمشقي العظم (1143 هـ ـ ت 1197هـ/1730م ـ ت 1783م)، يحب العلماء ويميل إليهم، ويكرمهم بالعطايا في كل سنة.[8]

وقد كان في الواقع الأمراء والحكام، في تلك الفترة يجلون العلماء ويحترمونهم، والأمثلة كثيرة عنهم كالشيخ حسن البغدادي القادري النقشبندي (ت 1182 هـ / 1768م)، الذي كان مكرما من طرف الخاصة

---

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 419، 420.

(2) نفسه، ص 485.

(3) نفسه، ج2، ص 312.

(4) نفسه، ج1، ص 472، 536.

(5) نفسه، ص 386.

(6) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 25.

(7) مثل صالح باشا الموستاري نائب الشام (ت 1076 هـ/1665م) وسليمان باشا الوزير النائب في الشام(ت 1032هـ/1623م) .أنظر: المحبي، نفسه ، ص 243، 213.

(8) المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 97، 102.

والعـامة وتردد إليه الأعيان وقصدوه للتبرك وأرسلوا إليه العطايا والهدايا.[1] والشيخ حامد بن علي بن محب الدين العمادي الدمشقي(1103 هـ/ت 1171 هـ/1691م ـ ت 1758م)، الذي كانت الحكام تهابه وتكاتبه أعيان الدولة العلية، و لذلك حصل على العديد من الوظائف له ولأولاده.[2] وفي القرن 19م كان الشيخ عبد الله بن سعيد الحنفي الدمشقي(1223 هـ ـ ت 1286 هـ/1808 م ـ ت 1869م)، جليل القدر وعظيم الحرمة عند الحكام والولاة، بحيث لا يخرجون عن رأيه ولا يردون له شفاعة.[3]

ب ـ مجالس الذكر والأدب :

لم يكتفي الأمراء والأعيان بمنح الهبات لأهل العلم، بل عقدوا مجالس للأدب والذكر، في بيوتهم وحضروها في المساجد، وفي منازل العلماء وقربوهم إليهم، سواء كانوا علماء دين أو أدباء أو شعراء، فقد عقد الشيخ مرتضى الزبيدي مجلسا للذكر، في منزل أحد الأعيان فحضر معه الخواص من الطلبة والمستملي وكاتب الأسماء، فقرأ لهم شيئا من الحديث. وحضر صاحب المنزل وأصحابه وأولاده أما بناته ونساؤه، فكانوا خلف الستائر يستمعون، ثم يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ويكتب الكاتب أسماء الحاضرين واليوم والتاريخ الذي عقد فيه المجلس. وهذه كانت هي عادة المحدثين في السابق. وكان يحضر هذه المجالس أكابر الدولة والأمراء، فمثلا كان مصطفى بيك الإسكندراني، وأيوب بيك الدفتردار يحضران مجالس الزبيدي ومنهم من يطلب إجازته.[4]

فقد كان الأمراء يوثقون صلاتهم، بالعلماء والفقهاء من خلال تلك المجالس، فيتعلمون منهم ويقتنون الكتب عنهم، حتى أن منهم من انخلع عن سلك الأجناد والإمارة، وانضوى تحت سلك الفقهاء مثل حسين المعروف بابن الكاشف (ت 1129 هـ/1717م)، الذي ترك الجندية وحفظ القرآن ودرس المتون، و تزيا بزي الفقهاء والتحق بشيوخ عصره.[5] ومن أمثلة المجالس التي عقدها الأمراء أو حضروها لدى العلماء في مصر خلال القرن 17م، مجلس الشيخ البكري الذي كان يعقده كل يوم في منزله، وهو مجلس علم وأدب، كان يحضره العلماء والأعيان والأمراء، وتجري بينهم المذاكرات العلمية والأدبية حيث يستمر لعدة ساعات.[6]

(1) المرادي ،المصدر السابق، ج 2، ص 33.

(2) نفسه، ص 13.

(3) محمد جميل الشطي، المصدر السابق، ص 187.

(4) الجبرتي، المصدر السابق، ج2(دار الكتب)، ص 308، 309.

(5) أكمل الدين إحسان أوغلي، الثقافة التركية، ص 190.

(6) عبد الغني النابلسي، الحقيقة والمجاز (الهيئة المصرية)، ص 202، 204.

وفي القرن 18م كان مجلس الأمير رضوان كتخدا الجلفي(ت 1168 هـ/1755م)، من أشهر المجالس حيث كان يحضره مجموعة كبيرة من العلماء والشعراء، ويقع بينهم مذاكرات ويمدحه الشعراء بالقصائد واتخذ له جلساء وندماء، منهم الشيخ علي جبريل وسليمان، وحمودة السديدي المحلاوي.[1] وحضره حتى علماء من البلاد العربية والإسلامية، وكان هناك من يدون ما يدور في المجلس، من أفكار ومدائح، مثلما فعل الشيخ عبد الله الإدكاوي، الذي سجل ذلك في كتابه المسمى "الفوائح الجنانية و المدائح الرضوانية".[2]

وكان هناك مجلس آخر في منزل علي بك الدفتر دار، وقد وقعت فيه مناقشة شهيرة دارت بين الشيخ حسن بن علي البدري العوضي*(ت 1214 هـ/1799م ـ1801م)، والشيخ أحمد بن يونس الخليفي (ت 1209 هـ/1794م) حول تفسير قوله تعالى: "أستكبرت أم كنت من العالين".** فشرح الشيخ الحسن الآية بعد ذلك في رسالة، وقد كافأه الأمير صاحب المجلس، بأن رتب له تدريس بالمشهد الحسيني ومعلوماً من وقفه.[3] فكان إذن الأمراء وكبار رجال الدولة، يترددون لحضور مجالس دروس العلماء المشهورين بالعلم فيلتمسون منهم الإجازات، ويغدقون عليهم بالهبات ويرتبون لهم التعيينات، ويوقفون لأجلهم المدارس ويجعلون لهم رواتب وعطايا معتبرة.[4]

وذكر الجبرتي أن الأعيان والأمراء بمصر خلال القرن 18م، كانوا يحضرون مجلس وعظ الشيخ مصطفى بن صادق أفندي اللازجي، (1174 هـ ـ ت1207هـ/1760م ـ ت 1792م)، في الجامع المؤيدي خاصة وأنه كان يقرر بالعربي والتركي.[5] وكان الأمير إسماعيل إيواز وثيق الصلة بحسن الجبرتي، ورافقه إلى الحج ثلاث مرات. وكان يحضر مجالس العلم عند الشيخ عبد الله الإدكاوي، ويوسف الدلجي [6]

وفي بلاد الشام وصفت كتب التراجم والرحلات، العديد من المجالس التي عقدها الأمراء، ونخص بالذكر مجالس آل سيفا بطرابلس خلال القرن 17م، فقد كان حكامهم وولاتهم مشهورين بالكرم والأدب فصاروا لذلك مقصداً لكل شاعر وأديب، فيهبونهم الجوائز والعطايا؛ مثل الأمير محمد بن علي

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 285.

* الحسن بن علي البدري العوضي، أخذ القراءات الأربعة عشر والعربية والفقه وباقي العلوم، ونظم الشعر وله ديوان مشهور وله مؤلفات في فنون شتى، درس بالمشهد الحسيني. نفس المصدر، ج3 (دار الكتب)، ص 188، 189.

** الآية ﴿75﴾ من سورة "ص".

(2) أكمل الدين إحسان أوغلي، الثقافة التركية، ص 187.

(3) نفسه.

(4) الجبرتي المصدر السابق، ج2(دار الكتب)، ص 309.

(5) نفسه، ص 376. =

الطرابلسي (ت 1032 هـ/1623م)، الذي كان له مجلس يحضره الشعراء من أنحاء الشام؛ كالشاعر سرور بن الحسين بن سينن الحلبي(ت 1020 هـ/1611م)، الذي صارمن ندماء مجلسه ومدحه بقصيدة رائية.[1] والشاعر الأديب محمد بن ملحمة العكاري، من شعراء القرن 11 هـ/17م، ومن شعرائه أيضا حسين بن الجزري الحلبي، وكان يقع بينهم محاورات ومجادلات أدبية، بحضور الأمير الذي كان يكرمهم كثيراً.[2]

ومن أمراء حماة كان هناك من يعقد مجالس يشد إليها الرحال من كل مكان؛ مثل الأمير حسن بن محمد المعروف بابن الأعوج أمير حماة(ت 1019 هـ/1610م)، وهو من الأدباء تلقى علوم العربية والفنون الأدبية، فكان يجتمع في مجلسه الأدباء والشعراء، من الأقطار ما لم يجتمع عند غيره.[3] وحضر عبد الغني النابلسي، في رحلته مجلسا لأحد النواب بطرابلس، وهو عبد الله أفندي النائب عن قاضي القضاة، المشهور بابن الصياد. وحصلت له مباحثات علمية وأدبية مع أخيه الشيخ عبد الجليل، وحضر معهم جماعة من العلماء وذلك عام 1105 هـ/1693م.[4]

وخلال القرن 18م، كان السيد فتحي بن محمد الفلاقنسي الأصل الدمشقي الدفتري(ت 1159هـ /1746م)، يعقد مجالسا مشحونة بالآداب، رغم كونه دفتري ومتولي وقف السليمانية ، فكان يصطحب دائما العلماء والأدباء البارعين، والكتاب والخطاطين وجملة من أرباب المعارف والموسيقى والألحان والمضحكين فكانت مجالسه منتزه الأرواح.[5] والأمير علي باشا الأسعد المرعبي، وهو أحد حكام طرابلس وقد كان فصيحا، وقرّب إليه الشعراء الذين كانوا يمدحونه في مجلسه فيكرمهم.[6]

لقد كانت هذه المجالس في الواقع عاملا هاما، ساهم في استمرار الفعاليات الفكرية بمصر والشام، ثم إن اهتمام الأمراء بأهل العلم، ومؤسساته أكسب طبقة العلماء مكانة هامة، سمحت لهم بلعب أدوار مختلفة

= (6) أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق ، ص 190.

(1) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 204، 205 وأنظر في: المحبي، ج4، ص 47.

(2) عبد الله حبيب نوفل، تراجم علماء طرابلس وأدبائها، مطبعة الحضارة، طرابلس، لبنان، (د.ط)، 1929م، ص 21، 22. أنظر حول المجالس التي حضرها النابلسي في طرابلس: عبد الغني النابلسي، التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، تح .تق. هريبرت بوسه، المركز الإسلامي للطباعة والنشر، الأهرام، مصر، (د.ط)، (د، ت).

(3) عبد الله نوفل، المرجع السابق، ص 46.

(4) عبد الغني النابلسي، الحقيقة والمجاز، ج1(دار المعرفة) ص 217. كان هناك مجالس يعقدها العلماء أو شيوخ الطرق الصوفية ويحضرها الأعيان والأمراء، فتجري بينهم المطارحات الأدبية والشعرية مثل مجلس عبد الحق بن محمد الأدهمي الحنبلي الصوفي المعروف بالمرزباني من أهل الشام (991 هـ ـ ت 1070 هـ/1583 هـ ـ ت 1659م) كان يعقد مجلسا في بيته. أنظر: المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 316.

(5) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 280.

(6) عبد الله نوفل، المرجع السابق، ص 48.

سواء على الصعيد الفكري أو غيره، و على عدة مستويات سواء على مستوى المجتمع أو السلطة وهذا دليل على أن أهل ذلك العصر ،كانوا محبين للعلم والأدب مهما كانت طبقتهم. غير أن هذه الفعاليات، لم تكن تسير على وتيرة واحدة ومستمرة في كل العهود، بل كما كان هناك أمراء، بذلوا أموالهم لإنشاء المدارس و التكايا وزودوا أوقافها، كان هناك من تسبب في خرابها وتعطيلها. و في الوقت الذي كان هناك من يكرم العالم، ويهابه ويوقره ويقدر العلم وأهله، كان هناك من أهان العلماء ونكل بهم. فقد ذكر الجبرتي أن الأمير يوسف بك (ت 1192 هـ/1778م)، عرف بإهانته للعلماء فقد أهان الشيخ عبد الباقي بن عبد الوهاب العفيفي عندما طلق إمرأة غاب عنها زوجها، فلما عاد الزوج اشتكى به فسجنه وعامله معاملة المجرمين، حتى أنه وضع برقبته حديداً.كما أنه حبس الشيخ عبد الرحمن العريشي *،الذي كان وصيا على أولاد وتركة صهره فسدد ديونه من التركة، فسجنه بحجة أنه أكل أموالهم، رغم أنه أراه الحجج التي سدد بها الديون.[1]

وذكر المرادي أن الوزير، والي دمشق وأمير الحج رجب باشا، عزل الشيخ محمد بن إبراهيم العمادي مفتي دمشق وسلم الإفتاء لغيره ،وكتب إلى اسطنبول افتراءات في شأنه وطلب نفيه. فصدر أمر سلطاني بنفيه لولا أن جاءه العفو بعد ذلك.[2]وحتى الأمراء الذين اهتموا بالآداب والعلوم والشعر، كانوا ينشغلون عنها أيام الحروب، والاضطرابات الاقتصادية والسياسية وهذا ما كان يحصل في تلك الفترة، خاصة خلال القرنين 17 و 18م (11 هـ/12 هـ)، فرغم ما عرفه عهد آل سيفا، من ازدهار للفكر بتشجيعهم للأدباء والشعراء، إلا أن ذلك لم يرقى إلى أن يخلق نهضة ثقافية، ثم إنه انحسر بعد زوال دولتهم وانقضاء عهدهم الذهبي.[3]

ولذلك كانت هذه العوامل، رغم أهميتها تقوى في فترات وتخبو في أخرى، حسب الأوضاع والظروف التي كانت تعيشها المنطقة، ولهذا لم تظهر نتائجها بشكل يسمح بتغيير جذري، لمعالم الحياة الفكرية نحو منحى مغاير لما سارت عليه في السابق خاصة بين القرنين 16م و 18م، لأن القرن 19م سيعرف دخول مؤثرات جديدة. ستسمح فعلا بقلب الأوضاع، نحو مرحلة جديدة في الحياة الفكرية بمصر والشام، ومن منطلقات غربية أكثر منها محلية كما كانت من قبل.

---

* عبد الرحمن بن عمر العريشي الحنفي الأزهري (ت 1193 هـ/1779م) أصله من العريش (غزة) دخل مصر واستقر بها حتى توفي، درس على شيوخ الأزهر مثل البيلي، أحمد الصعيدي وكان على معرفة بالفقه والحديث والنحو والمعقول، ألبس التاج الخلوتي، وتولى مشيخة الأزهر. الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 539 ـ 543.

(1) نفسه، ص 512، 513.

(2) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 282.

(3) نهدي صبحي، المرجع السابق، ص 174.

المبحث الثالث: الأوروبيون بمصر والشام ودورهم في التواصل الفكري

لقد انحسرت العلاقات و الاتصالات، بين العثمانيين و أوروبا كثيرا، مع أواخر القرن 16م، لكنها لم تنقطع نهائيا، ولم يبدي هؤلاء أي اهتمام جديّ، بما يجري في أوربا إلا في أواخر القرن 17م، حيث تسارعت الخطوات للانفتاح على الغرب، بعد ذلك خلال القرن 18م / 12هـ .[1] لكن هذا لا يعني أن الدولة العثمانية لم تكن على إطلاع كلي، بما يجري في أوروبا من مستجدات قبل القرن 18م، ولو في نطاق محدود، فمع بدايات القرن 17م وفي عام 1665م، كتب كاتب جلبي (حاجي خليفة)* كتابه " المرشد عن الأمور المحيرة في التاريخ اليوناني والروماني والمسيحي"، وفي شرحه للأسباب التي دعته لكتابته، بيّن إطلاعه على أحوال أوروبا وبعض دولها ولغاتها، ونبّه السلطة الحاكمة لأخطار تلك الدول المتنامية، وقد حصل على هذه المعلومات من ترجمته لمصادر أوروبية.[2]

وكذلك هزارفن الذي كان قادرا على التوصل إلى أسرار الكتب الأوروبية، و الإستفادة منها في بعض أعماله، مثل كتابه "تاريخ التاريخ"الذي أتمّه عام 1673م في 9 أجزاء، تتعلق بالتاريخ الأوروبي وآسيا وأمريكا. ورغم ذلك، كانت هذه المعلومات ضئيلة مقارنة بمعارف أوروبا، حول الدولة العثمانية في نفس الفترة. [3] ولهذا يمكن اعتبار هذه المحاولات لمعرفة أوروبا، و الاطلاع على أحوالها، هي البوادر التي جعلت الدولة العثمانية تعي فعلا بحاجتها إلى هذا العالم، وضرورة الاقتباس منه. وفي القرن 18م/ 12 هـ ثبت لدى السلاطين العثمانيين ضرورة الأخذ بالتجربة الأوروبية، خاصة في المجال العسكري ثم في باقي المجالات.[4]

و كان ذلك يوحي من دون شك ببداية علاقات جديدة، بين الدولة العثمانية وأوروبا، سيكون لها تأثيرات عميقة على الحياة الفكرية إلى غاية القرن 19م. والواقع أن التأثر بالغرب لم يحصل دفعة واحدة، بل حصل تدريجيا. فكانت البداية في المجال العسكري ثم الإداري، وشمل الوزارات والمدارس والكليات، ثم اقتباس العلوم ومختلف الفنون الأوروبية، وبلغ الأمر حد العادات وأنماط الحياة الاجتماعية.[5]

---

(1) خالد زيادة، المرجع السابق، ص 8، 16.

* هو مصطفى بن عبد الله ولد باسطنبول عام1017هـ/1608م، تطوع في فرقة الجيش (السلحدار)والتحق في نفس الوقت بمكتب الأناضول، له مؤلفات عديدة منها : "فذلكة"، "جهاناما، "تحفة الأخبار في الحكم والأمثال، "تحفة الكبار"، "ميزان الحق"، "كشف الظنون"، وغيرها. أنظر: دائرة المعارف الإسلامية، مج7، ص235 ـ239.

(2) لويس برنار، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ص145.

(3) خالد زيادة ، المرجع السابق، ص147، 175، 176.

(4) نفسه، ص 59.

(5) روبير منتران، المرجع السابق، ج2، ص 461 ـ 463.

وفي الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تتعرف تدريجيا على أوروبا، وترفع الحواجز عن خيوط النهضة الأوروبية وتطوراتها، كانت مصر والشام تجهل الكثير عن هذا العالم، ولا تعرف شيئا عن التاريخ العالمي، بل ما تزال تعيش على وقع التواريخ المحلية، ولم تطلع على النظريات المستحدثة، بل كانت تجتر نظريات الماضي في مختلف المجالات. وأدت عزلتها الفكرية هذه إلى أن جهلت حتى أن تلك الدول قد غدت أكثر تفوقا علميا وعسكريا، ولن تخرج مصر والشام فعلا، من التقوقع الذي كانت فيه إلا بعد الحملة الفرنسية في نهاية القرن 18م، ولن يطلعوا على تقنيات المعرفة الحديثة لدى الأوروبيين، أو ترجمة مؤلفاتهم الطبية والأدبية، أو معرفة مبادئ الثورة الفرنسية، وتعلم اللغات الأجنبية والطباعة، بالشكل الذي يؤثر في الحياة الفكرية إلا في القرن 19م. في وقت كان فيه المفكرون العثمانيون قد استوعبوا كليا الأفكار الأوروبية.

والواقع أن الدولة العثمانية، لم تسعى لحجب التطورات العلمية الأوروبية، عن مصر والشام فقد كانت هذه الأخيرة، مفتوحة في العهد العثماني على كل الطرق التي تسهل لها الإحتكاك بالغرب ولكن ربما كان سعي الدولة العثمانية لكبح أطماع الدول الأوروبية في المنطقة، وعملها على طبع العلاقات بطابع الهدنة، وتنظيمها في قوالب موضوعية، فلا هي بعدائية ولا هي ودية.(1) صعّب عمليات التأثر الحضاري بين مصر والشام والغرب، والحقيقة أن هناك أسباب عديدة حالت دون استفادة العرب من أوربا قبل القرن 19م.

1 ـ تأثير الرحالة و المؤطرين الأوروبيين:

أ ـ الجالية الأجنبية بمصر والشام:

لقد تميزت الدولة العثمانية بالتسامح الديني مع الأقليات، التي كانت موجودة تحت سلطتها، فقد حافظت جميع الأديان على كنائسها، ولم تضع الدولة عوائق، في وجه تطبيقهم لعباداتهم.(2) بل إن تلك الطوائف، اكتسبت حقوقا معترفا بها من طرف السلطان، على قاعدة حق جماعات أهل الكتاب في ممارسة عقائدهم، وحرية قوانين الأحوال الشخصية، واختيار بطاركتهم، وبناء المؤسسات الخاصة بهم.(3)

ولذلك كانت تعيش بالشام ومصر جاليات أوروبية، وطوائف دينية متعددة بالمدن الكبرى، مثل حلب التي كانت تعج بالتجار الجنويين والبنادقة والإنجليز، والهولنديين والإسبان والبرتغاليين، الذين كان لهم دورا هاما في الحياة الاقتصادية خلال القرنين 17م 18م.(4) ونفس الوضع كان بمصر فقد

(1) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص 93، 94.

(2) روبير منتران، المرجع السابق، ج2، ص 466.

(3) وجيه كوثراني، المرجع السابق، ص68. =

كانت مدنها تعجّ هي الأخرى بالجاليات الأوربية، خاصة المدن التجارية مثل دمياط والقاهرة والإسكندرية، حيث كانت تمارس نشاطها التجاري و الإقتصادي بكل حرية، كما كان لها دور كبير في عمليات التصدير والاستيراد، فقد كانت بمصر جاليات متعددة مثل اليونانيين والإيطاليين، والفرنسيين، الذين ازداد عددهم منذ عهد الحملة الفرنسية على مصر.[1] وقد تضاعف عدد الأجانب بمصر خلال عهد محمد علي باشا، وكانوا من جنسيات مختلفة نتيجة سياسة التسامح الديني التي انتهجها.[2]

وإلى جانب التجار الأجانب كان بمصر والشام طوائف دينية، استقرت منذ زمن طويل من ديانات مختلفة، مثل الروم الأرثوذكس وهم أتباع الكنائس المسيحية البيزنطية، وشملت طوائف مسيحية مختلفة مثل السريان والأقباط [*] والأحباش، وانتشروا بسوريا ولبنان وفلسطين ومصر، وألفوا بطريركيات بأنطاكية والقدس والإسكندرية. وكان هناك أيضا طائفة الكاثوليك، وطائفة الآرمن [**] والموارنة، وهم من السريان السوريين ينتسبون للراهب مار مارون، وكانوا يتبعون الكنيسة الشرقية، وكان لهم أسقفيتان بدمشق و في بعلبك.[3] كما وفد إلى دمشق موجة من اليهود في العهد العثماني، أولها يهود الأندلس الذين استقر عدد منهم في القدس وصفد، وحتى في مصر بالقاهرة والإسكندرية، وأطلق عليهم السفارديم. ومع بداية القرن

= (4) فريد جحا، الحياة الفكرية في حلب في القرن التاسع عشر، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط1، (د، ت، ط)، ص 136، 137.

(1) علي باشا مبارك، المرجع السابق، ج1، ص 99.

(2) سمير عمر إبراهيم ، الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، المؤسسة المصرية لطباعة الكتاب، القاهرة ، مصر، (د. ط)، 1992م، ص 69.

لقد قدر عدد الأجانب في مصر خلال عهد محمد علي باشا بنحو 3 آلاف أجنبي وبلغت التقديرات عام 1883م " 4486 شخص " وفي عام 1843م قدروا بنحو 6150 شخص منهم اليوناني والإيطالي والمالطي والفرنسي والإنجليزي والنمساوي والروسي والإسباني ومن جنسيات مختلفة أخرى.N. Tomiche, op.cit, pp.250, 521

لمزيد من المعلومات حول الجاليات الأجنبية بمصر أنظر: صلاح أحمد هريدي علي، الجاليات الأروبية في الإسكندرية في العصر العثماني 1517ـ 1798م، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، مصر، (د. ط)، 1989م، و في الشام أنظر: ليلى الصباغ، الجاليات في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، ج1 وج2، 1989م.

* الأقباط(Coptes) هو اسم أطلق على سكان مصر قبل الإسلام وأصل الكلمة يوناني " أيغوبتي " ويقصد بها سكان مصر والأقباط ينتمون إلى الكنيسة المونوفوستية أو الأحادية الطبيعية. وانقسمت إلى فرعين هما اليعاقبة في سورية، والأقباط في مصر، وامتد نفوذهم إلى القدس والحبشة والنوبة وتناقص عددهم في العهد العثماني، نتيجة اعتناقهم الإسلام. أنظر: فدوى أحمد محمود نصيرات، المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية في بلاد الشام ومصر 1840م ـ 1918م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2009م، ص 47. مصطفى الخطيب ،معجم المصطلحات التاريخية، "أ" ص 37.

** الآرمن: اعترفت بهم الدولة العثمانية كملة عام 1641م، وضمت جميع رعايا السلطان غير المعترف بهم كملة مستقلة، مثل السريان والأحباش. وكان لطائفة الآرمن القديمة كنيسة صغيرة في دمشق مارسركيس. أنظر: فدوى نصيرات ،نفس المرجع، ص 45.

(3) نفسه، ص 44 ـ 46.

19م جاءت موجة يهودية أخرى من أوروبا الشرقية ،وقد توزع اليهود بدمشق في أحياء سكنية خاصة بهم، مثل كل الأقليات الطائفية الأخرى، وأطلق على مكان سكناهم اسم " محلة اليهود " أو " حارة اليهود ". [1] أما في مصر فكانت لهم كنيسة في رأس التين، وحارة النبيّ دانيال بالإسكندرية وغيرها. [2] وحتى في إسطنبول استقرت منذ القرن 17م، العديد من الأسر الأوروبية المتوسطة والراقية، ساعدوا السلطة الحاكمة بعملهم كوسطاء، خاصة وأنهم يجيدون لغات مختلفة مثل اليونانيين و الآرمن واليهود. [3]

ب ـ الرحالة الأوروبيون في مصر والشام:

إلى جانب الجالية الأوروبية، التي كانت مستقرة بمصر والشام، كان هناك عدد كبير من الرحالة محبيّ الاستطلاع، يجوبون أراضي الشرق راغبين في اكتشاف أسراره، خاصة بعد اطلاعهم على المؤلفات القديمة التي كتبت عنه، وهذا ما كان يفسر كثرة رحلاتهم إلى المنطقة، خاصة إلى مصر والشام. وقد حركت هذه الموجات المتتالية من الرحلات الأوروبية، منذ القرن 16م وحتى القرن 19م، عوامل عديدة من جملتها العلاقات الوطيدة مع الدولة العثمانية مثل فرنسا، فقد مكنّ ذلك الرحالة الفرنسيين خاصة خلال القرنين 16 و 17م، من التوافد إلى مصر والشام بكل حرية. بالإضافة إلى الحرص الشديد من الأوربيين على أداء فريضة الحج في الأماكن المقدسة، رغم أن الرحالة لم يكونوا دائما رجال دين، بل كان منهم الطبيب والفيزيائي والشاعر والأديب وغيرهم. [4]

ومن بين الدوافع التي حفزت الأوربيين على الوفود إلى الشرق، هو الاهتمام المتزايد خاصة منذ القرنين 17م و 18م بكتب التراث الكلاسيكي، وإحياء أدب الرحلات الكلاسيكية وتقليده، والرغبة في الاستكشاف، إضافة إلى التنافس الديني بين الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية، لنشر مذهبهما بمصر والشام. ولكن منذ منتصف القرن 18م أصبحت الدوافع الاقتصادية والسياسية هي المحرك الأكثر دافعية للقدوم إلى الشرق، بحثا عن إحياء لطرق التجارة المؤدية لمناطق إنتاج المواد الخام، مثل الهند وإفريقيا بإعادة

---

(1) يوسف نعيسة، يهود دمشق، دار المعرفة، دمشق، سوريا، ط1، 1988م، ص 8، 12 ، راغب العلي، " بعض معالم دمشق الاجتماعية في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر الميلاديين 1212 هـ ـ 1224 هـ / 1795م ـ 1809م) دراسة وثائقية "، مجلة دراسات تاريخية، ع. 103 ـ 104، السنة السابعة والعشرون، أيلول، كانون الأول، 2008م، ص 162، 163.

(2) علي مبارك، المرجع السابق، ج7، ص 71.

Edward . Brown, Le Voyage en Égypte 1673- 1674, Trad. Marie Thérèse Bréant, Institut Français d'Archéologie, Le Caire, Égypte, 2éme Ed, 1974, pp.324, 325

(3) لويس برنار، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ص 119، 120، 61.

(4) إلهام محمد علي ذهني، مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، (د، ط)، 1991م، ص 53- 55- 59.

اكتشاف طريق التجارة مع الشرق الأقصى، عبر الجزيرة والخليج، أو بحرا عبر البحر الأحمر إلى الهند، وقد زادت رحلات الإنجليز إلى المنطقة في نفس الفترة ولنفس الغرض.[1] وكانت الرغبة في التوسع الإستعماري في المنطقة، من بين أهم الدوافع التي حركت الرحالات الأوربية في هذه الفترة، فقد كان من بين الرحالة جواسيس أرسلوا في مهمات سياسية. ومنهم سفراء كتبوا تقاريرهم التفصيلية عن المنطقة وقد بدا في كتاباتهم الدعوة الصريحة للحرب الصليبية ضد الدولة العثمانية، واستغلال حالة الضعف التي كانت تعيش فيها، مثل دي فنسنان وكوبان والفارس دارفيو، و تيفينو الذين غلب على كتاباتهم التعصب الديني.[2]

وقد انصب اهتمام هؤلاء الرحالة، على وصف الأوضاع السياسية بمصر والشام، والنزاعات القائمة، ووصف المدن التي زاروها والتي لم يزوروها، والمواقع المقدسة بالشام والمزارات بمصر، ووصفوا الأحوال الاجتماعية والإحتفالات والأعياد، لكنهم قليلا ما كانوا يصفون بدقة الحياة العلمية والمدارس و العلماء، باستثناء بعض الإشارات العابرة.[3] فلقد اختلفت مدة إقامة الرحالة، فمنهم من أقام عدّة سنوات، وتعلم اللغة العربية ودرس تاريخ المنطقة وأحوالها، مثل بالدوين G. Baldwin وجون أنيس الذي قضى 12 عاما في مصر ما بين (1183 هـ ـ 1195 هـ / 1769م ـ 1781م)، ومنهم من مكث أقل من شهر.[4]

ومن بين الرحالة الفرنسيين الذين جابوا مصر والشام، كان أول من زار المنطقة في القرن 16م مع بداية الحكم العثمانيّ، رجل الدين جريفان أفاجار Greffin Affagart الذي زار عام 946هـ ـ 1539م الإسكندرية والقاهرة، وطرابلس الشام وبيروت وبيت المقدس. والطبيب الفرنسي بيير بيلون دي مان Pierre Belon De Mans ، الذي زار الشام ومصر عام (960 هـ ـ 962 هـ / 1553م ـ1555م) وغيرهم.[5]

أما في القرن 17م/ 11 هـ فنجد من بين الرحالة الفرنسيين للمنطقة فرانسوا سافاري دي بريف ، ودي بريف الذي زار مصر، والأراضي المقدسة بفلسطين عام 1604م/ 1012 هـ ودوّن رحلته. كما زار جيل فرمنال* مصر عام 1631م/ 1040 هـ ،وجاء بصحبته دي فنسنان ستوشوف De Vincent Stochove الذي كتب رحلته أيضا ،ودخلوا فلسطين وسوريا. إضافة إلى جان تيفينو الذي كان يعرف اللغة العربية

(1) جون أنتيس، المصدر السابق، ص 8- 10.

(2) إلهام ذهني، المرجع السابق ، ص 137.

(3) نفسه، ص 60- 67- 75.

(4) جون أنتيس، المصدر السابق، ص 15.

(5) المرجع السابق، ص 52 ـ 54 . أنظر الرحالة الآخرين في الصفحات التالية إلى صفحة 59.

* أنظر رحلته: Gilles . Fermanel, Voyages en Égypte 1691, Le Caire, 1975

وزار سوريا ومصر عام 1657م/ 1067 هـ، ومكث بمصر عامين. والفارس دارفيو، الذي زار مصر عام 1658م/ 1068 هـ وغيرهم.[1] و من أشهر الرحالة الذين دخلوا مصر والشام وقدموا كتابات دقيقة الرحالة الفرنسي فولني Volney .[2] و بوكوك Pocok و نوردن Norden ونيبوهر Niebuhr، والرحالة الإنجليزي و.د. براون W.D.Browne عام 1205 هـ ـ 1790م الذي زار مصر. [3]

وهناك رحالة آخر سويسري الجنسية ؛ يدعى بوركهرت J.L. Burckharat (1197 هـ ـ 1230 هـ / 1783 ـ 1814م)، الذي طاف متنكرا في بلاد النوبة وبادية الشام ، وجهات الحجاز وعرف بالشيخ إبراهيم، و ترك مؤلفات جليلة في وصف رحلاته، من جملتها كتاب في الأمثال العربية وقد مات بالقاهرة. وهناك رحالة من جنسيات أخرى مثل الكاهن ج. ماريتي (G.Mariti) الإيطالي (1149 ــ هـ1219 هـ/ 1736م ـ 1804م)، الذي زار بلاد الشام ومصر ودوّن رحلته. ومن الإسبان الراهب الفرنسيسي كانيس (FR. Canes) (1730م ـ 1795م) الذي عاش مدة في فلسطين والشام، ودرّس اللغة العربية لمرسلي رهبانيته، وقد صنّف كتبا لتعليم اللغة العربية بالإسبانية. [4]

ولكن رغم هذا التوافد اللامتناهي، للرحالة الأوروبيين فلاسفة وأدباء وأطباء، ورجال دين وسياسة، إلا أن الإفادة من علوم أوروبا في أوج عصور ازدهارها لم يحصل، خاصة خلال القرنين 17م و 18م على الأقل، بينما ازداد التأثير الأوروبي خلال القرن 19م / 13هـ. فلم يكن تأثير الجاليات الأوروبية خلال القرنين 17و 18م كبيرا، وذلك لكونهم كانوا يعيشون في عزلة عن المسلمين، متقوقعين على معتقداتهم وتقاليدهم، فلم يكن التواصل بينهم إلا في نطاق محدود، لم يصل إلى مستوى التبادل الثقافي والفكري. [5]

فالتجار الأوروبيون، كانوا يعيشون في الواقع في حارات خاصة بهم، مما ضيق العلاقات بينهم و بين التجار المسلمين في مصر و الشام. [6] رغم وجود بعض الاتصالات في المدن الأكثر تسامحا مثل حلب بينما كانت دمشق أكثر تعصبا، واحتلت القاهرة مركزا وسطا. [7] ومهما يكن فإن أهل الذمة في المجتمع الإسلامي كانوا يخضعون لشروط * تفرضها الدولة الإسلامية عليهم، فكان كل من يخالفها يتعرض للإهانة.[8]

---

(1) إلهام ذهني ، المرجع السابق، ص 61- 67.

(2) رحلته : Volney, op.cit, To.1,2

(3) جون أنتيس، المصدر السابق، ص 12- 15.

(4) لويس شيخو، المرجع السابق، ص 15، 17.

(5) لويس برنار، اكتشاف المسلمين لأوروبا ، ص 119، 120.

(6) جب و بوون، المرجع السابق ، ج2، ص 159، إلهام ذهني، المرجع السابق، ص 49، كان معظم المسيحيين في دمشق يتمركزون في محلة باب توما أو محلة النصارى. راغب العلي، المرجع السابق، ص 161، 162. =

وكان اختلاف اللغة ،من أهم العوامل التي صعبت الإتصال بين المسلمين والأوروبيين، فالمصريين أو الشوام باستثناء المسيحيين والأقباط، كانوا يجهلون لغة الأجانب، وكذلك الشأن بالنسبة للرحالة والتجار الأوروبيين، باستثناء البعض القليل الذين تعلموا اللغة العربية. ولذلك كانت اللغة عائقا كبيرا، حجب المؤثرات الغربية عن مصر والشام، لا سيما خلال القرنين 17م و 18م / 11 هـ/ 12هـ، فقد كان التعامل بين الأوروبي والمسلم، يتم عن طريق التراجمة* ،وفائدة هؤلاء لم تكن تتجاوز ترجمة الخطابات العادية في المعاملات، أما الخطاب الفكري أو الأدبي، فلابد أن يكون بلغة واحدة، لأنه من الصعب جدا تقييم عقلية وشخصية أية أمة دون معرفة لغتها، فما ينقله المترجمون، لا يمكن أن يكون ذا فائدة بقدر التخاطب المباشر.(1)

ولو نتوقف عند اللغة، لوجدنا أنها من أهم عوامل التخلف عن استيعاب المستجدات الأوروبية في مصر والشام والشرق عامة. فقد رفض معظم المسلمون تعلم اللغات الأجنبية، ولم يبدو أي اهتمام بالأعمال التي كتبت بها، رغم وجود روافد للإتصال مع الغرب، إلا أن الاستفادة منه كانت ضعيفة، ويرجع ذلك إلى قلة فرص المسلمين، في العيش بأوروبا و الإحتكاك بلغاتها، وقلة الرغبة في تعلم أي لغة أوروبية، لكونها لغة الكفار. ولذلك اقتصر الأمر على تعلم بعض اللغات المحلية القديمة، التي كانت بعض الطوائف المسيحية تجيدها وتتعامل بها، فقليلا ما نجد من حاول تعلم لغة أجنبية إلا نادرا، باستثناء المسيحيين ففي نظرهم لم تكن الضرورة تقتضي ذلك.(2)

واقتصر الاهتمام على تعلم اللغة التركية والفارسية، وحتى في الدولة العثمانية (الآستانة) لم يكن الاهتمام بتعلم اللغات قبل القرن 18م، فقد كانت تستخدم الترجمان في الجهاز الحكومي، لإدارة الشؤون الخارجية، وحتى لما افتتحت السفارات الدائمة في القرن 18م، كان معظم السفراء يرافقهم مترجم يوناني عثماني، ولم تتمكن الدولة العثمانية من الاستفادة من علوم الغرب، إلا بعد إدخال اللغات في المنهج

= (7) جب و بوون، نفسه، ص 160.

* كان من بين تلك الشروط أن يشمّل الذمي إذا صادف مسلما في طريقه أي يمشي على يساره، وكان ضروري عليه دفع الجزية، واشترط عليه لباس محدد لتمييزه عن المسلمين كما كان عليهم شروط محددة في البناء، وفرض عليهم قيود في بناء كنائسهم أو ترميمها، ومنعوا من ركوب الخيل أو دخول الحمامات العامة دون علامة تميزهم. أنظر: فدوى أحمد، المرجع السابق، ص 52ـ 55.

(8) يوسف نعيسة، المرجع السابق، ص 6، 7.

* كان التجار الفرنجة، يعتمدون في تواصلهم مع تجار مصر والشام، على أهل الذمة هناك فكان في مصر مثلا معظم التراجمة من اليهود، أما في الشام فمعظمهم من المسيحيين جب و بوون، المرجع السابق، ج2، ص 161.

(1) جون أنتيس، المصدر السابق، ص 20.

(2) لويس برنار، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ص 84، 91.

التعليمي خاصة الفرنسية ؛وذلك بهدف تحصيل المعرفة الأوروبية، فبدون ذلك كان من الصعب الإطلاع على منجزات الغرب.[1] و لو نظرنا إلى هذا العامل بتمعن، لأدركنا أن محمد علي باشا ما كان ليستفيد هو الآخر من المعرفة الأوروبية، لولا إنشائه مدرسة الألسن، وتخريجها جيلا يجيد اللغات .

ومن الأسباب التي وقفت في وجه الإنفتاح نحو الغرب أيضا، العامل الديني فقد ساد في هذه الفترة التعصب الديني، الذي كان كافيا للحيلولة دون التحام الرحالة بالشعب فقد كانوا تحت المراقبة، ويحظر عليهم العديد من الأمور، حتى أن بعضهم كان يتزيا بزي المسلمين ليسلم من المراقبة، وكثيرا ما تعرضوا للقمع وسلب ممتلكاتهم، من طرف بكاوات المماليك. ثم إن المخاطر ونقص الأمن، وعدم الاستقرار في بعض الفترات، حال دون مكوث الرحالة الأوروبيين مدة طويلة، بحيث لا يمكنهم التأثير أو حتى الإطلاع بشكل دقيق على أحوال البلاد، ولا التمكن من تعلم لغتهم وفهم عقلياتهم.[2]

و هذا التعصب الديني، لم يكن فقط من طرف المسلمين، بل إنّ العديد من الأوروبيين كانوا متعصبين ويكرهون الإسلام، واحتقروا المصريين والشاميين، وعبرت كتاباتهم عن ذلك. وفي الواقع إن الأمر الذي فسر بوضوح فشل الاتصالات مع الغرب في إحداث صدمة فكرية طيلة القرن 17م و 18م/ 11 هـ و 12هـ في مصر والشام، يكمن في العرب أنفسهم، فالتراث الفكري الذي كان يقف عليه هؤلاء أمدّهم بثقة، وصلت إلى درجة الوهم بالتفوق الفكري فلم يتنازلوا للإطلاع على الطرف الآخر، وعلومه وأفكاره لاعتقادهم بتدني مستواه عنهم، و إقتناعهم بالمراكز العلمية الحافلة في العالم الإسلامي، وبالعلوم التي تركها لهم الأسلاف فلم تكن في نظرهم أي فائدة من الإتصال بالغرب.[3]

وحتى الأوروبيون لم يكونو في المقابل، على استعداد لتقديم ثمرات نهضتهم للعرب، فقد وصف الرحالة الفرنسي جون أنتيس، تكبر العلماء عن الإصغاء أو محاورة الأوروبيين، وصرّح بعدم رغبة الأوروبي أصلا في منح هؤلاء ما يعرف من علوم بقوله : " كما أنه بسبب الظلم والقمع قلما تجد فنانا أوروبيا واحدا قد تغريه الظروف لكي يساعدهم ..." .[4] ولكن منذ القرن 19م بدأ التأثير الأوروبي في المنطقة يزداد، خاصة مع زوال العوائق التي كانت تحد من الإنفتاح على الغرب.

(1) لويس برنار، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ص 102، 103، 91، 92.

(2) جون أنتيس، المصدر السابق، ص 21، 22.

(3) إلهام ذهني، المرجع السابق، ص 49.

(4) المصدر السابق، ص 116.

ج ـ المؤطرون الأوروبيون :

لقد كان هناك تأثير كبير، للشخصيات الأوروبية التي استقدمتها الدولة ، للاستفادة من خبراتهم كمؤطرين ، سواء في الآستانة أو في مصر والشام، وأكثر من غيرهم ممن جاؤوا كمستطلعين أو مستكشفين للمنطقة. خاصة بعد زوال عقدة اللغة والتعصب الديني إلى حد كبير خلال القرن 19م/13هـ. ففي عهد فخر الدين المعني في الشام خلال القرن 17م، استقدم بعد عـودته من أوروبـا الجنوبية ، التـي زارها بين(1613ـ1618م /1022هـ ـ 1027 هـ)، العديد من المؤطرين كالمهندسين والبنائين و النقاشين ؛ مثل البعثة الفنية التي ترأسها "ليونشيني" Leoncini ، وجاء برفقته أطباء ومهندسين ، وهم فرنسيسكو شيولي F. Cioli المهندس والنحات و جوليو باريجي Guilio parigi مهندس البلاط الملكي ، وفرنسيسكو فايني F. Fagni رئيس البنائين وطبيب ، وقد ساهموا فعلافي مجال تخصصهم في بناء القصور والحدائق.[1]

وحتى في الآستانة استقدم السلاطين العثمانيين مؤطرين أجانب ، استفادوا من خبراتهم منذ القرن 18م/12 هـ وخلال القرن 19م/13 هـ ، وساهموا في إنشاء المدارس ، وتخريج الطلاب في العلوم الحديثة ، كما أدخلوا تقنيات جديدة في كل المجالات ، وظهرت فائدة إنجازاتهم بشكل واضح.[2] وفي عهد محمد علي باشا بمصر خلال القرن 19م ، استفاد هو الآخر من الخبرات الأوروبية ، حيث تميزت فترة حكمه بالانفتاح على الغرب ، وإلغائه القوانين التمييزية التي خضع لها بعض الرعايا وأزال الحواجز الاجتماعية بين المسلمين والمسحيين ، واستعان بالقبط في إدارة الشؤون المالية ، وشغل بعضهم وظائف هامة مثلهم كمثل المسلمين.[3]

فقد استقدم خبراء إيطاليين كمترجمين ، ترجموا العديد من المؤلفات ، وكانوا يدرسون اللغة الإيطالية في المدارس التي أنشأها. ومعظم المدرسين للرياضيات ، واللغات والعلوم و الفنون ، ومسيري المستشفيات في البداية كانوا إيطاليين.[4] كما أنه استفاد من الخبراء الفرنسيين ، الذين قدموا خدماتهم في قطاع التعليم ، وعلى رأسهم هامون ؛ الذي كان مديراً لمدرسة الطب البيطري ، ومعه الطبيبة الفرنسية جولييت ، التي عينت في مدرسة الولادة ، تحت إشراف كلوت بك. و ازداد عدد الذين عملوا في خدمة محمد علي من الفرنسيين في النصف الأول من القرن 19م ، فقد صار معظم المدرسين في مدرسة الطب فرنسيين وكان معظمهم من

---

(1) علي اسكندر المعلوف ، تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني ، منشورات المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 1966م ، ص 252 ، 253 ، 196.

(2) سيد مصطفى ، المصدر السابق ، ص 19 ، 20.

(3) فدوى نصيرات ، المرجع السابق ، ص 55 ، 56.

(4) سلوى العطار ، المرجع السابق ، ص 346 ، 347.

أصحاب الخبرة والشهرة، وقدموا خدمات بالغة الأثر لمصر.[1] كما أنه استفاد من الخبرات الأوربية، من مختلف القوميات كالإنجليز، الألمان، اليونانيين والإسبان والبولنديين، وكانوا من مختلف الطبقات الاجتماعية. وقدم لهم كل التسهيلات التي تمكنهم من آداء مهامهم.[2] وقد امتدت سياسة التسامح الديني و الإستعانة بالخبراء الغرب خلال القرن 13 هـ (19م) إلى الشام، خاصة في فترة حكم إبراهيم باشا، الذي لجم التعصب الديني وأعطى الفرص للمسيحيين، للمشاركة في صنع الإصلاحات التي قدمها.[3]

ومنه يبدو أن الأوروبين، الذين قدموا إلى مصر والشام، خاصة بين القرنين 17م و18م بهدف الاستطلاع، أو لمهمات خاصة بدولهم، ما كانوا يفيدون العرب بعلومهم، مثل أولئك الذين استقدموا كخبراء و مؤطرين، وكان هدفهم نشر المعارف والعلوم الأوروبية بالمنطقة. و لم يتم ذلك إلا في القرن 19م/13 هـ وحتى الجاليات الأجنبية المستقرة، برز دورها خلال هذه الفترة، بعد تغير نظرة المسلم للأوروبي كثيراً، عما كانت عليه في القرون السابقة.

---

(1) سلوى العطار، المرجع السابق ، ص 349، 351، 354، 355.

(2) نفسه ، ص 343، سمير عمر إبراهيم ، المرجع السابق، ص 76.

و من بين تلك التسهيلات التي قدمها محمد علي للأجانب القادمين إلى مصر أنه ضاعف من مرتباتهم حيث قدرت بـ 21 كيسا في الشهر أي 1260 جنيه في العام ولم يشترط عليهم التخلي عن دينهم. سلوى العطار، نفسه، ص 352، 353.

(3) فدوى نصيرات ، المرجع السابق، ص 56 ـ 58.

2 ـ الإرساليات التبشيرية* وتأثيراتها:

كنتيجة للتسامح الديني، الذي ميّز سياسة الدولة العثمانية، مع الطوائف المسيحية واليهودية على حد سواء، وفدت العديد من الإرساليات الكاثوليكية، والبروتستانتية والأرثوذكسية إلى مصر والشام، والذي ساعدهم أكثر تشجيع الحكام في المنطقة لهؤلاء المرسلين، واحترامهم لهم ومنحهم الأموال والأراضي، لبناء الكنائس والمدارس.[1] فقد حصل أغلب المبشرين، على الإذن من السلطان العثماني، بالوعظ علنا في كل أنحاء الإمبراطورية خاصة في بلاد الشام، حيث تتواجد طوائف مسيحية كبيرة.[2] وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية حرصت على أن تضع نشاط تلك الطوائف في قوالب محددة، إلا أنها كانت بعيدة عن التعصب الديني، مما سمح لها بأن تتمتع بكيان مستقل وحرية لا مثيل لها .[3] وقد بدأت الإرساليات تفد إلى مصر والشام منذ القرن 17م/ 11 هـ وأهمها:

أ- الإرساليات الكاثوليكية:

بدأت اتصالات اليسوعيون **، ببلاد الشام منذ عام 1625م/ 1034 هـ، وكانت جمعيتهم هي الأكثر نشاطا من بين الجمعيات التبشيرية الأخرى، ومعظم المبشرين فيها كانوا فرنسيين، لكنها ألغيت عام 1773م/ 1186 هـ ، وأغلقت أغلب مؤسساتهم كالمدارس، غير أنهم في عام 1831م/ 1246 هـ عادوا للنشاط مجددا، وأصبحت لهم أديرة في صيدا وبيروت، وحلب وطرابلس والقاهرة.[4] كما أنهم تلقوا دعم الأمراء المعنيين والشهابيين في بلاد الشام، أما في القاهرة فكانوا تحت رعاية القناصل الفرنسيين .[5] أما في فلسطين والأردن فمنحت فرنسا الحرية للرهبان الفرنسيسكان*** لممارسة نشاطهم التبشيري بعد حصولها على إمتياز عام عام 1535م/ 941 هـ، لحماية المسيحيين في الأماكن المقدسة. وفي عام1604م/ 1012هـ أبرم إتفاق سمح

---

* الإرساليات التبشيرية: هي جمع إرسالية، وهي " البعثات التي توفد من الهيئات المسيحية لتبشير الناس بالإنجيل، وأعضاؤها من المثقفين الذين تخرجوا في مدارس التبشير"، ينتقلون إلى عدة بلدان فينشؤون الكنائس والمدارس والمستشفيات.. بغرض التبشير وقد نشأت منذ الحروب الصليبية وكان الرهبان هم المحركين لهذه الإرساليات. عبد الجليل شلبي، الإرساليات التبشيرية، كتاب يبحث في نشأة التبشير وتطوره وأشهر الإرساليات التبشيرية ومناهجها، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، (د.ط)، (د، ت، ط)، ص 149.

(1) سلوى العطار، المرجع السابق، ص 349.

(2) ليلى الصباغ، الجاليات، ج2، ص 817.

(3) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص 88.

** اليسوعيون (الجزويت) هي من الجماعات التبشيرية، يقودها رجال الكنيسة الكاثوليكية، مكونين في الجامعات، أسسها مجموعة من الطلبة في جامعة باريس، تهدف لنشر دعوة المسيح، واعترف بها كهيئة. مؤسسها هو إجناتياس لويولا Ignatis of Loyola (1491ـ 1559م). عبد الجليل شلبي، المرجع السابق، ص 184.

(4) المعلوف علي اسكندر، المرجع السابق، ص193 . فدوى نصيرات، المرجع السابق، ص66.

(5) إلهام ذهني، المرجع السابق، ص41.

=

للرهبان اللاتين بالتجول في فلسطين، وقد تضاعف عدد الكنائس والأديرة والمدارس بفلسطين والأردن خلال حكم محمد علي باشا كنتيجة للتسامح الديني في عهده، أما في مصر فنجح الفرنسيسكان عام 1684م/ 1095 هـ في إقامة إرسالية كاثوليكية بالصعيد وغيرها.[1]

ب ـ الإرساليات البروتستانتية:

ترجع بداية نشاطها في بلاد الشام إلى عام 1820م/1235هـ،وعملت على تحويل الكاثوليك والأرثوذكس إلى البروتستانتية، فقد نقل هؤلاء المبشرون مركز عملهم، من مالطة إلى بيروت وأسسوا كنائس ومدارس بها.[2]واستقرت أول الإرساليات الأمريكية في القدس بمجيء جون نيكولايسن John Nicolayson عام 1833م، لكنهم غادروها ثم عادوا إليها عام 1834م/1251 هـ، وركزوا نشاطهم على اليهود عام 1836م/ 1249 هـ. ثم حلت الإرساليات البريطانية البروتستانتية، في القدس وسورية والأردن،وأسسوا جمعية اليهود اللندنية (L.J.S)،لنشر المسيحية بين اليهود، واهتموا في إطار ذلك بإنشاء المدارس في مدن وقرى فلسطين والأردن ومستشفيات في الناصرة، صيدا، حيفا، بيروت، دمشق.[3]

أما في مصر فوصلت الإرساليات الإنجليزية عام 1815م/ 1230 هـ، وهي " جمعية إرسالية الكنيسة الإنجليكانية "، ولم يبدأ نشاطها إلا عام 1826م/1241هـ، وكان هدفها التبشير وسط الأقباط، لكنها لم تنجح فأقفلت عام 1848م/ 1264هـ . وكان لها عام 1840م/ 1255هـ مدارس وتلاميذ، حيث كانت تقدم تعليما للأقباط واليهود والمسلمين، وفي نفس العام وفدت جمعية التوراة البروتستانتية.[4]

ج- الإرساليات الأرثوذكسية :

مثلتها الإرساليات الروسية، التي بدأت نشاطها في القدس منذ اتفاقية كوجوك كينارجي عام1774م/1187هـ، و افتتحت أول قنصلية روسية بفلسطين عام 1820م ثم نقلتها إلى بيروت عام 1839م

=*** الفرنيسكان: هي من أشهر مدارس التبشير، كانت بدايتها في أوائل القرن 13م، ومؤسسها الذي تنسب إليه هو فرنسيس الأسيزي 1181م ــ 1226م. كانت أول الأمر جماعة تسمى باسم " الإخوة الصغار " ألف رئيسها ومؤسسها قانونا خاصا بها. وفي عام 1210م حصلوا على تأييد بابا روما، وكبرت الجماعة و كثر أتباعها. أنظر: عبد الجليل شلبي، المرجع السابق، ص 173، 174.

(1) فدوى نصيرات، المرجع السابق، ص68.

(2) نفسه، ص 69.

(3) نفسه، ص 71، 72. لقد وفدت إرساليات ألمانية، بالتعاون مع الإنجليزية إلى فلسطين عام 1842م، للتبشير وسط اليهود وأنشأت الكلية العبرية (The Hebrew college) أنظر: علي المحافظة ،" النشاط التبشيري الألماني في فلسطين بين عامي 1841ـ 1918م "، مجلة دراسات تاريخية، ع. 02، 1980م ، ص 58.

(4) سلوى العطار، المرجع السابق، ص 356، 357.

/1254 هـ، وفي عام 1840م/1256 هـ فتحت أول قنصلية بالقدس.[1] ولكن النشاط التبشيري الأرثوذكسي الروسي بالمنطقة لم يبدأ فعليا إلا في عام 1852م/1268 هـ حيث أقاموا داراً للطباعة في القدس، لإصدار الكتب الدينية الأرثوذكسية باللغتين العربية واليونانية.[2]

د- تأثير الإرساليات على الحياة الفكرية :

لقد أثرت الإرساليات التبشيرية، كثيراً في الحياة الفكرية بمصر و الشام، وذلك من خلال المدارس التي أنشأتها، والتي قدمت تعليما مغايراً في المضمون، وطرائق التدريس عما عهدوه قبل ذلك، مثل مدرسة عين ورقة وعينطورة، التي عنيت بتدريس الأدب العربي إلى جانب علوم الدين، وخرجت جيلا مثقفا مشبعا بالتراث العربي الأصيل، حتى أن معظم الكتاب الذين لمعوا في عالم الأدب في النصف الأول من القرن 19م/13هـ، كانوا قد تلقوا تعليمهم فيها مثل آل اليازجي والبستاني و الشدياق .[3]

وذلك لأن هذه الإرساليات عملت من خلال المدارس التي أنشأتها، على إحياء آداب اللغة العربية، رغم كونها في البادئ، اقتصرت على تعليم الأمور الدينية واللغات الأوروبية. إلا أنهم فيما بعد أدخلوا تدريس علوم اللغة والعلوم العصرية، فكان لهم الفضل الأكبر في خلق النشاط الفكري، الذي تشكلت كنتيجة له، حركة البحث والتأليف خلال عصر الإستفاقة في القرن 19م.[4]

و لم يقتصر الأمر على ذلك فقط، بل برز فريق من المثقفين المسيحيين، الواعين بعالم أوروبا الجديدة، والذين كانوا على معرفة باللغات الأوروبية الحديثة، مما مكنهم من الحصول على أحد مفاتيح الثقافة الغربية، والذي سيوظفونه في ترجمة المؤلفات الأوروبية إلى لغتهم. وبتأثير الإرساليات والمعاهد الأجنبية قام مع أواخر القرن 17م/11هـ، أديرة تحولت بمرور الوقت إلى كليات، وأصبحت في القرن 19م مراكز للعلم والتربية، تكونت فيها طبقة من العلماء، كان لهم الفضل في التعريف بالشرق في البلاد الأوروبية، من خلال الترجمات التي قدموها للأعمال العربية، وحفظهم للمخطوطات الهـامة. وكان من بينهم فئة من المؤرخين اهتموا بالتاريخ المدني، إلى جانب الكهنة المهتمين بدراسة آثار العرب، وتاريخ الكنائس الشرقية، مثل

---

(1) فدوى أحمد نصيرات، المرجع السابق، ص 73.

(2) حبيب محمود صالح، "البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام (سورية و فلسطين) 1840ـ1914م"، مجلة دراسات تاريخية، ع.65، 66، 1998م، ص 156، 157.

(3) شمس الدين الرفاعي، المرجع السابق، ج1، ص 30.

(4) محمد كرد علي، خطط الشام، مطبعة الترقي، دمشق، سوريا، (د.ط)، ج 4، 1926م، ص 79، ليلى الصباغ، الجاليات، ج2، ص 826، 827.

البطريرك الماروني اسطفانوس الدويهي(1603ـ 1704م/ 1011 هـ ـ 1116 هـ)، الذي ألف كتاب "تاريخ الأزمنة". والأمير حيدر الشهابي (1761 ـ 1735م/1174 هـ ـ 1248هـ)، الذي كتب تاريخا عن لبنان، وميخائيل مشاقة (1800ـ 1888م/1214 هـ ـ1301 هـ) ،الذي تنبه للأفكار العلمية والنظريات التي كانت في عصر التنوير الفرنسي، وكان شغوفا بالرياضيات والعلوم الطبيعية ،في وقت لم يعرفها أحد في دير القمر.[1] و ساهمت الإرساليات في إدخال المطبعة إلى بلاد الشام في وقت مبكر، وكانت تطبع الكتب المدرسية إلى جانب كتب الدين، تلك المطابع التي كان لها دور كبير في النهضة الفكرية، حيث غدت في القرن 19م تخرج مصنفات بلغات مختلفة، أفادت الباحثين وطلاب العلم.[2]

وإضافة إلى ذلك كله سمحت بتعريف العرب المسيحيين خاصة،من خلال البعثات التي كانت ترسلها إلى أوروبا بالعوم الغربية الحديثة، مما جعلهم مروجين للإصلاح، وحركة النهضة الأدبية في بلادهم، وكان لهم دور في إدخال الأفكار والمبادئ الجديدة، مثل الوطنية والقومية وحقوق المرأة، والتي كانت منطلقات لتشكيل إتجاهات فكرية مختلفة، ستتضح أكثر في النصف الثاني من القرن 19م.[3]

ومع ذلك لا يمكن إهمال الآثار السلبية، التي تركتها هذه الإرساليات، فهي أيضا تعد من العوامل التي حركت وجهة الفكر العربي خلال الفترة التي نشطت فيها وبعدها، فقد أدخلت ألوانا مختلفة من الأفكار، مما ساهم في ازدياد الانقسامات الطائفية، خاصة مع دخول طوائف جديدة مثل البروتستانت.[4] كما أنها ركزت في الثقافة،التي قدمتها للعرب على الآداب اللاهوتية،ولا يبدو أن آداب أوروبا الرفيعة وأفكارها السياسية قد انتشرت قبل النصف الثاني من القرن 19م، مما يمكننا من القول بأنها في فترة النصف الأول من القرن لم يكن لها تأثير كبير على الأفكار، بغض النظر عن دورها في التعليم الذي سبق ذكره.[5]

و لاحقا كانت هذه الإرساليات، سببا في تخريج جيل بقدر ما كان وطنيا وقوميا في البداية، من خلال إحيائه للتراث والحضارة العربية، بقدر ما ابتعد عن حضارته في النصف الثاني من القرن 19م.[6] ورغم الفائدة الكبيرة التي قدمتها مدارس الإرساليات في محو الجهل، إلا أن التعليم الذي قدمته كان رهبني ديـني،

---

(1) ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص 67، 69، 70.

(2) عبد الجليل شلبي، المرجع السابق، ص 178.

(3) فدوى أحمد نصيرات، المرجع السابق، ص 74.

(4) نفسه، ص 76.

(5) ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص68 .

(6) محمد كرد علي، المرجع السابق، ج 4، ص 80.

و نطاقه محدود و ذو صبغة أجنبية أكثــر منها وطنية. بل خــلقت فوق ذلك فـوضى تـربوية وفكرية ، نتيجة اختلاف أنماط النظام التربوي الأوروبي المتعدد، الذي تلقاه الفكر العربي.[1] ومهما يكن فإن الهدف الأسمى لهذه الإرساليات كان إدخال الطوائف غير المسيحية في دينهم أو مذهبهم.[2] ورغم ذلك ساهمت كمؤثر فعال في التحولات الفكرية بالمنطقة.

3 ـ الحملة الفرنسية على مصر والشام 1798م :

لقد اعتبر المؤرخون الحملة الفرنسية في أواخر القرن 18م، أول لقاء فعلي بين الفكر العربي والغربي، وأنها سمحت أكثر من غيرها من الروافد، بتسرب المؤثرات الغربية إلى الفكر العربي وأنها كانت الحركة الأولى لتحطيم الحاجز بين عالم الكفار وعالم المسلمين، في مصر خاصة ثم في باقي الولايات العربية.[3] فقد شكل هذا اللقاء بالفكر الغربي صدمة حضارية، اعتبرت نقطة تحول عميقة في تاريخ الحياة الفكرية بالمنطقة.

لقد بدت الحضارة العربية خامدة لا حراك فيها، يوحي مظهرها بالموت وباطنها بالنبض، الذي لم يتوقف، وظهرت أنها تقف على موروث حضاري يمتد لقرون، وأنها ما تزال تتوارث تقاليد ثابتة شابتها العديد من الخرافات، وأنها بقيت أسيرة لذلك الموروث، الذي لم يعتريه التجديد. بينما بدت الحضارة الغربية فتية في طور الرقي، تمتلك الوسائل الحديثة، والمنهج العلمي في البحث.[4] فهذا اللقاء الذي حصل بين حضارتين متناقضتين، أيقظ جملة من التساؤلات، حيرت أفكار علماء العصر في مصر، وجعلتهم يعقدون المقارنات بين حضارتهم والحضارة الغربية، و اقتنعوا في الأخير بتفوقها وتخلفهم.

وقد كان الجبرتي ممن عاصروا الحملة ودون مشاهداته، التي عكست انطباعاته ومواقفه من تلك الحضارة الجديدة المختلفة عن حضارته. بل إن تلك الإنطباعات كانت دليلا على الصدمة، التي تلقاها أحد ممثلي الفكر العربي بمصر في تلك الفترة، فقد أظهر إعجابه بالتقنيات الحديثة، التي استعملها الفــرنسيون في البناء والزراعة والصناعة، ولم يخفي انبهاره بالآلات الفلكية والهندسية، التي اطلع عليها في المجمع العلمي الفرنسي، الذي أنشأه علماء الحملة. وأدرك الفرق الشاسع بين الآلات التي لدى الأوروبـيين، والتي لديهم

---

(1) علي المحافظة، "النشاط التبشيري.."، ص 52 ـ 54.

(2) أنظر حول سلبيات هذه الإرساليات : مصطفى خالدي، عمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للإستعمار الغربي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د.ط، 1953م، ص 66، 67.

عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة و خوافيها. التبشير ـ الإستشراق الاستعمار ودراسة منهجية شاملة للغزو الفكري، دار القلم، دمشق، سوريا، ط 8، 2000م، ص 48، 49، ص 80.

(3) لويس برنار، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ص 60. =

ممن تعود إلى زمن بعيد، كما رأى آلات جديدة لم يعرفها أصلا.[1] وكان الجبرتي في وسط تلك الصدمة الحضارية، يعطي مظهراً من مظاهر التناقض الذي شعر به، فقد انتبه إلى الإهتمام الكبير للفرنسيين بالعلوم الرياضية والترجمة؛ إذ كان لديهم ترجمات لمؤلفات من لغات مختلفة، بل وكانوا على معرفة بتلك اللغات ويملكون معاجم وقواميس تيسر لهم الترجمة من أية لغة.[2]

و في مقابل ذلك أهملت العلوم الرياضية بمصر، واقتصرت اللغات على العربية والفارسية والتركية، وغابت حركة الترجمة، ولم يمتلكوا أي قواميس غير التي تخص لغاتهم. ولم تقتصر دهشته ومقارناته على ذلك فقط، بل قارن بين مكتبات الفرنسيين، التي كانت تحوي العديد من الكتب المطبوعة في كل فن، وفيها من الصور والمعارف والعلوم، ما لا يوجد في مصر لا من حيث المضمون، ولا من حيث طريقة الطبع، فقد اطلع على كتب الجغرافيا، المصور فيها البلدان والسواحل، وكتب التاريخ والطب والهندسة، بل وجد حتى كتبا إسلامية مترجمة إلى لغاتهم. وانبهر حتى بطريقة تنظيم المكتبة، وحب الفرنسيين للمطالعة.[3]

وعاين الجبرتي مدى تطور العلوم الطبيعية لدى الفرنسيين، واعتمادهم على البحث العلمي ولاحظ التقنيات الحديثة في دراسة علوم الحيوان والنبات، وكيف كانوا يحفظون أجسام الحيوانات بالماء الحافظ لدراستها.[4] تلك التطورات كانت بعيدة كل البعد، عما كان موجوداً بمصر حينها. ومما دل الجبرتي وعلماء عصره، على مدى الفروق بين علم الكيمياء في مصر وكيمياء الفرنسيين، تلك الدهشة التي بدت عليهم حين حضروا تجربة كيميائية، لأحد العلماء الفرنسيين في مخبره، فقد وصفها الجبرتي باستغراب، وكان رد فعله والعلماء الذين حضروها ، دليل على اقتناعهم بالتفوق الأوروبي. وفي المقابل اقتنعوا بتخلفهم وبدا ذلك في قوله : "... ولهم فيها أمور و أحوال وتراكيب غريبة...لا يسعها عقول أمثالنا..." .[5] ورغم أن الجبرتي اعتبر الحملة من النوازل والملاحم، التي حلت بمصر عند قدومها عام 1213 هـ(1798ـ1799) .[6]

= (4) مصطفى عبد الغني، المرجع السابق، ص 41، 42.

(1) لقد وصف الجبرتي آلات العلاج والجراحة عند الحكيم رويا Royer بقوله : " ...و بنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع وآلات تصاعيد الأرواح و تقاطير المياه و خلاصات المفردات وأملاح الأرمدة المستخرجة من الأعشاب..." ووصف آلات الجراحة: "...وكوانين لتقطير المياه و الأدهان واستخراج الأملاح والقدور المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات.." الجبرتي، المصدر السابق، ج3(دار الكتب)، ص 56، 58، 59.

(2) نفسه، ص 58.

(3) وقد وصف الجبرتي المكتبة الفرنسية بقوله : "...وفيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة ... فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر ساعتين ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب..." نفسه، ص 57، 58.

(4) نفسه، ص 59.

(5) نفسه، ص 60. =

إلا أنه كان موضوعيا في مواقفه ، تجاه كل ما شاهده عند الفرنسيين، فكما رفض مظاهر السفور لديهم لم يخفي إعجابه بعلومهم وتطورهم، رغم كونه من العلماء الذين تربوا في الأزهر، ولم يتلقى أي تأثير خارجي من قبل، إلا أنه قبل أن يعترف بتفوق حضارة أوروبا، على ما لديهم من تراث. ولذلك كان الجبرتي نموذجا فقط لفهم حجم الصدمة الحضارية التي تلقاها علماء مصر، والتي ستنهي ثلاث قرون من العزلة وستفتح على مصر والبلاد العربية ، أبواب المؤثرات الغربية. كما فتحت الأبصار والعقول على عالم متطور علميا وتقنيا، وأيقظت حوافز التأمل في التخلف السائد، والبحث عن سبل اقتباس تلك العلوم، وفهم أسس التقدم لدى أوروبا وتطبيقها في بلادهم.[1]

إن تأثير الحملة الفرنسية، كان أكثر فعالية من غيرها من المؤثرات؛ وذلك لكونها مكثت فترة طويلة، واستولت على مقاليد السلطة، وفرضت قوانينها وأحكامها، وغيرت المعالم في عدة ميادين، وجاءت بالنظريات الأوروبية، والعلوم والمنجزات الحديثة.[2] و تسنى للعرب بأن يحتكوا بعلمائها، فقد دخل علماء مصر مخابر الفرنسيين و مكتباتهم، واطلعوا على منجزاتهم العلمية. بل وأشركوهم في عدد من الأعمال كالديوان والجريدة التي أنشؤوها.[3]

وكانت تلك الأعمال هي الأسس الأولى، التي قامت عليها التغييرات الجذرية التي ستعرفها مصر والشام، رغم أن هذه الأخيرة، لم تساهم الحملة في إحداث أي هزة فكرية أو إجتماعية بها، لأن نابليون فشل في احتلالها ولم يحصل أن طبق فيها ما كان بمصر.[4] إلا أن تأثيراتها انطلقت من مصر نحو الشام، وباقي الولايات العربية في القرن 19م، فالآثار العميقة لتأثيراتها، ستظهر في الفترة التي تلي خروجها، حين ستظهر سلسلة التحولات الفكرية بالمنطقة.

= (6) نفس المصدر ،ج3(دار الكتب)، ص 1.

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 372.

(2) لقد صحبت الحملة بعثة علمية كانت مؤلفة من حوالي 120 عالما في مختلف فروع المعرفة وأحضروا معهم مطبعة كانت الأولى في مصر كما أنهم شيدوا مرصداً ومختبراً ومسرحا للتمثيل ومستشفيات، ومعامل للورق والنسيج ومتحفا ونظموا الإدارة والضرائب والدواوين. و أنشؤوا مجمعا علميا مصريا شبيها بالمجمع الفرنسي يتألف من 48 عضواً ،موزعين على أقسام الرياضيات والعلوم الطبيعية، الآداب والفنون والاقتصاد السياسي وأصدرت جريدتين لنشر أبحاث المجمع العلمي Le Décade Égyptien والثانية Le Courrier d’Égypte وقد تركت هذه البعثة العلمية مؤلفا ضخما من 20 مجلداً بعنوان : وصف مصر Description de l’Égypte.

(3) الجبرتي، المصدر السابق، ج3(د. الكتب)، ص 16.

(4) ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص 66.

المبحث الرابع: تأثير الطباعة وحركة الترجمة والرحلات العربية إلى أوروبا

1- الطباعة

أ - الطباعة في الدولة العثمانية (الآستانة) :

لقد عرفت الدولة العثمانية فن الطباعة بعد اختراعها بـ 40 سنة فقط، وكان المسلمون على دراية تامة، بوجود هذا الاكتشاف في أوروبا، منذ القرن 15م/9 هـ. واطلع العرب على مطابع الأقليات الدينية في الدولة العثمانية، من يهود و آرمن ويونانيين، إلى جانب قبولهم للكتب العربية المطبوعة في أوروبا، منذ بداية القرن 16م/10هـ.(1)

ورغم ذلك تصدى السلاطين العثمانيين لهذا الاختراع، وقابلوه بالرفض فقد أصدر السلطان بايزيد الثاني، (1452م ـ ت1512م/ 856هـ ـ ت 917هـ) عام 1485م/889 هـ مرسوما، يحرم على غير اليهود استخدام الطباعة، وجدد هذا القرار وأكده ابنه سليم الأول (1466 م ـ ت 1520م /870 هـ ـ ت926هـ) عام 1515 م/920 هـ؛ وذلك خوفا من تحريف الكتب الدينية. ولكنهم سمحوا لليهود بطباعة كتبهم، فقد أسس العالم اليهودي اسحق جرسون مطبعة عبرية باسطنبول عام 1490م/895هـ.(2) كما سمح للآرمن عام 1567م/974 هـ، واليونانيين عام 1627م/1036 هـ بإنشاء مطابع خاصة بهم وطباعة كتبهم.(3)

و لذلك فإن فن الطباعة، لم يبرز بالمشرق بالأحرف العربية، إلا بعد قرنين ونصف من ظهوره في أوروبا، ومن الأسباب التي عطلت ذلك؛ النزعة التقليدية المحافظة التي تزعمها علماء الدين، الذين عارضوا مبدأ استعمال التقنيات الحديثة الأوروبية، لكونها من اختراع الكفار، واعتمادها يعني القطيعة مع الماضي والتراث الإسلامي في نظرهم. و فتح المجال لدخول آراء ونظريات غريبة عن المجتمع الإسلامي.(4) فضلا عن أن التعصب لفكرة النسخ، وتفضيلهم للحروف المكتوبة بالخط اليدوي الرفيع. فكان ظهور الطباعة يهدد تلك الحرفة المتوارثة بالزوال. وتخوف فريق من العلماء الذين اهتموا بالأدب من اندثار فن النسخ، الذي طالما أضفى العظمة والجمال على الأفكار. ولذلك نجد أن الناسخين، كانوا أكثر المعارضين على دخول الطباعة.

---

(1) Wahid . Gdoura, « Le début de l'imprimerie arabe a Istambul et en Syrie : Evolution de l'environnement culturel (1706-1787) ».

المجلة المغربية للتوثيق والمعلومات، ع.4، منشورات مركز البحوث في علم المكتبات والمعلومات، تونس، مارس 1986م، ص 299.

(2) فريد جحا، الحياة الفكرية في حلب، ص 102. Toderini, op.cit, pp.4.5.

(3) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 368.

(4) W. Gdoura, op.cit, pp. 299.300

واعتبر آخرون أن الجلد المستخدم في الطباعة ، مصنوع من جلد الحيوانات النجسة ، التي لا يجوز طبع الكتب الدينية عليها خاصة القرآن الكريم. وكانت مصر والشام بحكم تبعيتهما للدولة العثمانية، مرتبطتان بالفرامانات الصادرة عنها والتي منعت الطباعة.[1] ولم يسمح بإدخال الطباعة العربية إلى اسطنبول، إلا في الثلث الأول من القرن 18م/12 هـ، وأول من فكر في ذلك هو سفير الدولة العثمانية في باريس، محمد أفندي، الذي اطلع على هذا الفن فأراد إدخاله للدولة، ولكن اشترط عليه الفتوى الشرعية، وبمساعدة الصدر الأعظم إبراهيم باشا أفتى شيخ الإسلام عبد الله أفندي بجواز ذلك عام 1716م/1128 هـ، فصدر فرمان موقعاً بالخط الشريف بالإذن بطباعة الكتب غير الدينية.[2]

وقد عمل إبراهيم متفرقة*، (1670أو 1674ـ ت1745 م/1080/1087ـ1158 هـ)، على الإعداد لها، وبدأت عملها عام 1727م/1139 هـ، واستمرت في العمل حتى وفاته. وقد بلغ مجموع ما طبعته 16 مؤلفاً في 20 مجلداً، موزعة على موضوعات التاريخ والعلوم الحربية والجغرافية، والسير و القواميس في اللغات العربية والتركية والفارسية والفرنسية. ثم أعيد العمل بها بمرسوم في عهد السلطان عبد الحميد الأول (1725م ـ 1789م/1137 ـ 1203 هـ) عام 1784 م/1198 هـ، ثم استعادت نشاطها في عهد سليم الثالث.[3] وظلت هذه المطبعة لا تطبع الكتب الدينية، حتى أفتى بجواز ذلك استناداً إلى الأمور بمقاصدها"، وسمح بتجليد القرآن حتى لا يضيع، ثم أنشأت بعدها مطابع أخرى خلال القرن 19م في عهد التنظيمات.[4]

ب ـ الطباعة في بلاد الشام :

لقد عرفت بلاد الشام الطباعة قبل مصر، وذلك منذ القرن 17م/11هـ فكانت أول مطبعة أسستها الطوائف النصرانية، في لبنان بدير قزحيا عام 1610م/1019 هـ، حيث جلبوا مطبعة وحروفا سريانية من روما، وطبعوا بها كتاب"المزامير"، ولكنها أهملت وأوقفت. ثم أنشأت أول مطبعة بأحرف عربية في الشرق في حلب عام 1706م/1117 هـ، أسسها البطريرك اثناسيوس دباس، بمساعدة خبراء ومعـــدات من البلقان.[5]

(1) شمس الدين الرفاعي، المرجع السابق، ج1، ص 18، 19 أنظر : W. Gdoura, op.cit, p.300

(2) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج4، ص 44، أنظر نص الفتوى في: الرفاعي، نفسه، ص 21 .Toderini,op.cit,To.3,pp.7-11

* ولد في كلوج cluj من أراضي ترانسلفانيا ولد عام 1670م أو 1674م، وقع في الأسر في أيدي العثمانيين، أسلم وعمل في خدمة السلطان برتبة متفرقة، وهو من عائلة هنغارية له عدة مؤلفات، كلف بعدة مهمات دبلوماسية في فينا 1716، بلغراد 1720 م وغيرها. خالد زيادة، المرجع السابق، ص 37، 38.

(3) سيد مصطفى، المصدر السابق، ص 16- 18، 50، 51.

(4) جورجي زيدان، المرجع السابق. Op.Cit, PP. 27,28

(5) جوزيف أبو نهرا، "عبد الله زاخر رائد الطباعة العربية في لبنان في العهد العثماني 1866". أعمال المؤتمر العالمي الثالث =

وبقيت لمدة 6 سنوات إلى عام 1711م/1123هـ، وتولى إثناسيوس دباس ترجمة عدة كتب مسيحية إلى العربية، وطبعها بالمطبعة في حلب، مستفيداً من خبرته في العمل بمطبعة بوخارست(1701م ـ 1702 م/1112م ـ1113هـ)، و اعتمدت المطبعة على جهود أبناء الطائفة الأرثوذكسية، ولم تستعن بفنيين أوروبيين. وكانت توزع الكتب على كنائس الطائفة مجانا، مما أفقدها مصدراً هاما لتمويلها وتسبب في توقفها مبكراً، ومن الكتب التي طبعت فيها "المزامير" عام 1706م والإنجيل وغيرها.[1]

وبلبنان ظهرت أول مطبعة بأحرف عربية في دير الشوير، أسسها عبد الله الزاخر 1684ـ1748م/ 1095هـ ـ1161هـ) عام 1733 م/1145 هـ، وقد كان يعمل سابقا في مطبعة حلب، واستمرت هذه المطبعة إلى غاية القرن 19م/13هـ عام 1899م/1316 هـ، وطبعت عدة كتب خاصة الدينية.[2] وظهرت مطابع أخرى في بيروت، وهي مطبعة القديس جاورجيوس، أسسها يونس نقولا الجبيلي الملقب بأبي عسكر، لخدمة طائفته الرومية الأرثوذكسية عام 1753م/ 1166هـ، لكنها طبعت إلى جانب كتب الدين كتب التاريخ والأدب.[3]

وخلال القرن 19م/13هـ ظهرت مطابع الإرساليات، مثل المطبعة الأمريكية للمبعوثين الأمريكان عام 1822م/1237هـ في مالطة، ثم نقلت إلى بيروت عام 1834م/1249هـ، وطبعت الكتب العلمية والطبية والرياضية وكتب الأدب والشعر والتاريخ، فضلا عن كتب الدين مثل "التوراة".[4] أما في فلسطين فظهرت أول مطبعة بالقدس؛ وهي المطبعة اليهودية عام 1830م /1243هـ ، مالكها هو نسيم باق وعرفت باسمه، وكانت تطبع الكتب العبرية. ثم ظهرت مطابع المبعوثين.[5]

= للدراسات العثمانية حول الحياة الفكرية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية و الموريسكية والتوثيق والمعلومات، تونس ج3، 1990م، ص 684.

(1) إياد خالد الطباع، "بواكير الطباعة والنشر في بلاد الشام في العهد العثماني"، بحوث الندوة الدولية المنعقدة بدمشق 26 ـ2005/09/30م، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول، تركيا، 2009م، ص 184- 186.

(2) نفسه، ص 187، جوزيف أبو نهرا، المرجع السابق، ص 684، 685.

(3) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج 4، ص 45.

(4) وفي عام 1848م أنشأت المطبعة الكاثوليكية التي كانت تطبع على الحجر، ثم على الحروف عام 1854م. أنظر: نفس المرجع.

(5) حيث أنشأت مطبعة الآباء الفرنسيسكان في القدس عام 1847م/1263 هـ، التي كانت تطبع الكتب بالعربية والتركية والأرمينية والعبرية واليونانية واللغات الأخرى، لكن معظمها كانت كتب دين وبعض الكتب المدرسية. وأنشأت عام 1849م/1262 هـ مطبعة دير الروم الأرثوذكس أنشأتها جمعية القبر المقدس اليونانية في دار البطريركية بالقدس وطبعت كتبا دينية. أنظر: علي المحافظة، الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1987م، ص 58، 59، 61.

ج ـ الطباعة في مصر :

لقد ظهرت المطبعة بمصر في أواخر القرن 18م/12 هـ ،مع حملة نابليون بونابرث عام 1798م، الذي استقدم معه مطبعة عربية لطبع المنشورات والأوامر باللغة العربية. وسميت "المطبعة الأهلية"* طبعت فيها المناشير، وكتاب هجاء عربي ـ تركي ـ فارسي والجريدتين الفرنسيتين. واستمرت حتى خروج الحملة عام 1801م/1215 هـ.[1] وظلت مصر بعد خروج الحملة لمدة 20 سنة دون مطبعة، إلى عهد محمد علي باشا في القرن 19م، حيث أنشأت المطبعة الأهلية عام 1820م/1235 هـ، ولم تبدأ عملها إلا عام 1822م/1237 هـ وهي مطبعة بولاق (المطبعة الأميرية)، كان مديرها نقولا مسابكي السوري، الذي تعلم فن الطباعة لمدة 4سنوات في إيطاليا، حين أرسله محمد علي باشا عام 1815م/1230هـ، وكان فيها حروف إيطالية و يونانية، عربية وتركية، طبعت فيها الأشغال الخاصة بالحكومة، وكتاب شافي زاده محمد عطا الله "وصايا سفريه"، ومعجم إيطالي ـ عربي، وسيرة الإسكندر الأكبر مترجمة إلى التركية من اليونانية. وقد ساعد مشايخ الأزهر المسابكي في إدارة المطبعة، بعد تلقينه لهم فنونها، ومنهم عبد الباقي رئيس المسبك، ومحمد أبو عبد الله رئيس الطباعين وغيرهم.[2]

وقد أقام محمد علي في السنوات اللاحقة لإنشاء مطبعة بولاق، عدة مطابع أخرى غرضها طبع الكتب المدرسية والمنشورات الرسمية وهي : مطبعة مدرسة الطب في أبي زعبل، أول ما طبعته "كتاب القول الصريح في علم التشريح" عام 1248 هـ(1832 م)، وأغلقت عام 1837م /1252 هـ وأحيلت أشغلها إلى مطبعة بولاق. ومطبعة الطوبجية (مدرسة المدفعية) أنشأت عام 1834م/1249 هـ، وأول ما طبعته هو "الكنز المختار في كشف الأراضي والبحار"، وكانت تطبع الدروس و بعض كتب الفنون الحربية، المترجمة عن اللغات الأوروبية. ومطبعة مدرسة الفرسان بالجيزة، ومطبعة بمدرسة القلعة لطبع "الجرنال الحذيوي، ثم "الوقائع المصرية"، ومطبعة سراي رأس التين بالإسكندرية، التي أنشأت عام 1832م/1247 هـ وفي عام1844م، ألحقت بالمهند سخانه في بولاق مطبعة حجر، ثم ألحق ببعض الدواوين مطابع لنشر الأوامر.[3]

---

* كانت معدة بالحروف العربية و الفرنسية واليونانية، كانت في القاهرة ثم نقلت إلى الجيزة وبعدها إلى القلعة.

(1) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج 4، ص 46.

(2) نفسه، ص 47. محمد فؤاد شكري، عبد المقصود العناني، سيد محمد خليل، بناء دولة مصر محمد علي ،دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1948م، ص 120، 121. أنظر بالتفصيل حول مطبعة بولاق : أبي الفتوح رضوان، تاريخ مطبعة بولاق مع لمحة في تاريخ الطباعة في بلدان الشرق الأوسط.

(3) محمد فؤاد شكري وآخرون، نفسه، ص 121، 122، سمير عمر إبراهيم، المرجع السابق، ص 143، 144.

د- تقييم دور الطباعة في الحياة الفكرية :

إن ظهور الطباعة في الشرق العربي، دليل على بداية التغيير الجذري في توجهات المجتمع، وتطلعه لدخول مرحلة جديدة ملؤها التجديد الفكري والثقافي، بلعب فيها الكتاب المطبوع دوراً هاماً في التعريف بها، فتبني فن الطباعة يدل على الحرص على إيجاد، وسائل أخرى لبث الأفكار الجديدة، التي تنامت منذ القرن 18م/12هـ، ويوحي بالجنوح إلى أسلوب فكري حديث هدفه مسايرة المقتضيات الفكرية للعصر، بما ستدخله الطباعة من مكتشفات الغرب وتقنياتهم الحديثة.(1)

لقد كان الإنتاج المطبعي في القرن 18م/12 هـ خلال الفترة التي ازدهرت فيها الطباعة ضعيفا، مما يدل على صعوبة الانطلاقة، إذ لم تتوصل مطبعة اسطنبول بين (1727م ـ1787م/1139 هـ ـ 1201 هـ)، إلى طبع سوى 20 كتابا، وكذلك مطبعة حلب التي أصدرت بين (1706م ـ 1711م/1118 هـ ـ1122 هـ)، ثماني كتب فقط،أما مطبعة بيروت فأصدرت كتابين بين 1751 ـ 1766م/1164 ـ 1179هـ . ثم إن تأثير هذه الكتب المطبوعة خلال القرن 18م/12 هـ كان محدوداً، وذلك نتيجة تسخير المطابع الأولى في بلاد الشام لخدمة الدين المسيحي، وترسيخ العقائد في المذهبين الكاثوليكي والأرثوذكسي، فلم يكن دور الكتاب المطبوع حينها وسيلة لنشر العلوم الحديثة أو التوعية الفكرية،بقدر ما كان غرضه بلورة وتنشيط الشعور الطائفي،إذ ظهرت طبعات عديدة للكتب المقدسة ،والطقوس المسيحية والجدل الديني، والتي كرست الصراع الطائفي أكثر من نشر الثقافة.(2)

ولذلك لم تؤدي الطباعة كثيراً، في هذه المرحلة إلى انتشار أو اتساع، نطاق الحركة الإنسانية في المنطقة، رغم أن كتب مطبعة الشوير بلبنان، كانت توزع في بعلبك وطرابلس و دمشق وحلب، حمص، عكا، فلسطين و الإسكندرية، القاهرة. وأدت بذلك إلى ازدياد الصلات الثقافية والفكرية بين هذه المناطق، إن لم تؤدي إلى نبوغ فكري جديد.(3)

وحتى مطبعة اسطنبول التي نشرت كتبا غير دينية، واهتمت بمواضيع علمية كانت تأثيراتها محدودة، لكونها منحصرة بين رجال الباب العالي فحسب،الذين سخروها للدعاية السياسية، ونشر كتب تاريخ السلاطين وإبراز أمجادهم. وفي الوقت نفسه لم تترك سوى إشعاعات باهتة، في أوساط المتعلمين باسطنبول وبلاد الشام، الذين لم يكن عددهم كبيراً في تلك الفترة. فلم تلقى تلك الكتب المطبوعة إقبالا كبيراً، وذلك

(1)W. Gdoura, op.cit, pp. 298,299.
(2) Ibid, P. 302.

(3) جوزيف أبو نهرا، المرجع السابق، ص 685.

في الواقع يـرجع إلى عـدم وجـود بيئة علـمية، تزود المطبعة بإنتاجها من ناحية، وتلتهم إنتاجها من ناحية أخرى، يضاف إلى ذلك عدم وجود القابلية لتبني هذه الوسائط الجديدة، بحيث تثمر عن نتائجها في وقت قصير، وانعدام سياسة ثقافية واضحة، تكون فيها المطابع إحدى مراكز الإشعاع الفكري.(1) خاصة مع تعود العرب على الكتاب المخطوط يدويا.

ومع ذلك فإن فترة القرن 18م، التي ظهرت فيها الطباعة،كانت تمهيداً لكل التيارات الفكرية والتحولات الكبرى، التي ستتبلور في القرن 19م/13هـ، فدخول الطباعة كان أولى بوادر النهضة في الدولة العثمانية وولاياتها.(2) فقد ساهمت مطبعة اسطنبول، رغم كونها عملت لفترات متقطعة على مدار 45 سنة في تحدي القوى الفكرية التقليدية السائدة، ورغم ما ذكرناه سالفا إلا أنها جعلت الفكر العربي، يستوعب تقنية جديدة، فتحت له المجال لقبول تقنيات أخرى فضلا عن أنها غذت الفكر العثماني، خاصة خلال القرن 18م بالمؤلفات المترجمة إلى التركية،فقد طبعت كذلك كتب في اللغات وقواميس وكتب التاريخ والجغرافيا، مما كان يدل على رغبة فعلية، في الإنفتاح على أوروبا وعلومها الحديثة، كما أنها فتحت المجال لحكام الولايات في الدولة العثمانية لإنشاء مطابع مماثلة.(3)

غير أن التأثير الفعلي للطباعة كان في القرن 19م/13 هـ فقد لعبت مطبعة بولاق دوراً هاما في نشر الثقافة والعلوم الغربية سواء في مصر أو بلاد الشام، إذ طبعت ما يزيد عن 50 كتابا بالعربية والتركية والفارسية بين عامي 1822م و 1830م، وطبعت كتبا ذات قيمة علمية وأدبية، في الطب والجراحة و التاريخ والأدب، ساهمت في توعية الشعب وتطوير الحركة الفكرية.(4) فمطبوعات مصر و الآستانة كانت تسد الحاجـة للكتـاب المطبـوع عند أهل العلـم في الشام، وحتى علمـاؤها كانـوا يطبعون كتبهـم في القاهـرة واسطنبول.(5) كما ساهمت مطابع الإرساليات إلى حد كبير، في النهوض بالوضع الفكري في الشام، لكونها أعادت إحياء التراث بنشر كتب اللغة العربية وآدابها، إلى جانب الكتب المقدسة،وكتب اللغات الفرنسية والإنجليزية.(6) فكان بذلك دخول الطباعة عامل هام، ساهم في ازدياد الانفتاح على الغرب واقتباس علومه، ونشرها بين فئات المجتمع بمصر والشام.

(1) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص 92 . أنظر: W. Gdoura, op.cit. p.303

(2) Ibid , P. 301.

(3) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 369، خالد زيادة، المرجع السابق، ص 38.

(4) شمس الدين الرفاعي ، المرجع السابق، ص 31.

(5) إياد خالد الطباع، المرجع السابق، ص 196.

(6) محمد كرد علي، المرجع السابق، ج 4، ص 95.

2 ـ حركة الترجمة

يجمع علماء التاريخ والحضارة على أن الحضارة التي تنطوي على نفسها، ولا يصيبها تطعيم من حضارات غيرها، يكون مصيرها الضعف والانحلال؛ ولذلك كانت الحضارات القديمة على اتصال فإذا ضعفت قامت حضارة جديدة على تركتها المفيدة، واتخذتها أساسا لتبني علوم وآداب جديدة، فلا تكون الحضارة أبداً وقفا على شعب دون الآخر، ولذلك كان نقل العلوم وترجمتها من لغة إلى أخرى، أحسن وسيلة لاستمرار تطور الحضارات.(1)

ولذلك كان تعلم لغة الآخر ضروري لازدهار حركة الترجمة، غير أنه لم يظهر في الدولة العثمانية وولاياتها (مصر والشام)، قبل القرن 18م و 19م اهتمام كبير باللغات الغربية وآدابها، ولم يحاولوا معرفتها أو تعلمها، أو الإطلاع على قواعدها ومعاجمها. وحتى وإن كانت هناك ترجمات، لبعض الكتب الأوروبية في الجغرافيا وغيرها ، خلال القرنين 16 و 17م، فإنها كانت عن طريق مترجمين أوروبيين.(2)

ولذلك كان وعي العرب بأهمية اللغة في التواصل الحضاري، والاقتباس من الحضارات الأخرى، هو الخطوة الأكثر أهمية في بعث حركة الترجمة، وبالتالي تسهيل عبور المؤثرات الغربية، للإستفادة منها في تطوير الفكر العربي، خاصة بعد شروعهم في تعلم اللغات الأوروبية.* و أنشؤوا لأجل ذلك مدارس خاصة بها، ولم يتم ذلك إلا في القرن 19م/13 هـ.

ومن العوامل التي ساهمت في ازدهار حركة الترجمة بمصر والشام، الرغبة الجامحة في نقل علوم أوروبا وفنونها، إلى اللغات المحلية، لتسهيل استفادة طلاب المدارس منها. كما كانت الضرورة تقتضي استخدام مترجمين للمصطلحات العلمية بدقة، ومساعدة المؤطرين الأجانب، على تلقين العلوم الغربية للطلاب.(3)

أ ـ الترجمة في الدولة العثمانية (الآستانة) :

لقد اعتمدت الدولة العثمانية منذ القرن 16م/10 هـ، على التراجمة في المشورة والمفاوضات، مع سفراء الدول الأوروبية، فكانت وظيفة المترجم الرسمي، جزءاً أساسيا في الجهاز الحكومي لإدارة الشؤون الخارجية، وكان إلى غاية القرن 17م/11 هـ هؤلاء التراجمة، من الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام وكان هذا

(1) جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة، ص 2، 3.

(2) لويس برنار، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ص 96.

* فقد جاء في خطبة السلطان محمود لطلبة مدرسة الطب عام 1838م عند إدخاله اللغة الفرنسية في منهج المدرسة بقوله : "....إن غرضي من تعلمكم الفرنسية ليس أن تعرفوا الفرنسية لذاتها ولكن لكي تتعلموا الطب ورويدا رويدا نحوله إلى لغتنا ..." . نفس المرجع، ص 102، 103.

(3) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 107، 108.

المنصب مقصوراً لمدة طويلة، على العائلات اليونانية المستقرة باسطنبول.[1] وفي القرن 18م تم افتتاح السفارات العثمانية الدائمة، في العواصم الأوروبية فكان كل واحد من السفراء يرافقه مترجم يوناني عثماني.[2]

وحتى الترجمة العلمية والأدبية، ظهرت في الدولة العثمانية خلال القرن 17م/11 هـ، مثل ترجمة كتب الجغرافيا والتاريخ، ولكنها كانت بالإستعانة بمترجمين أوروبيين، غير أن الإهتمام الفعلي بنقل واقتباس علوم أوروبا، بترجمة مؤلفات علمائها وأدبائها ازداد في القرن 18م/12هـ*، ففي عهد السلطان عثمان الثالث (1757 ـ 1774م/1170 هـ ـ1187 هـ) أمر الصدر الأعظم راغب باشا، بترجمة عدة كتب من اللغات الأوروبية المختلفة، مثل مؤلفات فولتير وغيره. وأسس مكتبة ضخمة في اسطنبول احتوت على مؤلفات الطبيب الانجليزي سيدنهام Sydenham، مترجمة إلى العربية، وفي عهد عبد الحميد الأول (1773م ـ1789م/1186 هـ ـ 1203 هـ)، أمر بترجمة عدة كتب من الفرنسية إلى التركية حول الفنون العسكرية.[3]

وفي القرن 19م خلال عهد السلطان محمود الثاني، (1839م ـ1785م/1255 هـ ـ 1199 هـ)، تم إنشاء غرفة الترجمة في الباب العالي عام 1821م ، والتي تخرج منها معظم كبار رجال الدولة، واشتغل أغلبهم في السلك الدبلوماسي. كما أسست مدرسة اللغات، لتعليم اللغات الأوروبية (الفرنسية، الإنجليزية، الألمانية، الإيطالية، اليونانية، العربية، الفارسية)، وكانت بعض المدارس العالية، تفرض إجبارية تعلم الفرنسية، مثل المهندس خانه ثم الانجليزية والألمانية، لتسهيل نقل المعارف من أوروبا إلى طلاب المدارس.[4] وقد مكنت حركة الترجمة هذه من إطلاع العثمانيين على انجازات الأوروبيين، و الإستفادة منها في النهضة الفكرية فقد سمحت بدخول أفكار ومبادئ الثورة الفرنسية، ودخلت إلى اللغة التركية والعربية، مصطلحات حديثة كالوطن و الديمقراطية و غيرها، ساهمت بشكل كبير في التحولات الفكرية بالإمبراطورية .

ب- الترجمة في بلاد الشام :

ترجع بداية الترجمة في بلاد الشام، إلى القرن 17م/11هـ عند الطوائف المسيحية، التي كانت تدرس اللغات القديمة كالسريانية والعبرانية، واللغات الأوروبية كاليونانية واللاتينية وحتى اللغات الحديثة،

---

(1) جب و بوون، المرجع السابق، ج1، ص 175.

(2) لويس برنار، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ص 94.

* لقد دشنها الصدر الأعظم الداماد إبراهيم باشا في عهد أحمد الثالث (1730م ـ1703م)، التي كانت حركة منظمة ترجم فيها كتب التاريخ من الثقافة الإسلامية (الفارسية)، وكتب تتعلق ببعض الدول الآسيوية وحول دول أوروبا.

(3) خالد زيادة، المرجع السابق، ص 47، 49.

(4) أوزوتونا يلماز، المرجع السابق ، ص 509، 510.

واشتغلوا بترجمة كتب الدين إلى اللغة العربية، خاصة أولئك الذين تلقوا العلوم واللغات في روما ؛مثل القس يوسف بن القس جرجس الحلبي(ت 1713م/1125 هـ) الذي ترجم العديد من الكتب الدينية، وكانت الترجمة حينها من عدة لغات إلى العربية أو منها إلى اللاتينية. و كثيراً ما كان يضيف المترجم إلى النسخة المترجمة فهرست بمؤلفات صاحبها، أو مقدمات وحواشي مفيدة.(1)ومنهم أيضا موسى بن جرجس نوفل المعروف بابن النحو الطرابلسي، (ولد عام 1727م/1139 هـ)، وكذلك نصر الله بن فتح الله بن بشارة الطرابلسي (1770م ـ ت 1840م/1183ـ ت 1256 هـ) ؛ وهو من طائفة الروم الكاثوليك، كان محبا للعلوم ودرس اللغات مثل التركية والفرنسية وله عدة ترجمات.(2)

لقد كانت هذه الترجمات تخص الكتب الدينية، بتشجيع من الإرساليات التبشيرية، ورغم ذلك يذكر البعض أن هناك من ترجم مؤلفات أوروبية إلى العربية، تخص علوم غير دينية مثل كتاب "تاريخ روسيا" ؛ الذي ترجمه القس أنطوان صباغ، و إلياس نقولا فخر عام 1772م/1185 هـ.(3) ومع مطلع القرن 19م/13 هـ ازدهرت حركة الترجمة في بلاد الشام، فقد كانت مرتبطة بالحركة التي قامت بمصر، وساهمت في نقل ما توصل إليه الفكر الغربي، من علوم ونظريات جديدة، حيث ترجموا كل ما يناسب الذوق العربي، وساهمت تلك الترجمات في النهضة الفكرية بالمنطقة.(4)

وقد اشترك العديد من السوريين مع المصريين، في الترجمة عن الفرنسية والإيطالية ثم شاركت في هذه المهمة المدرسة الكلية الأمريكية في بيروت، والتي كانت أغلب ترجماتها عن الانجليزية، وشملت تلك الترجمة مختلف الفنون والعلوم، خاصة الطبيعيات والرياضيات و كتب الدين.(5)

ج - الترجمة في مصر و دورها في الإنفتاح على الغرب :

تعود بدايات حركة الترجمة بمصر إلى عهد الحملة الفرنسية، و كانت على قسمين ترجمة رسمية وتمثلت في ترجمة المنشورات ومحاضر الدواوين، وقد اعتمد الفرنسيون في ذلك على مترجمين غرباء عن مصر، وهم من أسرى مالطة المسلمين مغاربة وغيرهم. والقسم الثاني تمثل في الترجمة العلمية، التي عنيت

(1) يوسف الدبس المطران، تاريخ الشعوب المشرقية في الدين والسياسة والاجتماع، دار نظير عبود، (د. م.ط)، ط 1، ج 8، 2000م، ص 80، 81، 93.

(2) عبد الله نوفل، المرجع السابق، ص 39، 40، 53 .

(3) حمد كامل ضاهر، الصراع بين التيارين الديني والعلماني في الفكر العربي الحديث والمعاصر، دار البيروني، بيروت، لبنان، ط 1، 1994م، ص 139.

(4) علي المحافظة، الحركات الفكرية، ص 61 ـ63.

(5) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج 4، ص 165.

بترجمة أبحاث المجمع العلمي، وتم استخدام مترجمين سوريين مثل دون رفائيل.*[1] الذي قام بترجمة رسالة صغيرة في الطب، ألفها أحد أطباء الحملة عن مرض الجدري وطرق علاجه، وقد طبعت في مطبعة الحملة ووزعت نسخ عديدة منها، كما أنه ترجم العديد من الوثائق، التي كان يجمعها علماء المجمع العلمي في أبحاثهم ليصنفوا كتاب وصف مصر.[2] غير أن الترجمة في هذه الفترة، كانت لغتها ركيكة لقصور المترجمين عن معرفة قوانين وتراكيب اللغة العربية.[3] و رغم ذلك كان لهذه الحركة، دور كبير في ازدهار الترجمة في عهد محمد علي باشا خلال القرن 19م/13هـ.

لقد اتخذت الترجمة خلال عهد محمد علي باشا، وجهة علمية خالصة؛ حيث اهتم التراجمة بنقل كتب الطب والهندسة والكيمياء والزراعة، ثم السياسة والمنطق والجغرافيا والتاريخ. فكان عهده عصر التعريب، فقد سخر وسائل هامة، لتسهيل نقل العلوم الغربية والاستفادة منها. حيث اعتمد في البداية على السوريين المقيمين بمصر، مثل يوسف روفائيل ويوسف عنجوري، ثم لجأت الحكومة لتعويض نقص المترجمين، إلى منح الهبات المالية، لكل مواطن في خدمتها يقوم بترجمة الكتب. ثم كلف الموظفون الكبار بالترجمة مثل حاكيكيان أفندي وأرتين أفندي** ، وكاني بك و مختار بك ثم وضع مترجمون في كل مدرسة، يقومون بالترجمة بين الأستاذ الأجنبي والطلبة، كما كلف مدرسو مدرسة التاريخ والجغرافيا، التي أنشأت عام 1834م/1249هـ بمهمة الترجمة، ثم إن محمد علي كلف طلاب البعثة العلمية إلى فرنسا عام 1826م/1241 هـ ،بأن يترجموا الكتب النافعة التي يدرسونها هناك، وصدر أمر بإلزامهم بترجمة كتب الطب، التي يدرسونها وكان ذلك عام1833م /1248 هـ، وعهد إليهم بعد عودتهم من البعثة، بترجمة كتاب في مجال تخصصهم، قبل الالتحاق بمناصبهم.[4]

---

* هو أنطوان روفائيل زاخور راهبة، من طائفة الروم الكاثوليك الملكانيين، رحلت أسرته من حلب إلى مصر أوائل القرن 18م، وولد هو في القاهرة في 1759/03/7م، نشأ نشأة دينية تحت إشراف رئيس مذهبهم، وسافر معه إلى إيطاليا وعمره 15 سنة، لإتمام دراساته الدينية عام 1775م ، ومكث 5 سنوات وفي عام 1781م غادر روما نحو صيدا ، وانشغل بترجمة الكتب الدينية، ثم دخل روما وعاد منها إلى مصر في عهد الحملة .أنظر: جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة، ص 69، 71.

(1) نفسه، ص 36، 80.

(2) نفسه، ص 73، 79.

(3) نفسه، ص 64.

** أرتين أفندي سيكاس الأرمني، أرسل في البعثة العلمية إلى فرنسا لتعلم الإدارة الملكية وعاد عام 1831م، وفي 1835م عين مديراً لمدرسة الإدارة والترجمة بالقلعة، وعام 1836م عين عضواً في مجلس ديوان المدارس وعام 1839م ،عين سكرتيرا لمحمد علي، وعام 1844م تقلد نظارة الخارجية والتجارة وعام 1850م اعتزل إلى وفاته 1859م. عمر طوسون، البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس الأول وسعيد، مطبعة صلاح الدين، الإسكندرية، مصر، (د، ط)، 1934م، ص 35. =

وفي عام 1835م/1250 هـ اكتمل تأسيس"مدرسة الألسن"، و بعد أربع سنوات تخرجت أول دفعة من تلاميذها عام 1839م/1255هـ، وكانت المدرسة تحت رئاسة رفاعة الطهطاوي، وكان الغرض منها تخريج المترجمين الذين كانوا يترجمون الكتب اللازمة للمدارس الحكومية. ومن بين أولئك المترجمين محمد دبور الذي ترجم كتاب في علم الهيئة، وسيد عمارة الذي ترجم كتابا في فن المساحة، وكتاب في صناعة القماش، ومصطفى الكريري، الذي ترجم الجزء الثالث من التاريخ القديم إلى التركية وغيرهم. وكثيراً ما كان يشترك أكثر من طالب في ترجمة كتاب واحد، وكانت الترجمة تتم إلى اللغتين العربية أو التركية.(1)

و في عام 1840م/1256 هـ تقرر إنشاء قلم للترجمة؛ يهدف إلى إعطاء دقة أكثر للكتب المترجمة فقد كان يقتضي الأمر أن تكون الترجمات مضبوطة وصحيحة، خاصة أن ترجمة كتب العلوم والفنون لا تستلزم معرفة اللغة فحسب، بل تستوجب الإلمام بالعالم المترجم له، وقد قسمت غرفة الترجمة إلى أربعة أقلام*، وبعد ذلك ترسل إلى الطباعة بعد ضبطها.(2)

ولما كانت لغة الترجمة تحتاج إلى تهذيب ومراجعة وتصحيح، حرصاً على سلامة العبارة ،وحفاظا على الذوق الإنشائي في ذلك العصر، خاصة مع صعوبة ترجمة المصطلحات العلمية، تم تكليف نخبة من رجال الأزهر، لمراجعة الكتب المترجمة وتصحيحها، بحكم اطلاعهم على العلوم العربية القديمة. الأمر الذي ساعدهم على أداء مهمتهم خاصة في مجال الطب، حيث أصبح له في ظرف 5 سنوات قاموس Vocabulaire تزيد كلماته عن 6 آلاف كلمة، وكلف بعض المدرسين بمدرسة الطب بالمراجعة والتصحيح كذلك.(3)

ونتيجة لحركة الترجمة هذه، نقل العرب عن الأوروبيين كتبا في مجالات عديدة، كالطب والطبيعيات والرياضيات، والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والحقوقية، والآداب الأوروبية الشعرية والنثرية، وحتى العلوم الحربية.(4) فقد بلغ عدد الكتب التي ترجمتها مدرسة الترجمة، ألفي عمل علمي في الطب

= (4) سيمر عمر إبراهيم، المرجع السابق، ص 157ـ159، محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 108، 109 . ومن بين طلاب البعثات العلمية الذين ترجموا كتبا عديدة وعينوا مدرسين في مدرسة الطب هم : علي هيبة، إبراهيم النبراوي، أحمد حسن الرشيدي، محمد الشافعي، محمد عبد الفتاح . محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق ، ص 111.

(1) سمير عمر إبراهيم، المرجع السابق، ص 160.

* لقد اختصت الأقلام الأربعة بترجمة كتب مخصصة وهي : قلم لترجمة كتب الرياضيات، وآخر لكتب الطب، والطبيعيات، وقلم لكتب الآداب، والقوانين وقلم للكتب التركية.

(2) نفس المرجع ، ص 108، 109، 116. وقد أعيد تنظيم قلم الترجمة عام 1848م/1261 هـ، وأصبح يتألف من قلمين أحدهما للترجمة العربية تحت إشراف رفاعة الطهطاوي، والآخر للتركية تحت إشراف كاني بك، واستمر الأمر إلى عام 1849م /1261 هـ حيث ألغي.

(3) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 117. جور جي زيدان، المرجع السابق، ج 4، ص 166 ـ167. =

و الرياضيات و الطبيعيات و التقنيات المختلفة.[1] مما أثرى المكتبات العربية بفنون وعلوم، تختلف كثيرا عما كان لديهم وحصل بذلك التطعيم اللازم لازدهار الحضارات، وكانت نتيجته انتقال الأفكار الغربية إلى العقول العربية، التي أسهمت بدورها في بلورة ملامح اليقظة الفكرية خلال القرن 19م/13 هـ.

3 ـ الرحلات والبعثات العلمية العربية إلى أوروبا

أ- رحلات العرب (الشوام) إلى أوروبا قبل القرن 19م :

لقد كانت رحلات العرب من أهم العوامل، التي سهلت الاحتكاك بينهم وبين حضارة الغرب ونجم عن ذلك مؤثرات صدمت الذهنية العربية وسرعت في التحولات الفكرية بالشرق العربي خاصة مصر والشام رغم أن تلك الرحلات ظلت ضيقة النطاق قبل القرن 19م/13 هـ إلا أنها لم تنقطع تماما فقد شكلت زيارات المبعوثين مهمات سياسية والتجار، وحتى الأسرى* المسلمين في أوروبا، روافد لا تقل أهميتها في مجال نقل المؤثرات الغربية إلى البلاد العربية، على الرغم من أن تأثيراتها كانت ضئيلة؛ وذلك لسيادة التعصب الديني وجهل العرب بلغة الغرب، ووعيهم بحجم القمع الديني في تلك البلاد. فكانت رحلاتهم قليلة إلى أوروبا، نتيجة تلك الصورة المنفرّة، التي رسمت عن مجتمعات الكفار لدى المسلمين، فكانوا يلجؤون لإرسال أحد أتباعهم من اليهود أو المسيحيين، الذين يمكنهم الإتصال بتلك المجتمعات دون صعوبة.[2]

ولذلك شكلت رحلات الشاميين، من المسيحيين إلى أوروبا، من أهم الرحلات التي ميزت القرنين 17م/18م، فقد هاجر العديد منهم هروبا من الاضطهاد الديني إلى مصر، وكثير منهم إلى أوروبا خاصة إيطاليا.[3] إضافة إلى الإتصالات بين رجال الدين في بلاد الشام، والكنيسة الكاثوليكية بروما، بهدف إكمال دراساتهم الدينية هناك، حيث درسوا اللغات وعلوم الدين، واشتغل الكثير منهم في الترجمة والتأليف؛ مثل الموارنة الذين رحلوا إلى المدرسة المارونية في روما في القرن 18م، الذي عرف بقرن السماعنة؛ لأن أكثر أفراد هذه الأسرة دخلوا روما في طلب العلم، وأولهم المنسينيور يوسف سمعان السمعاني** (1687م ـ ت1768م)

= ومن الذين اختصوا بالتصحيح من علماء الأزهر: مصطفى حسن كساب، عبد المنعم، الشيخ نصر أبو الوفا الهوريني، الشيخ عبد الغفار الدسوقي، محمد قطه العدوى ، محمد الفرغلي، و رفاعة الطهطاوي وغيرهم.

(4) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج4، ص 164، 165.

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 388.

* كان الأسرى يمثلون مصدراً مهما للمعلومات عن أوروبا بعد عودتهم إلى بلادهم فمثلا عثمان آغا العثماني الذي وقع في الأسر لدى النمسا خلال القرن 18م لمدة 11 سنة، تعلم خلالها اللغة الألمانية، وأصبح بعد عودته لبلاده مترجما يعمل في خدمة الدولة، وكتب حوادث أسره في مذكراته التي نقلت معلومات كثيرة عن أوروبا. لويس برنار، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ص 106، 107.

(2) نفسه، ص 108.

(3) الشيال ، تاريخ الترجمة، ص53. =

رئيس أساقفة صور*، وهو صاحب أهم التآليف مثل المكتبة الشرقية. و اسطفان عواد السمعاني نسيبه (1709م ـ ت1782م)، ويوسف لويس السمعاني(1710ـ 1782م) وشمعون السمعاني (1752م ـ ت1821م). وانصب اهتمام هؤلاء بنشر الآثار السريانية، ولكنهم مع ذلك أخرجوا عدة تآليف من النسيان ، خاصة في التاريخ والمآثر الدينية والأدبية.[1] وكان الكثير منهم يجيدون اللغات الأوروبية الحديثة، إلى جانب اللغات الشرقية و الأوروبية القديمة. حيث تعلموها في أوروبا أثناء مكوثهم لدراسة العلوم الدينية. ومن هؤلاء الموارنة المطران جرمانوس فرحات** الذي أجاد اللغة الإيطالية والسريانية، والأب بطرس مبارك الذي كان يتقن 07 لغات هي العربية ، السريانية، اللاتينية واليونانية، العبرانية والإيطالية والفرنسية.[2]

وقد مكنهم ذلك من إحياء العلوم العربية، وترجمة الكثير من الكتب الدينية والتاريخية والأدبية إليها، ومن هؤلاء الشرقيين في أواخر القرن 18م وأوائل القرن 19م، القس ميخائيل الغريري ؛ وهو من تلامذة الآباء اليسوعيين في المدرسة المارونية، رافق السمعاني إلى إيطاليا، ودرس اللغات الشرقية، ثم تعين ترجمانا لملك اسبانيا كارلوس الثالث، وترك أعمالا مثل وصف المخطوطات العربية ، في مكتبة الأسكوريال في مجلدين طبعا عام 1760م و 1770م باللاتينية والعربية. واشتهر منهم في فيينا الخوري أنطوان عريضة الطرابلسي الذي درس فيها اللغات الشرقية، وله كتاب علم صرف اللغة العربية وضعه لتلامذته في اللاتينية، وطبعه عام 1813م في فيينا.[3]

ومع ذلك فقد ساهم هؤلاء في تعريف أوروبا بالحضارة العربية، أكثر من تمكنهم من الإطلاع على ما يمكن أن يستفيدوا منه في حضارة الغرب، وذلك لكونهم انحصروا في العلوم الدينية. وعلى كل فقد قدموا على الأقل نظرة سطحية، محدودة النطاق عن أحوال أوروبا، وأفادوا من تعلمهم اللغات والترجمة، سواء في الإدارة أو في إعانة بعض المفكرين، الذين اعتمدوا على مصادر أوروبية، في كتابة مؤلفاتهم فترجموها لهم.

=** أصله من طرابلس الشام ، تربى على يد عمه الذي أرسله إلى روما وعمره 8 سنوات، برع في العلوم الإلهية الدينية والعلوم الأخرى، وعهد إليه البابا في روما أن يكتب فهرست للكتب الشرقية وقد سماه "المكتبة الشرقية"، تولى مناصب عديدة منها حافظ للمكتبة الواتيكالية، ثم منصب رئيس المكتبة وترك مؤلفات عديدة خاصة المترجمة، يوسف الدبس، المصدر السابق، ج 8، ص 90 ـ 92.

* هي مدينة قديمة اشتهرت أيام الفينيقيين بالتجارة والصنائع بناها أهالي صيدون عام 240 سنة بناء هيكل سليمان، وعام 1191م أخذها صلاح الدين الأيوبي من الإفرنج وهي حاليا إحدى مدن لبنان . طنوس الشدياق، المصدر السابق، ج1، ص 14.

(1) لويس شيخو، المرجع السابق، ص 17، 18.

**جرمانوس فرحات المطران 1670م ـ ت 1732م)، من قرية حصرون بلبنان تخرج باللغة السريانية في مكتب الموارنة بحلب، وتعلم الإيطالية. ودرس الصرف والنحو والعروض والمعاني وأتقن الفلسفة واللاهوت على يد الخوري التولاوي، انضم إلى مؤسسي الرهبنة في لبنان عام 1694م وترقي إلى أسقفية حلب المارونية له مؤلفات عديدة في الدين والترجمة والأدب . يوسف الدبس، المصدر السابق، ج 8، ص 81ـ84.

(2) نفسه، ص 85.

(3) لويس شيخو، المرجع السابق، ص17.

ولم تقتصر هذه الرحلات على الطائفة المسيحية فقط، بل كانت هناك تجربة اتصال فردية مع بلد أوروبي في مطلع القرن 17م، من طرف أحد الأمراء المسلمين في لبنان وهو الأمير فخر الدين المعني الثاني (1572م ـ1631م/979هـ ـ1040هـ)، الذي دخل إيطاليا وسمحت له هذه التجربة، بأن يطلع عن كثب على التنظيمات العسكرية فيها، و تقدم صناعة الأسلحة والمنشآت العمرانية والهندسة، واطلع على نظام البنوك و والبيمارستانات* وأعجب بها، وشاهد تنظيم الأديرة** ، كما أنه اطلع على الآداب والعلوم و فن الطباعة حين زار المطبعة وشاهد كيف تتم عملية الطبع، ولاحظ أنهم يطبعون كتبهم بلسانهم وباللسان العربي.[1] وبهرته مظاهر الحضارة الغربية حيث أعجب بالمزارع، وكيفية تسييرها ونقل المياه إليها، وصناعة القماش والصابون، وزار دار الحربية والمتحف واطلع على التحف بنفسه، وشاهد طرق تنظيم السجون. كما أنه زار عدة مدن وانبهر بما شاهده من معالم عمرانية بها.[2]

فكانت السنوات التي قضاها الأمير في أوروبا، بمثابة مدرسة سياسية وثقافية له، حين احتك عن قرب بالفنون الجميلة، وبالآداب الرفيعة والهندسة، والعلوم المختلفة. فلما عاد إلى بلده عمل على استقدام مؤطرين أوروبيين، من مهندسين وبنائين وأطباء وأرباب الصناعات وغيرهم.[3] محاولا تطبيق تجربة إصلاحية في بلاده، بالاستناد إلى الحضارة الأوروبية، وقام فعلا ببناء القصور، وإقامة الزراعة والصناعة، وغيرها من المجالات بالطرق الغربية. إلا أن هذه المحاولة رغم كونها من العوامل، التي أدخلت بعض التأثيرات الغربية إلى الشام، فإنها لم تستمر طويلا، ولم تؤدي إلى إحداث تغيير جذري، ولا أدت إلى استحداث نمط تفكير جديد.

وفي الواقع رغم أن رحلات القرنين 17م و 18م / 11هـ/12 هـ، لم تأتي لبلاد الشام ومصر بما يسرع انفتاحها على أوروبا، على غرار ما حصل في الآستانة، إلا أنها مهدت لفك خيوط العزلة، ليفتح الباب على مصرعيه على أوروبا خلال القرن 19م/13هـ، خاصة بعد الحملة الفرنسية على مصر، حين ستتوالى رحلات العرب إلى أوروبا شوام ومصريين، مسرعة بذلك دخول التأثيرات الغربية إلى المنطقة.

---

* هو لفظ فارسي مركب من "بيمار" ومعناها مريض و"استان" بمعنى محل . و اتصل هذا المصطلح منذ العهد الأموي بالأماكن التي يعالج فيها المرضى، وأول من أقام بيمارستانا هو الخليفة الوليد بن عبد الملك 96 هـ/715 م، ويطلق عليه أيضا المارستان" . مصطفى الخطيب ،معجم المصطلحات التاريخية، "ب"، ص 96.

** الأديرة : هي جمع دير وهو "بيت للرهبان يتخذ للعبادة، كان سابقا يتخذ في رؤوس الجبال بعيداً عن المدن والقرى التماسا للصفاء وانقطاعا عن الدنيا" .   نفس المرجع، "د" ،ص 189.

(1) علي اسكندر المعلوف، المرجع السابق، ص 133 ـ 139.

(2) نفسه، ص 122 ـ 125، 144، 152 ـ 156.

(3) نفسه، ص 252 ـ 253

ب- رحلات العرب (مصر و الشام) إلى أوروبا خلال القرن 19م :

لقد ازدادت أهمية الرحلات العربية إلى أوروبا، خلال القرن 19م/13 هـ، وبالذات بعد الحملة الفرنسية على مصر في مطلع القرن السالف الذكر، ثم مع تجربة البعثات في عهد محمد علي باشا، وانتشار مدارس الإرساليات التبشيرية، وساهمت خلال هذه الفترة فعلا، في تعريف العرب بنتاج النهضة الأوروبية، وأسس التقدم فيها، فقد وصف الرحالة مشاهداتهم، ودونوا رحلاتهم وانطباعاتهم، ونشروا في مجتمعاتهمما نجم عن احتكاكهم بالغرب من أفكار، ومبادئ ونظم جديدة أثرت في مجتمعاتهم لاحقا، بعد أن كانت قد أثرت في البداية على تفكير الرحالة أنفسهم، وجعلتهم يقفون مواقف متباينة تجاه هذه الحضارة الجديدة، والتي ستصبح فيما بعد جزءاً من تكوينهم الفكري.[1]

ومن بين الرحالة المصريين إلى أوروبا، في النصف الأول من القرن 19م، محمد بك الألفي المرادي* (ت 1221 هـ/1806م)، الذي رحل إلى انجلترا لمدة سنة وبضعة أشهر، وقد وصف الجبرتي مدى تأثير هذه الرحلة في شخصيته بقوله: "... وقد تهذبت أخلاقه، بما اطلع عليه من عمارة بلادهم، وحسن سياسة أحكامهم... وعدلهم في رعيتهم مع كفرهم...". وقد شاهد أثناء رحلته هذه مدى تطور أوروبا، مقارنة مع مصر، وجلب معه الآلات الفلكية كالإسطرلاب ومنظار للكواكب، والأسلحة الحديثة وآلة موسيقى.[2]

ورحلة الشيخ محمد عياض الطنطاوي**، الذي زار روسيا في النصف الأول من القرن19م/13 هـ حين تلقى دعوة من الحكومة الروسية، للقدوم إلى بطرسبورغ، فسمح له محمد علي بالذهاب، فدرس هناك اللغة الروسية على يد السيد "موخين" مرافقه الروسي، ثم كلف بتدريس اللغة العربية، في مدرسة وزارة الخارجية الروسية، فكان موظفو الوزارة، وطلاب جامعة بطرسبورغ التي درس فيها أيضا، يستثمرون وجوده لمعرفة أعمق بالثقافة العربية الإسلامية. وقد كتب كتابه حول رحلته هذه حوالي عام 1840م/ 1256 هـ، وهو "تحفة الأذكياء بأخبار مملكة روسيا"، وقد تأثر كثيراً بما رآه في روسيا، حتى أطلق على ما شاهده اسم "العجائب" ولكنه مع ذلك وصف تلك المظاهر بالمفاهيم التقليدية التي نشأ عليها.[3]

---

(1) نازك سابايارد، الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، نوفل، بيروت، لبنان، ط2، 1992م، ص 7ـ 9.

* هو مملوك مراد بك كان مولعا بمطالعة الكتب خاصة الفلكيات والهندسة و الزايرجا واقتنى كتبا في أنواع العلوم وكان مولعا بكتب التاريخ والجغرافيا. الجبرتي، المصدر السابق، ج3(دار الفارس)، ص 149، 170.

(2) نفسه، ص 171.

** هو محمد عياد بن سعيد الطنطاوي ولد في إحدى قرى طنطا عام1225هـ/1810م، درس على علماء الأزهر ،كان محبا للأدب والشعر كما كان على اتصال بدوائر الإستشراق الروسية واشتغل مدرسا بمدرسة الإرسالية البروتستانتية في القاهرة عام 1835م. أنظر: الطنطاوي ،تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا 1840 ــ 1850م، تق. محمد عيسى صالحية، مؤسسة الرسالة ،بيروت ،لبنان، 1992م، ص 10ـ 12. =

ولكن أكثر الشخصيات بروزاً وتأثيراً من بين الرحالة المصريين، هو الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي (1801م ـ ت 1873م/1215هـ ـ ت 1289 هـ)، الذي تلقى علومه في الأزهر، وذهب كمرافق روحي لبعثة علمية إلى باريس، واحتك بشعبها وعلومه لمدة خمس سنوات، طالع أثناءها باللغة الفرنسية مؤلفات كثيرة حول الفكر الفرنسي في القرن 18م/12هـ، مثل مؤلفات فولتير وروسو و مونتسكيو، ودون أخبار رحلته في كتابه " تخليص الإبريز في تلخيص باريس" 1826م/1241هـ، ولما عاد إلى مصر عكف على ترجمة عدد من المؤلفات، في الجغرافيا والتاريخ والعلوم العسكرية من الفرنسية إلى العربية.[1]

وقد وصف في كتابه السالف، أهم مظاهر الحضارة الأوروبية، مثل نظام الحكم والعلوم والآداب وانبهر بالحرية الدينية لديهم، وعبر عن إعجابه بحرية الإبداع، ونبذهم التقليد عكس ما كان في مصر حينها.[2] كما أنه وصف المكتبات، والكتب التي فيها من سائر الفنون.[3] ووصف الجرائد، ورأى فيها وسيلة حضارية للتعبير عن الرأي، ولم يخفي إعجابه بالجامعات والأكاديميات والمجمعات العلمية؛ مثل أكاديمية اللغة الفرنسية والعلوم وغيرها، و لاحظ أن لكل علم فروعا متعددة مما لا يوجد بمصر.[4]

وسعى الطهطاوي إلى نقل كل الأفكار، التي يرجى الاستفادة منها في مصر، فترجم قانون الصحة الفرنسي، الذي تضمن نصائح طبية. والدستور الفرنسي، بغرض إطلاع شعبه وحكومته على الأفكار السياسية الحديثة، وأنظمة الحكم المتصفة بالعدل. ولم يغب عنه ازدهار الطباعة في باريس، وطرائق التدريس. وتعلم الفرنسية وتلقى دروسا عديدة مع طلبة البعثة، في الرياضيات والمنطق و الهندسة والفلسفة والجغرافيا. وكون بذلك ثقافة موسوعية، عبرت عنها كتبه المؤلفة والمترجمة، التي وضعها فيما بعد حيز التطبيق.[5]

أما الرحالة الشوام إلى أوروبا، فبرز منهم في النصف الأول من القرن 19م/13 هـ، أحمد فارس الشدياق (1804 م ـ ت 1887م/1218 هـ ـ 1304هـ)، وهو مسيحي درس في مدرسة عين ورقة المارونية واعتنق البروتستانتية عام 1825م/1240هـ، وتوجه إلى مصر حيث استوفى تعلم اللغة العربية وفي عام 1839م/1254 هـ دعته الإرسالية الأمريكية إلى مالطة، فتولى تعليم اللغة العربية بها، كما تولى إدارة المطبعة

= (3) فلاديمير سافريونوف، " الذاتية المصرية والأدب العربي في عهد محمد علي الكبير"، إصلاح أم تحديث؟ مصر في عهد محمد علي، ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، (د.ط)، 2000م، ص 440ـ 441.

(1) نازك سباريارد، المرجع السابق، ص 23- 24 . فهمي جدعان، المرجع السابق، ص 111.

(2) رفاعة رافع الطهطاوي، المصدر السابق، ج 2 ،ص 147، 168.

(3) نفسه، ص 264 ـ 266.

(4) نفسه، ص 269 ـ279، ص 220 ـ 224.

(5) نفسه، ص 285 ـ 286، 281.

الأمريكية، ومكث هناك حتى عام 1848 م/1264 هـ. وقد دوّن مشاهداته وانطباعاته عنها في كتابه "الواسطة في معرفة أحوال مالطة".* ووضع كتابا وصف فيه رحلاته الأوروبية، هو"كشف المخبأ عن فنون أوروبا".(1) وقد اطلع فارس الشدياق على غرار الرحالة العرب، على التراث الفكري الأوروبي أثناء رحلاته مثل رحلة شاتوبريان إلى أمريكا، والتأمل الشعري للامارتين، وقرأ شعر بيرون وغيرهم من مفكري وأدباء عصر التنوير، وقد عبرت مؤلفاته التي كتبها لاحقا عن تأثره بالفكر الأوروبي.(2)

وبذلك يكون الرحالون العرب وأدب الرحلة، الذي أنتجوه حول مشاهداتهم في أوروبا، وما حملوه من أفكار متنوعة، ونظريات ومبادئ جديدة، ضمنوها مؤلفاتهم قد ساهموا في نقل المؤثرات الغربية إلى البلاد العربية، بحيث كان لهم تأثير واضح في التحولات الفكرية التي عرفتها مصر والشام في القرن 19م، فقد حثوا حكامهم ومجتمعهم، على تبني وقبول العلوم الأوروبية، لما فيها من صلاح لحالهم، موضحين الفروق بينهم وبين حضارة الغرب، دون أن يتخلوا عن اتصالهم بحضارتهم، و تراثهم واحترامهم لها. ولكنهم عبروا مع ذلك عن إعجابهم بمعظم ما رأوه في الغرب، وأعربوا عن ألمهم لتخلفهم وأحسوا أنه لن يتطور الشرق، إلا إذا اقتبس من علوم الغرب، ونظمه السياسية والاقتصادية.

ج ـ البعثات العلمية العربية إلى أوروبا :

لقد ظهرت الحاجة في الدولة العثمانية، لإرسال البعوث العلمية إلى أوروبا، لزيادة الانتفاع بعلومها، وتكوين الطلبة لإدارة المدارس الحديثة، وتعلم اللغات الأوروبية، لتسهيل نقل تلك العلوم إلى الطلاب، وابتداء من القرن 18م، بدأ الباب العالي ينشأ سفارات في أوروبا، ويرسل إليها الموظفين لدراسة اللغات والنظم الأوروبية.(3)

و في القرن 19م /13 هـ ازدادت البعثات العلمية، حيث أرسل في عهد محمود الثاني عدد من الطلبة، إلى بلدان أوروبية مختلفة ليصبحوا معلمين، في المدارس الجديدة التي أنشأها.(4) فكانت البداية عام1830 م برعاية القائد العسكري خسرو باشا، عندما أرسل إلى فرنسا للدراسة أربع طلاب عثمانيين ؛ هم حسين أفندي و أحمد أفندي، عبد اللطيف أفندي وأدهم أفندي، لدراسة الأمور العسكرية. وكانت النفقات على

*وفي أيلول 1848م دعي إلى انجلترا لتعريب الكتاب المقدس، فسافر إليها ماراً بفرنسا فأقام بهما معا حتى استدعاه باي تونس عام 1854م/1267 هـ وهو في فرنسا.

(1) نازك سبايارد، المرجع السابق، ص 21، 22.

(2) نفسه، ص 25.

(3) ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص 55.

(4) لويس برنار، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ص 143، 144.

حساب الدولة، وقد بلغ عدد الأشخاص المبعوثين لأوروبا، إلى غاية عام 1839م/1255 هـ 36 شخصا كلهم من المدارس العسكرية، ثم ازداد عدد الموفدين عقب إعلان التنظيمات، حيث شملت مجالات أخرى وتم إرسال رعايا غير مسلمين أيضا.[1]

أما في بلاد الشام فقد كانت الطائفة المسيحية* السباقة لإرسال البعوث الطلابية إلى أوروبا، لاستكمال التعليم الديني في روما، فقد أنشأ البابا غريغوري الثالث عشر، مدرسة الموارنة في روما عام 1584م/992 هـ، للسماح للموارنة الشام بمتابعة دراستهم، ورتب لهم البابا سيكستوس الخامس دخلا بها، وقد تربى الكثير من الموارنة في هذه المدرسة، وكانوا من السباقين لنشر معارف الشرق في بلاد الغرب، كما عملت فئة منهم على نشر مبادئ الحضارة الغربية الحديثة في الشام، ولكن في الإطار الديني في القرنيين 17 **و** 18**م.**[2] وذلك لأنهم كانوا يتلقون فيها علوما دينية، ولكن في نطاق ضيق تلقوا العلوم الفلسفية و الرياضية والآداب.[3]

كما أنه وخارج الإطار الديني، أرسل الأمير فخر الدين المعني الثاني في القرن 17م، بعثات فنية إلى إيطاليا للتدرب على الأمور الاقتصادية، والتي ذهب فيها إبراهيم الحاقلاني.[4] غير أن بلاد الشام لم تزدهر فيها هذه البعثات، إلا مع إنشاء المدارس الأجنبية، في النصف الثاني من القرن 19م/13 هـ ، مع أن العديد من الشاميين مسلمين ومسيحيين، كانوا ضمن بعثات محمد علي باشا بمصر خلال النصف الأول من القرن 19م.

وفي مصر كان عصر محمد علي باشا هو عصر البعثات، والاتصالات مع أوروبا فقد اقتنع أنه لا يمكن تحقيق النهضة، اعتماداً على النظم الأوروبية، إلا بإرسال بعثات لدراسة أساسيات العلوم فيها، وكان الهدف من ذلك كله إعداد النواة الصالحة من الرجال المستنيرين، لإشراكهم في مؤسسات الحكم والإدارة، للاستغناء عن المؤطرين الأجانب، وتعويضهم بأساتذة من أهل البلد، خاصة بعد ظهور صعوبة في إلقاء الدروس بالعربية من طرف الأجانب، وصعوبة ترجمة المصطلحات العلمية وبغرض تعلم اللغات الأجنبية لتسهيل ترجمة الكتب اللازمة في مختلف الفنون والعلوم.[5] وكانت أولى البعثات الطلابية إلى أوروبا، باتجاه

---

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية ، ص 522.

* لقد كانت الطائفة المسيحية (الكاثوليكية) في مصر خلال القرن 18م ترسل الأقباط إلى روما أيضا لتعلم الأمور الدينية وفق تعاليم الكنيسة الكاثوليكية. سلوى العطار، المرجع السابق، ص 345.

(2) ليلى الصباغ، الجاليات، ج 2، ص 829.

(3) لويس شيخو، المرجع السابق، ص 44، طنوس الشدياق، المصدر السابق، ج1، ص 97.

(4) علي اسكندر المعلوف، المرجع السابق، ص 200.

(5) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 100- 103.

إيطاليا* عام 1809م/1224 هـ، وثاني بعثة عام1813م/1228 هـ، ووزع أعضاؤها بين ليفورن، ميلان، فلورنسا و روما. ومن بين أعضائها عثمان نور الدين ** الذي قضى 5 سنوات في بيزا وليفورن، ثم عامين في باريس. أما عن أعضاء البعثة الثانية فأهمهم نقولا مسابكي أفندي*** الذي أرسل إلى ميلان، لدراسة فن الطباعة وسبك الحروف، بينما درس زملاؤه الفن العسكري والهندسة، وقد ازدادت الوفود خاصة إلى بيزا بين 1818م و 1819م/1233 هـ/1234 هـ.(1) ثم تحولت وجهة البعثات نحو فرنسا، فكانت أول بعثة عام 1818م، ذهب فيها عثمان نور الدين لإتقان الفنون الحربية والبحرية، ثم عاد عام 1820م/1235 هـ إلى مصر.(2)

وأرسلت أخرى عام 1826م/1241 هـ ، والتي بلغ عدد أعضائها 44 شابا.(3) وعهد بإدارة شؤونهم إلى المستشرق الفرنسي جومار Jomard(4) وحدد لكل منهم العلوم التي يدرسها، ومن بين أعضائها عبدي أفندي المهردار في الإدارة المدنية، ومصطفى أفندي مختار الديودار في الإدارة العسكرية، ومحرجي في الهندسة. وقد بقي 37 طالبا منهم 4 آرمن مسيحيون و 24 مسلمون.(5)

وتعد هذه البعثة من البعثات الكبرى، لكثرة من تفوق من أعضائها مثل أرتين بك، ورفاعة الطهطاوي و إسطفان بك وغيرهم. وتوالت بعد ذلك البعثات إلى فرنسا بين عامي 1828م و1832 م/1243 هـ و 1247هـ، حيث تم إرسال بعثتين عام 1832م ـ 1247 هـ إحداها كانت أولى بعثات مدرسة الطب بأبي زعبل، وبلغ عدد أعضائها 12 طالبا عادوا عام 1838م/1254هـ، ومنهم محمد البقلي، إبراهيم النبراوي

---

* كان من بين أسباب إرسال البعثات في البداية إلى إيطاليا أن أكثرية الجالية الأوروبية في مصر والشام كانت إيطالية وانتشار هذه اللغة أكثر من غيرها، حيث كان العديد من المصريين يتقنونها.

** عثمان نور الدين أفندي أرسل في بعثة إلى فرنسا عام 1819م لإتقان الفنون الحربية والبحري، ولما عاد ترقى في المناصب إلى رتبة سر عسكر، وأصبح رئيس للعمارة البحرية المصرية عام 1828م، ولما ثارت جزيرة كريت و أراد محمد علي إخضاعها أرسله إليها فمنحهم الأمان مقابل الخضوع فرفض محمد علي مما جعله يفر إلى الآستانة عام 1833م وأقام بها إلى وفاته. عمر طوسون، المرجع السابق، ص 11. وهامش 1 من نفس الصفحة.

*** نقولا مسابكي أرسل إلى إيطاليا عام 1815م لتعلم فن سبك الحروف ودراسة فن الطباعة فأقام لأربع سنوات وعاد إلى مصر وتولى إدارة المطبعة ببولاق عام 1821م، وبقي مديراً لها إلى وفاته 1831م. نفس المرجع، ص 10.

(1) نفسه ، محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 101، 102.

(2) عمر طوسون، نفسه، ص 11، 29.

(3) أنظر حول أعضاء هذه البعثة و تخصصاتهم : نفس المرجع، ص 26 ـ29.

(4) جومار Jomard هو أحد المهندسين الفرنسيين، حضر إلى مصر مع الحملة الفرنسية، واشترك في تأليف كتاب "وصف مصر"، فكان بعد ذلك في عهد محمد علي باشا مشرفا على البعثات العلمية إلى فرنسا . نفس المرجع، ص 7.

(5) نفسه، ص 22، جورجي زيدان، المرجع السابق، ج 4، ص 21، 22.

ومصطفى السبكي وغيرهم.[1] ولم يكتفي محمد علي بذلك، بل أرسل بعثات عديدة إلى باقي أنحاء أوروبا وأمريكا، مثل إرسال مبعوثين إلى العالم الجديد، أحدهما لتعلم صناعة السكر في أمريكا والآخر لزيارة مناجم الذهب في المكسيك. وفي عام 1829م/1244 هـ أرسلت بعثة تتكون من 58 عضواً، موزعين بين فرنسا وانجلترا والنمسا، ومن بين أعضاء البعثة الانجليزية ؛ محمد راغب الاستانبولي أفندي حيث وتلقوا دروسا في الهندسة وبناء السفن.[2]

وقد وصل عدد الذين أرسلوا من الطلاب إلى أوروبا، بين (1813م و 1849م/1228 هـ و 1262 هـ) 319 شخصا أنفق عليهم 223233 جنيها، حيث كان كل عضو يتكلف قدراً من المال حسب فترة بعثته، وقد استمر محمد علي باشا، ينفق عليهم ويحثهم على طلب العلم، وبعد عودتهم اتخذ من النوابغ منهم معلمين ومترجمين لمدارسه، وأطباء لجنده وموظفين في الحكومة.[3] وتراوحت أعمار الذين كانوا في البعثة الفرنسية عام 1826م / 1239 هـ بين 15 سنة و 29 سنة، وكان منهم حسن الإسكندراني 37 سنة.[4]

وأغلب أولئك الطلاب، كانوا من المدارس التي أنشأها محمد علي، فكان يرسل الذين أتموا دراساتهم في المدارس الخصوصية، كما أرسل طلبة من الجامع الأزهر مثل الطهطاوي. وارتفع عدد الطلاب حتى وصل 70 عضوا، وكحد أدنى كان يصل إلى عضوين في البعثة.[5] واختلفت أصول أعضاء هذه البعثات، فكانوا ينتمون إلى جهات مختلفة، فمنهم الموظفون في الدواوين الحكومية، مثل مصطفى مختار بك، ومنهم من تخرج من الأزهر، ومنهم من درس في المدارس المصرية الحديثة أو مدرسين بها، ومنهم الصناع في الورشات. ولم يكونوا مصريين فقط، بل من المماليك والأتراك و الآرمن والشوام، وحتى من السودان والحبشة، وكان منهم المسلم والذمي.[6]

---

(1) وفي عام 1844م/1260 هـ أرسلت البعثات الكبرى إلى فرنسا لتعلم الفنون، إذ بلغ عدد أعضائها 70عضواً، وكانت تحت إشراف وزير الحربية الفرنسي، وقد أنشأت لهم مدرسة الحربية المشهورة في شارع "ريجار" Regards بباريس، وعرفت ببعثة الأنجال بسبب وجود أمراء من أسرة محمد علي باشا وغلب عليها تعلم العلوم العسكرية. ثم في عام 1847م/ 1263 هـ أرسلت بعثة مكونة من خمسة أعضاء من طلاب الأزهر، لدراسة العلوم القانونية والدعاوي. كما أرسلت بعثة في نفس العام مكونة من 21 عضواً من الصناع، للتخصص في النجارة. و في عام 1845م/1258 هـ كان قد أرسل بعثة صغيرة إلى النمسا مكونة من ثلاث أعضاء. محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 103 ـ 105.

(2) نفسه.

(3) جورجي زيدان ، المرجع السابق، ج4، ص23.

(4) نفسه، ص21.

(5) المرجع السابق، ص 103 .

(6) سمير عمر إبراهيم، المرجع السابق، ص 135ـ136، عمر طوسون، المرجع السابق، ص 29.

و تلقى المبعوثون إلى أوروبا، دراسات متنوعة في علوم وفنون شتى ؛ مثل سبك الحروف والطباعة والصباغة وصناعة الفخار، والزجاج والإسمنت وتكرير السكر، والتقطير وبناء السفن والميكانيكا، وتركيب الآلات والاقتصاد الزراعي، وعلوم الطبيعة والنبات والحيوان والمعادن والكيمياء، وفروع الاقتصاد السياسي والطبوغرافية، والفنون العسكرية والإدارة المالية، وعلم الهندسة البحرية واللغات الحية والآداب كالفلسفة وغيرها من العلوم.[1]

ونتيجة لهذه البعوث أصبح في ثلاثينيات القرن 19م/13هـ، رعيل من المثقفين المشبعين بالثقافة الغربية، بل غدت هذه الأخيرة لدى البعض جزءاً من تكوينهم، وكانت هذه الطبقة مؤهلة ومستعدة بعد أن تشبعت بعلوم الغرب، لتلعب دورها في اليقظة الفكرية عن طريق الترجمة والتأليف، وتطبيق التقنيات الأوروبية الحديثة على أرض الواقع.[2] فقد عادوا محملين بأفكار وآراء جديدة، تجاوزت تأثيراتها الجوانب الفكرية بل تعدت إلى التقاليد والعادات.

فقد كان حجم التأثير الذي تركته المؤثرات الغربية، على الدولة العثمانية وولاياتها متفاوتا، وحتى داخل الطبقات الاجتماعية فيها. ففي جميع مجالات الثقافة كان يتحقق تحديث الإمبراطورية العثمانية في المدن، ويقطع تأورب الطبقات الحاكمة والبلاط شوطا طويلا، فمع نهاية القرن 18م كان هناك جيل من الموظفين، والسفراء والأدباء العثمانيين، يتكلمون الفرنسية ويؤلفون كتبهم بها، وتأثرت إلى جانب ذلك الكتابات التاريخية والآداب بالمؤثرات الغربية، وبأفكار الثورة الفرنسية، وحصل هذا في مصر والشام كذلك على مستوى الطبقة المثقفة في المجتمع ، والموظفين الحكوميين. ولكن في منتصف القرن 19م، وفي مقابل ذلك كانت الطبقات الشعبية ما تزال في منأى عن هذه التأثيرات، وبقيت محافظة تقريبا على سماتها الخاصة، وتواصل الحياة في عالم من الثقافة التقليدية.[3] خاصة إلى غاية النصف الأول من القرن 19م/13هـ.

وكما اختلفت مظاهر التأثير، تضاربت ردود الفعل تجاه هذه المؤثرات، فرغم أن فكرة الانفتاح على أوروبا وتبني مفاهيم حضارة جديدة، قد لاقى في اسطنبول وداخل الإطار العثماني صدى، فقد اقتنع أشخاص في صفوف الطبقة البيروقراطية، بالدولة العثمانية، وبعض الأمراء المتطلعين للتقدم في الولايات، كالشام ومصر مثل فخر الدين المعني الثاني، ومحمد علي باشا والعديد من المثقفين، بأنه إذا كان التجديد

(1) عمر طوسون، المرجع السابق، ص 22- 25. ، محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 100، 101.

(2) ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص 65.

(3) روبير منتران، المرجع السابق، ج 2، ص 474.

ممنوعا في الشؤون الدينية فإنه ممكن في الأمور الدنيوية.[1] وبالتالي نادوا بالتجديد وتبني علوم أوروبا، ولم يرووا أن ذلك يعارض الدين مطلقا، غير أن ذلك أثار مخاوف الكثير من الفئات، فحتى ضمن بعض المتنورين المتحمسين لاقتباس علوم الغرب، كانت هناك طبقة منهم عارضت هذا الانفتاح، واعتبرته خطراً على كيان الدولة، ومتعارضا مع تقاليدها البيروقراطية التي جعلت منها إمبراطورية.[2]

وكان حتى من الذين قبلوا الإصلاح والانفتاح على الغرب، من هو مبدئيا مقتنع بأن تطبيق تلك الإصلاحات، مستحيل في الدولة العثمانية، لأن منح الحرية للمؤثرات الغربية، من شأنه أن يقوي نفوذ المسيحيين، مما يعد خطراً على استقرار الدولة. واعتبروا أيضا أن النظام العثماني، لم يكن مهيئا بعد لتقبل المدنية الأوروبية، ومن شأن ذلك أن يوجهها في مسار معاكس.[3]

أما الطبقة الدينية فقد اعتبرت هذا الانفتاح على الغرب، مهدداً للمعتقدات السائدة ولتعاليم الدين، فإن مفهوم الحداثة عندهم، كان يتعارض مع المفهوم السائد آنذاك، والذي يستند إلى ضرورة الحفاظ على مجتمع ثابت من حيث المبدأ، اعتماداً على التحريم الفقهي المعبر عنه بالبدعة والذي يعني التجديد.[4] ولذلك عارضت هذه الفئة معارضة شديدة، كل اقتباس من أوروبا لكونه من مجتمع غريب في عاداته ويختلف كثيراً عن المجتمع الإسلامي، فضلا عن كونهم كفار. و لهذا قاوم المحافظون إصلاحات السلاطين، وأتباعهم المعتمدة على نظم أوروبا.[5]

وحتى على مستوى العامة لقيت المؤثرات الغربية، التي اجتاحت المجتمع معارضة، فقد صور ذلك أحد المعاصرين لإصلاحات سليم الثالث في قوله :"... فبدأنا بالعمل بين الجمهور وكانت هي المرة الأولى التي يسمع فيها الناس الجهلة في القسطنطينية، دروسا عامة في الرياضيات، ورأوا فيها أعمالا هندسية. في الملأ صوت العجز والجهل ارتفع من الجهات، فقد أرهقونا و اضطهدونا ...أحزننا هذا الأسلوب وأفقدنا الأمل في القدرة على تنوير العامة...." .[6] ونفس الموقف ذكره الطهطاوي، الذي كان من رواد الإصلاح في عهد محمد علي وبعده، أن العرب لما قابلوا الحضارة الغربية لأول مرة، وتعرفوا على مخترعاتها وعلومها، كان موقفهم الأول الحذر والرفض لكونها غريبة عنهم . كما أشار إلى أن العامة والجهلة ـ على حد تعبيره ـ في

(1) روبير منتران، المرجع السابق، ج 2 ، ص 462.

(2) خالد زيادة، المرجع السابق، ص 103.

(3) ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص 60.

(4) روبير منتران، المرجع السابق، ج2، ص 462.

(5) خالد زيادة، المرجع السابق، ص 49، 50، 87، 107.

(6) سيد مصطفى، المصدر السابق، ص 59.

مصرلاموا محمد علي على استعانته بالعلماء الأوروبيين.[1]وحتى المستويات الأعلى في الدولة العثمانية وفي مصر، لم تكن المواقف من الغرب تختلف كثيرا، فمحمد علي مثلا؛ كان يرى من وراء فتحه الباب للمؤثرات الغربية، أن أوروبا مجتمع نشيط يحكّم العقل في استثمار موارده، ولكنه مع ذلك كان أقل استجابة من سلاطين عصره، للأفكار السياسية المنطلقة من أوروبا الحديثة.[2] وكان حريصا على إبقاء السمات الأصيلة لمجتمعه. وحتى على مستوى العلماء الذين أدهشتهم مظاهر الحضارة الأوروبية، كانوا في الواقع يدركون أنهم ورثة حضارة، لاتقل عن هذه الحضارة أهمية، مع أن الحقيقة كانت تؤكد أنهما مختلفتان. ولعل موقف الجبرتي المتأرجح بين الإعجاب بالغرب والمرارة منه ونقده في أن واحد، كان دليلا على الرغبة في اقتباس علومه، ولكن التخوف من فقدان الهوية.[3]

فلم يكن انبهاره بأعمال المجمع العلمي الفرنسي بمصر، ليخفي خوفه من خطورة الوجود الفرنسي على الدين والأخلاق.[4] وحتى المفكرين العرب مصريين أو شاميين، مسلمين أو مسيحيين تنازعتهم أفكار مختلطة إزاء المؤثرات الغربية، فرغم أنها أصبحت جزءا من تفكيرهم، وتكوينهم الثقافي خاصة في القرن 19م إلا أنهم وقفوا بين موقفين، فمن جهة تمسكهم بتراثهم، ومن جهة أخرى تأثرهم بالغرب، والرغبة في الأخذ عنه، وفي نفس الوقت كان يثير ذلك، مخاوف من فقدان الأصالة والهوية.[5] و قد تجسدت سمات هذا الصراع الفكري، في كل مظاهر التحولات الفكرية التي شهدتها مصروالشام، ومن ورائهما الدولة العثمانية.

ومنه يبدو أن التحولات التي شهدتها الحياة الفكرية ،منذ منتصف القرن 16م إلى منتصف القرن 19م حركتها عوامل، فكانت المؤثرات النابعة من أصالة الحضارة الإسلامية والمجتمع، ذات وقع كبير في الفترة الأولى خلال القرنين 17م و 18م، بينما لعبت المؤثرات الغربية، دوراً كبيراً منذ أواخر القرن 18م إلى منتصف القرن 19م. ولذلك لا يمكننا الحكم على أن الحياة الفكرية في مصر والشام خلال هذه الفترة، أنها كانت في جمود ، وهي في الواقع كانت تجتاحها تحولات مستمرة منذ منتصف القرن 17م، فبينما كانت المؤثرات الداخلية لا تعطي فاعلية ولا تحدث انقلابا فكريا جذريا، كانت المؤثرات الغربية أكثر قوة، بحيث جاءت بالجديد وقلبت الأوضاع، ولذلك فإن التحولات تباطأت في فترات ،و تسارعت في أخرى حسب العوامل المؤثرة فيها.

---

(1) نازك سبايارد، المرجع السابق، ص 124. أنظر: رفاعة الطهطاوي، المصدر السابق، ج 1، ج2.

(2) ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص 63، 64.

(3) مصطفى عبد الغني، المرجع السابق، ص 43، 47.

(4) المرجع السابق، ص 62.

(5) نازك سابايارد، المرجع السابق، ص 93.

الفصل الثاني:
التواصل الفكري بين مصر و الشام
و العالم الإسلامي

المبحث الأول: العلاقات الفكرية بين مصر والشام.

المبحث الثاني: التواصل الفكري مع الدولة العثمانية.

المبحث الثالث: دور الحج في التواصل الفكري مع الحجاز.

المبحث الرابع: العلاقات الفكرية مع الأقطار الإسلامية الأخرى

الفصل الثاني: التواصل الفكري بين مصر والشام والعالم الإسلامي

لم تكن البلاد العربية الخاضعة للدولة العثمانية، في الفترة ما بين القرن 16م /10هـ إلى القرن 19م/ 13هـ بمعزل عن ما كان يجري في باقي أقطار العالم الإسلامي. فلم تقف الدولة العثمانية حاجزا في وجه انتقال الطلبة والعلماء، بين أنحاء العالم الإسلامي بل إن الوحدة السياسية، التي تحققت خلال هذه القرون تمخضت عنها وحدة فكرية وثقافية أيضا، ولذلك ظل انتقال العلماء قائما، وعلى نطاق واسع في العهد العثماني حتى غدت الرحلة في طلب العلم هي ميزة هذا العصر، وازدادت حركيتها مثلما كانت في العصور الماضية فقد انتقل العلماء والأدباء في الشام ومصر، بين مراكز العلم في ذلك العهد بكل حرية.[1]

إن الجو السائد في العهد العثماني كان مشبعا بروح العلم، فكان العالم يسعى لتلقي العلم ويبذل لأجل ذلك كل قواه، ويخترق الصعاب ويجوب الآفاق، ويقضي حياته في الجدّ والمثابرة بدافع حبّ العلم * فكان طلاب العلم في ذلك العصر، لا يكتفون بالأخذ عن علماء بلدهم، بل يسافرون للإستزادة من شيوخ البلاد العربية والإسلامية الأخرى، ولذلك نجد في المشيخة ** التي يدونها العالم ،ويذكر فيها شيوخه الذين أخذ عنهم؛ الدمشقي والبغدادي والمصري المغربي والهندي والحجازي والكردي وغيره. وكان من عادة العلماء إذا سافر أحدهم إلى بلد ما ينزل بمنزل زميل له يعرفه هناك ،أو واحدا من أهل بلده أو ينزل في إحدى المدارس ويجاور بها .[2] ومن عادتهم أيضا أن يلازم الطالب أستاذه الذي جاء ليأخذ عنه ملازمة كلية أو جزئية حتى يجيزه بالعلوم التي يرغب في تعلمها، وقد تصل فترة الملازمة إلى سنين طويلة.[3]

ويظهر من كتب التراجم أن ظاهرة الترحال في طلب العلم، كانت أكثر شيوعا بين أهل الشام وعلمائها من مصر، فقد كانت بلاد الشام على اتصال أقوى مع البلاد العربية والعثمانية والعالم الإسلامي، مما جعل مؤلفيها أكثر انفتاحا وأوسع رؤية من غيرهم.[4] ومن جملة الدوافع التي كانت تحرك هذه الرحلات في ذلك العصر، أن الكثير منهم كان يسعى لطلب الإجازة، فقد كان الطالب يهمه أن يحصل على عدة إجازات من عـدة أقطار، لأن ذلك سيؤهله لتبوء مكانة علمية هامة، سواء في بلده أو في المكان الذي يستقر فيه ومن

---

(1) ليلى الصباغ، من أعلام الفكر، ص 34، 35.

* أكيد لم يكن حب العلم هو الدافع الوحيد لهذه الرحلات، ولكنه كان موجودا ضمن كل الدوافع الأخرى ،وكان من العلماء من حفزه فعلا حب العلم للترحال.

** المشيخة: هي وثيقة يدون فيها العالم مجموع الشيوخ الذين أخذ عنهم ويمكن أن يصل بسندهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

(2) محمد أنيس، المرجع السابق، ص15. =

الدوافع أيضا الرغبة في تحصيل المناصب والوظائف، كالتدريس والقضاء وغيرها، فكانت الرحلة عند علماء وأدباء هذا العصر، أمرا ضروريا لاكتساب الفوائد بلقاء المشايخ، وزيارة المعاهد ومناظرة العلماء، كما ذكر عبد الغني النابلسي* في كلامه عن أهداف الرحلة بقوله: "... ولا ندخل إلى بلدة إلا بغاية المهابة ... نجتمع بأهل الصلاح والدين ... ونزور الأولياء ... ونتباحث مع العلماء، ونتكلم مع طلبة العلم من الفضلاء ...".(1)

والملاحظ لكتب التراجم، يجد أن العديد من علماء العرب وأدبائهم، تنقلوا على نطاق واسع بين موطنهم وبلاد الروم** من ناحية، وبقية أنحاء البلاد العربية والإسلامية من ناحية أخرى، حتى شاع في تلك الفترة أدب الرحلات، ويظهر أيضا أن حبّ الإطلاع وتجديد الفكر، والبحث عن المنازل الرفيعة، كانت كلها دوافع حركت شباب وشيوخ ذلك العصر، للترحال حتى جابوا مختلف الأقطار.(2)

لكن العوامل التي ساعدت على انتعاش هذه الحركة، وشيوعها كظاهرة علمية هي وجود دولة واحدة تحكم معظم تلك البلاد، وهي بالتأكيد الدولة العثمانية، مما ساعد في انفتاح الحدود ودور العلم، في كل أنحاء العالم الإسلامي، لاستقبال كل من يفد إليها من طلاب للعلم أو علماء، فلم تكن الحدود السياسية بالمفهوم الحديث موجودة في ذلك الوقت، فضلا عن الشعور بأن جميع أراضي الولايات العربية، مغربها ومشرقها تابعة للسلطان العثماني، جعلها تبدو بلدا واحدا، وساهم إلى جانب ذلك العامل الديني، المتمثل في رحلة الحج حيث كان يجتمع علماء مختلف الأصقاع الإسلامية، في الحرمين الشريفين يتبادلون الأفكار.(3) خاصة مع مرورهم الحتمي على دمشق ومصر، مما جعل تلك المناطق بؤرة تبادل ثقافي وفكري.

= (3) لقد ذكر الجبرتي أن والده حسن الجبرتي كان يتلقى طلاب العلم بالفرح ويقبل عليهم خاصة الغرباء ويدعوهم للمبيت عنده ويلازمونه مع عياله حتى يكاد يصيرون منهم فكان من الطلاب من مكث معه 20 سنة لا يتكلف إلى شيء من معاشه. أنظر: الجبرتي ، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 458.

(4) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 206.

* عبد الغني بن إسماعيل النابلسي الحنفي الدمشقي النقشبندي (1050 هـ ـ ت 1143 هـ/ 1640م ـ1633م) نشأ يتيما، قرأ الفقه والنحو والمعاني والحديث والتفسير على عدة مشايخ له رحلات عديدة بمصر، الحجاز، القدس وترك مؤلفات كثيرة منها الرحلة الطرابلسية، الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، وله نظم بديعية ومؤلفات أخرى كثيرة. المرادي، المصدر السابق، ج3، ص30 ـ 38، الجبرتي ، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 232

(1) عبد الغني النابلسي، الحقيقة والمجاز، ج1(دار المعرفة)، ص 38 . ومثله ذكر الجبرتي في من يخوض غمار الرحلة وأهميتها: " .. ورحل إلى جل الأقطار لبلوغ أجلّ الأوطار كما دأب على ذلك السلف لما فيه من اكتساب المعالي والشرف..." الجبرتي، المصدر السابق، ج1، ص 246.

** ويطلق عليه باللفظ التركي العثماني "روميللي" و يشمل كل الأقاليم العثمانية الواقعة في أوروبا ومنها تراقيا، ألبانيا، بلغاريا، الصرب، ومن أشهر مدنه أدرنة. مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات العثمانية، "ر"، ص214.

(2) ليلى الصباغ ، من أعلام الفكر ، ص93.

(3) عبد الرحيم عبد الرحمن، المغاربة في مصر، ص 125.

ولذلك فإن التواصل بين مصر والشام وباقي البلاد العربية و الإسلامية، كان له دور كبير في تبادل الأفكار، وشحذ الهمم وإثراء الرصيد الفكري والثقافي، خاصة مع اختلاف الأعراق واللغات، فهناك الطرابلسي والدمشقي، المكي والبصري، الأربلي والبغدادي والهندي و النيسابوري، الخوارزمي و المصري والإسطنبولي، والمغربي وغيرهم.[1] ممن جعلوا الحياة الفكرية تصطبغ بصبغة واحدة، متشابهة تقريبا في كل الأقطار مع بعض الاختلافات، وهي فوق كل ذلك تعد مظهرا يوحي ولاشك، بحركية الحياة الفكرية في تلك الفترة.

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الثقافة التركية في مصر، ص 188.

المبحث الأول: العلاقات الفكرية بين مصر و الشام .

تمثل مصر والشام وحدة جغرافية تقريبا، ومثل كل منهما وحدة سياسية وتاريخية لعدة قرون ، واكتسب كلاهما مكانة وأهمية مميزة في العهد العثماني، مقارنة مع الولايات الأخرى. فضلا عن كونهما كانتا ولفترة طويلة مراكزا للإشعاع الفكري والثقافي في العالم الإسلامي، بفضل علاقات العلماء في المنطقتين مع بعضهم البعض، واستمر ذلك خلال العهد العثماني. ولذلك فإن مظاهر التأثير والتأثر بينهما بدت جليّة خلال هذه الفترة، فقد ساهم علماء كل منهما في ازدهار الحياة الفكرية فيهما.

1ـ انتقال طلاب العلم والعلماء الشوام إلى مصر:

لقد كانت القاهرة قبلة الكثير من العلماء والطلاب، من مختلف أقطار العالم الإسلامي، ومن جملتهم الشوام، فكان بعضهم يأتي للإستقرار، وبعضهم يقيم لفترة ثم يعود لبلده، وذلك لتلقي العلم في الجامع الأزهر، الذي كان معقلا للعلوم خاصة الدينية واللغوية. فكان علماء الشام يفدون إلى مصر للدراسة في جامعها والمدارس التابعة له، والحصول على إجازة من علمائها، تمكنهم من الوصول إلى الوظائف، سواء في بلادهم إذا عادوا إليها أو في مصر نفسها. وتزخر كتب التراجم بالعديد من الأمثلة، عن طلاب العلم والعلماء الشوام الذين جاؤوا إلى مصر، خلال القرن 16م إلى غاية القرن 19م وهذا بالنسبة للمسلمين.

أما عن المسيحيين الشوام، فقد هاجروا إلى مصر على فترات ، فكان عددهم خلال القرن 17م/ 11هـ ضئيلا ليزداد في أوائل القرن 18م/12هـ، وحركتهم عوامل عديدة لهذه الهجرة، يأتي في مقدمتها الاضطرابات التي شهدتها بلاد الشام في تلك الفترة، وازدياد طغيان الباشاوات الأتراك، وكذلك الإضطهاد الديني، خاصة بدمشق وحلب الذي عان منه الكاثوليك والموارنة.[1] وتركز القسم الأكبر منهم في القاهرة واتجه عدد قليل إلى دمياط ورشيد والإسكندرية، وهي المدن المصرية الكبرى، أما الشوام المسلمين فانتشروا في معظم مدن مصر.[2]

أ- طلاب العلم والعلماء في مدارس مصر:

ومن أمثلة الطلاب والعلماء الذين وفدوا إلى مصر ودرسوا بها بين القرن 16م/10 هـ والقرن 17م/11هـ نذكر :

---

(1) عبد الله عزباوي، الشوام في مصر، ص271، 272، جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة، ص52، 53.

(2) عبد الله عزباوي، نفسه، ص 272، 273.

الشيخ عبد الغفار بن يوسف القدسي الحنفي المعروف بالعجمي،(973 / 974 هـ ـ ت 1050 هـ / 1565م /1566م ـ 1640م) وهو من علماء القدس،أخذ عن علماء بلده وله رحلتان إلى القاهرة أولاها عام 993 هـ/ 1580م، أخذ بها الحديث والفقه عن البكري محمد، والفرائض عن عبد الله الشنشوري والأصول والقراءات، والثانية كانت عام 1022 هـ/ 1613م أخذ بها عن عبد الرؤوف المناوي، ودخل بعدها الروم ثم عاد إلى بلده وتولى تدريس المدرسة العثمانية.[1]

والشيخ خير الدين بن أحمد الأيوبي العليمي الرملي الحنفي،(993 هـ ـ ت 1081 هـ/ 1585 م ـ 1670م) من الرملة، جاور بالأزهر منذ عام1007 هـ/ 1594م ، وقرأ على علمائه، ولازم الشيخ فايد وعبد الله بن محمد التحريري الحنفي في فقه الحنفية وأجازه،وأخذ الحديث والقراءات، ومكث ست سنوات ثم عاد إلى بلده عام 1013هـ/ 1600م،وتولى التدريس والإفتاء،وقد أخذ عنه غالب علماء الرملة والمغاربة وحتى علماء الروم.[2] وحسين بن عبد الكريم الملقب زين الدين الغزي المعروف بابن النخالة الشافعي (ت 1051هـ/1641م)، رحل إلى مصر وجاور بالأزهر،وأخذ عن علمائه الفرائض وعدة علوم. منهم الشنشوري ومحمد الرملي* ، والنور علي الزيادي وغيرهم، ثم عاد إلى غزة ودرّس بها علم الفرائض.[3]

و الشيخ عبد الباقي بن عبد الباقي الحنبلي البعلي الأزهري الدمشقي،(ت 1071هـ/ 1660م) دخل مصدر عام 1029هـ/ 1620م،وأخذ بها الفقه والقراءات والحديث، والفرائض والعروض والمنطق ، عن شيوخها كالبابلي** و اللقاني*** ،ثم عاد إلى دمشق وتولى التدريس.[4] و محمد بن تاج الدين محمد المقدسي الأصل الرملي الحنفي (ت 1097 هـ/ 1685م)، رحل إلى مصر في حدود عام 1066 هـ/ 1655م،وأقام بها إلى عام 1070 هـ/ 1661م، وقرأ على علمائها القراءات والحديث والفقه مثل سلطان المزاحي[5] والشمس البابلي و الشبراملي[6]،ولازم هذا الأخير وأجازه بمروياته، وقرأ على الشيخ حسن

(1) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 433.

(2) نفسه، ص 136ـ 138.

* محمد بن أحمد الملقب شمس الدين الرملي المنوفي المصري الملقب بالشافعي الصغير (919هـ – ت 1004 هـ/ 1513م – 1595م) قرأ على والده في الفقه والتفسير والصرف والتاريخ، هو مرجع أهل مصرفي تحرير الفتاوى في عصره له عدة مؤلفات منها شرح المنهاج وشرح الإيضاح وشرح العقود في النحو. نجم الدين الغزي،لطف السمر و قطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر،تح .محمود الشيخ، منشورات وزارة الثقافة ،دمشق،سوريا،(د.ط)،ج1ص 77ـ 84 ، المحبي، نفسه ، ج3، ص 343، 344.

(3) المحبي، نفس المصدر، ج2، ص94.

** هو محمد بن علاء الدين ، شمس الدين البابلي القاهري الشافعي(1000 هـ ـ 1077 هـ / 1592م ـ 1666م)، هو من أعلام الحديث والفقه وكتب بخطه كتبا كثيرة، درس على شيوخ عصره، وجاور بمكة 10 سنين وانتفع منه الطلبة . نفس المصدر ، ج4، ص39.

*** إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقاني برهان الدين المالكي(ت 1041 هـ / 1631 م) كان على إطلاع في علم الحديث و علم الكلام وكان مرجعا في الفتاوى ومن مؤلفاته منظومة في علم العقائد (جوهرة التوحيد) وتوضيح ألفاظ الأجرومية. نفس المصدر، ص 210، 211. =

الشرنبلالي * وأصبح معيدا لدرسه، وأجازه كل شيوخه ورجع إلى بلده وتولى الإفتاء.[1] أما خلال القرن 18م/ 12 هـ ، فنذكر من الشوام الذين درسوا بمصر، الشيخ عبد الجليل بن يحي المعروف بالسباعي الشافعي الحمصي (ت 1145 هـ / 1732م)، جاور بالأزهر مدّة سنين عديدة، درّس فيها العلوم عن أجلاء علماء مصر، وعاد إلى حمص ونفع جمعا كبيرا.[2] و عبد الخالق الزيادي بن أحمد الشافعي الميداني الدمشقي (1149 هـ ـ ت 1185 هـ / 1736م ـ 1771م)، الذي دخل مصر عام 1166 هـ/ 1753 م، واشتغل بطلب العلم على أحمد الملوي و الحفناوي و الشبراوي، ودرس المعقول والمنقول وأجازوه بالفقه والنحو والأصول والحديث وغيرها، ثم عاد إلى دمشق عام 1172 هـ/ 1759م ودرّس بالجامع الأموي.[3]

ومنهم أيضا أبو المواهب محمد تقي الدين الحنبلي الدمشقي، (ت 1126 هـ / 1714 م) أخذ العلم عن علماء دمشق ثم رحل إلى مصر، وأخذ القراءات عن محمد البقري، والفقه عن الشمس البابلي، ثم عاد إلى بلده وتولى إفتاء الحنابلة. [4]ومحمود بن إبراهيم الشافعي الغزي الدمشقي (ت 1155 هـ/ 1742 م) دخل مصر وقرأ على جماعة من علمائها، منهم أحمد بن محمد الفقيه المصري، أخذ عنه الفقه والحديث و النحو والتوحيد والمنطق، وأجازه بالإفتاء والتدريس، فلما عاد إلى بلده تولى التدريس بدمشق، وصار قاض للشافعية. [5] وهناك من مكث بمصر مجاورا سنين عديدة ثم عاد إلى بلده، وأحياها بالعلوم التي تلقاها بمصر مثل إبراهيم بن محمد المعروف بابن سقر الحنفي الغزي(ت 1152 هـ/ 1739 م)، الذي أقام بمصر مدة 15سنة

= (4) نفسه، ج2، ص 284.

(5) سلطان بن أحمد بن سلامة المزاحي المصري الشافعي، (985هـ ـ ت 1075هـ/ 1577م ـ 1664م)، كان فقيها واشتغل بالعلوم العقلية، أجيز بالإفتاء والتدريس . له مؤلفات منها حاشية على شرح المنهج للقاضي زكريا في الفقه الشافعي . نفس المصدر ،ج2، ص 210، 211.

(6) علي بن علي أبو الضيا نور الدين الشبراملسي(985 هـ ـ ت 1075م/ 1577م ـ 1664م)، درس الفقه والحديث والعقليات على علماء مصر و ترك مؤلفات منها حاشية على المواهب في 5 مجلدات، وحاشية على شرح الشمائل لابن حجر وغيره. نفس المصدر، ج3، ص 174ـ 176.

* حسن بن عمار بن علي أبو الإخلاص المصري الشرنبلالي الحنفي، كان من أحسن علماء الفقه المعول عليهم في الفتاوى في عصره، درس على علماء عصره ودرّس بالأزهر، ألف كتبا كثيرة في المذهب منها شرح منظومة ابن وهبان ومتن في الفقه (ت 1069 هـ / 1658م). المحبي المصدر السابق ، ج2، ص 37، 38.

(1) نفسه، ج3، ص 411.

(2) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص238.

(3) نفسه، ص258، 259.

(4) نفسه، ج1، ص 67، 68، الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 127.

(5) المرادي، نفسه، ج4، ص 126.

مجتهدا في طلب العلوم ثم عاد إلى بلده. [1] وعبد الغني بن رضوان الحنفي الصيداوي (1101 هـ ـ ت 1173 هـ/ 1689م ـ 1759م)، هو من مدينة صيدا * دخل دمشق ومكث بها 3 سنوات ثم مصر، وبقي بها 14 سنة، يشتغل بالعلم ولما عاد إلى بلده تولى الإفتاء. [2] ومنهم من أقام أقل من ذلك، مثل عبد الرحيم بن مصطفى بن حسن، الشهير بابن شقيقة الدمشقي الحنفي (1083 هـ ـ ت 1173 هـ / 1672م ـ 1759م) الذي جاور بمصر 6 سنوات وأخذ الإجازة. [3]

وفي القرن 19م/ 13هـ هناك العديد من الشوام ظلّوا يجاورون بمصر، مثل الشيخ منصور بن مصطفى السرميني الحسني الحلبي الحنفي، (1134 هـ ـ ت 1207 هـ / 1721م ـ 1792م) .[4] ومحمد بن شاكر بن محمد السكري الحنفي الدمشقي، (1203 هـ ـ ت 1224 هـ / 1789م ـ 1809م)، الذي جاور بالأزهر تسع سنين، ولازم الأزهريين فكتبوا له الإجازة وعاد إلى بلده.[5] والشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم القاوقجي الشهير بأبي المحاسن ولد 1214 هـ/ 1799م، وتوفي وعمره 81 سنة بالحجاز، ودخل مصر وعمره 15 سنة وجاور بأزهرها مدة 27 سنة ، وأجازه علماؤها، وكان ماهرا في العلوم العقلية و النقلية. [6]

وهكذا ظل علماء وطلبة الشام يفدون إلى مصر، ويجاورون بالرواق الخاص بهم في الجامع الأزهر** فكان بعضهم يعود لبلاده ويتولى التدريس أو الإفتاء أو القضاء، سواء بالجامع الأموي أو في غيره من المعاهد بالشام، أما الذين يبقون بمصر فيشتغلون بالتدريس وغيره من الوظائف.

ب- وظائف تقلدها علماء الشام بمصر:

لقد أفاد علماء الشام مصر كثيرا حين استوطنوها، حيث اشتغلوا بالتدريس في جامعها، ونفعوا طلاب العلم سواء المصريين أو الواردين على مصر . وتقلدوا وظائف أخرى غير التدريس كالإفتاء والقضاء،

---

(1) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 30.

* مدينة صيدا هي مدينة قديمة بناها صيدون بن كنعان بن حام، تسلمها إسكندر المقدوني عام 332 ق.م ثم صارت للملوك سورية ومصر ثم للروم وبعدهم للمسلمين. عام 1187م تسلمها صلاح الدين الأيوبي وعام 1620م فخر الدين المعني وهي إحدى مدن لبنان . طنوس الشدياق، المصدر السابق، ج2، ص15.

(2) المصدر السابق، ج3، ص38.

(3) نفسه، ص 11، 10.

(4) خليل مردم بك، المرجع السابق، ص33.

(5) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص242.

(6) عبد الله نوفل، المرجع السابق، ص 58، 59.

** رواق الشوام بالجامع الأزهر أنشأه قايتباي، ثم زاد فيه الأمير عبد الرحمن كتخدا حتى صار من الأروقة الكبيرة وقد أوقف عليه كل منهما أوقافا هامة، وأصبح يقطنه المجاورين من بلاد الشام، وله خزانة كتب. أنظر: عبد الله عزباوي، الشوام في مصر، ص 274.

وبذلك ساهموا في ازدهار الحياة العلمية والفكرية بمصر، بمؤلفاتهم ودروسهم. ومن بين الذين اشتهروا بين القرن 16م/17م، شحادة بن إبراهيم الحلبي الشافعي (ت 1010هـ/ 1601م)، أصله من حلب وولد بمصر عاش فيها،وكان عالما في المعقولات والمنقولات،وشيخا في الفروع والأصول،وتولى التدريس بالأزهر، وصار من علماء مصر الكبار.[1] والشيخ محمد المعروف بابن النقيب البيروتي الشافعي (ت 1064 هـ/ 1653 م)،الذي أخذ العلم في دمشق وأجازه علماؤها بالإفتاء والتدريس. ثم دخل مصر وأخذ عن علمائها، ودرّس بالأزهر أربعين سنة وأخذ عنه جمع كبير من أعيان مصر،مثل سلطان المزاحي ومن الدمشقيين عبد القادر الصفوري *، وكان لمكانته العلمية يحضر في مجلسه نحو 130 طالبا. كما أنه أفاد المصريين بمؤلفاته مثل حاشيته على المنهاج والمعلى سماها "فتح التجلّى ".[2]

وخلال القرن 18م/ 12 هـ كان من بين الذين ارتقوا في الوظائف بمصر، عبد اللطيف بن أحمد بن علي المعروف بالمكتبي الشافعي الدمشقي (ت 1162 هـ/ 1749 م)،كان بارعا في العلوم الرياضية ودخل مصر عام 1125 هـ/ 1713م، وعاد إلى دمشق لعام واحد، ثم دخل مصر واستقر بها حتى مات. و اشتهر بها وأخذ العلوم عن علمائها، ثم تولى التدريس والإفادة، وصار شيخا لرواق الشوام بالجامع الأزهر مدة سنين، وقد ألّف مؤلفات منها " منظومة في حل الأعداد "،وشرحها و "المنهج الأقرب لتصحيح موضع العقرب في الحساب والهيئة ". [3]

و إبراهيم بن مصطفى بن إبراهيم الحنفي الحلبي(ت 1190 هـ ـ1776 م)، الذي دخل مصر وبقي بها سبع سنوات،ثم عاد لدمشق ورجع ثانية إلى القاهرة وأخذ المنقول والمعقول على الشيخ الضرير الحنفي، وصار معيدا لدرسه وأذن له شيوخه أن يدّرس، فأقرأ " الدّرّ المختار " وهو أول من أقرأه في أربع سنوات. وأقرأ " الهداية " وتزاحمت عليه الطلبة، وتخرج عليه العديد من الأزهريين.[4] وهناك من ترك متونا و مؤ لفات مثل علي بن حبيب الله أبي اللطف الشافعي القدسي (ت 1144 هـ / 1731م)،الذي جاور بالأزهر 15 سنة وأبدع في علم الحديث، وألف شروحا على بعض متون الفـقه الشافعي.[5] ومنهـم من تـولى الإفتاء

---

(1) المحبي، المصدر السابق ، ج2، ص221.

* عبد القادر بن مصطفى الصفوري الدمشقي الشافعي،(1010 هـ ـ ت 1081 هـ/ 1601 م ـ 1670م)، كان فقيها ومحدثا أصوليا، نحويا، رحل إلى مصر في صباه وأخذ عن علمائها وسافر إلى الروم (إسطنبول)، وعاد لدمشق ودرس بالجامع الأموي وعدة مدارس، له تحريرات ورسائل كثيرة . نفسه، ج2، ص467، 468.

(2) نفسه، ج4، ص 306، 307.

(3) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص119، عبد الله عزباوي، الشوام في مصر، ص280 .

(4) المرادي ، نفسه، ج1، ص 38، 39. =

والخطابة والإمامة كأحمد العقرباوي شهاب الدين (ت 1180 هـ/1766 م)، وهو من نابلس درس في مصر، وتولى بها الإفتاء على المذهب الشافعي، ودرّس وأفاد الكثيرين بمصر.[1] ومنهم أيضا حسن المقدسي ت 1182هـ ـ 1768م، الذي درس على شيوخ مصر، ثم تولى التدريس بالأزهر في حياة شيوخه، وتولى خطابة وإمامة مسجد عثمان كتخدا، ودرّس بالمدرسة الصرغتمشية والمحمودية، ومدرسة الشيخ مطهر* وغيرها.[2]

وفي القرن 19م / 13 هـ دخل علماء الشام مصر، وتولوا مناصب عديدة، وكان لهم دور كبير في النهضة الفكرية، خلال عهد محمد علي باشا؛ حيث ساهموا في حركة الترجمة والتأليف في ذلك العهد مثل نوفل بن نعمة الله بن جرجس نوفل الطرابلسي (1811م ـ ت 1887م)، والذي دخل مصر خلال عهد محمد علي باشا عام 1822م / 1237 هـ، ودرس العربية والتركية في إحدى مدارسه، وتعين معاونا لأبيه في قلم التحريرات بالديوان الخاص، وفي عام 1828م/ 1243 هـ عاد إلى وطنه.[3] ومنهم أيضا محمد حسين بن حسين العطار المدرس الحنفي الدمشقي، (1177 هـ ـ ت 1243 هـ / 1763م ـ 1827م)، الذي قام بشرح رسالة حسن العطار المصري في التشريح.[4]

ومن بين الأدباء الشوام الذين دخلوا مصر في القرن 19م، نذكر أحمد فارس الشدياق (1804م ـ1887م / 1218 هـ ـ 1304 هـ)، المولود بلبنان وتلقى علومه بها ودخل مصر في الفترة ما بين (1825 م ـ 1834م / 1240 هـ ـ 1249 هـ)، فتعمق بها في اللغة العربية، وتتلمذ على بعض علمائها، وتولى تحرير "الوقائع المصرية"، خلفا لرفاعة الطهطاوي قبل أن يغادرها إلى مالطة.[5] ومنهم أيضا جبرائيل بن يوسف المخلع (ت 1268 هـ / 1855 م) الدمشقي، كان فقيها في العلوم العربية و يعرف التركية والفارسية، دخل إلى مصر، وتنقل في دواوين الإنشاء بالإسكندرية ثم عاد إلى دمشق.[6] وقد برز نفوذ الشوام المسيحيين بمصر منذ عهد الحملة الفرنسية، حيث اشتغلوا تراجمة لدى الفرنسيين، مثل القس رفائيل الذي عيّن ترجمانا كبيرا

= (5) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص209.

(1) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 219.

* أو جامع الشيخ مطهر برأس السكة بقرب جامع الأشرفية، بناه الأمير عبد الرحمن كتخذا وكان أصله المدرسة المعروفة بالسيوفية. أنظر: علي مبارك، المرجع السابق، ج5، ص 116.

(2) عبد الله عزباوي، الشوام في مصر، ص 281.

(3) عبد الله نوفل، المرجع السابق، ص 76.

(4) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 254.

(5) يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة الأدبية، الفكر العربي الحديث في سير أعلامه، جمعية أهل القلم، بيروت، لبنان، (د.ط)، ج2، 1956م، ص473.

(6) خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 218.

وإلياس فخر ترجمانا صغيرا في عهد مينو، واستفادوا من شاميين آخرين؛ مثل ميخائيل الصّباغ و نقولا الترك وغيرهم.[1]

2ـ انتقال الطلبة والعلماء المصريين إلى الشام:

أ ـ طلاب العلم و المدرسين بمدارس الشام:

لقد وفد عدد لا يستهان به من المصريين إلى الشام ، كطلاب علم وعلماء ، واستوطنوا في مدنها مثل دمشق، حلب، طرابلس، القدس، بيروت، وجاوروا بمدارسها وتلقوا العلم بجامعها الأموي. وأخذوا الإجازات عن علمائها، واستفادوا وأفادوا بدروسهم ومؤلفاتهم، رغم أن عددهم كان قليلا مقارنة مع الشوام في مصر. ويرجع ذلك إلى وجود الجامع الأزهر؛ الذي كان يستقطب علماء العالم الإسلامي، فكان ذلك يغنيهم عن الترحال، طالما تسنى لهم تلقي العلم من العلماء الوافدين إلى مصر. ومن أمثلة هؤلاء خلال القرن 16م/ 10 هـ و17 م /11هـ ،الشيخ عبد الله بن محمد المصري الحنفي (ت 1004 هـ/1595م)، الذي كان بارعا في عدة فنون مثل العربية والفقه، و دخل دمشق ولازم علماءها، وأصبح إماما بمدرسة شادي بك ودرّس بالجامع الأموي أياما. [2]

ومنهم أيضا عبد البّر بن عبد القادر الفيومي العوفي الحنفي (ت 1071 هـ/ 1660م)، وهو من علماء مصر دخل دمشق عام 1048 هـ/ 1638م، و حلب وأخذ بها عن النجم الحلفاوي الأنصاري، ولازمه في شرح الدور في الفقه، وفي كتب أخرى ثم دخل الروم. [3] ومنهم أيضا الشيخ منصور الشهير بالفرضى (ت 1070 هـ /1657 م)، دخل دمشق ونزل بالمدرسة العمرية* ، وبقي بها طول حياته، وتلقى العلم بدمشق ودرّس بها وانتفع به فضلاؤها. [4]

وخلال القرن 18م (12 هـ) تذكر كتب التراجم، العديد من المصريين الذين دخلوا الشام، ودرّسوا بها أوتلقوا العلم عن علمائها، مثل يونس بن أحمد المحلي الأزهري الكفراوي الشافعي(1029 هـ ـ ت 1120هـ / 1620 م ـ 1708م)، استوطن دمشق حتى مات بها، و أخذ عن علماء مصر التفسير والحديث وغيره، ثم دخل دمشـق عام 1070 هـ/ 1660م وتلقى عن علـمائها، وتـولى التـدريس بقبة الـنسر بالجامع الأمـوي

---

(1) جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة، ص 57- 59.

(2) المحبي، المصدر السابق ، ج3، ص 65، 66.

(3) نفسه، ج2، ص 292.

(4) نفسه، ج4، ص 468، 469.

* المدرسة العمرية الشيخية بالجبل وسط دير الحنابلة واقفها الشيخ أبو عمر الكبير والد قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي المتوفي (607 هـ) القرن 9 هـ وبناها عام 550 هـ / 1155م . النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص 76، محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص99.

عام 1089 هـ/ 1678م ، وصار له جاه وحرمة بدمشق وأقبل عليه الناس، وصارت له مكانة لدى الحكام.(1)
ومنهم أيضا علي بن حسين الشافعي المصري (ت 1163 هـ /1750م)، الذي دخل دمشق وقطن بالمدرسة الخنائية قرب الجامع الأموي، ثم تحول إلى المدرسة الجقمقية * ثم الظاهرية ** ، ودرّس الأولاد القرآن، كما ألقى دروسا بالجامع الأموي. (2)

ومن الذين دخلوا حلب، الشيخ عبد الهادي المصري، من علماء القرن 18م / 12 هـ استوطن حلب، وصار مدرسا للدروس الحديثية بالمدرسة الأحمدية *** ، وأقرأ بها الشفا للقاضي عياض والنحو والعقائد، والعربية وانتفع به الكثير من أهل حلب. (3) وكذلك الشيخ عبد الرحمن المقري بن إبراهيم الشافعي (ت 1174 هـ/ 1761م) أصله من دمياط بمصر، كان قرأ بها الفقه والعربية والحديث، ودخل حلب عام 1150 هـ/ 1737م، واستوطنها بالمدرسة الحلاوية (4) وانتفع به الناس في القراءات. (5) والشيخ عامر الشافعي المصري الضرير المقرئ (1030 هـ ـ ت 1116 هـ/ 1621م ـ 1704م)، الذي برع في القراءات وأخذ عنه قراء وقته في حلب. (6)

ب ـ دور المصريين في النهضة الفكرية بالشام:

لقد ترك الكثير من علماء مصر الذين استقروا بالشام، مؤلفات عديدة انتفع بها طلاب العلم وأثرت مكتبات الشام، مثل الشيخ حسن المصري الفيومي (ت 1151 هـ/ 1738م)، الذي توفي بدمشق وكان من فحول العلماء، فقد كان له يد في النحو وشهرة في علم القراءات، والمعاني والبيان والفقه وعلم الكلام

---

(1) المرادي ، المصدر السابق، ج4، ص266.

* من مدارس الحنفية بدمشق، شمالي الجامع الأموي، أسسها سنجر الهلالي وولده شمس الدين، فانتزعها الملك الناصر حسن عام 761هـ وعمرها وجدّدها بعد احتراقها في فتنة تيمور سيف الدين جاقماق وأضاف لها مدرسة للأيتام. محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص 91.

** الظاهرية الجوانية بدمشق وهي للحنفية والشافعية، داخل باب الفرج والفراديس أنشأها مدرسة ودار الحديث الظاهر بيبرس ودفن بها عام 676 هـ. النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص 263 . محمد كرد علي ، نفسه ، ج6، ص 83.

(2) المرادي، المصدر السابق ، ج3، ص213، 214.

*** أنشأها عام1166 هـ/1753م بحلب القاضي أحمد بن طه زاده (الجلبي)، وأوقفها على صلحاء أكراد ما وراء الموصل. محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص116.

(3) المصدر السابق ، ص 142.

(4) المدرسة الحلاوية بحلب كانت كنيسة من بناء هيلانة أم قسطنطين حولّها المسلمون إلى مدرسة وجعلها نور الدين مدرسة وجدد بها مساكن للفقراء عام 543 هـ وهي من أعظم المدارس. محمد كرد علي ، المرجع السابق، ج6، ص 108، 109. عزالدين بن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح. دومينيك سورديل، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، سوريا، (د.ط)، ج1، 1953م، ص 110، 111.

(5) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 274.

(6) نفسه، ص 229.

ودخل دمشق عام 1100 هـ/ 1688م، ودرّس بها وترك مؤلفات نافعة.[1] ومنهم أيضا خليل الملقب بأبي الفتوح الفيومي الشافعي المصري (1107 هـ ـ ت 1160 هـ / 1695 ـ1747م)، درس بالأزهر ودخل دمشق عام 1146 هـ/ 1733م، ثم رحل إلى حمص وبقي بها سنتين وتوفي بحماه، كان ناظما أديبا ترك مؤلفات هامة، مثل كتاب في الرد على الإسماعيلية ؛ سماه " السطوة العدلية بالفرقة الإسماعيلية "،نظمه في 400 بيت،وله مؤلف في العروض،وآخر في الحديث وقصائد كثيرة .[2]

والسيد إسماعيل الحافظ بن أحمد الأحميدي المصري (ت 1288 هـ/ 1871م) ، درس على علماء مصر ودخل طرابلس الشام، وتكسّب بالفتوى وعمل المسائل الفرضية، و التوثيقات الشرعية، واشتغل بالتدريس في المدرسة الخاتونية * وبالجامع المنصوري، وكانت له مؤلفات منها شرح الدر المختار في فقه الحنفية، ورسالة في علم الفرائض وفتاوى.[3]

وقد استفادت بلاد الشام، فضلا عن ذلك من نهضة مصر العلمية في القرن 19م/ 13 هـ ،ووصلتها أصداؤها، مما ساهم في نهضتها هي الأخرى، فقد أدخل الحكم المصري لبلاد الشام إصلاحات هامة، وأعطى دفعة للحياة العلمية بها، و أدت التغييرات التي حصلت في فترة حكم إبراهيم باشا (المصري)، إلى ظهور طبقة مثقفة ومتعلمة تقبلت الإصلاح. كما أفسح المجال أكثر للبعثات التبشيرية للعمل بكل حرية، مما فتح الشام أمام المؤثرات الغربية، فازداد عدد المدارس، حيث أنشأت المدارس العسكرية، وسمح بإمكانية تجديد المدارس الدينية و الطائفية بها.[4]

و بذلك حمل الحكم المصري نموذجا للنظام الإداري المتكامل، وذلك بإشراك أهل الشام أنفسهم، فلم يغزو الموظفين المصريين الشام، إلا في حالة عدم وجود بديل أو أن تكون مهمتهم تعليمية.[5] كما أدخل إلى بلاد الشام من مصر، عدد كبير من الكتب المؤلفة أو المترجمة، التي طبعت في مطبعة بولاق، وشملت موضوعات علمية وإنسانية. ففلسطين وباقي ولايات الشام، كانت ترسل قوائم إلى مصر بأسماء الكتب

---

(1) المرداي ، المصدر السابق ، ج2، ص 36،37.

(2) نفسه، ج2، ص 103.

* الخاتونية البرانية هي في مكان كان يدعى صنعاء دمشق ،وقفتها زمرد خاتون أخت الملك دقاق وخربت، لكن الخاتونية الجوانية بمحلة حجر الذهب قرب البايمارستان النوري من إنشاء خاتون ابنة سعيد الدين اتسسز، وقفها أخوه سعد الدين عليها وهي من مدارس الحنفية،وهي المقصودة هنا. محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص 92.

(3) عبد الله نوفل، المرجع السابق، ص 255.

(4) فدوى نصيرات، المرجع السابق، ص60، 61.

(5) لطيفة محمد سالم، المرجع السابق، ص74، 75.

المطلوبة في مدارسها، مثل كتاب المعادن، التشريح والجراحة والجغرافيا الطبيعية، وحتى الكتب التاريخية والأدبية.[1] ووضعت الأسس أيضا لإرسال البعثات التعليمية من الشام إلى القاهرة، فقد طلب الأمير بشير الشهابي من كلوت بك[*] مفتش صحة الجيش، أن يستأذن محمد علي باشا في شأن إرسال بعثة، لتعلم الطبّ بمصر، فكان أول وفد مؤلف من أربع أشخاص.[2] ولذلك فإن أسبقية مصر في النهضة خلال القرن 19م/ 13 هـ، ساهمت كثيرا في بعث النهضة في الشام، ولا أدلّ على ذلك من أن الكثير من مثقفي الشام في تلك الفترة، كانوا قد نهلوا من الفوائد العلمية بمصر خاصة بعد انفتاحها على الغرب.[3]

3 ـ تبادل الأفكار والمناظرات الأدبية:

لقد كانت العلاقات الثقافية والفكرية، بين علماء مصر والشام وطيدة، فقد رحّب أهل الشام بعلماء مصر الوافدين إليهم وأسكنوهم عندهم، وحضروا دروسهم ومدحهم أدباؤهم، مثل أبو السماع البصير المصري (ت 1050 هـ أو 1066 هـ/ 1640م ـ 1656م) والذي كان من أعيان الشعراء المرتجلين بمصر دخل دمشق عام 1048 هـ/ 1638م، فأنزله أديبها أحمد الشاهيني[**] عنده وأقبلت عليه أعيان الشام وأدباؤها ومدحه الشاهيني بقوله:

إن هــذا أبـا السمـاع لشيـخ   فاق في الإرتجال كل ارجـال

فهو ثاني الأفراد في كل عصر   وهو فرد الرجال في الإرتجال.

و حصلت بينه وبين أدباء الشام مطارحات أدبية كثيرة.[4] ومن بين الأدباء الذين دخلوا الشام أحمد بن محمد الخفاجي المصري الحنفي (ت 1069 هـ/ 1658م)، الذي دخل دمشق وأقام أياما ومدحه شعراؤها بالقصائد، وأكرمه علماؤها مثل العمادي[***] وابن شاهين.[5] وذكر الجبرتي أن محمد الإسقاطي الأزهري كان

(1) علي المحافظة، تاريخ الحركات الفكرية في فلسطين، ص 33. فقد تلقت غزة مثلا 289 نسخة من تلك الكتب و يافا 145 نسخة.

* هو أنطوان برتلمي(1793ـ1868م)، طبيب فرنسي استقدمه محمد علي طبيبا للجيش عام 1825م ،وقد أسس المدرسة الطبية وألف عدة كتب . أنظر : جورجي زيدان ،المرجع السابق، ج4، ص169.

(2) لطيفة سالم، المرجع السابق، ص 210.

(3) محمد كرد علي، المرجع السابق، ج4، ص86.

** أحمد بن شاهين القبرسي الأصل الدمشقي المولد (995 هـ ـ ت 1053 هـ/ 1587م ـ 1643م)، هو أديب وشاعر مشهور، اشتغل بالكيمياء ولكنه لم ينل منها طائلا، وكان له نظم وقصائد كثيرة. المحبي، المصدر السابق ، ج1، ص 210 ـ217.

(4) نفسه، ص 129، 130.

*** عبد الرحمن بن محمد عماد الدين العمادي الحنفي الدمشقي مفتي الشام، تولى التد ريس بالمدرسة الشبلية و السليمية والسليمانية حج عام 1014 هـ، وتولى الإفتاء بالشام عام 1031 هـ، وحج ثانيا عام 1033 هـ. و له مؤلفات منها حاشية على بعض تفسير الكشاف وكتاب الهدية في عبادات الفقه وله أشعار (978 هـ ـ ت 1051 هـ / 1570 م ـ 1641م). نفس المصدر، ج2، ص320 ـ388.

(5) نفسه ، ج1، ص 333.

من علماء مصر، ودخل الشام بعد نزاع مع والده فتلقاه العلماء بها، منهم أحمد بن حسين الكاملي فأنزله عنده وأكرمه وأرشد الطلبة إليه وبقي بها حتى توفي عام 1139 هـ/ 1726م. [1] وبالمقابل رحب أهل مصر وعلماؤها بالشوام المجاورين، أو المستقرين والزائرين لمصر وجرت بينهم مذاكرات أدبية وعلمية، فقد ذكر النابلسي في رحلته إلى مصر في القرن 17م/11 هـ، أنه حضر يوميا في مجلس زين العابدين البكري*، فكان يأتيه في كل يوم العلماء سواء من الأزهر، أو من المجاورين في المدارس والأعيان، ويتذاكرون في المسائل الأدبية والفقهية، ويطلبون منه الإجازة أو التقريظ على كتبهم، وكانوا يمتدحون بعضهم بعضا بالقصائد الرفيعة، ووصف كيف استقبله مجاوري الأزهر لما دخله بحرارة، وترجوه أن يلقي عليهم درسا. [2]

وكذلك كانت بعض المجادلات بين علماء مصر والشام، ما تنتهي إلى الاختلاف ولكن في ذلك فائدة، طالما كانت تلك الإختلافات، تخلف رسائل وتأليف حول الجدل الذي وقع. ومثال ذلك الشيخ محمد بن أحمد المنوفي المصري الشافعي (ت 1044 هـ/ 1634 م)، الذي دخل دمشق وعقد حلقة التدريس في جامعها الأموي، وأقرأ صحيح مسلم، فاجتمع عليه خلق كثير ولكن علماء دمشق أنكروا عليه إدعاءه، أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعرف السحر و يعلمه، فثار عليه الغزي وجادله وألّف في حقه أيوب الخلوتي** رسالة سماها " السلك الموفى على رقبة المنوفي " فترك الدرس ورحل . [3]

كل هذا كان دليلا على استمرار الفعاليات الفكرية، بين العلماء في ذلك العصر، حيث كانوا يتبادلون المراسلات ، والمكاتبات والإجازات فيما بينهم، ويطلبون المساعدة من بعضهم في القضايا العلمية والفقهية، أو طلب أخبار وحوادث تهمهم. [4] مما يدل على الصلات المستمرة، وقد تعدى الأمر إلى التأثر من حيث الأفكار، فلا يوجد عالم بمصر ليس له ذكر في الشام، ونفس الشيء بالنسبة لعلماء الشام ، وساهمت تلك

---

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص140.

* زين العابدين البكري بن محمد (1060 هـ ـ ت 1107هـ / 1650م ـ 1695م) كان من أصحاب الفضل والعلم. نفس المصدر، ص117.

(2) عبد الغني النابلسي، الحقيقة والمجاز، ج1، ص 202، 204، 205، 218 (دار المعرفة) ، وأنظر في الصفحات: ص 229، 292، 281، 290.

** أيوب بن أحمد بن أيوب الحنفي الخلوتي أصله من البقاع، نشأ بصالحية دمشق واشتغل في أنواع العلوم، أخذ طريق الخلوتية عن أحمد العالي ، له تحريرات ورسائل منها ذخيرة الفتح، رسالة اليقين، والرسالة الإسمائية في طريق الخلوتية، (994هـ ـ ت 1071 هـ / 1586م ـ 1660م). المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 428 ـ433.

(3) نفسه، ج3، ص 360.

(4) فقد ذكر الجبرتي أن محمد خليل المرادي الدمشقي(ت1206 هـ/ 1791م)، كان على صلة بالشيخ مرتضى الزبيدي بمصر وأوصاه أن يجمع له من تراجم مصر لكي يكمل تاريخه الذي كان يؤلفه وجدت بينهما مراسلات عديدة. أنظر: الجبرتي، المصدر السابق، ج2(دار الكتب)، ص355.

التبادلات الفكرية بين المنطقتين، مثلا في إدخال طرق صوفيه جديدة ؛مثل أبوبكر بن محمد قعود النسفي المصري الحنفي* (ت1062 هـ/1649م)، الذي دخل بيت المقدس، وأخذ بها الطريقة الرفاعية عن العارف بالله محمد العلمي.[1]وكذلك أحمد المعروف بالأحمدي المصري الشافعي (ت 1192 هـ / 1778م) ، الذي وفد إلى طرابلس الشام، وأدخل بها الطريقة الأحمدية عام 1125 هـ / 1713م.[2] وإسماعيل الحافظ بن أحمد الأحمدي (ت 1288 هـ / 1871 م) ، الذي تلقى عن الشيخ أحمد الصاوي الطريقة الخلوتية، وأذن له بنشرها في الشام فدخل طرابلس واشتغل بذلك.[3]

---

* أبوبكر بن أحمد قعود النسفي المصري الحنفي الرفاعي، كان مشهورا بعلم الأوفاق و الحرف والأسماء وكان أمراء مصر يتبركون به، دخل دمشق مرات عديدة (ت 1062 هـ / 1652م) بمصر. أنظر: المحبي ، المصدر السابق، ج1، ص78، 79.

(1) نفسه، ص79.

(2) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 216، 217.

(3) عبد الله نوفل، المرجع السابق، ص255.

المبحث الثاني: التواصل الفكري مع الدولة العثمانية .

لقد كانت القسطنطينية ؛ دار السلطنة العثمانية حافلة بالعلم والعلماء، و اعتبرت بالنسبة للعلماء مركزا علميا فعالا، بسبب ما اشتملت عليه من مدارس، خاصة تلك التي تعدّ المدرسين والقضاة، فقد كانت قبلة للعلماء الأفذاذ من الأتراك والعرب، وحتى علماء العالم الإسلامي. وذلك لأجل تحصيل العلم أو الحصول على منحة، أو التقرب من السلطان وكبار رجالات الدولة، أو لأجل الحصول على منصب تدريس، و إفتاء أو قضاء أو غيره.[1] وقد وصف أحد علماء ذلك العصر القسطنطينية بقوله: "ولما وردت دار السلطنة العلية ... وجدتها مشحونة بأعيان الفضلاء، وأفاضل الأعيان ممن تحلى بهم لبات المجالس ...".[2]

فكانت حينها ملتقى لعلماء العالم الإسلامي، يتدارسون فيها ويدرسون، ويجيزون بعضهم بالإجازات، ويعقدون مجالس الأدب والشعر، ومنهم من كان نديما في مجالس السلاطين والوزراء، خاصة وأن الدولة العثمانية، لم تحدّ من تنقل العلماء لطلب العلم بها، بل سهلت لهم الطريق بفتحها مدارسها لكل من يرغب في التعلم أو التدريس. ولم يكن توافد العلماء على إسطنبول (القسطنطينية) فقط، بل كانت أبواب المدن الكبرى الأخرى، كلها مفتوحة لهم مثل بورصة و أدرنة ؛ لكونها كانت مراكز للعلم أيضا. فكانت إسطنبول وباقي المدن، مراكزا لتماذج الثقافات المختلفة عربية و فارسية وتركية. و لذلك كان علماء مصر و الشام، يتوافدون إليها عدة مرّات ومنهم من يستقر فيها.

1- التبادل الثقافي اللغوي بين العرب و العثمانيين

أ- عثمانيون تعلموا اللغة العربية وألفوا بها:

لقد اعتبر العثمانيون اللغة العربية، لغة الدين والثقافة الإسلامية الأولى، فأحاطوها بهالة من القداسة، وقد اعتبر أحد شعرائهم وهو نابي(ت 1712م / 1124 هـ)، أن اللغة العربية عامرة بالمعاني والنعوت الشريفة، وأنه لا يصلح أن يتأدب أحد إلا بالعربية ؛ لأنها تحوي كل أنواع العلوم. و لذلك نجد أن من العثمانيين من كان يجيد اللغة العربية.[3] بل وكتبوا مؤلفاتهم بها منذ القرون الأولى، فمنزلتها عند علماء وأدباء الترك كلغة علم وتأليف، لا تقل أهميتها عن التركية، فقد أخرج الأتراك فيها كتبا علمية وأدبية ودينية

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي ، الثقافة التركية في مصر، ص 217.

(2) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 26.

(3) لم يكن من السهل على التركي التضلع في أداب اللغة العربية، في نحوها ومتنها ونطقها، لذلك فإن المتضلعين فيها كانوا هم صفوة قليلة من الأدباء.أنظر: حسين مجيب المصري، في الأدب العربي والتركي دراسة في الأدب الإسلامي المقارن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1962م، ص9.

هامة مثل حاجي خليفة (ت 1067 هـ / 1657م) الذي كان يؤلف بالعربية .[1] كما كتب العديد من الشعراء العثمانيون دواوين شعر بها، ودرسّوا بها في مدارسهم، وترجموا أمهات الكتب العربية إلى لغتهم. ومما ساعد على ذلك الصلات المستمرة بين العرب والعثمانيون، فقد انتقل العلماء العثمانيون إلى البلاد العربية للحج وطلب العلم والمناظرة واحتكوا بهم، و استعمق هذا التأثر باللغة العربية، بعد ضم تلك البلاد منذ القرن 16م /10 هـ .[2] و ازداد هذا التأثير خلال القرن 17م/ 11 هـ و 18م/ 12 هـ، فكما كان سلاطين ووزراء ورجال الإدارة والعلماء في الدولة، يتقنون الفارسية كانوا يعرفون العربية أيضا، مثل السلطان مراد الثالث (1546م ـ1595م / 952 هـ ـ 1003 هـ)، وأحمد الأول (1590 م ـ1617م / 998 هـ ـ 1026 هـ).[3]

ومن بين العثمانيين الذين كانوا يجيدون اللغة العربية، وألفوا بها أو كتبوا أشعارا بها خلال القرن 16م/ 10هـ، نذكر محمد البردعي بن محمد الحنفي أحد موالي الروم(ت 927هـ/1564م)، الذي كان عالما بالتفسير والأصول، له مؤلفات بالعربية منها، تفسير البيضاوي وله شرح آداب البحث للعضد.[4] وخلال القرن 17م/11هـ ، نذكر عبد الرحمن بن حسام الدين المعروف بحسام زاده الرومي مفتي الدولة (1003 هـ ـ ت 1081 هـ / 1595 م ـ ت 1670 م)، الذي كان محيطا بعلوم العربية من تفسير ولغة، وهو من أشهر علماء الروم، دخل مصر والقدس وحلب ومدحه أدباؤها.[5] ومحمد بن لطف الله بن زكريا بن بيرام الشهير (محمد العربي الرومي)، (1039 هـ ـ ت 1092 هـ/ 1626م ـ ت 1679 م)، الذي كان ينهل من الآداب وبرع في النظم والنثر في الألسن الثلاث، ودخل مصر قاضيا ومن رباعياته بالعربية قوله :

ناديت أحبتي لأجل السلـوى	والدهـر رسوم ربعهم قد سوّى
بالنوحة حدت في المعاني حتى	قد ساعدني على بكائي رضوى.[6]

وعبد اللطيف المعروف بأنسي (ت 1075 هـ/ 1664م) من كوتاهية، دخل دمشق عام 1012 هـ / 1603م، وقرأ بها ثم دخل مصر عام 1028 هـ و عاد إلى بلده، وكان له إنشاء عجيب بالتركية و العربية.[7]

---

(1) حسين مجيب المصري، صلات بين العرب والفرس والترك، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2001م، ص 251، 253، 254.

(2) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية ، ص 307، 308.

(3) ليلى الصباغ، من أعلام الفكر، ص11، 12.

(4) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تح. جبرائيل سليمان جبور، محمد أمين دمج وشركاه، بيروت، لبنان، ج1، 1945م، ص18.

(5) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 351 ـ 357.

(6) نفسه، ج4، ص 131، 135.

(7) نفسه، ج3، ص 24 ـ27 . لقد أورد المحبي رسالة له بالعربية اعتبرها من الإبداعات، لما تضمنته من نوادر وأمثال .

وكان عبد الله بن عمر الشهير بخواجة زاده القسطنطيني(ت1040 هـ / 1630م)، أديبا يحفظ كثيرا من أشعار العرب، وأمثالهم ووقائعهم وكان يحاضر بها.[1] ومحمد بن برهان الدين الشهير بشريف الحميدي (ت 1040 هـ /1630م)، الذي كان ينظم الشعر العربي، ومدحه شعراء الشام لما كان قاضيا فيها عام 1018 هـ 1609 م.[2]

و في القرن 18م/ 12 هـ، برز عبد الحليم بن عبد الله بن حسن المعروف بأمير زاده الحنفي القسطنطيني (ت 1172 هـ/ 1661م)، الذي كان بارعا في الخطوط، وأتقن الفارسية والعربية، ومهر في الإنشاء و الشعر.[3] وهناك أيضا أبو بكر بن إبراهيم الموروي الأصل القسطنطيني (ت 1199 هـ / 1785م)، وهو أحد وزراء الدولة، كان عارفا بالتركية والفارسية والعربية، ويكتب النثر والشعر بها، وولي نيابة صيدا و الحرمين.[4] وكان من العثمانيين من ولد وعاش بمصر، مثل سليمان بن عبد الله الرومي(ت 1179 هـ /1765م)، الذي أجاد العربية طبعا، وكان يكتب الخط وكتب رسائل عديدة.[5]

ب ـ عرب تعلموا اللغة التركية و ألفوا به :

بالمقابل اهتم العرب علماء وأدباء في مصر والشام، بتعلم اللغة التركية وحتى الفارسية، وأتقنوها برغبتهم، فكانوا يناظرون بها ويجارون العلماء العثمانيين، ويتسلمون المناصب الدينية والقضائية والتدريس، حتى في مدارس إسطنبول الكبرى والمدن الأخرى.[6] ومنهم من ألّف بها وترجم كتبا عنها وإليها، و دوّن دواوين شعر بالتركية. وتزخر كتب التراجم بعدد كبير من هؤلاء، منهم خلال القرن 17م/ 11 هـ درويش محمد بن حسين بن مسيح الدمشقي الحنفي المعروف بابن القاطر، (ت 1074 هـ/ 1663م) كان يتقن التركية. وكذلك درويش محمد بن رمضان، سبط القاضي تاج الدين الدمشقي الحنفي (ت 1073 هـ/ 1662م)، كان هو الأخر يتقن التركية والفارسية وله إنشاء بالتركية.[7] ومنهم محمد بن يوسف الكريمي الدمشقي (1008 هـ ـ ت 1068 هـ/ 1599 م ـ1657م) كان ينظم باللغات الثلاث.[8]

وفي القرن 18م/ 12هـ كان هناك شعراء عرب، برعوا في اللغة التركية حتى نافسوا أهلها ، مثل الأديب علي بن محمد المعروف، بابن الرختوان الحنفي الدمشقي (ت 1147 هـ / 1734 م)، الذي رحل

(1) المحبي، المصدر السابق، ج3، ص64.
(2) نفسه، ص 405 ـ 407.
(3) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 253- 254.
(4) نفسه، ج1، ص 48.
(5) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 332.
(6) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 332.
(7) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 156.
=

إلى إسطنبول واستوطنها حتى توفي، وكان شاعرا بارعا أدخله الوزير الأعظم للحرم السلطاني، فأخذ الفنون ومهر بالأدب والخط، وتعلم اللغة التركية ونظم بها الشعر ببلاغة، وتلقب على طريقتهم باسم " فائز " وكانت أبناء الروم تتغالى بأشعاره.[1] ومثله ممن تبوؤا مكانة هامة عند العثمانيين، الأديب علي بن حسن الحموي المعروف بابن قنبق الدفتري (1065 هـ ـ ت 1152م/1655م ـ 1739م)، ولد بحماه ورحل مع والده وهو صغير إلى إسطنبول، وبلغ مبلغا هاما في الأدب والكتابة، والإنشاء والشعر ومعرفة القوانين، وكان ينظم الشعر في الألسن الثلاث وتلقب بـ " علوي "، وكان الأروام و رؤساء الدولة يتنافسون على تحريراته التركية، وإنشاءاته الفارسية لما فيها من البلاغة.[2]

ومن بين الذين ألفوا مؤلفاتهم بالتركية، نجد مراد بن علي النقشبندي المرادي (1050 هـ ـ 1132 هـ/ 1640م ـ 1720م)، الذي كان يتقن الفارسية والتركية، وله مؤلفات في كل منها مثل كتابه المعروف بالمفردات القرآنية، في تفسير الآيات المشهور بين علماء الروم.[3] وعبد اللطيف بن حسام الدين الحلبي نزيل دمشق (ت 1121 هـ / 1709م)، الذي كان له رسائل ومؤلفات بالألسن الثلاث.[4]

ومن علماء القرن 18م حسن الحلبي المعروف بشعوري (ت1105 هـ/1693م)، دخل إسطنبول وصار من الكتاب، ثم من خلفاء قلم المالية، ومن مؤلفاته في التركية كتاب جمع فيه اللغات الفارسية وكتاب دستور العلم للمولى رياضي، وله ديوان شعر بالتركية ولم يكتب بالعربية.[5] ومن المصريين الكاتب الماهر محمد أفندي بن إسماعيل الإسكندري (ت 1183 هـ/ 1769 م)، الذي كان يعرف اللغات الثلاث وله رسائل فيها جميعا.[6] وحسن الجبرتي الذي أتقنها وكان يتكلم بها مثل أهلها.

والواضح أن أهل الشام كانوا أكثر اهتماما، من المصريين بتعلم اللغة التركية، وكانوا أكثر اتصالا باسطنبول والمدن التركية الأخرى بسبب القرب الجغرافي، فكان منهم من يجلب المعلمين ليعلم أولاده هذه اللغة، أو يرتحلون إلى من يجيدها حرصا منهم، على تبوء مكانة في الدولة العثمانية.[7] ومن أشهر المؤرخين

= (8) نفسه، ج4، ص 274.

(1) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 230.

(2) نفسه، ص 210، 211.

(3) نفسه، ج4، ص 130.

(4) نفسه، ج3، ص 163.

(5) نفسه، ج2، ص36.

(6) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 382.

(7) طنوس الشدياق، المصدر السابق، ج1، ص 90، 91، 108.

الشوام الذين أرخوا للدولة العثمانية بالتركية، مصطفى المعروف بنعيما الحنفي الحلبي * (ت1128 هـ/ 1716م)، الذي ألف تاريخ ابن شارح المنار وذيّل عليه، وهو مشهور بتاريخ نعيمه، وكانت له أشعار بالتركية.[1] ومن الحلبيين الذين ألفوا بالتركية، أحمد بن محمد الكواكبي(1054ـ1124هـ/1644ـ 1712م)، فقد كانت له مع علماء القسطنطينية مذاكرات نفيسة، وله قصائد ومدائح بالتركية، وألف كتابا للسلطان أحمد خان الثاني (1643 م ـ ت 1695م / 1053 هـ ـ 1105هـ)، جمع فيه النوادر والنصائح.[2]

وقد اهتم العرب في الشام ومصر، بترجمة المؤلفات العربية إلى التركية والعكس، ومن أمثلتهم في القرن 19م أحمد أفندي عاصم (ت 1225 هـ/ 1810م)، الذي ترجم قاموس الفيروز أبادي إلى التركية، وترجم البرهان القاطع وله ترجمات أخرى.[3] ناصيف بن إلياس بن حنا المعلوف(1239 هـ ـ ت 1282 هـ/ 1823م ـ ت 1865م)، هو من لبنان ودخل أزمير عام 1259 هـ / 1843م وتعيين ترجمانا لقنصل إنجلترا، وكان بارعا في التركية واللغات الأوربية وألف عدة كتب بالتركية .[4] و حتى في مصر خلال عهد محمد علي باشا، أمر بترجمة العديد من الكتب التركية، كما أنه أمر بأن تترجم بعض المؤلفات الأوروبية إلى التركية إلى جانب العربية، وكان من بين أقلام غرفة الترجمة في عهده قلم للترجمة التركية.[5]

ج- التمازج بين اللغة التركية و العربية:

نتيجة للاحتكاك بين اللغتين العربية والتركية، حصلت التبادلات اللغوية بينهما، وظهرت جلية في اللغة العامية في مصر والشام، فكما توجد باللغة التركية أعداد كبيرة من الكلمات العربية، تتجاوز بكثير 10 آلاف كلمة.[6] كذلك اللغة العربية دخلتها الألفاظ التركية، فمنها ما كان محرفا، ومنها ما لم يتغير معناه ودخلت معها الكلمات الفارسية المشتملة عليها لغة الترك، وامتزجت كلها باللغة العامية أكثر من الفصحى والأمثلة على ذلك كثيرة، ففي العامية المصرية ألفاظ كثيرة تتضمن اللاحقة(جي)التركية، مثل عربجي وأصلها " آربه جي" بمعنى الحوذي، وبعض الألفاظ تطلق بمدلولها الأصلي ؛ مثل "كتبخانه " بمعنى دار الكتب. وحتى في العربية العامية الشامية، ألفاظ تركية مثل" زنكين " بمعنى الغني.[7]

---

* هو كاتب ومؤرخ حلبي ارتحل إلى إسطنبول وتولى بها مناصب عديدة مثل كاتب الديوان لدى أحد الوزراء عام 1110 هـ / 1698م ووجهت له محاسبة أنا طولي وعام 1121 هـ /1709م صار تشريفتجي الدولة . أنظر : المرادي ، المصدر السابق، ج4، ص 232، 233.

(1) نفسه.

(2) نفسه، ج1، ص 176، 179.

(3) خليل مردم بك، المرجع السابق، ص76.

(4) نفسه، ص 223.

(5) محمد فؤاد شكري وآخرون ، المرجع السابق، ص 108، 109، 116.

(6) أوزوتونا يلماز، المرجع السابق، ص 525. =

وقد بدأ تأثير اللغة التركية في العربية والعكس منذ وقت مبكر، خاصة بعد ازدياد الاحتكاك بالعثمانيين منذ دخولهم جنودا في جيش الخلافة العباسية، ثم انتشرت أكثر في العهد المملوكي.[1] لتظهر التأثيرات بشكل واضح خلال العهد العثماني. وأغلب الكلمات التركية والفارسية التي دخلت العامية العربية، كانت تخص الحديث العادي كأسماء أفراد العائلة، وطغت أكثر في المصطلح الإداري والعسكري.[2]

وفي المقابل أخذ العثمانيون بعض الألفاظ العربية، واستعملوها في غير ما وضعت له وفي غير معناها الحقيقي، مثل "فقط" معناها بالتركية "لكن"، و"التمسك" بمعنى الإيصال و"المثال" بمعنى الأمر، و"المواجب و العلوفات" بمعنى الرواتب، وهي دخيلة على العربية رغم عروبتها، لأن العرب لم يعرفوها بهذه المعاني.[3]

فقد استخدم الكتاب المصريون و الشوام، خلال القرنين 18م و 19م ألفاظا عربية، وضعها العثمانيون في غير محلها الأصلي، في الحياة الإدارية والسياسية، والعسكرية والقضائية مثل: "امضا"، "تشريف لواء"، وقد سمح احتكاك العثمانيين بأوروبا، بدخول مصطلحات جديدة في اللغة التركية، خاصة خلال عهد الإصلاح بين القرنين 18م و 19م، هي من صميم الثقافة الغربية، فانتقلت منها إلى اللغة العربية، فجرت على ألسنة المثقفين والكتاب المصريين والشاميين، مثل الجمهورية والحرية و الوطن و الديمقراطية وغيرها.[4]

وكنتيجة لطغيان الألفاظ التركية والفارسية على اللغة العربية، سعى بعض الكتاب العرب إلى تعريب الكثير من المصطلحات التركية السياسية الدخيلة. و إيجاد ما يعادلها في اللغة العربية.[5] وكان رد فعل البعض الآخر أن سعوا لإحياء اللغة العربية، وكتابة مؤلفات لتعريف القراء بالأصيل في لغتهم والدخيل عليها فمثلا في مصر كتب الأديب أبو بكر الشنواني(ت 1611م / 1019 هـ)* مؤلفا يخص ذلك . والأديب شهاب الدين

= (7) حسين مجيب، صلات بين العرب والترك، ص 246- 248.

(1) لقد كانت اللغة التركية العثمانية هي لغة الخطاب في الجيش والبلاط المملوكي، ويمكن القول أن الكثير من الأتراك صنفوا كتبهم بالتركية في مصر والشام عدا العربية والفارسية، ولكن منذ القرن 14م / 8 هـ بدأت اللغة التركية في الإنتشار من خلال ازدياد عدد الكتب التركية التي وضعت في مصر والشام، حيث كتب العرب كتبهم بها، وعرّفوا بنحوها وصرفها، وكانت تلك الكتب المصنفة بالتركية في التاريخ والأدب والفقه وظهرت إلى جانبها المعاجم التركية العربية خاصة بين القرنين 13م و 14م.

أنظر: أكمل الدين إحسان أوغلي، الثقافة التركية في مصر، ص 207 ـ 210.

(2) نفسه، ص 226.

(3) حسين مجيب المصري، صلات بين العرب والترك، ص 246 ـ 248.

(4) المرجع السابق، ص 219، 220 . أنظر حول انتشار هذه المفاهيم الغربية في مصر والشام: خالد زيادة، المرجع السابق، ص 97 ـ 102.

(5) لقد استخدم المحبي صاحب " خلاصة الأثر" مصطلح الجيش الجديد تعبيرا عن " الإنكشارية ".

* أبو بكر بن إسماعيل بن شهاب الدين الشنواني، هو من شنوان بلدة بالمنوفية بمصر، أخذ عن علماء مصر اللغة والنحو وغيره، له مؤلفات منها حاشية على متن التوضيح وحاشية على شرح القطر للفكاهي و غيره كثير (ت 1019 هـ / 1610 م). المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 79ـ81. أنظر: نجم الدين الغزي، لطف السمر، ج1، ص 261، 262.

الخفاجي (1569ـ 1659م / 976 هـ ـ 1069 هـ)* خلال القرن 17م/ 11 هـ، وهو من أدباء مصر ألف كتابا بعنوان " شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل والنادر الحوشي القليل" .[1] وكتب الأديب والمؤرخ محمد بن أبي السرور البكري الصديقي** ،كتاب " القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب ". والمؤرخ الدمشقي محمد الأمين المحبي (1651م ـ 1699م/ 1061 هـ ـ1110 هـ)*** ،الذي ألف هو الآخر كتابا بعنوان " قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل ".[2]

وقد نجحت هذه الجهود إلى حد ما، في الحلول دون تغلغل اللفظ التركي والفارسي في اللغة العربية الفصحى، غير أنها لم تمنع من انتشارها بين العامة. ومهما يكن فإن هذه التبادلات اللغوية بين التركية والعربية كانت جزءا من التأثير والتأثر، الحاصل بين العرب والأتراك العثمانيين، والذي كان له دور كبير في صبغ الحياة الفكرية في العهد العثماني بمصر الشام بصبغة خاصة.

2 ـ طلاب العلم و العلماء .

أ- طلاب وعلماء مصر والشام في مدن الدولة العثمانية:

لقد رحل الكثير من العلماء الشاميين والمصريين إلى إسطنبول، والمدن العثمانية الكبرى الأخرى، ودرسوا بمدارسها وتخرّجوا، وتولوا التدريس بتلك المدارس، ومنهم من منح وظائف أخرى كالقضاء أو الإفتاء أو التدريس بمدارس الدولة في الولايات. ولذلك فقد ساهم هؤلاء في الحركة التعليمية في هذه الفترة، فكانت الصلات بين علماء مصر والشام والدولة العثمانية لا تنقطع، فكل من حظي بمكانة في بلاده منهم سبقته سمعته إلى إسطنبول، فإذا دخلها التف حوله علماؤها ووزراؤها. ومن بين الشاميين الذين وفدوا إلى إسطنبول و المدن الأخرى، ودرّسوا بها أو تلقوا تعليمهم في مدارسها، الأديب درويش محمد أبو المعالي

* أحمد بن محمد بن عمر قاضي القضاة الملقب بشهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي، درس المنطق والمعاني والفقه الحنفي والشافعي والطب، الحديث، الأدب والرياضيات. له مؤلفات كثيرة منها حواشي تفسير القاضي وشرح درة الغواص، ديوان الأدب، شفاء الغليل، ريحانة الألبا و غيره . المحبي، المصدر السابق، ج1 ، ص 331 – 343.

** محمد بن زين العابدين بن محمد بن أبي السرور البكري، ولد عام 998 هـ / 1590م ـ ت 1087 هـ ـ 1676م) اشتغل بعلوم الحديث والتفسير والتصوف والتاريخ، درس بالأزهر وله مؤلفات عديدة منها، النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، المنح الرحمانية، الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة . أنظر: محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة، تح .عبد الرزاق عبد الرازق عيسى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 1997م، ص 28، 29.

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الثقافة التركية في مصر، ص 218. المحبي، المصدر السابق، ص 332.

*** محمد الأمين المحبي بن فضل الله الحموي الدمشقي الحنفي (1061 هـ ـ ت 1111 هـ / 1651م ـ 1699 م) كان مؤرخا وشاعرا له خط حسن أخذ عن علماء عصره والحرمين وله مؤلفات منها الذيل على ريحانة الشهاب الخفاجي هو" خلاصة الأثر في تراجم أهل القرن الجادي عشر" وغيره. أنظر: المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 86.

(2) أكمل الدين إحسان أوغلي ، الثقافة التركية في مصر، ص 218 ، المرادي، نفسه.

الطالوي الأرتقي الدمشقي الحنفي (ت 1014 هـ/ 1702 م)، الذي دخل إسطنبول عدة مرّات وقد صحب المولى سعد بن حسن جان معلم السلطان، فتعينت له مدارس عديدة إلى أن وصل إلى مدرسة خير الدين باشا بـ 50 عثماني، ثم منح مدرسة السليمانية بدمشق.(1) والمولى أحمد بن المنلا زين الدين العجمي الفجواني الأصل الدمشقي المنطقي، (1003 هـ ـ 1045 هـ / 1594م ـ 1635 م)، الذي ولد ومات بدمشق، ودخل الروم عام 1028 هـ/ 1615م، وكان شاعرا بارعا، قرأ على علماء دمشق، وأقرأ الدروس بها. كما أنه كان يجيد الألسن الثلاث. ولما دخل إسطنبول رغب فيه الكثير من كبرائها، لحسن محاضرته وأدبه، فحظي عندهم بالمكانة ولازم ودرّس بعدة مدارس، بل صار نديما للسلطان مراد *.(2)

ومنهم من وصل إلى مراتب عليا في مدارس إسطنبول، مثل عبد الباقي بن أحمد المعروف بابن السمان الدمشقي من أهل القرن 17م/ 11 هـ، والذي كان مدرس الفتحية موصلة الصحن بإحدى مدارس إسطنبول عام 1087 هـ ـ 1676م.(3) والشيخ عبد القادر بن صالح الحنفي الحلبي الشهير بالبانقوسي (1142 هـ ـ ت 1199 هـ/ 1729م ـ 1785م)، الذي درّس بآيا صوفيا صحيح البخاري، وانتفع بأفاضلها وأخذ عنهم وأخذوا عنه ورجع إلى حلب عام 1181 هـ/ 1767م.(4)

ومنهم أيضا علي بن حبيب الله بن أبي اللطف الشافعي القدسي (ت1144 هـ/ 1731م)، الذي لزم هو الآخر إقراء صحيح البخاري بجامع آيا صوفيا، وكان رفيقه في المجاورة أحمد التمرتاشي الغزي معيدا لدروسه، ومكث بها 25 سنة حتى اشتهر بها بالمحدث، وحدد له السلطان أحمد 40 عثمانيا.(5) و هناك من منح التدريس في أكثر من مدرسة لمكانته العلمية.(6) وتلقى العديد من علماء الروم تعليمهم على يد علماء الشام، مثل شيخ الإسلام الولي محمد أمين حياتي زاده، ورئيس الكتاب المولى مصطفى الشهير بالطاوقجي الذين أخذا، عن أحمد بن ناصر الدين الحنفي البقاعي الدمشقي(ت 1171 هـ/ 1758م)، حين دخل

(1) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 150.

* السلطان مراد الرابع بن أحمد (1606 م ـ ت 1640م/ 1014 هـ/ 1049 هـ)، تولى العرش عام 1032 هـ/ 1623م وعمر 14 سنة، خاض حربا ضد الشاه عباس الصفوي، وفتح بغداد، وكان يقود الجيوش، عاش 29 سنة وكان يحبّ البذخ والخيل. أنظر: عزتلو يوسف آصاف، المرجع السابق، ص 80ـ85. المحبي، نفس المصدر ، ج4، ص 336 ـ 341.

(2) المحبي، نفسه، ج1، ص 198.

(3) نفسه، ج2، ص 284.

(4) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 49، 50.

(5) نفسه، ص209.

(6) مثل أبو الإسعاد بن أيوب الخلوتي الدمشقي (ت 1106 هـ/ 1694 م)، الذي درس بعدد من مدارس إسطنبول فأعطى عام 1098 هـ/ 1687م مدرسة رابعة سراي الغلطة وعام 1104 هـ/ 1692م مدرسة خاص أوده باشي وعام 1106 هـ/ 1694م منح مدرسة أولاي خسر وتخرج عليه عدد من الوعاظ، وكان بارعا في الطب . نفسه، ج1، ص 338، 339.

إسطنبول واعتقده آغا دار السعادة بشير آغا و تولى التدريس بها.[1] وعبد الغني النابلسي عالم الشام الشهير في القرن 17م/ 11هـ الذي كان له تأثير في العلماء العثمانيين، وأخذوا عنه الفقه والتصوف مثل سليمان سعد الدين مستقيم زاده 1113 هـ ـ ت 1701م ـ ت 1202 هـ ـ 1788م، وهو من أغزر العثمانيين إنتاجا.[2]

ونظرا لبروز فضل هؤلاء العلماء المدرسين، كان يلتف حولهم الطلبة، وتتسع حلقة دروسهم، مثل مصطفى بن محمد المعروف بالسفرجلاني الحنفي الدمشقي (ت1179هـ/ 1765م) * الذي درّس بمدارس إسطنبول وكان يلازمه الطلاب واشتهر فضله بينهم، حتى كان يحضر درسه ما يزيد عن مائتين من الرجال، وعظم قدره بين صدور الدولة وعلمائها.[3]

والملاحظ من خلال كتب التراجم، أن العلاقات بين الشام وإسطنبول، كانت أكثر اتساعا منها مع مصر، بالنظر إلى عدد الشوام الذين اتصلوا بعلماء الروم ودخلوها، ودرّسوا بها وتعلّموا على شيوخها وتقلدوا الوظائف، مقارنة مع المصريين الذين كان عددهم قليلا بالنسبة للشوام، ويرجع ذلك إلى القرب الجغرافي بين الشام وإسطنبول، ووجود الأزهر في مصر الذي كان مركزا علميا لا يقل أهمية عن مدارس إسطنبول.[4]

ومن هؤلاء المصريين قاضي القضاة، شهاب الدين الخفاجي صاحب "ريحانة الألبا "، الذي دخلها وقرأ على علمائها العلوم الرياضية.[5] وعمر بن علي بن يحي بن مصطفى الطحلاوي المالكي، الذي قرأ في الأزهر وتمهّر في العلوم، ثم دخل إسطنبول رسولا وسيطا، فالتف حوله أكابر الطلبة والعلماء، وأخذوا عنه فجلس بآيا صوفيا يلقي دروس الحديث، حتى عاد إلى مصر عام 1147هـ/ 1734م، وتوفي عام1181 هـ/ 1767م.[6] وقد كان أغلب الوافدين إلى مدارس إسطنبول والمدن الأخرى، يلازمون على عادة علماء الروم مع أحد الموالي ** وفق نظام الملازمة السائد عندهم، ويتدرجون في المدارس فإذا انفصل أحدهم عن مدرسة

---

(1) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 206.

(2) باريرا كلنر هنكل، " عبد الغني النابلسي وتلامذته الأتراك "، أعمال المؤتمر العالمي الثالث للدراسات العثمانية حول الحياة الفكرية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، تق. عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية و الموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، تونس، (د.ط)، ج3، 1990م، ص 701.

* مصطفى بن محمد بن عمر بن إبراهيم المعروف بالسفرجلاني الحنفي الدمشقي كان بارعا في العلوم العقلية ويجيد اللغة التركية والعربية ودخل إسطنبول ولازم على قاعدتهم ودرس في عدة مدارس مثل مدرسة المولى فيض الله الشهيد وأقرأ في جامع السلطان محمد و لزمه الطلبة، وكانت له رسائل في المنطق والحكمة والفلسفة والكلام . أنظر: المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 209-217.

(3) نفسه.

(4) محمد أنيس، المرجع السابق، ص48.

(5) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص332.

(6) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص338. أكمل الدين إحسان أوغلي، الثقافة التركية في مصر، ص 182- 184. =

40 عثماني* ، منح منصب التدريس في إحدى مدارس الدولة العثمانية وولاياتها. فكان منهم من يعود إلى بلده فيتسلم منصبه، ومنهم من يتقلى العلم ويقفل راجعا دون أن يحصل إلا على الإجازة ليشتغل في بلده . ومن أمثلتهم إبراهيم بن رمضان الدمشقي الحنفي المعروف بالسقاء الواعظ (ت 1079 هـ / 1668م)، الذي لازم في إسطنبول المولى يوسف بن أبي الفتح إمام السلطان حتى ملك القراءات والوعظ، وبقي هناك مدة أربعين سنة، ثم عاد إلى دمشق وتولى التدريس بالمدرسة الجوزية والجامع الأموي .(1)

ومن المصريين مثلا عبد البر بن عبد القادر الفيومي العوفي الحنفي ،(ت 1071 هـ / 1660م)، الذي لازم باسطنبول أبي السعود الشعراني،وقرأ عليه الحديث والتفسير،و تولى التدريس بعد ذلك في عدّة مدارس.(2) وهناك أمثلة عديدة عن الطلبة الذين تدرجوا في مدارس الدولة العثمانية ذكرتها كتب التراجم. ولم تكن في الحقيقة الرغبة في التعلم أو التدريس، هي السبب الوحيد الذي دفع الشوام والمصريين للذهاب إلى إسطنبول،بل إنّ الرغبة في الحصول على وظائف أخرى،كانت تجعل الكثير منهم يفدون لعدة مرات للحصول على وظيفة،والعودة في كل مرة عزلوا منها،مثل عبد المنعم بن خضر المعروف بالأشرف الحمصي(ت 1160 هـ / 1747م)،الذي منحه شيخ الإسلام حين دخل إسطنبول، تدريس الأشرفية في حلب وإفتاء طرابلس.(3)

وخير مثال على ذلك أحمد بن إبراهيم، المعروف بابن تاج الدين الحنفي الدمشقي التاجي (1007 هـ ـ ت 1060 هـ / 1598م ـ 1650م)، الذي دخل إسطنبول ومنح رتبة القضاء بالركب الشامي عام 1039 هـ/1629م ثم قاضيا في مصر، وتوجه مرة ثالثة إلى إسطنبول، بعد عزله عام 1047 هـ/ 1637م، فمنح التدريس بالمدرسة الأحمدية بدمشق (دار الحديث).(4) ومن المصريين عبد الرحيم بن عبد المحسن الشعراني (ت 1048 هـ / 1638م)،كان من أشهر علماء مصر في عصره، رحل إلى إسطنبول واستوطنها،وحصل منها على قضاء الحرمين،ثم تولى مدرسة السلطان أحمد.(5)

=** الموالي هي جمع مولى وتذكر أيضا مثلا ومعناها السيد أطلق كلقب من ألقاب التفخيم والتشريف على قضاة العسكر. مصطفى الخطيب ،معجم المصطلحات التاريخية، "م" ص 407.

* مدرسة 40 عثماني هي المدرسة التي يتقاضى مدرسها 40 عثمانيا كأجر وهي من المدارس التي تم تنظيمها في عهد السلطان محمد الفاتح وسليمان القانوني.

(1) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 20، 21.

(2) نفسه، ج2، ص 292.

(3) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 139، 140.

(4) المصدر السابق، ج1، ص 158.

(5) نفسه، ج2، ص 410.

أما الوظائف الأخرى التي تولاها علماء مصر والشام، في مدن الدولة العثمانية ، فهي الإمامة مثل زين الدين بن محمد الشهير بالبصروري الشافعي، (1039 هـ-ت 1102 هـ/ 1629م ـ 1690م)، الذي ولد بدمشق وبرع في التاريخ، ولما دخل إسطنبول تولى الإمامة، عند ابن الكوبرلي الوزير مصطفى باشا.[1] ومنهم من اشتغل بنسخ الكتب، وكتابة الخطوط المتنوعة؛ مثل حسين بن رمضان المعروف بجبلي الحنفي الرومي (ت 1157 هـ/ 1744م)، الذي أخذ الخطوط في إسطنبول عن درويش علي بن الإنباري، فملك حسن الخط وشاع أمره ، وصار معلم الخط للغلمان بدار السعادة عام 1145 هـ/ 1732م.[2]

وسليمان بن أحمد المحاسني الحنفي الدمشقي، (1139 هـ ـ ت 1187 هـ/ 1726م ـ1773م)، الذي وصل إلى رتبة موصلة الصحن، وكان ينسخ الكتب في إسطنبول .[3] ومصطفى المعروف بابن عبد الهادي الدمشقي الحنفي، (1104 هـ ـ ت 1194 هـ/ 1692مـ ـ 1780م)، الذي استقر لمدة سبع سنوات باسطنبول وكان ينسخ الكتب ويقابلها.[4] و هناك من تولى القضاء والإفتاء وغيرها من الوظائف، التي لم تجعلها الدولة العثمانية حكرا على الأتراك أبدا.

ب ــ طلاب وعلماء عثمانيون في مصر والشام:

لقد وفد عدد لا يستهان به، من الطلاب والعلماء العثمانيين إلى مصر والشام، وانشغلوا بطلب العلم في الأزهر وفي مدارس الشام، وألقوا دروسهم فيها، وأفادوا بمؤلفاتهم ومناظراتهم. فقد كان الشيخ قاسم المعروف بالنجار الحلبي(1077 هـ ـ ت 1163 هـ/ 1666م ـ 1750م)، يحضر لديه عدد كبير من الطلبة الأتراك، ويأخذون عنه علم العقائد والنحو والحديث.[5]

ومن بين العثمانيين الذين درسوا في بلاد الشام، أحمد بن إسكندر الرومي المتوفي أوائل الألف (القرن 17م)، الذي نزل بدمشق وكان بارعا في الألسن الثلاث، ومتقنا للعروض والخط، ودرس بالمدرس الجوهرية*، وتلقى العلوم والمعارف على علماء الشام، مثل محمد بن عبد الملك البغدادي الحنفي في علم الكلام والهيئة، ودرس على الحسن البوريني** وغيره.[6]

(1) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 120.

(2) نفسه، ص 52.

(3) نفسه، ص 164.

(4) نفسه، ص 183، 184.

(5) نفسه، ج4، ص 13.

* المدرسة الجوهرية هي من مدارس الحنفية بدمشق ، تقع شرقي تربة أم الصالح داخل دمشق بحارة بلاطة، أنشأها الصدر نجم الدين بن عباس التميمي الجوهري عام 676 هـ/ 1277م. أنظر: محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص 91. =

ومنهم أيضا اسحق بن اسحق الشهير بابن المنلا جق القسطنطيني الحنفي، (1122 هـ ـ ت 1195 هـ/ 1710م ـ 1781م)، الذي دخل دمشق وهو في طريقه للحج، فأخذ بها عن الإمام أبي النجاح المنيني، وبهاء الدين الحسيني المرادي، ولما أعطي قضاء مصر اجتمع بعلمائها ومدحهم وأخذ عنهم.[1]

ومن العثمانيين الذين تولوا التدريس في بلاد الشام، فضل الله بن عيسى البوسنوي الحنفي (960 هـ ـ ت 1039هـ/ 1553م ـ 1629م)، الذي كان له معرفة بالفقه والحديث، وفنون الأدب ودخل دمشق عام 1020 هـ/ 1607م، فدرّس بالمدرسة الأمينية* ثم التقوية** عام 1021 هـ /1612م، ووجهت إليه الحجرة في مشهد المحيا بالمسجد الأموي، فكان يقيم فيها الدروس الخاصة، وقرأ عليه أغلب الأعيان في العقليات و النقليات، خاصة وأنه كان يجيد التقرير والتفهيم.[2]

ومنهم أيضا حسن بن عثمان الرومي الحنفي المعروف بأوزون حسن (ت 1037 هـ/ 1627م)، الذي دخل دمشق واقتنى دارا قرب الحديث الأشرفية***، ودرّس بالمدرسة القصاعية الحنفية[3] و الدرويشية وتولى نظارة الجامع الأموي.[4] و في القرن 19م/ 13 هـ دخل حسن أفندي بن أحمد أفندي (ت 1242 هـ/1826م) دمشق عام 1241 هـ/1825م، واختلط بعلمائها فأخذ عنهم وأخذوا عنه، وكان بارعا في العلوم العقلية و النقلية.[5]

= ** الحسن بن محمد بن حسن، الصفوري الأصل الدمشقي، الملقب بدر الدين البوريني الشافعي، كان يحفظ الشعر و الأخبار والأنساب والأحاديث ، وبرع في اللغة والنحو والسير و المغازي. وله مؤلفات منها تحريرات على تفسير البيضاوي، شرح ديوان ابن الفارض وله تاريخ في التراجم، و رحلة حلبية وطرابلسية.درس بعدة مدارس في الشام وبالجامع الأموي، وكان بارعا في اللغة الفارسية والتركية (963 هـ ـ ت 1024 هـ / 1556م ـ 1615م) . أنظر: المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 51 ـ 59 . نجم الدين الغزي، لطف السمر، ج1، ص355 ـ 390 .

(6) المحبي، نفسه، ج1، ص 177، 178.

(1) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 221، 222.

* تقع قبلي باب الزيادة، هي أول مدرسة بنيت للشافعية بدمشق، بناها أتابك العساكر الملقب بأمين الدولة، أمين الدين كستكين بن عبد الله السفتكي (ت 541 هـ/1146م) وبنيت عام 514 هـ / 1120م. أنظر: محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص 77، النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص 132.

** داخل باب الفراديس هي من أجل مدارس دمشق، بانيها عام 574 هـ/ 1178م الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وهي للشافعية. أنظر: النعيمي، نفسه، ص 162، 163.

(2) المحبي المصدر السابق، ج3، ص 276.

*** جوار باب القلعة الشرقي غربي العصرونية وشمالي القايمازية الحنفية، بناها الملك الأشرف موسى بن العادل واكتمل بناؤها عام 630 هـ أنظر: النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص15، كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص 75.

(3) بحارة القصاعين من إنشاء خطلشاه خاتون بن ككجا سنة 593 هـ/ 1197م. أنظر: محمد كرد علي ، نفسه، ص 95.

(4) المحبي المصدر السابق، ج2، ص 27.

(5) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 91.

أما في مصر فمنهم سيد علي إسكندر الحنفي السيواسي (ت 1148 هـ / 1735م)، الذي استوطن مصر، ودرس على علمائها، ودخل إسطنبول وأقرأ دروسا بها ثم عاد .[1] و رضوان بن عبد الله الرزاز الفلكي(ت 1122 هـ / 1710م)، وهو من أكبر الفلكيين الذين ظهروا في مصر أواخر القرن 17م / 11 هـ وأوائل القرن 18م/ 12 هـ، وقد صنّف عدة مؤلفات في الفلك والحساب والهندسة ، ومن تلاميذه يوسف أفندي (ت 1153 هـ/ 1740م). [2]

ومن بينهم كذلك عبد السلام أفندي الأرزنجاني(1192هـ /1778م)، الذي كان عالما بالأصول وأتقن المعقول والمنقول، ودخل مصر وتقرر مدرسا بالمدرسة المحمودية بالحبانية، فأقرأ فيها "الدرر" لمنلاخسرو وتفسير البيضاوي.[3] وخالد أفندي الديار بكري (ت 1193 هـ/ 1779م)، كان واعظا بمكة ودخل مصر، وحضر دروس مرتضى الزبيدي بجامع شيخون* في الصحيح عام 1190 هـ/ 1776ـ 1777م.[4] وكذلك مصطفى بن صادق أفندي اللازجي الحنفي(ت1174 هـ/ 1760م/ 1761م، الذي قرأ برواق الجبرت** بالأزهر ثم تصدر لإقراء الطلبة الأتراك المجاورين برواق الأروام*** واجتمع لسماع وعظه بالجامع المؤيدي[5] العرب والعثمانيين فكان يقرر لهم بالعربية والتركية.[6]

هذا فضلا عن أن مؤلفات العلماء العثمانيين، كانت تدرّس في القاهرة سواء كانت علوما عقلية ؛ كالفلك أو نقلية كالتفسير والفقه مثل"شرح أرجوزة أبي الرجال القيرواني"، وهو لأحمد بن حسن بن قنفد القسطنطيني و"شرح تفسير القرآن الكريم " لإسماعيل حقي بن مصطفى الإسطنبولي البروسوي.[7] وبغـضّ

---

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 232، 233.

(2) نفسه، ص 130، 131.

(3) أكمل الدين إحسان أوغلي، الثقافة التركية في مصر، ص 180.

* جامع شيخون هو اسم جامعين بشارع الصليبة متقابلين على سمت حسن، كلاهما من إنشاء الأمير شيخو أحدهما جامع شيخو والثاني خانقاه شيخو فجعل الأول للصلاة والثاني للصوفية أنشأ الأول الأمير سيف الدين شيخو الناصري 756 هـ / 1355م ،أما الخانقاه فأنشأها الأمير شيخو العمري 756 هـ ، ورتب بها دروسا في الحديث و المذاهب الأربعة. أنظر: علي مبارك، المرجع السابق، ج5، ص 34.

(4) الجبرتي، المصدر السابق ، ص 545.

** رواق الجبرت هو أحد روقة الجامع الأزهر، يقع داخل رواق البرانية وهو أوسع منه، و قد هدم وجدد و الجبرت اسم مدينة في الحبشة. أنظر: سعاد ماهر محمد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، دار الكتب، القاهرة، مصر،(د،ط)، ج1، 1971 م، ص 216.

*** رواق االأروام أو الأتراك أنشأه السلطان قايتباي، وجدده الأمير كتخذا وزاد فيه، كان له 12 مسكنا بالطابق العلوي، وله خزانة كتب كبيرة وأوقاف كثيرة لكل المجاورين من مدن الدولة العثمانية. أنظر: نفس المرجع.

(5) بجوار باب زويلة أنشأه السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الظاهري،بدأ إنشاؤه عام 819 هـ/ 1416م ،وجعل فيه مدرسة وخزانة كتب وأقيمت به الجمعة عام 820 هـ/ 1417م ولم يكتمل بعد .أنظر: علي مبارك، المرجع السابق، ج5، ص 124.

(6) أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق، ص 180.

(7) نفسه، ص 179.

النّظر عن الطلبة والعلماء، دخل إلى مصر من العثمانيين ولاة وقضاة ومفتين وأجناد، لم يكن تأثيرهم أقل من تأثير أولئك العلماء والطلاب.

3 ـ المذاكرات و المجالس الأدبية وتبادل الأفكار.

أ ـ الشعراء العرب في مجالس السلاطين العثمانيين:

لقد كان العثمانيون، سلاطين ووزراء وعلماء يكنّون الاحترام والتقدير، لعلماء الشام ومصر خاصة الواردين إلى إسطنبول، حتى كان بعض شعرائهم ندماء في مجالس السلاطين العثمانيين؛ مثل المولى أحمد بن المنلا زين الدين العجمي الفجواني الأصل، الدمشقي المولد والوفاة (1003 هـ ـ ت 1045 هـ/ 1594م ـ 1635م)، كان أديبا وشاعرا ينظم وينثر بالألسن الثلاث، ودخل إسطنبول عام 1028 هـ / 1619م، وأقام بها واتخذه السلطان مراد نديما في مجلسه، فكان يجتمع هو والشاعر نفعي، وهو أحد ندماء المجلس السلطاني. فيجري بينهما مخاطبات ومطارحات شعرية.[1] وحتى في مجالس الوزراء، فهذا عبد الله بن محمد حجازي الحلبي الحنفي (ت 1096 هـ/ 1685م)، لما سمع الوزير الفاضل بوجوده في إسطنبول، استدعاه إلى مجلسه وكان شاعرا أديبا فأصبح نديم مجلسه، ومدحه بقصائد فائقة.[2]

ب- المذاكرات في مجالس العلماء وتبادل الأفكار:

لقد كان علماء الشام ومصر في لقاءاتهم مع العلماء العثمانيين، سواء بإسطنبول أو مدن الدولة العثمانية الأخرى، أو في مصر والشام عند ورودهم إليها، يجتمعون في مجالس علم وذكر مشحونة بالعلوم، يتبادلون الأفكار والعلوم والإجازات. وتقع بينهم المطارحات الشعرية ،والمناظرات الأدبية والفقهية، خاصة في مجالس إسطنبول، لما كانت تجمعه من علماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. حتى كان علماء القطر الواحد يلتقون في تلك المجالس، مما ساعد فعلا على تبادل الأفكار. فقد ذكر المحبي (المؤرخ)، أنه التقى بأرباب العلم العرب المعروفين في المدن التي زارها، كبورصة و أردنة واسطنبول. واقتنى كتبهم وأخذ عنهم، مثل عبد القادر البغدادي*(ت 1682م/ 1092م)، الذي أخذ كتابه "شرح شواهد شرح الكافية" للرضى الإستراباذي، والتقى بالعالم المغربي الجزائري يحي الشاوي **(ت 1096 هـ/ 1684م/ 1685م)، وأخذ عنه

---

(1) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 198، 199.

(2) نفسه، ج3، ص 71.

* عبد القادر بن عمر البغدادي نزيل القاهرة، هو أديب بارع مطلع على كلام العرب في النظم والنثر، وكان يحفظ مقامات الحريري، ويتقن اللغة الفارسية و التركية .أصله من بغداد ودخل دمشق ثم رحل إلى مصر له مؤلفات فائقة منها: شواهد شرح الكافية في 8 مجلدات جمع فيه علوم الأدب واللغة وله شرح شواهد الشافية للرضى وغيره. نفس المصدر، ج2، ص 451، 452. =

التفسير و المنطق والكلام وأجازه.[1] وذكر أنه حضر وهو باسطنبول مجلسا لعبد الباقي بن أحمد المعروف بابن السمان الدمشقي (1055 هـ ـ ت 1088 هـ/ 1645م ـ 1677م)، واجتمع في مجلسه بأحد علماء الروم، وتباحث معه في مسائل عديدة.[2] وقضى 5 سنوات في إسطنبول، حضر فيها مجالس عديدة، واتصل بعدد من الأروام مثل صالح الرومي(ت1092 هـ/ 1681م)* ،ورأى في تدريسه طريقة مغايرة لما اعتاد عليه علماء الشام.[3]

ومن بين علماء الشام أيضا، أحمد بن محمد الكواكبي الحلبي الحنفي،(1054 هـ - ت 1124 هـ/ 1644م ـ 1712م)، الذي جرت بينه وبين علماء إسطنبول مباحثات ومذاكرات، في أنواع العلوم وله في أهلها قصائد ومدائح بديعة.[4]وذكر المرادي** أنه التقى في إسطنبول بإسحاق بن محمد الشهير بابن المنلا جق القسطنطيني الحنفي،(1122 هـ ـ ت 1195 هـ / 1710م ـ 1781م) عام 1192 هـ / 1778م)،وسمع من فوائده وأشعاره، وكان يراسله بالكتب لما عاد إلى مصر وكان محبا لأبناء العرب، ويتكلم العربية بفصاحة.[5]

وحصلت إحدى المطارحات الشعرية، بين والد المحبي وأحد أدباء الروم، هو عبد الله بن سيف الله المعروف بابن سعدي القسطنطيني (ت 1079 هـ / 1668م)*** ،الذي كان ينظم الشعر بالألسن الثلاث، وعارفا بنقد الشعر وأساليبه.[6]ولما استدعى السلطان العثماني، الشيخ حسن بن محمد البيطار (1206 هـ - ت 1272 هـ/ 1793م- 1855م)، إلى إسطنبول لحضور حفل الختان السلطاني حصلت بينه وبين شيخ الإسلام

=** يحي بن الفقيه الصالح محمد النايلي الشاوي الملياني الجزائري المالكي كان برعا في البيان، النحو، المعاني نشأ ودرس بالجزائر بمليانة وأجازه علماؤها في الفقه والحديث وتصدر للتدريس، ثم دخل مصر عام 1074 هـ/1663م، وأجازه علماؤها وتصدر للتدريس بالأزهر ودخل الروم ومر بدمشق وعقد دروسا بالجامع الأموي. و له مؤلفات عديدة منها كتاب في أصول النحو، شرح التسهيل لابن مالك وغيره. أنظر: المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 486 ـ 488.

(1) ليلى الصباغ، من أعلام الفكر، ص 96، 97، 102.

(2) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 273.

* صالح الرومي المعروف بدرس عام القسطنطيني، كانت له مهارة في العلوم العقلية، ولد بقسطنطينية واشتغل على العلوم، وجلس للتدريس فدرس بعدة مدارس ودرس بإحدى الثمان (ت 1092 هـ / 1681م) . أنظر: نفس المصدر ، ص 242.

(3) ليلى الصباغ، من أعلام الفكر، ص 99 ـ 101.

(4) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 176.

**محمد خليل بن السيد العارف علي بن السيد محمد بن القطب السيد محمد مراد بن علي الحسيني الحنفي الدمشقي (ت 1206 هـ / 1791م) المعروف بالمرادي طالع في العلوم والأدبيات واللغة التركية والإنشاء والتوقيع، تولى منصب مفتي الحنفية بالشام، كان مولعا بنقل الأخبار و له كتاب في التاريخ هو سلك الدرر. أنظر: الجبرتي، المصدر السابق، ج2(دار. الكتب)، ص 354 ـ358.

(5) المصدر السابق، ج1، ص 221، 222.

*** عبد الله بن سيف الله السيد الشريف المعروف بابن سعدي القسطنطيني أحد الموالي، هو أديب وشاعر كان ينظم بالألسن الثلاث، دخل دمشق عام 1078 هـ / 1667م. (1030 هـ ـ ت 1079 هـ/ 1620م ـ 1668م) . أنظر: المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 44 ـ49.

(6) نفسه ، ص 44، 45.

عارف حكمت بك، محاورات وأبحاث علمية وأدبية، واستجاز كل منهما الآخر، وسمعا من بعضهما.[1]

وكان العلماء العثمانيين، الذين يفدون إلى الشام ومصر كذلك، تحصل بينهم وبين علمائها مطارحات أدبية، مثل عبد الكريم بن سنان الرومي (ت حوالي 1040 هـ / 1630م) *، الذي كان قاض بحلب عام 1028 هـ/ 1619م، فكان له مع أدبائها مخاطبات ومطارحات عديدة.[2] وعبد العزيز بن حسام الدين المعروف بقره جبلي زاده الرومي، المفتي بالدولة العثمانية (ت1070 هـ/ 1659م) دخل دمشق والقدس، وكان في مدة إقامته بدمشق مختلطا بأدبائها، وله فيهم مدائح ولهم فيه .[3]

وقد تبادل علماء مصر والشام مع علماء الدولة العثمانية، المراسلات طلبا للمساعدة في المسائل العويصة، حيث أرسل علماء إسطنبول للشيخ محمد البقري عام 1140 هـ/ 1727م عدة رسائل، فيها أسئلة حول مشكلات في القراءات يواجهونها، فأجاب عنها وألف كتاب بها سماه " مشكلات في القراءات ".[4] وفتحت الأبواب لانتقال الأفكار بينهم، حيث تأثرت الحياة الاجتماعية والفكرية بمصر والشام، بطابع العرف العثماني، خاصة في المسائل الدينية و الفقهية.[5]

و تأثروا ببعضهم البعض في العادات، والنظم الإدارية كالقضاء والتعليم.[6] وطرائق البحث والتفكير، واطلع كل طرف على الإنتاج الفكري للآخر واستمد منه.[7] كما انتقل وعاظ كل طرف لنشر الأفكار الجديدة، في الساحة الفكرية للطرف الآخر، فالواعظ الدمشقي محمد بن أحمد الأسطواني الحنفي، (1016 هـ ـ ت 1072 هـ / 1607 م ـ 1661م) ** كان يعظ وهو في إسطنبول، وقد اجتمع حوله العديد من الناس، و لزمه جماعة قاضي زاده الرومي، حتى أنه كاد يحدث فتنة لشدة تأثيره في الناس.[8] كما دخل إلى مصر واعظ

(1) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص81، 82.

* عبد الكريم بن سنان الرومي هو أحد موالي الروم كان على إطلاع بفنون الأدب واللغة العربية، دخل القاهرة وقرأ بها وعاد إلى الروم وسلك طريق الموالي وعين قاض على حلب ثم قضاء القاهرة 1030 هـ/1620م . أنظر: المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 2ـ7.

(2) نفسه، ص2.

(3) نفسه، ج2، ص 466.

(4) أكمل الدين إحسان أوغلي، الثقافة التركية في مصر، ص 184.

(5) نفسه، ص 171، 172.

(6) كان الدرس العام غير معروف لدى الأتراك وقد تعرفوا عليه واقتبسوه من العرب وكذلك ظاهرة التاريخ الشعري بحساب الجمل، حيث انتقلت هذه الظاهرة من الأدب التركي إلى المصري والشامي. أنظر: نفس المرجع ، ص 174، 175.

(7) لقد ذكرت كتب التاريخ أن السلطان سليم الأول عندما فتح مصر أخذ معه إلى إسطنبول العديد من أهل الحرف والفنون والصناعات والمهندسين والعلماء للاستعانة بخبراتهم وعادوا بعدد ذلك.

** محمد بن أحمد بن محمد بن حسين بن سليمان المعروف بالأسطواني الدمشقي الحنفي، الفقيه الواعظ درس الفقه والعربية و المعقولات عن علماء عصره وأخذ الحديث، ودرس بالجامع الأموي، ودخل مصر وأخذ عن علمائها وسافر إلى الروم ولازم هناك وصار واعظا بجامع السلطان أبي الفتح. أنظر: المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 386ـ 388. نجم الدين الغزي، لطف السمر، ج1، ص 65 ـ 66. =

رومي هو عبد الوهاب بن الحسن البوسنوي السراي، المعروف يبوشناق (ت 1205 هـ / 1790 م)، الذي قدم إلى مصر عام 1169 هـ / 1755 ـ 1756م، ووعظ بمساجدها وقد عقد له مجلس بالمشهد الحسيني، وخالطه الناس وحتى الأمراء.[1] وكذلك حضر واعظ آخر إلى مصر عام 1123 هـ/ 1711م، وأنكر كرامات الصوفية، حتى التف حوله جماعة عظيمة من الناس.[2] وكنتيجة للعلاقات الفكرية هذه، دخلت إلى مصر والشام عدّة طرق صوفية ذات الأصل التركي، مثل المولوية * والبكتاشية وغيرها. وقام بعض الشوام ببناء التكايا الصوفية في إسطنبول، مثل التكية الخلوتية التي أقامها أحمد بن عبد القادر العمري الدمشقي لما دخل إسطنبول.[3] ودعّم السلاطين العثمانيين أهل العلم في مصر والشام، من خلال إرسال الكتب والإعانات المالية، التي كانت تصل إلى الطلبة والعلماء المجاورين، في الأزهر والمدارس بالشام.[4]

ويتضح من هذا أن التبادل الفكري والثقافي، بين مصر والشام والدولة العثمانية ظل قائما، فرغم أن العثمانيين لم يسعوا إلى تتريك المنطقة، وتركوا قدرا من الإستقلال الذاتي فيها، خاصة في المجال الثقافي، بسبب احترامهم للغة العربية والثقافة العربية الإسلامية، وبسبب أصالة التراث العربي الذي فرض نفسه عليهم، إلا أن ذلك لم يمنع من حصول التأثيرات الثقافية بين الأطراف الثلاثة، فرغم استمرار التقاليد الحضارية للعصر السابق (المملوكي) إلا أنه دخلت عناصر جديدة في العهد العثماني، ساهمت إلى حد ما في تلقيح الفكر العربي بثقافة لها ميزاتها الخاصة.[5]

= (8) المحبي، المصدر السابق، ص 387.

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج2(دار الكتب)، ص 322، 323.

(2) نفسه، ج1، ص 84، 85.

* دخلت إلى مصر على يد الشيخ بالي جلبي أوغلي حيث نشرها في مصر واللاذقية بالشام وبغداد وأقام لها تكايا هناك، أكمل الدين إحسان أوغلي، الثقافة التركية، ص 195.

(3) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 91.

(4) الجبرتي، المصدر السابق، ج2، ص 245.

(5) أنظر: ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 228، 229. وحسين مجيب المصري، صلات بين العرب والترك، ص 235 . وقارن: ألبرت حوراني، المرجع السابق، ص 43، 44.

المبحث الثالث: دور الحج في التواصل الفكري مع الحجاز

لقد كان لقافلة الحج أهمية في العهد العثماني بالنسبة لمصر والشام، وذلك لأنها كانت تنطلق منهما، فكانت المنطقتين الملتقى السنوي للحجاج، من مختلف بقاع العالم الإسلامي.[1] فقد كانت قافلة الحج المصري، تضم حجيج مصر وشمال إفريقيا وبعض حجيج غرب إفريقيا، ومن بين هؤلاء كان المغاربة من تونس، مراكش والجزائر.[2]

كما كان يجتمع في دمشق الحجاج من بلاد الشام والأناضول والبلقان، وحجاج الشرق العراق و آسيا الوسطى. و قد كان يصل عدد هؤلاء في بعض الأحيان إلى 20 ألف و قد يصل إلى 60 ألف حاج سنويا، يعبرون عبر مدن الشام، ويقيمون بها لعدّة شهور خاصة دمشق.[3] وكذلك الشأن بالنسبة لمصر. فكان أولئك الحجاج في طريق عودتهم من الحج، يجاورون في مدارس الشام ومصر خاصة الجامع الأزهر، ويتلقون العلوم عن علمائها، ويتبادلون الإجازات والأفكار. ولذلك حظيت مصر والشام بمكانة هامة، باعتبارهما تحولتا كسابق عهدهما، إلى مراكز ثقافية مزدهرة في المشرق العربي خلال العهد العثماني، فقلّما يعثر على واحد من عشرات العلماء والطلاب الذين ذهبوا للحجّ، دون أن يكونوا ألقوا الدّروس أو تلقوا العلم بمصر أو بالشام.

وفي المقابل كان الحجاز هو الآخر مركزا علميا لا يقل أهمية، يجتمع فيه حجاج العالم الإسلامي بأسره بما فيهم علماء مصر والشام والحجاز نفسه، ولذلك نرى أن الحج، كان يساهم كل عام في تعميق الوحدة الثقافية والفكرية، بين مراكز العلم والعلماء في العالم الإسلامي.[4] و الأمر الذي ساعد على ازدهار هذه العلاقات الثقافية أكثر في العهد العثماني، هو اهتمام الدولة العثمانية كثيرا بفريضة الحجّ، وتأمين تمامه كل عام. ضف إلى ذلك ازدهار نظام الأوقاف في العهد العثماني، حيث أوقفت عقارات شاسعة لصالح الحرمين الشريفين، وكان القسم الأكبر منها يوقف لصالح التعليم، مما ساعد الطلبة والعلماء للتفرغ للرسالة العلمية.[5] فوجود نظام " الجراية " *، التي كانت تصرف لكل من يعلم أو يتعلم بالحرمين أو الجامع الأزهر

---

(1) ليندا شيلشر، المرجع السابق، ص 39، 40.

(2) سميرة فهمي علي عمر، إمارة الحج في مصر العثمانية 923 ـ 1213 هـ / 1517م ـ 1798م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، (د.ط)، 2001م، ص 211، 212.

(3) محمد الأرناؤوط، معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن 16م، دار الحصار للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1993م، ص 51.

(4) حسام محمد عبد المعطي، العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1999م، ص 315، 316.

(5) نفسه، ص 315، 316. =

بمصر أو الجامع الأموي بالشام، كان عاملا مساهما في تشجيع طلاب العلم والعلماء، على المجاورة في مراكز العلم هذه، وتبادل الخبرات العلمية ومن أبرز العوامل التي ساعدت أكثر على هذه العلاقات الفكرية، هي وحدة اللغة والدين و الإمتداد الجغرافي، والذي توطد أكثر مع دخول هذه البلاد كلها تحت مظلة واحدة، هي الدولة العثمانية ،ومن مظاهر ذلك التواصل الفكري:

1- الحركة التعليمية بين مصر والشام والحجاز

أ - المصريون في الحجاز:

لقد وفد المصريون علماء ومدرسين وطلاب علم إلى الحجاز، عن طريق الحجّ مثل أحمد بن عبد اللطيف المصري البشبيشي الشافعي*(ت 1096 هـ / 1685م)، الذي ورد إلى مكة حاجا عام 1092 هـ/ 1681م ودرّس بها،وانتفع به جماعة من أهلها.[1] وعبد الرحمن بن علي الخياري الشافعي المصري (ت1056 هـ/ 1646م)، كان قد برع في العلوم بمصر وتصدّر للإقراء بالأزهر، ولما دخل المدينة عام1029 هـ /1619م أقام بها إلى وفاته،وتولى الخطابة وكان محدثا انتفع به الكثيرون.[2] وعبد الرحمن بن محمد الشربيني المصري الشافعي (ت1014 هـ/1601م)، كان بارعا في فنون كثيرة وجاور بمكة وتوفي بها، واجتمع فيها بعلماء دمشق وحج 24 مرة.[3]

وخلال القرن 18م / 12 هـ ذكرت كتب التراجم، عددا كبيرا من الذين درّسوا بمدارس الحرمين، مثل خليل بن إبراهيم اللقاني المالكي**،(ت1105 هـ/ 1693م)، الذي ألقى الدروس بالمسجد الحرام.[4] ومن الذين درّسوا فيه أيضا من المصريين؛ عبد بن علي القاهري الشافعي الشهير بالنمرسي(ت 1140 هـ/ 1727م)، الذي جاور بالمدينة المنورة حتى توفي.[5]وكذلك حسن الجبرتي لما جاور بمكة عام 1155 هـ/

= * الجراية هي مرتبات نقدية أو عينية كانت تصرف من الأوقاف على طلاب العلم والأيتام والأرامل.

* كان من علماء مصر ، متضلعا في فنون عديدة، درس على مشايخ عصره وأخذ الفقه والحديث والعربية، والعقائد والنحو والأصول، تصدر للإقراء بالجامع الأزهر. وحج عام 1092 هـ/ 1681م ودرّس بها (1041 هـ ـ ت 1096 هـ/ 1631م ـ 1685م). أنظر: المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 238، 239.

(1) نفسه، ص 239.

(2) نفسه، ج2، ص 367، 368.

(3) نفسه، 378.

** خليل بن ابرهيم اللقاني المالكي من علماء مصر أخذ عن شيوخ عصره مثل البابلي، المزاحي. أنظر: الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دارالفارس) ، ص115.

(4) نفسه.

(5) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 273.

1742م، أخذ عنه العلوم جملة من علماء مكة مثل، إبراهيم بن محمد الرئيس الزمزمي المكي الشافعي، مؤقت الحرمين(ت 1195هـ/ 1782م)، ولازمه ملازمة كلية وأخذ عنه الفلك و الأوفاق.(1) وكان منهم من يستقر بالحرمين نهائيا فيها، مثل عثمان بن محمد الحنفي المصري الشهير بالشامي * (ت1210هـ/1795م) لما حج استوطن المدينة المنورة، ثم دعا أهله للإلتحاق به، وجاور هناك فأقرأ الحديث والفقه.(2)

وكان علماء مصر حين يفدون إلى الحجاز، يلتف حولهم علماؤها وطلابها، ويطلبون ملازمتهم وإجازاتهم، مثل عطاء بن أحمد المصري والشيخ أحمد الأشبوني، الذين تلقى عنهما العلامة المكي زين الدين أبو المعالي حسن بن علي (ت 1146 هـ/1733م)، لما دخلا مكة حاجين.(3) وازدادت هجرة المصريين إلى الحجاز للإستقرار بها أكثر، منذ حروب محمد علي باشا بالمنطقة، خاصة للإكرام الذي يلقونه هناك، فقد كان مثلا الشريف منصور بن يحي أحد شرفاء الحجاز، ينفق على العالم المصري خليل طيبة (ت 1270هـ/ 1854م)، لما كان مجاورا بالمسجد الحرام يعقد حلقاته العلمية.(4)

وبالمقابل كان طلبة وعلماء مصر، ينتهزون رحلات الحج للقاء علماء الحجاز، والتلقي عنهم و الإستجازة منهم، وكثيرا ما كانت تطول مجاورتهم لسنوات عديدة، مثل أبو بكر بن أحمد بن قعود النسفي المصري الحنفي (ت 1062 هـ / 1651م)، الذي جاور بالحرمين 28 سنة، أخذ خلالها علوم الطريق عن صبغة الله السندي وغيره.(5) ومنهم من يمكث مجاورا إلى وفاته، ومن بين من تعلموا على علماء الحجاز من المصريين، الشيخ عبد البرّ بن عبد القادر بن محمد الفيومي العوفي الحنفي (ت 1071 هـ / 1660م)، الذي دخل مكة حاجا وأخذ العلوم عن ابن علان الصديقي ** ، وكتب له إجازة عام 1042هـ / 1632م.(6) وقد تعلم كل من حسن الجبرتي وعبد الله بن سالم البصري، ومرتضى الزبيدي على أحد علماء الحجاز المشهورين، وهو عقيل الحسيني المكي الشافعي الشهير بإسقاف، (1102 هـ ـ 1174 هـ/ 1690م ـ 1760م)،

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 561.

* عثمان بن محمد الحنفي المصري ولد بمصر وتفقه على علمائها، ودرّس الفقه في الأزهر وغيره، كان حسن التقرير، وألف متنا في المذهب الحنفي. نفس المصدر، ج2(دار الكتب)، ص 397.

(2) نفسه.

(3) نفسه، ج1(دار الكتب)، ص 327.

(4) سعد بدير الحلواني، العلاقات بين مصر والحجاز ونجد في القرن 19م، (د. د. ط)، (د.م .ط)، ط2، 1995، ص 175، 180.

(5) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 79.

** محمد علي بن محمد علان مشهور بكونه مجدد المائة الثامنة، هو من تبريز، شافعي المذهب هو على مذهب السنة وهو من الأئمة المحدثين بالحجاز، ولد نشأ بمكة وله مؤلفات هامة. برع في عدة علوم كالفقه، المعاني والبيان والتصوف (996 هـ ـ ت 1057 هـ/ 1558 م ـ 1647م). أنظر: نفس المصدر ، ج4، ص 184ـ 189.

(6) نفسه، ج2، ص 292.

حين اجتمعوا به بالمدينة المنورة.[1] ومنهم أيضا أحمد بن الحسن بن عبد الكريم الكريمي الشافعي (1096 هـ ـ ت 1182 هـ / 1683م ـ1769م)، الذي دخل الحجاز عام 1120 هـ/ 1707م، وأخذ عن علمائه علوما كثيرة، وحصل على إجازات منهم.[2] ولم يكن هؤلاء يتعلمون عن علماء البلد فقط، بل حتى عن الوافدين من المغرب والفرس والشام، الهند واليمن، وغيرها من بقاع العالم الإسلامي، ولعل ذلك كان له الأثر الكبير في الحركة الفكرية بمصر.

ب- الشوام في الحجاز:

لم يكن علماء الشام أقل من علماء مصر، في احتكاكهم بأهل الحجاز، ومن حلّ بها بل درسوا ودرّسوا وناظروا العلماء، من كل أنحاء العالم الإسلامي خلال القرون 16م 17م و 18م و 19م، وساهموا في بعث الحركة العلمية والفكرية بالحجاز، ونفعوا بلدهم بما نقلوه إليها من معارف وفنون. ومن أولئك العلماء الأفذاذ أحمد بن تاج الدين الدمشقي الأصل المدني(ت 1081 هـ/ 1668م)، كان من دمشق ولكنه عاش بالمدينة وتوفي بمكة، وهو عالم بارع في الرياضيات وعلم النجوم و السيمياء، وله في وضع الآلات الفلكية براعة.[3] ومصطفى بن قاسم الطرابلسي الحلبي (987 هـ ـ ت 1080 هـ/ 1579م ـ1669م)، الذي دخل المدينة المنورة، وجاور بها وتولى التدريس بالمسجد النبوي.[4]

ومن أمثلة المدرسين في الحرمين، أحمد بن محمد بن يونس البدري من القدس (ت 1660 هـ/ 1758م)، حيث دخل مكة عام 1011 هـ/ 1602م، وأخذ عن علمائها ولازم بالمدينة الشيخ الكبير أحمد بن علي الشناوي (الجامي) و تمذهب بمذهبه، ثم إنه صار مشهورا بالمدينة وأخذ عنه الواردين من دمشق وتونس، مصر، اليمن، المغرب، وترك مؤلفات هامة.[5] وهناك من جاور بالحجاز لفترة سنين طويلة مثل محمد ميرزا بن محمد المعروف بالسروجي الدمشقي الميداني (ت 1088 هـ/ 1677م) * ، الذي أخذ عن علماء مكة وجاور بالمدينة أربعين سنة.[6]

---

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 326.

(2) نفسه، ص 365، 366.

(3) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص178، 179.

(4) نفسه.

(5) نفسه، ص 344، 345.

* محمد ميرزا بن محمد المعروف بالسروجي أخذ عن علماء عصره، أجازوه وكان يبيع السروج ومع ذلك كان محققا لكتب الحقائق. أنظر: نفس المصدر، ج4، ص 202، 203.

(6) نفسه، ص 203. لقد ذكر النابلسي في رحلته إلى الحجاز العديد من الذين أجازهم وأجازوه، النابلسي، الحقيقة والمجاز(د.المعرفة) ج1، ص 408، 474.

وخلال القرن 18م/ 12هـ كان هناك جملة من علماء الشام والطلبة، يدرسون ويدرّسون في الحرمين، أمثال علي بن السيد إبراهيم الكيلاني الشهير بالعطار الحلبي، (1106 هـ ـ ت 1171 هـ/ 1694م ـ 1757م)، الذي حجّ خمس مرات وجاور بمكة مرة واحدة، فأخذ عن علماء المدينة ثم عاد إلى حلب، كما أنه أقرأ بها الدروس لعدد من الطلاب في فصوص الحكم.[1] ومن بين أشهر العلماء الذين دخلوا الحرمين، الشيخ عبد الكريم بن علوان المعروف بالشراباتي الشافعي الحلبي* (1106 هـ ـ ت 1178 هـ/ 1694م ـ 1764م)، الذي دخل مرتين، الأولى عام 1123 هـ/ 1711م وأخذ عن أجلاء علمائها كالمحدث أحمد النخلي، والثانية عام 1143 هـ/1730م، وأخذ عن محمد حياة السندي** وغيره وعاد لبلده.[2]

واجتمع أثناء الحج الشيخ عثمان بن عبد الرحمن العقيلي، العمري الحلبي الشافعي (ت 1193 هـ/ 1779 م مع غالب العلماء الذين كانوا في الحرمين، سواء نزلاء مكة والمدينة، أو من الحجاج ؛مثل العارف العارف محمد بن عبد الكريم السمان المدني، وأجازه في الحديث والطريقة القادرية وأبو الحسن السندي وعطا الله الأزهري ومحمد بن عبد الله المغربي.[3] وذكر المرادي أن والده لما حج عام 1157 هـ/ 1744م التقى بإسماعيل بن محمد العمادي الجراحي العجلوني*** (1089 هـ ـ ت 1162 هـ/ 1775م ـ 1748م)، الذي أقرأ صحيح البخاري في الروضة المطهرة، وأعاد له والد المرادي الدرس وأجازه نظما ونثرا.[4]

وفي القرن 19م/ 13م كان من بين الشوام المستقرين بالمدينة، الشيخ محمد الأيوبي الرحمتي الحنفي الدمشقي(1181 هـ ـ ت 1250م / 1767م ـ 1834م).[5] وقد استفاد وأفاد بها، حيث أقرأ كتاب " الشفا " في الحضرة النبوية، وألف المؤلفات النافعة، إلى أن عاد إلى الشام عام 1225 هـ / 1810م.[6]

---

(1) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 202.

* عبد الكريم بن أحمد بن علوان المعروف بالشراباتي من علماء الشام، أخذ الحديث والتفسير والفقه والعقائد، دخل الحجاز وبلاد الروم وله مؤلفات منها تعليقة على الشفاء الشريف وغيرها. أنظر: نفس المصدر، ص 63، 64.

** محمد حياة بن إبراهيم السندي الأصل المدني الحنفي، المحدث ولد بالسند وقرأ على علمائها ودخل الحرمين وتوطن المدينة المنورة وألقى الدروس بها، وله مؤلفات منها شرح على الأربعين النووية مختصر الزواجر وشرح الحكم العطائية (ت 1163 هـ/ 1750م). نفس المصدر ، ج4، ص 34.

(2) نفسه، ج3، ص 63.

(3) نفسه، ص 151.

*** إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي بن عبد الغني الشهير بالجراحى الشافعي العجلوني المولد الدمشقي عالم ومحدث له في علوم العربية، نظم الشعر. أنظر: نفس المصدر ، ج1، ص 259 ـ 272.

(4) نفس المصدر، ص 261.

(5) محمد بن مصطفى بن محمد الأيوبي الرحمتي الحنفي الدمشقي تلقى عن شيوخ دمشق والحرمين، دخل الحرمين ولما عاد تولى التدريس بالجامع الأموي 1225 هـ/ 1810م . أنظر: محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 232، 233.

(6) نفسه، ص 233.

ج ـ الحجازيون في مصر والشام:

لقد كان أهل الحجاز يهاجرون إلى مصر والشام، طلابا وعلماء للاستزادة، من معاقل العلم فيها ولذلك كان رواق الحرمين بالأزهر، يستقبل سنويا الطلبة الوافدين من الحجاز كمكة، المدينة، الطائف، جدة وغيرها من المدن.[1] وكذلك كانت مدارس الشام تستقبل المجاورين من أهل الحجاز، وقد أفاد هؤلاء واستفادوا من التواصل الفكري بينهم وبين أهل مصر والشام، فحصلوا على الإجازات من علمائها وأجازوا بدورهم ودرسوا بمدارسها، ومن هؤلاء إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني الشافعي (1037 هـ ـ ت 1083 هـ/ 1627م ـ 1672م)، من علماء القرن 17م كان بارعا في الحديث ، ودخل دمشق و الرملة فأخذ عن علمائها . ومنهم أيضا العالم محمد عقيلة بن أحمد بن سعيد الحنفي المكي(ت 1150 هـ/ 1737م)، الذي نشأ في مكة وتلقى العلم بها وكانت له مؤلفات عديدة ، ورحل إلى الشام فدخل دمشق وأقام بها الذكر، وكان يدرس بالمدرسة الجقمقية إلى أن عاد إلى بلده.[2]

ومنهم إسماعيل بن عبد الله الرومي الأصل الحنفي المدني (ت 1160 هـ/ 1747م)، دخل دمشق وأخذ العلوم عن عبد الغني النابلسي.[3] والشيخ محمد بن عبد الكريم السمان (ت 1129هـ/ 1716م) هو من علماء المدنية دخل مصر عام 1174 هـ /1760م، و استقبله تلامذة والده وعقد حلقة الذكر، بالمشهد الحسيني فأقبل عليه الناس.[4] و الشيخ محمد صفر المدني الحنفي(ت 1193 هـ/ 1779م)، الذي دخل مصر عام 1174 هـ/ 1760م، فاستقبله علماؤها، ودخل حلب وأخذ عن شيوخها.[5] وكان الكثير من الحجازيين لا يتنقلون إلى مصر والشام، ولكن يطلبون إجازة من علمائهما بالمراسلة، مثل الشيخ أبو البقاء بن علي العجمي المكي(ت 1113 هـ/ 1701م)، وهو أحد علماء مكة كتب له الإجازة مراسلة علماء مصر ودمشق، مثل أحمد العجلي و علي الشبراملسي، وعبد القادر الصفوري الدمشقي وغيرهم.[6] وهناك أمثلة كثيرة عن طلاب العلم والعلماء الذين ساهموا في الحركة التعليمية والفكرية، بين مصر والشام و الحجاز .[7]

---

(1) حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص 318، 319.

لقد أقام هذا الرواق الأمير عبد الرحمن كتخدا، وخصص له جرايات من وقفه على الجامع، وكان عدد المجاورين فيه قليلا لأن أغلب الحجازيين كانوا يفضلون المجاورة بالحرمين، حيث يلتقون بالعديد من علماء العالم الإسلامي، كما كان بعضهم لا يسكن في الرواق بل يشتري ويسكن في ملكه.

(2) المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 30، 31.

(3) نفسه، ج1، ص 254، 255.

(4) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس) ، ص 480 .

(5) نفسه.

(6) نفسه، ص 123. =

2 ـ المؤلفات و تبادل المعارف و الأفكار و انتقال الكتب:

لقد ازدهرت بفعل الحجّ الفعاليات الفكرية، والعلاقات الثقافية بين الأطراف الثلاثة، بل وعلى نطاق واسع مع كل الواردين إلى الحرمين من أنحاء العالم الإسلامي، ومن مظاهر ذلك أن الكثير من هؤلاء العلماء، تركوا مؤلفاتهم القيّمة التي استفاد منها أهل الحجاز، بل وكل من ورد إليه، حتى من أبناء مصر والشام. فقد شرح أحد علماء مصر المشهورين، وهو محمد الجوهري* كتاب "الكنوز الحقائق والبدر المنير" للشيخ عفيف الدين أبو السيادة عبد الله الحسيني المكي الطائفي، الملقب بالمحجوب(ت 1207 هـ / 1792م)، هو في 4 كراريس بل وأكثر من ذلك أقرأه في دروسه .[1]

وخلال القرن 18م/ 12 هـ ، دخل الشيخ عبد القادر بن السيد يوسف الحلبي الحنفي، الشهير بنقيب زاده (ت 1107 هـ / 1694م) ، المدينة المنورة عام 1060 هـ / 1650م، درّس بالمسجد الشريف النبوي وصار أحد خطبائه، ومكث فيها حتى وفاته وقد ألف بها مؤلفات نافعة؛ منها " لسان الحكام في الفقه" ، وكتاب في معرفة الرمي بالسهام.[2]

وفي المقابل خلّف علماء الحجاز بمصر والشام مؤلفات هامة، وجرت بينهم وبين علمائها وأدبائها مطارحات ومناظرات أدبية كثيرة، كإبراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني الشافعي (1037 هـ ـ ت 1083 هـ / 1627م ـ 1672م)، الذي دخل القاهرة عام 1066 هـ / 1655 م، واستجاز من علمائها وكان بارعا في الحديث والأدب والتاريخ والشعر، وألف بها رحلته التي سمّاها " تحفة الأدباء و سلوة الغرباء " ودخل دمشق مع الركب الشامي عام 1080 هـ / 1667م، وجرت بينه وبين أدبائها محاورات، وأجاز الكثير من طلبتها بمروياته ومكث بها 18 يوما.[3]

ومن الحجازيين أيضا ، علي بن تاج الدين محمد بن عبد المحسن القلعي الحنفي المكي (ت 1172 هـ / 1758م)، الذي دخل الشام عام 1142 هـ / 1729م، ومصر عام 1160هـ/1747م، وكان يميل إلى الأدب وطارح الأدباء في المحاضر، وشرح بديعيته و قدم شرحا على بديعيتين لشيخه عبد الغني النابلسي، وله عدة

= (7) مثل زين الدين أبو المعالي حسن الفوي المكي (ت 1146 هـ/ 1733م) . أنظر: الجبرتي، ج1(دار الفارس)، ص 327. وعبد الله بن سالم بن عيسى الشافعي المكي (1048 هـ ـ ت 1134 هـ / 1635م / 1721م) الذي دخل مصر . أنظر: نفسه، ص 132.

* محمد بن أحمد بن حسن الجوهري الشافعي (1151 هـ ـ ت 1215 هـ / 1738، 1739 ـ 1800م) من مؤلفاته شرح عقيدة والده ومختصر المنهج في الفقه. أنظر: خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 161.

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج2(دار الكتب) ، ص 366 . وقد ذكر الجبرتي في موضع آخر أن الجوهري شرح " المعجم الوجيز " للشيخ عبد الله أمير غني الطائفي. نفسه، ج3 ، ص 266 ـ 268.

(2) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 61. =

رسائل وديوان شعر.[1] وخلال القرن 19م/13هـ دخل أحد علماء مكة ؛ هو شهاب الدين محمد بن إسماعيل المكي (1218 هـ ـ ت 1274 هـ / 1803م ـ1857 م)، إلى مصر وتعلم على شيوخها خاصة محمد العروسي وحسن العطار، ونبغ في الكتابة والشعر. ولما أنشأت جريدة " الوقائع " اتخذه العطار مساعدا له، ثم خلفه في إدارتها عام 1252 هـ/ 1836 م، وأصبح مصححا في مطبعة بولاق، وبقي في مهنته هذه إلى عام 1266 هـ/ 1849م، وانقطع بعدها للتأليف حيث ألف كتاب " سفينة الملك ونفيسة الفلك " ؛ ضمّنه زجليات وموشحات وأهازيج.[2] مما يدل على تبادل الخبرات، بين الحجازيين وأهل مصر والشام ؛ فقد أثروا بمؤلفاتهم الرصيد الفكري في المنطقة في مختلف العلوم كالفقه ، الشعر، الأدب وغيره.

ومن الفعاليات الفكرية أيضا التي ساعدت على تبادل الأفكار، تلك المناقشات والمحاورات العلمية، التي لم تتوقف في أي وقت، فمنها ما أجراها علماء مصر والشام في مجالس علماء الحجاز، مثل التي جرت بين الأديب المصري رمضان بن محمد المنصوري، والأديب قاسم بن عبد القادر المدني. والعكس علماء الحجاز في مجالس مصر مثل التي كانت تعقد في بيت عبد الله الميرغني. وحصل من خلال ذلك تبادل الأفكار والعلوم، حيث أخذ عبد السلام الزمزمي المكي، علم الفلك عن حسن الجبرتي وهو في مكة، بينما تلقى محمد بن عبد الكريم السمان الطريقة الخلوتية في مصر، عن مصطفى البكري في القرن 18م/ 12 هـ وقام بتأسيس الطريقة السمانية في المدينة المنورة. كما تأثر بعض الشعراء المصريين بأسلوب الشعر لدى الشيخ علي القلعي ونظموا على نسقه.[3]

وقد ذكر النابلسي في رحلته إلى الحجاز، أنه اجتمع في مجالس المدينة المنورة مع علمائها، مثل محمد أفندي بن مصطفى أفندي القونوي وغيره، وجرت بينهم مسائل العلمية و شرعية وأدبية، وأبحاث في الفقه والحديث مثل حرمة الدخان، وتبادلوا قصائد المدح وغيرها من الأمور.[4] التي تنمّ عن الحركية والتلهف للنهل من العلوم. واستعان علماء مكة بعلماء مصر، في الكثير من المسائل حيث أرسلوا رسالة يستفتون فيها علماء مصر، في شأن جدار الكعبة الذي سقط، فعرضت المسألة على المولى أحمد المعيد *(ت 1040 هـ/

= (3) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 25 ـ 28.

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس) ، ص 300، 301.

(2) خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 150، 151

(3) حسام محمد عبد المعطي، المرجع السابق، ص 320.

(4) عبد الغني النابلسي، الحقيقة والمجاز، ج1(دار المعرفة) ص 373، 421، 429. وأنظر الصفحات: 362، 363، 366 ـ 368.

* هو تاج العارفين بن أحمد بن أمين الدين بن عبد العال الحنفي المصري المعروف بالمعيد هو من علماء مصر، أجازه شيوخه بالإفتاء والتدريس، تصدر للتدريس بالأزهر وألف مؤلفات عديدة في فقه الحنفية . أنظر: المحبي ، المصدر السابق، ج1، ص 470.

1630م)، فكتب رسالة سماها، " الزلف والقربه في تعمير ما سقط من الكعبة ".[1] وكان فضلا عن ذلك الحجاج المصريين والشوام، يعودون إلى ديارهم حاملين معهم مبادئ وأفكار جديدة، مثل أفكار الحركة الوهابية التي انتشرت بالحجاز في القرن 18م/ 12هـ. كما كان لانتشار أتباع هذه الأفكار من الحجازيين في مصر الشام ، دور كبير في نشر هذه المبادئ وسط أهل المنطقة، مثل عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب (ت 1285 هـ / 1868م) وغيرهم.[2] وفي المقابل انتشرت أفكار النهضة العلمية المصرية الحديثة، التي تزعمها رجال الأزهر والمدارس الحديثة في عهد محمد علي باشا، وما واكبها من تقدم في القرن 19م/ 13 هـ في الحجاز، عبر الطلبة والعلماء الذين كانوا يتنقلون بين مصر والحجاز.

وكان من أبرز مظاهر التبادل الفكري، بين العلماء في ذلك العصر تبادل الكتب؛ فمثلا لما حجّ الشيخ حامد بن علي بن محبّ الدين الحنفي الدمشقي العمادي * ،(1103 هـ ـ ت 1171 هـ / 1691 م ـ 1757م) عام 1128 هـ/ 1715م، وهبه محمد الإسكندري المكي ، كتابه في التفسير الذي ألّفه نظما في 10 مجلدات.[3]

كما ذكر النابلسي أنه اطلع وهو بالحجاز على العديد من الكتب، مثل كتاب في التفسير كان ألّفه محمود الكردي نزيل مكة في ثماني مجلدات ،وكتاب الرحلة للشربيني شارح مقامات الحريري فطالعه هناك . بل كان جماعة من ناسخي الكتب ينسخونها للحجاج في مكة، مما سمح لهم بأخذ نسخ عن الكتب التي يطالعونها هناك وليست موجودة في مكتباتهم.[4] وقام عبد الله الجوهري من علماء مصر حين استقر بالمدينة عام 1199 هـ/1784م ـ 1785م، بشراء عدد كبير من المؤلفات النفيسة.[5] وذكر الجبرتي أن علماء الحجاز كانوا يشترون نسخا من كتب التفسير والحديث من مصر. [6] فضلا عن أن مطبعة بولاق وما كانت تصدره من كتب في القرن 19م، سمحت بطبع كتب علماء الحجاز وانتشار الكتاب المطبوع فيها.

3 ـ شعراء مصر والشام في مجالس أمراء الحجاز:

لقد كان العديد من شعراء وأدباء مصر والشام، مكرّمين في مجالس أمراء الحرمين ومقربين إليهم، مثل محمد بن حجازي بن أحمد الرقباوي الإنبابي المصري،(ت 1078 هـ / 1666م)الذي كان من أشهر شعراء

---

(1) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 471.

(2) سعد بدير الحلواني، المرجع السابق، ص 160، 161.

* هو مفتي الحنفية بدمشق عام 1137 هـ/ 1724م أخذ عن علماء عصره الفقه والتفسير وعلوم الدين له مؤلفات منها فتاويه وشروح وحواشي وله شعر. أنظر: المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 11ـ17.

(3) نفسه، ص11.

(4) عبد الغني النابلسي، الحقيقة والمجاز، ج1(الهيئة المصرية) ، ص 378، 392، 407.

(5) الجبرتي، المصدر السابق، ج3(دار الكتب)، ص 268. =

مصر في القرن 17م/ 11 هـ رحل إلى الحرمين، ومدح الشريف زيد بن محسن بمدائح كثيرة، فكان يغدق عليه بالعطايا، وجعل له في كل سنة مرتبا ومعلوما.[1] وسليمان بن علي اليساري المصري(ت 1003 هـ/1594م) دخل مكة عام 1000هـ/ 1591 م، وكان أديبا وشاعرا، جاور بها ومدح شرفاءها، وطارح أدباءها.[2]

ومن بين الشوام الذين مدحوا شرفاء الحرمين، عبد اللطيف محمد محبّ الدين الشامي (966 هـ ـ ت 1023 هـ/ 1559م ـ 1614م)، الذي جاور بمكة سنتين وصحب السلطان سعود بن الشريف حسن بن أبي نميّ، وصار له حظوة عنده ومدحه بالقصائد.[3] وغرس الدين بن محمد الخليلي الشافعي*، نزيل المدينة (ت 1057 هـ/ 1644م)، الذي كانت له قصائد في مدح الشريف زيد بن محسن شريف مكة، ونظمها على حروف المعجم كل قصيدة 10 أبيات.[4]

= (6) نفسه، ص 494.

(1) المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 415.

(2) نفسه، ص 415.

(3) نفسه، ص19.

* أخذ عن علماء القدس ورحل إلى القاهرة والروم وأخذ عن علمائها، ثم دخل الحجاز واستوطن المدينة وله مؤلفات منها مؤلف في الأحاديث الموضوعة ونظم الشعر (ت 1057 هـ/ 1647م). أنظر: نفس المصدر، ج3، ص 246 ـ 253.

(4) نفسه، ص 248.

المبحث الرابع : العلاقات الفكرية مع الأقطار الإسلامية الأخرى

بما أن مصر والشام كانتا مراكز علمية عريقة في العالم الإسلامي، لهما مكانتهما العلمية المميزة، جعلهما ذلك قبلة لعدد كبير من علماء الأقطار الإسلامية؛ مثل بلاد المغرب والأكراد، الفرس (العجم) وبغداد، اليمن والهند. خاصة وأنها كانت تزخر بعلماء مشهورين بلغت سمعتهم الآفاق، فيأتي إليهم من كل أنحاء العالم الإسلامي من يطلب الإجازة والعلم، ويأتيهم البعض الآخر بمراسلات وهدايا من أهل بلاده وعلمائها وأعيانها. و يلتمسون منهم أجوبة لأسئلتهم، ومنهم من يرسل إليهم الأموال ويتبركون بهم، وكثيرون هم طلاب العلم الذين يقصدونهم، لتعلم علوم اختص بها هؤلاء. وخير مثال على ذلك حسن الجبرتي الذي جاءه طلبة من كل الأقطار كالروم والشام، داغستان، المغرب، الحجاز وحتى الإفرنج فقد حضر إليه طلاب علم من هؤلاء، عام 1159 هـ / 1746م ليقرؤوا عليه علم الهندسة، وتلقى هو عنهم فوائد من علومهم. [1] وكذلك الشيخ مرتضى الزبيدي (1195 هـ ـ ت 1205 هـ/ 1746م ـ 1790م)، الذي كانت تأتيه الهدايا والمراسلات من كل الآفاق، وكاتبه ملوك المغرب والسودان، و فزان والجزائر واليمن والشام، الحجاز والعراق، لاعتقادهم في قطبانيته واعترافهم بشهرته في العلم. [2]

وعامل آخر ساهم في الإقبال اللامتناهي، لعلماء الأقطار الإسلامية على مصر والشام، هو الترحيب والاعتراف بالفضل من أهلها وعلمائها بكل وارد وعالم، حيث يستقبلونه في منازلهم ويجاور في مدارسهم، ويتلقون عنه العلوم والإجازات.وكثيرا ما يبلغ مقاما بينهم لم يبلغه علماء البلد أنفسهم، ويرعاه أمراؤهم ووجهاؤهم، وذلك لأن أهل العلم كانوا مبجلين بغض النظر عن أصلهم، أو كونهم من أهل البلد أو نزلاء فيه. وكل ذلك حبا منهم في تعلم كل جديد وغريب، فهذه الرغبة كانت موجودة لدى أهل مصر والشام. [3]

وحتى علماء مصر والشام ذاتهم، لم يكونوا يتوانون عن تحمل مشاق الرحلة، في سبيل العلم فيجوبون أقطار العالم الإسلامي، ينهلون العلوم ويعودون إلى ديارهم، محملين برصيد علمي متنوع فقد ذكر المرادي، أن جدّه مراد بن علي بن داود الحسيني، (1050 هـ ـ 1132 هـ/ 1640م ـ1719م)، رحل إلى الهند

---

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس) ، ص 461.

(2) نفسه، ج2(دار الكتب) ، ص 309.

(3) مثال ذلك مرتضى الزبيدي الذي كان أصله من زبيد (اليمن) ولما دخل مصر أكرمه علماؤها وأمراؤها وأخذوا عنه العلم، ولما ألف كتابه الشرح على القاموس " تاج العروس " اعترفوا بفضله ورسخوه في العلم بل وكتب عليه أكابر علماء مصر التقاريظ نظما ونثرا مثل الصعيدي و أحمد الدردير وغيرهم، وأحبه أهلها لكونه كان غريبا وعارفا بالفارسية والتركية ولغة الكرج و متضلعا في العلوم، ولم يبالي أحد بكونه ليس مصريا. نفس المصدر، ص 304 ، 307

وأخذ بها الطريقة النقشبندية، ودخل الحجاز وجاور به ثلاث سنوات، ومنها توجه إلى بغداد وبخارى ثم أصفهان، ومرّ على بلاد العجم، وصحب في رحلته علماء سمر قند * وبلخ ** ، ومرّ إلى مصر وعاد بعدها إلى دمشق مفعما بالعلوم والمعارف.[1] وقد ساهم هذا الحراك الثقافي في مصر والشام، وفي معظم أجزاء العالم الإسلامي الخاضع للدولة العثمانية أو غيره، في إثراء الحياة الفكرية من ناحية، وصبغها بطابع متشابه في مختلف أقطار العالم الإسلامي من ناحية أخرى.

1 ـ العلاقات مع بلاد المغرب

أ ـ جذور الوجود المغربي بمصر والشام:

تعود جذور الوجود المغربي بمصر والشام والتأثير بينهم، إلى العصر والوسيط حيث حصل تأثر عميق بين المنطقتين خلال تلك الفترة، وحصل تبادل فكري وثقافي واسع، وعلى عدة مستويات شعراء وفلاسفة ومعلمين وغيرهم، واستمرّ ذلك التواصل الحضاري في العصر الحديث خلال العهد العثماني.[2]

ومن العوامل التي كانت تدفع المغاربة للهجرة نحو مصر والشام، هي ازدهار العلوم والمدارس وانتشار حلقات الدراسة في المساجد، وحرية الفكر لمعتنقي المذاهب الأربعة في المشرق، خاصة بالجامع الأزهر والأموي، وازدياد الخوانق الصوفية والأوقاف الكثيرة، على المنشآت التعليمية والدينية، لصالح طلاب العلم والمدرسين. فضلا عن ترحيب المشارقة بأهل المغرب من طلاب للعلم أو علماء، وتقديمهم كل التسهيلات لهم. وفي المقابل رغبة أهل المغرب في الالتقاء بعلماء مصر والشام، والتلقي عنهم والتدريس معهم، فقد كل من بين أهم أهدافهم التدريس برواق المغاربة *** بالأزهر، أو الزاوية المالكية [3] بالجامع الأموي. كما أن عبورهم بمصر والشام ، كان طريقا يوصلهم إلى الحجّ، ومدارس الحرمين الشريفين. وكذلك إلى دار السلطنة العثمانية ومدارسها، خاصة إسطنبول وبورصة.[4] وقد انتشر المغاربة في مصر، بالقاهرة وعدة مدن أخرى

---

* سمرقند: هي من أهم حواضر بلاد ما وراء النهر وهي في الوقت الحاضر قصبة ولاية سمرقند في التركستان الروسية، وهي تقوم على الضفة الجنوبية لنهر السند. دائرة المعارف الإسلامية، " س "، مج12، ص198، 203.

** بلخ: بكترا Backtra عند اليونان وهي على الشاطئ الجنوبي لنهر جيحون، على رافده دهاس، وقد كانت بلخ القصبة السياسية لولاية خراسان القديمة ثم أصبحت المركز الثقافي للمملكة . أنظر: نفس المرجع، " ب"، مج4، ص 78.

(1) المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 129، 130.

(2) ليلى الصباغ، "الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث "، المجلة التاريخية المغربية ، ع. 7ـ8، جانفي، 1977م، ص 78، 80.

*** رواق المغاربة هو من أروقة الأزهر يقع على يمين الداخل من باب المغاربة، كان له كتبخانه وله كاتب وبواب و أوقاف كثيرة مخصصة لكل مجاور مغربي. أنظر: سعاد ماهر محمد، المرجع السابق، ص 217.

(3) الزاوية المالكية بالجامع الأموي واقفها هو السلطان الملك الناصر صلاح الدين، ملاصق المقصورة الحنفية من غربي الجامع بدمشق في القرن 7 هـ. أنظر: النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص3. =

خاصة تلك التي تضم مدارس كرشيد والمحلة والإسكندرية، التي كانت مركزا علميا وتجاريا، كما استقروا بمسجد ابن طولون، حيث كانوا يسكنونه ويعقدون حلقات الدرس فيه، وكذلك في رواق المغاربة بالأزهر. أما في الشام فانتشروا في مختلف المدن، مثل بيت المقدس وطرابلس، دمشق وحلب. واستقروا في الزاوية المالكية بالجامع الأموي المذكورة آنفا، وبزاوية المغاربة * وكان لهم زاوية في بيت المقدس، كما كان يسمح للمتصوفة منهم، بالالتحاق بالخوانق خاصة الخانقاه الأندلسية.**[1]

وقد كانت الجالية المغربية بمصر و الشام، توقف الكثير من الأوقاف على طلبة العلم، سواء كانت عقارات مملوكة، أو أراضي زراعية أو وكالات تجارية، و كانوا يشترطون أن يكون الدارس مثلا في رواق المغاربة بالأزهر، أن يكون من دراسي المذهب المالكي.[2] و على كل فقد قدّم علماء المغرب العربي، عطاءً كبيراً للحياة الفكرية بالمنطقة، وكان تأثيرهم بارزا وفي نواحي عديدة.

ب ـ مساهمة المغاربة في الحركة التعليمية بمصر والشام:

لقد كان هناك عدد كبير من المغاربة العلماء والطلبة، عاشوا وجاوروا في مدارس مصر والشام، وتمكنوا من تلقي الدروس والتدريس ونشروا العلوم، بل وأظهروا تفوقهم سواء كطلبة أو مدرسين، فقد اشتغلوا على مختلف العلوم والفنون الأدبية، واللغوية والعلوم الرياضية والفلكية، وأجيزوا بإجازات تدلّ على جدارتهم، في مختلف فروع المعرفة العقلية والنقلية، ولذلك كان لهم دور في التأثير الإيجابي على الحركة الفكرية بمصر والشام معا. [3]

ففي الشام جاور المغاربة في مدارسها، وألقوا دروسا في الجامع الأموي ودرسوا على علمائه، وتركوا فوق كل ذلك آثارا مكتوبة انتفع بها الطلبة، ومنهم من واظب على إلقاء الدروس حتى وفاته. ومن هؤلاء أبو القاسم بن محمد المغربي السوسي المالكي(ت 1038 هـ أو 1039 هـ/ 1628م أو 1629م)، الذي نزل بدمشق وكان مفتيا للمالكية في زاوية المغاربة، وله مكتب يعلم فيه الأطفال، وقد حظي بتقدير أهل دمشق وقضاتها وحكامها، وتولى التدريس بالجامع الأموي .[4]

= (4) ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص 82، 83.

* زاوية المغاربة: أنشأت وقفا لهم عام 802 هـ/ 1399م وتسمى أيضا " الوطية "، تقع شمالي جامع جراح، وقفها الرئيس علاء الدين المشهور بابن وطية مؤقت الجامع الأموي. النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص 159.

** الخانقاه الأندلسية المشهورة شرقي العزيزية والأشرفية، وقفها مختلط ،وهي المعروفة بأبي عبد الله محمد بن محمد الأندلسي في القرن 7هـ/13م . نفس المصدر ، ص 110.

(1) ليلى الصباغ، "الوجود المغربي في المشرق"، ص 83ـ85.

(2) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، " الإتصال الثقافي بين الزيتونة والأزهر وأثره على الحياة الثقافية في مصر وتونس "، المجلة التاريخية المغربية، ع. 21ـ24، السنة الثامنة، نوفمبر 1981م، ص 208. =

ومنهم أحمد بن محمد أبو العباس المقري التلمساني المالكي(ت 1041 هـ / 1631 م)، الذي كان بارعا في علم الكلام والتفسير والحديث والأدب، وله مؤلفات منها "عرف الطيب في أخبار ابن خطيب"، وله مؤلف حول دمشق هو"عرف الشق في أخبار دمشق". ودخل مصر عام 1028 هـ/1619 م، وبيت المقدس عام1029هـ/1620م ودمشق عام 1039هـ/1629م، واستقر بها وأملى صحيح البخاري بالجامع الأموي تحت قبة النسر، وحضره غالب أعيان دمشق والطلبة وتهافت عليه الناس يوم ختمه. (1)

وفي القرن 18م/ 12 هـ جاء العديد من المغاربة، إلى مدارس الشام للتعلم أو التعليم أمثال قاسم بن سعيد بن عثمان المالكي الدوكالي المغربي(ت 1120هـ/ 1708م)، الذي استوطن المدرسة السمسياطية* بدمشق، وقرأ على جماعة من علمائها كتاب الفتوحات المكية لابن عربي.(2) و كذلك محمد بن عبد الكريم بن قاسم المالكي المغربي الفاسي(1104هـ ـ ت1185هـ/1692 ـ 1771)، الذي درس علم الحرف والأوفاق** وهو بالمغرب، ولما قدم إلى دمشق قرأ على علمائها، ودخل حلب وكان مشهورا بعلم الطبّ والكيمياء .(3)

وخلال القرن 19م/ 13م دخل دمشق أحد علماء المغرب، وهو يوسف بن بدر الدين البيباني المراكشي المالكي الشهير بالمغربي، الذي ولد بالمغرب ونشأ في مصر ودخل دمشق واستوطنها، وأخذ عن علمائها وألقى الدروس في الجامع الأموي، وقد حضر دروسه العديد من الطلاب والعلماء. (4)

أما في مصر فجاور عدد كبير من المغاربة في رواق الأزهر الخاص بهم، وتولوا التدريس فيه، وترأسوا مشيخته ودرسوا على علماء مصر ، ومن أمثالهم خلال القرن 17م/ 11 هـ خالد بن أحمد المالكي الجعفري المغربي(ت1043 هـ/ 1633م)، الذي أخذ الحديث عن الشمس الرملي والفقه والعربية عن السنهوري المالكي، ودخل مصر وهـو وارد إلى الحج. (5)

= (3) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المغاربة في مصر، ص 104 ـ107. أنظر: مقال: عبد الله محمد عزباوي، " الروابط الثقافية بين مصر وبلاد المغرب في القرن الثامن عشر "، المجلة التاريخية المغربية، ع. 17ـ20، السنة السابعة، أكتوبر 1980م، ص 250.

(4) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 145.

(1) المحبي، المصدر السابق ، ص 305، 306. أنظر: الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 238، 239.

*المدرسة السمسياطية أو الخانقاه نسبة إلى واقفها أبي القاسم علي بن محمد بن يحي السلمي الحبشي. أنظر: النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص 118.

(2) المرادي، المصدر السابق، ج4، ص9.

** هو فرع من علوم العدد وهو جداول مربعة، ضمنها أرقام أو حروف، وأضلاع تلك الجداول متساوية في العدد، ويشترط فيها عدم تكرار العدد الواحد أكثر من مرّة بهدف إظهار آثار عجيبة إذ اعتدلت تلك الأرقام والحروف في أوقات معينة. أنظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، " أ "، ص 36.

(3) المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 61.

(4) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 296. =

ومنهم أيضا أبو سالم عبد الله بن محمد، بن أبي بكر المغربي العياشي (ت 1090 هـ/ 1679م)* الذي قرأ على علماء مصر مثل الشهاب الخفاجي والأجهوري.[1] وأخذ الشيخ محمد بن عبد الكريم الجزائري (ت 1102 هـ/ 1690م)، خلال القرن 18م/ 12 هـ علوم الدين عن شيوخ مصر؛ مثل الغنيمي والبابلي، وحصل على الإجازات.[2]

ومن المغاربة الذين أخذوا علوم الرياضيات عن حسن الجبرتي، الشيخ أحمد بن علي بن جميل الجعفري الجزولي السوسي(ت 1197هـ/1783م)، حين دخل مصر عام 1182 هـ/ 1768م.[3] ومنهم أيضا حسن الجزائري الرومي(ت 1125 هـ/ ت 1713م)، الذي كان بارعا في الخط، وأخذ عنه الكثيرون في مصر. لقد ترك العديد من علماء المغرب الذين دخلوا مصر، وألقوا فيها الدروس بالغ الأثر في نفوس الطلبة والعلماء، كما كان في محاضراتهم ودروسهم، وطرائق إلقائهم من النبوغ والكفاءة. ومن أمثالهم محمد بن محمد المغربي المالكي الشهير بالبليدي (1096 هـ ـ ت 1176 هـ / 1684ـ ت 1763 م)، الذي انتفع به أهل مصر والشام وكانت له مؤلفات في الفقه والتفسير والقراءات. فكان يحضر درسه في تفسير البيضاوي بالأزهر مائتي مدرس ومعيد.[4]

وهناك عالم مغربي آخر كان درسه حافلا، هو أبو عبد الله محمد زيتونة (ت1138 هـ/ 1725م) التونسي الأصل النستيري المنشأ، أخذ عن علماء تونس وحج عام 1114هـ / 1702م، ولما مرّ بالإسكندرية صادف ليلة الإسراء والمعراج، فقام بإلقاء درس في تفسير قوله تعالى: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير. ﴾** وحضر درسه جماعة كبيرة من علماء الإسكندرية.[5]وكذلك الشيخ التاودي بن سوده (1128 هـ ـ ت 1209 هـ/ 1715م ـ ت 1794م) هو فاسي مغربي، مرّ على مصر أثناء ذهابه للحجّ، ودرّس بالأزهر الموطأ في الفقه المالكي، وحضره أعيان المذاهب الأربعة وكبار الشيوخ، مثل الصعيدي وسليمان الفيومي وحسن الجبرتي

= (5) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 129.

* هو أحد علماء المغرب (الجزائر) قرأ على علماء المغرب مثل أبوبكر الكتاني وغيره ورحل إلى المشرق ودخل مصر، وجاور بالحرمين عدة سنين وأجازه علماؤها ثم عاد لبلاده وله رحلة هي الرحلة العياشية. أنظر: الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 115.

(1) نفسه.

(2) نفسه، ص 114، 115.

(3) نفسه، ص 571، 572.

(4) المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 110، 111.

** الآية ﴿1﴾ من سورة الإسراء.

(5) عبد الله محمد عزباوي، الروابط الثقافية بين مصر والمغرب، ص 248.

وقد وصفه محمد الأمير الكبير* في فهرسته لترجمته له بقوله: « هلال المغرب وبركته وحامل فتواه وقدرته ».[1] وترك هذا العالم المغربي ولداه، عند حسن الجبرتي لتعلم العلوم الرياضية، وذكر الجبرتي عبد الرحمن أنه كان يطالع معهما، ومع آخرين من المغرب كانوا يجاورون عند والده، هم سالم القيرواني وأحمد السوسي، حيث كانوا يطالعون ممرات الكواكب و يتناقشون مع حسن الجبرتي فيما أشكل عليهم.[2] وفي القرن 19م/ 13 هـ دخل مصر، الشيخ أبوراس الناصري المعسكري (ت 1239 هـ/ 1826م)، وهو جزائري له مؤلفات كثيرة في الفقه والأدب والتاريخ والأنساب، دخل مصر والشام والتقى بأعلامهما، وأخذ عنهم وناظرهم وأجازه المرتضى الزبيدي والشيخ الأمير.[3]

ونظرا لأمانة المغاربة وكفاءتهم بأعمال تستحق ذلك، كتعليم الأطفال وكفالة الصبيان إلى جانب التدريس.[4] والوعظ وأمانة خزانة الكتب.[5] كما تولى بعضهم الإفتاء على المذهب المالكي بل حتى الحنفي، وأسندت لبعضهم الآخر نيابة القضاء والآذان وغيره وتولى العديد من العلماء المغاربة مشيخة الرواق الخاص بهم في الأزهر، وساروا فيها على أحسن وجه، مثل الفقيه الضرير عبد الرحمن بن بكار الصفاقسي (ت 1209 هـ/ 1794م) الذي قدم مصر ودرّس الفقه الحنفي في كتاب " الغرر في مذهب الحنفية " وتولى مشيخة رواق المغاربة بعد وفاة عبد الرحمن البناني(ت1198 هـ/ 1783م)، الذي درّس المعقول بالأزهر وتولى مشيخته بعد السيد قاسم التونسي، بعد عزل أبي الحسن القلعي (ت 1199 هـ/ 1784م).[6]

غير أن الملاحظ هو أن المصريين والشوام الذين هاجروا إلى بلاد المغرب، لم يكن عددهم كبيرا، فلم تذكر كتب التراجم الكثير عن ذلك، ويرجع الأمر إلى اكتفاء أهل مصر والشام بمعاقل العلم التي لديهم، خاصة وأنها كانت مراكز إشعاع فكري في العالم الإسلامي، ومن جهة أخرى لأن أشهر العلماء المغاربة كانوا يجاورون عندهم، فينهلون منهم العلوم دون تكلّف عناء السفر وتحمّل المشاق.[7]

---

* محمد بن محمد السنباوي المالكي الأزهري الشهير بالأمير (1154 هـ ـ ت 1132 هـ/ 1741م ـ 1719م) أصله من المغرب واستوطن مصر وتلقى العلوم بالأزهر مثل الفقه، الهيئة والهندسة والفلك عن حسن الجبرتي وإسماعيل النفراوي، تولى التدريس وله مؤلفات منها حاشية على الأزهرية. أنظر: الجبرتي المصدر السابق، ج3 (دار الفارس)، ص573، 574.

(1) نفس المصدر، ج2(دار الكتب)، ص 368. عبد الله محمد عزباوي، "الروابط الثقافية بين مصر والمغرب"، ص 248.

(2) الجبرتي، نفسه، ص369.

(3) عبد الله محمد عزباوي، المرجع السابق، ص 249.

(4) مثل توليهم بعض مدارس الشام كالمدرسة الشرابيشية والصلاحية و الصمصامية بدمشق.

(5) مثل خليل بن محمد المغربي (ت 1173 هـ/ 1759م) الذي دخل مصر ودرّس بها وتولى خزانة الكتب بالمؤيدية. أنظر: المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 101، 102.

(6) ليلى الصباغ، "الوجود المغربي في المشرق"، ص 85، 86.

(7) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 392، 585. لقد ذكر المحبي بعض المشارقة الذين انتقلوا إلى المغرب الأقصى في عهد =

ج ـ دعم سلاطين المغرب للعلماء:

لقد دعّم سلاطين المغرب الأقصى بالخصوص أهل العلم بالأزهر، وحرص بعضهم على وقف الأوقاف الخاصة لصالحهم، وإرسال الهدايا للعلماء المصريين، فقد أرسل مثلا السلطان مولاي محمد الهدايا إلى علماء الأزهر وخدمة الأضرحة عام 1198 هـ/ 1783م.[1] كما أوقف باي تونس محمد باي عام1105 هـ/ 1693م أوقافا على الأزهر وطلبته. وكان سلطان المغرب السابق ذكره، يشجع العلماء المصريين بشراء كتبهم، فقد اشترى شرح مرتضى الزبيدي على القاموس للفيروزأباذي.[2]ولما سمع السلطان المغربي مولاي أحمد المنصور بن مولاي محمد، بشرح أبو بكر بن إسماعيل بن شهاب الدين الشنواني التونسي المصري(ت1019هـ / 1610م)* ، على الأسئلة السبع لجلال الدين السيوطي، أرسل إليه عطية وطلب منه إرسال نسخة منه.[3]

د ـ التأليف وتبادل المعارف والكتب:

ترك العلماء المغاربة رصيدا فكريا في مصر والشام، من خلال المؤلفات التي وضعوها، في مختلف فروع المعرفة (المعقول والمنقول)، والتي كان لها دور في إثراء المكتبات المصرية والشامية، ومن أمثلة ذلك عبد الله بن محمد بن عبد الله الحسيني المغربي الأصل، القاهري الشافعي المعروف بالطبلاوي (ت 1027 هـ /1617م) الذي برع في آداب اللغة العربية، وكانت مؤلفاته كالقواميس الشهيرة مثل لسان العرب وغيره، فكانت مرجع المصريين لتحرّيه في تحريرها.[4]

والفقيه الأصولي أبو الحسن بن عمر القلعي بن بن علي المغربي المالكي (ت 1199 هـ/ 1784م)، دخل من تونس إلى مصر عام 1154هـ/ 1741م، وكانت له حواشي نافعة مثل حاشية على الأخضري على السلم في علم المنطق، وحاشية على رسالة محمد أفندي الكرماني في علم الكلام، وشرح على ديباجة شرح العقيدة المسماة " أم البراهين " في علم الكلام.[5] وكذلك محمد العلمي (ت 1134 هـ/ 1721م) هو من فاس، دخل مصر وترك مؤلفات منها " الأنيس المطرب " ترجم فيه لـ 12 من أدباء عصره وله " رسالة في معرفة النغمات

= السلطان السعدي أحمد المنصور المشهور بحبه للعلم وهم: أبو الفضل محمد العقاد الشاعر (المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 143) وإمام الدين الخليلي والشريف المدني (نفس المصدر ، ص 19).

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج2(دار الكتب)، ص 224.

(2) عبد الله محمد عزباوي، "الروابط الثقافية بين مصر والمغرب"، ص 252.

* كان علامة في جميع الفنون ولد في شنوان بمصر وأخذ عن علمائها، و كان بارعا في اللغة ومعاني الأشعار، تخرج عليه الكثير من الطلبة، وله مؤلفات منها: حاشية على متن التوضيح، وحاشية على شرح، القطر للفاكهي. أنظر: المحبي، المصدر السابق، ج1، ص79ـ 81.

(3) نفسه، ص80.

(4) نفسه، ج3، ص 66، 67.

(5) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 601، 602.

الثمان " في الموسيقى. ومنهم عبد الكريم المغربي كان حيا عام 1138 هـ/ 1725م، وهو مغربي الأصل مصري المولد، كان مشتهرا بعلم الميقات ومن مؤلفاته " الدرر الفاخرات في العمل بربع المقنطرات في جميع الأقطار والجهات".[1] و يوسف المغربي (ت 1019 هـ / 1610م) الذي كان لغويا وشاعرا، دخل مصر وألّف ما يشبه المعجم للكلمات الدارجة على لسان أهل مصر، ووازن بعضها مع الألفاظ المغاربية، وسماه " رفع الأصر عن كلام أهل مصر".[2]

وقد كان المغاربة الذين دخلوا مصر والشام، متضلعين في العلوم الرياضية كالفلك والكيمياء والطب والرضيات، وساهموا بذلك في نشر هذه العلوم وتعليمها بالمنطقة، أمثال إبراهيم بن محمد السوسي المالكي (ت1077 هـ/ 1666م)، الذي كان متضلعا في الرياضيات وعلم الأوفاق والزايرجا والرمل. ومحمد بن سليمان القاسي(ت 1090 هـ/ 1679م)، الذي كان بارعا في علم الحكمة والمنطق والرياضيات والحساب، الهندسة والأوفاق و السيمياء والكيمياء.[3]

و لعب المغاربة دورا هاما في مصر خلال عهد محمد علي باشا، وساهموا في النهضة العلمية في عهده خلال القرن 19م/ 13 هـ كعلماء ومترجمين ؛ مثل محمد عمر التونسي الذي عين كمحرر، ومصحح للكتب المترجمة، وكان يكتب مع ذلك تعليقات هامة على بعض تلك الكتب، واختير عام 1832م/ 1247 هـ مصححا بمدرسة الطب، وتعاون مع الدكتور برون* في مراجعة الكتب الطبية المترجمة إلى العربية. فشارك في تصحيح العديد من كتب النبات والطب، وسعى لطبع القاموس المحيط، وترجمة قاموس Fabre الطبي.[4]

وقد ساهم المغاربة في ازدهار المكتبات بمصر والشام، بما نسخوه من كتب ومؤلفات حفظوها من الإندثار، فالكثير من المؤلفات التي وجدت وكتبت في مصر، وحفظت في مكتباتها خلال تلك الفترة، نسخت عن طريق علماء أو نسّاخ مغاربة، حيث اشتغل هؤلاء بشكل كبير في نسخ الكتب، فكانوا ينسخونها ويبيعونها أو يستأجرون للقيام بذلك، و ساهموا بهذه المهمة في نشر العلم والعناية بالكتاب.[5] كما أن المغاربة كانوا مولعين بالكتب، فكانوا لا يتوانون عن شرائها، ولو بأغلى الأثمان فقد اشتروا عددا كبيرا من

(1) عبد الله محمد عزباوي، "الروابط الثقافية بين مصر والمغرب"، ص 242، 243، 246.

(2) ليلى الصباغ، "الوجود المغربي في المشرق"، ص 87.

(3) نفسه، ص 88.

* الدكتور برون هو من أساتذة المدرسة الطبية ، جاء لتعليم الطبيعيات ، وكان يعرف اللغة العربية ، فكان يعمل في تحرير الترجمات عن الفرنسية وترجم عدة كتب . أنظر : جورجي زيدان، المرجع السابق، ج4، ص169.

(4) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، "الإتصال الثقافي بين الزيتونة والأزهر"، ص 210.

(5) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المغاربة في مصر، ص 108.

الكتب في مختلف العلوم، ونقلوها إلى بلادهم واستفادوا بذلك من ثمار الفكر المصري حينها. وذكر الجبرتي أن أحمد بن عبد الله بن محمد الكتاني السوسي التونسي* (ت1193 هـ/ 1779م)، كان يرسل إلى الشيخ مرتضى الزبيدي قائمة كل سنة بالكتب التي يريدها، فيشتريها له خاصة كتب العلوم الغريبة.[1] وكان أبو العباس ناصر الدرعي (ت 1129 هـ/ 1716م) معتنيا بشراء الكتب، واقتنائها حيث كانت حتى قيل أنه اشترى كتبا من مصر بمائة مثقال ذهب. وفي عام 1196 هـ/ 1782م، طلب أحد المغاربة الجزائريين شراء كتاب "زيج أولغ بك" من عبد الرحمن الجبرتي بمبلغ كبير، فرفض لكنه مع ذلك اشترى نسخة الشيخ إبراهيم الزمزمي الحجازي (ت 1195 هـ/ 1780م) .[2]

ولم يقتصر التبادل الفكري على الكتب فحسب، بل إن الكثير من الطرق الصوفية المغربية دخلت إلى مصر والشام عن طريق الصلات غير المتناهية بين المنطقتين وبلاد المغرب، فقد أخذ الشاميون مثلا الطريقة الشاذلية عن الإمام محمد بن أحمد المزطاري المغربي**.[3] والعديد من الطرق الصوفية بمصر كانت أصولها مغربية.[4] وقد ترك العلماء المغاربة المتصوفة الذين دخلوا مصر والشام، تأثيرا كبيرا في المجتمع بمختلف طبقاته بفكرهم النقدي، واعتقد فيهم أهل البلد وصارت لهم شهرة بينهم . وقد جرت بين هؤلاء العلماء مطارحات أدبية وعلمية، وتناقشوا في قضايا فقهية ومسائل اجتماعية وفكرية شغلتهم، مثل قضية شرب القهوة والدخان، وعقد بعض المغاربة مجالس وعظ وذكر اجتمع فيها علماء البلد.[5]

كما تبادلوا المساعدة و الشورى في المسائل المستعصية، مثلما حصل عام 1226 هـ/ 1811م حين اختلف اثنان من علماء المغاربة حول وجود الظل، فأرسلوا الأمر إلى الشيخ الأمير الكبير فأجابهم بالإيجاب وضمن ذلك في كتابه " القول الميسور في الظلمة والنور ".[6] وبذلك يكون الوجود المغربي في مصر والشام، له بالغ الأثر في المجتمع وكان له دور كبير في تعميق وتوسيع دائرة الفكر، بما نجم عنه من تآليف وآثار حمل الكثير منها انطباعات نقدية، ساهمت في إثراء الرصيد الفكري بالمنطقة.

* اشتهر بعلمه في بلاد المغرب، وأعرض عن تولي المدارس وعكف على مطالعة الكتب الغربية. أنظر: الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 544، 545.

(1) نفسه، ص 545.

(2) عبد الله محمد عزباوي، " الروابط الثقافية بين مصر والمغرب"، ص 251.

** محمد بن أحمد المزطاري المغربي (ت1107 هـ/ 1695م) كان صوفيا أخذ الطريقة الشاذلية بالمغرب وأصبح شيخا لها. دخل دمشق عام 1096 هـ/ 1684 م) وأخذ عنه الطريقة الشيخ خليل العجلوني . أنظر: المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 80، 81.

(3) نفسه، ص 81.

(4) و هناك طرق صوفية كثيرة دخلت مصر والشام أصولها من المغرب للمزيد عد إلى كتاب: عامر النجار، الطرق الصوفية في مصر، المرجع السابق. =

2ـ العلاقات مع الأكراد* والفرس (العجم):

هاجر عدد من الأعيان والعلماء والمتصوفة الأكراد، موطنهم الأصلي ونزلوا في البلاد الإسلامية، خاصة أراضي الدولة العثمانية، في الفترة ما بين القرنين 16م و 17م /10 هـ/ 11 هـ، ووفد عدد كبير منهم إلى بلاد الشام خاصة دمشق، وأقام معظمهم بالصالحية.[1] و كان أغلبهم علماء محققون كبار، عمل بعضهم في مناصب دينية في الدولة العثمانية كالإفتاء، والقضاء والتدريس والأوقاف، وكان منهم المتصوفة الكبار، ولهذا فإنهم أثّروا كثيرا في الفكر بالمنطقة التي حلّوا بها، خاصة خلال القرن 17م/ 11 هـ و 18م/ 12هـ من خلال مؤلفاتهم وطرق تعليمهم، وآرائهم الصوفية.[2]

ومنهم أبو بكر الكردي العمادي الشافعي(ت 1006 هـ/ 1597م)، الذي دخل دمشق صغيرا وجاور بالمدرسة الكلاسة** بجانب الجامع الأموي، وأخذ الحديث والفقه على علماء دمشق، ثم تصدّر للتدريس بالجامع الأموي، بوجود شيوخه وقد انتفعت به الطلبة.[3] والمنلا أبو بكر بن عبد الرحمن الشافعي الكردي الحريري(ت 1077 هـ/ 1666م)، الذي كان بارعا في العلوم، ودخل دمشق عام 1071 هـ/ 1660م، واستوطنها ووجه إليه تدريس السليمية وقضاء صيدا، فدرّس بها وفي الجامع الأموي التفسير، فكان يحضره فضلاء الأكراد بالشام.[4]

ومن بينهم كذلك أحمد بن عثمان بن أبي بكر الكردي، السهراني الشافعي المعروف بالمجروحي (1008 هـ ـ ت1069هـ/1599 م ـ 1658م)، الذي نزل بدمشق عام 1025 هـ/ 1612م، وكان يقيم في عمارة شمسي أحمد باشا يقرئ فيها بالفارسية والعربية. ويكتب الكتب لنفسه ثم تولى تدريس المدرسة اليونسية*** وفي عام 1060 هـ/ 1650م، أخذ المدرسة القجماسية[5] وانتفع به عدد كبير من الناس.[6]

= (5) مثل الفقيه الشاوي الملياني الجزائري المالكي (ت 1096 هـ/ 1684م)، الذي دخل دمشق وعقد بجامع بني أمية مجلسا حضره علماؤها وشهدوا له بالفضل، ومد حه شعراؤها وأجاز الكثيرين. أنظر: المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 487.

(6) عبد الله محمد عزباوي، المرجع السابق، ص 251، 252

* بلاد الأكراد هي ما يسمى اليوم كردستان، ومن أشهر مدنها: كوران، حرير، صهران.

(1) ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 536، 537.

(2) تعود أسباب هجرتهم إلى هروبهم من التسلط الشيعي للدولة الصفوية خاصة الأكراد السنيين فهاجروا للبلاد السنية كالدولة العثمانية والولايات التابعة لها كالشام والحجاز ومصر وبسبب الحروب القائمة بين العثمانيين و الصفويين. أنظر: نفس المرجع، ص 537.

** لصيقة الجامع الأموي، وهي من مدارس الشافعية، عمّرها نور الدين الشهيد عام 555 هـ/1160م وأحرقت عام 570 هـ/ 1174م وسميت كذلك لكونها بنيت في موضع عمل الكلس وجددت مرات عدة. أنظر: النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص 341.

(3) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 110، 111.

(4) نفسه، ص 86، 87.

*** المدرسة اليونسية وهي تقع غربي الخانقاه الطواويسية، أنشأها الأمير الكبير الشرفي يونس داودار الظاهر برقوق عام 784هـ =

وقد أفاد الكثير من علماء الأكراد الشام بمؤلفاتهم، مثل حسن بن محمد بن إبراهيم الكردي الصهراني النورديني الشافعي(ت 1078 هـ/ 1667م)، الذي دخل دمشق عام 1075 هـ/ 1664م، وتولى تدريس السليمية، وعقد حلقة الدرس بالجامع الأموي، وترك مؤلفات هامة منها شرحه على البهائية، ورسالة في سورة المطففين، وكان دقيقا في تقريره.(1)

واشتغل بعضهم في نسخ الكتب، مثل حسن الكردي العمادي الشافعي(ت1048 هـ/1638م)، الذي دخل دمشق عام 1031 هـ/ 1621م، ودرّس بدار الحديث الأحمدية* وأفاد الطلبة، وكتب بخطه عدّة كتب وقفها على طلبة العلم، وهي جميعا كتب نفيسة.(2) وكان من بين الأكراد نزلاء دمشق من عرّف طلبة الشام بكتب جديدة، وساعدهم على قراءتها وإقرائها، حيث ساهم ذلك في انفتاحهم على علوم الفرس، حتى كان علماء الشام يلزمون طلبتهم بالتتلمذ عليهم.(3)

وخلال القرن 18م/ 12 هـ، كان هناك عدد كبير من الأكراد ،الذين درّسوا وأفادوا وألفوا مؤلفاتهم النافعة بالشام، خاصة في العلوم الغريبة كالزايرجا والحرف والأوفاق والرياضيات، أمثال محمود الجزري بن أبي بكر الكردي الشافعي (1076 هـ ـ ت 1141 هـ/ 1665 م ـ 1728م)، الذي كان بارعا في تلك العلوم ودخل دمشق ونفع أهلها بها.(4)

وذكرت كتب التراجم عددا من الأكراد، الذين لعبوا دورا في نشر العلم بمصر في القرن 18م، مثل إلياس بن إبراهيم الكوراني الشافعي(ت1138 هـ/ 1725م)، الذي عكف على إقراء العلوم العقلية والنقلية بمصر وله مـؤلفات هامة.(5) وعبد القـادر بن عبد الله الشافعي العبدلاني الكردي، (1143 هـ ـ ت 1178 هـ/

= أو 805 هـ/ 1371م / 1392م . أنظر: النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص 148.

(5) المدرسة القجماسية داخل باب النصر ودار السعادة نائب الشام قجماس الإسحاقي الجركسي (ت 892 هـ/ 1487م). محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص 95.

(6) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 242، 243.

(1) المحبي، المصدر السابق ، ج2، ص 78.

* في زقاق بني الجلبي بحلب، واقفها هو أحمد أفندي بن طه أفندي بن مصطفى أفندي عام 1166 هـ/ 1752م . أنظر: كامل الغزي، نهر الذهب ، ج2 ، ص 52، 58.

(2) المصدر السابق، ج4، ص 329، 330.

(3) أمثال حسن بن موسى الباني الكردي (ت 1148 هـ/ 1735م)، درس بدمشق وأفاد العام والخاص وكانت له مؤلفات هامة، مثل "شرح عوامل الجرجاني وشرح مواقع النجوم. (المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 36). ومحمد الشقلاوي بن أبي الشافعي الكردي (ت 1189 هـ/ 1775 م) تولى مدرسة الوزير سليمان باشا العظم والإمامة بمحراب الشافعي في الجامع الأموي. (نفسه، ج4، ص16) .

(4) نفسه ، ص 127.

(5) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 140.

1730م ـ 1765م)، الذي دخل حلب عام 1164هـ/ 1751م، ودمشق ثم رحل إلى مصر، واستجاز من علمائها ودخل بعد ذلك إلى الحرمين.[1] و يظهر أنهم انتشروا أكثر، في الشام والدولة العثمانية نظرا للقرب الجغرافي، وكان عددهم قليلا في مصر.

أما الأعاجم فقد انتقل عدد كبير من علمائهم إلى المشرق الإسلامي، سواء للإقامة في الدولة العثمانية بمدنها الكبرى، أو بمصر الشام خاصة في القاهرة ودمشق. وانخرط عدد منهم في الوظائف الإدارية والدينية خاصة أهل السنة منهم، فكانوا يجاورون في مدارس الشام، أو في الأزهر في الرواق الخاص بهم. ومن الأعاجم الذين نزلوا بدمشق محمد أمين الدفتري العجمي (ت 1019 هـ/1610م)، الذي التحق بالدولة العثمانية وتولى منصب دفتردار و متول وقف، وقد كلّفه السلطان المغربي أحمد المنصور السعدي، بجمع الكتب من المشرق وإرسالها إليه.[2]

ومنهم أيضا حبيب بن محمود النخجواني الأصل، نزيل صالحية دمشق (ت1016 هـ/ 1607م)، كان أحد الكتاب المشهورين بجودة الخط، وكان على معرفة باللغات الثلاث.[3] ومحمد بن نعمان بن محمد الشهير بالإيجي الدمشقي الشافعي (ت 1039 هـ/ 1629م)، الذي درّس ببعض مدارس دمشق وأفاد وكتب كتبا كثيرة وحواشي.[4] ومن المتصوفة الأعاجم محمد أمين المعروف باللاري الكبير الشافعي (ت 1066 هـ/ 1655م)، ورد حلب واستوطنها ثم دخل دمشق، وعظّمه أهلها ودرس أكثر فضلائها وأخذوا عنه.[5] فكان أهل الشام يأخذون العلم عن الأعاجم، سواء النازلين بمدن الشام خاصة دمشق أو المارين عليها، لما لهم من تضلع في علوم كثيرة خاصة علوم الحكمة والمنطق.[6]

أما الذين دخلوا مصر فمنهم الشاعر الأديب، معين الدين بن أحمد البلخي من بلخ (ت 1040 هـ/ 1630م)، الذي ولد في مصر وهو المعروف بابن البكا ، ودخل مكة وكان له شعر جميل، ورسالة في المعمى وله مؤلفات نافعة.[7] وروح الله بن محمد أمين الشرواني، (ت 1071 هـ/ 1660م)، الذي تدرج في مدارس

---

(1) المرادي ، المصدر السابق، ج3، ص 60.

(2) ليلى الصباغ، من أعلام الفكر، ص 475.

(3) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 500.

(4) نفسه، ج4، ص 249.

(5) نفسه، ص 208، 209.

(6) نفسه، ج2، ص 149. من أمثلة الدمشقيين الآخذين عن الأعاجم: درويش محمد أبو المعالي الطالوي الأرتقي (ت 1014 هـ/ 1601م) أخذ عن أحد الأعاجم الواردين لدمشق مثل المولى محمد بن حسن المغني" حاشية المطالع ومنلا زاده في الحكمة " " وأخذ عن سراج الدين التبريزي لما دخل دمشق.

(7) نفسه، ج4، ص 406، 407.

القسطنطينية، وتولى قضاء القدس ثم حلب ومصر و أدرنة، وكان مولعا بالشعر والتاريخ وعلم النجوم.[1]

أما علماء الشام ومصر، فقد هاجروا إلى بلاد العجم خاصة الشيعة منهم، أو من اتهم بالتشيع. ومن بينهم عالم شيعي شامي، استقر في بلاد العجم أيام الشاه عباس وغدا رأس علمائها، ثم زار موطنه الشام سرا، وجرت له اتصالات ومناقشات مع علماء بلده، وهو محمد البهاء العاملي الهمذاني(953 هـ - ت 1031 هـ/ 1546م - ت 1621م)، كان متضلعا في دقائق الفنون وهو من بعلبك، ولما استقر بالعجم ذاع صيته وقصدته العلماء، وترك مؤلفات نافعة.[2]

3- العلاقات مع بغداد و اليمن:

لقد وفد علماء بغداد إلى مصر والشام، سواء طلبا للعلم أو للمناصب الرفيعة، في إطار حركة التنقل التي كان يشهدها العصر، وقد ساهموا في التبادل الفكري، بينهم وبين علماء مصر والشام. خاصة وأنهم كانوا متضلعين في علوم شتى كالعلوم العقلية، الحكمة والمنطق والعلوم الرياضية كالفلك والحساب، الهندسة. وكانوا على معرفة باللغات الفارسية والتركية إلى جانب العربية، مما أهّلهم للإطلاع على التراث الفكري الإسلامي، والمساهمة به في إنعاش الحياة الفكرية بالمنطقة، من خلال مشاركتهم في التعليم وحركة التأليف. ولم يغنهم تضلعهم في العلوم، عن الأخذ عن علماء البلد، بل جاور بعضهم سنين ولازم واستجاز من الشيوخ في مختلف فروع المعرفة.

ومن علماء بغداد الذين دخلوا القاهرة ودمشق، عبد القادر بن عمر البغدادي (1030هـ - ت1093هـ /1620-1682 م)، الذي كان متضلعا في اللغات الثلاث، وله إطلاع على كلام العرب ووقائعهم وحروبهم وقد أخذ في دمشق عن محمد بن كمال الدين نقيب الشام، والنجم محمد بن يحي الفرضي، وأقام مدة سنة ثم رحل إلى مصر عام 1050 هـ/1640م، وأخذ بها العلوم الشرعية والنقلية عن علماء الأزهر.[3]

ومنهم أيضا محمد بن عبد الملك البغدادي الحنفي(ت 1016 هـ/1607م)، المتضلع في المعقولات كالطبيعيات والرياضيات، وعلم الكلام والمنطق والبيان والعربية، وجاور بجامع دمشق الأموي، ثم انتقل إلى المدرسة العزيزية* وقرأ على علمائها، وتولى التدريس في الدرويشية، وتولى مشيخة الجامع الأموي.[4]

(1) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص171، 172.

(2) نفسه، ج3، ص 440، 441، من مؤلفاته: الملخص في الهيئة، تشريح الأفلاك، الرسالة الإسطرلابية.

(3) نفسه، ج2، ص 451، 452.

* تقع شرقي التربة الصالحية وغربي التربة الأشرفية، وشمالي دار الحديث الفاضلية، أسسها الملك الأفضل وأتمها الملك العزيز. أنظر: محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص 86.

(4) المصدر السابق، ج4، ص 32، 31.

ومن البغداديين الذين تولوا التدريس بالشام، محمد بن خليل عبد الله (1125 هـ ـ ت 1173 هـ/ 1713م ـ 1759م)، حيث أقام بدمشق وأخذ الكثير عن شيوخها، فأذنوا له بالتدريس فدرّس بالمدرسة الأحمدية، وقد ورد عليه الطلبة وتخرّج عليه عدد كبير من العلماء.(1) وانتفع أهل الشام بالخطاطين الذين دخلوا من العراق، واشتغلوا في دمشق بنسخ الكتب وتلقين الخط.(2)

ومنهم من كان فقيها أصوليا ودخل الشام للتفقه أكثر على علمائها، مثل عبد القادر الشافعي (ولد 1120 هـ / 1708م) أصله من دير الرحبة ببغداد، والذي دخل حلب عام 1136 هـ / 1723م، وأخذ عن علمائها الفرائض والفقه، مثل جابر الحوراني الحلبي وأخذ النحو عن عبد السلام الحريري، والبيان والمعاني والمنطق والحديث، ثم إنه تولى التدريس بحلب وانتفع به الطلاب .(3)

و انتفعت بلاد الشام بهؤلاء الوافدين، فقد كان عمر البغدادي بن عبد الجليل الحنفي (1155 هـ ـ ت1194 هـ/ 1742م ـ1780م)يفيد الطلبة الذين يلازمونه، فيقرئ دروسا خاصة وعامة في كل أيام الأسبوع، وفي سائر الفنون كالفقه والحديث والكلام وغيره، وألف مصنفات مفيدة.(4) وترك بعضهم الآخر مؤلفاته مثل عبد القادر الصديقي البغدادي الصوفي (ت 1148 هـ/ 1735م)، الذي كان جامعا بين العلم والتصوف، وترك مؤلفات منها، شرح قصيدة عبد الغني النابلسي ورسالة في وحدة الوجود.(5) وحصلت بين أدباء حلب وأدباء العراق المطارحات الشعرية، كما كانوا يفدون إلى حلب خاصة لكونها كانت زاخرة بالشعراء.(6)

وفي مصر استقر عدد من علماء بغداد، سواء الذين عينتهم الدولة العثمانية، في مناصب القضاء أو الإفتاء وغيره، أو أنهم قدموا إلى الأزهر لتلقي العلوم، مثل الصوفي محمد سعيد بن أبي بكر بن عبد الرحيم الحسيني البغدادي الذي دخل مصر عام 1171 هـ/ 1759م.(7) وعبد االله بن سالم الشافعي (1048 هـ ـ ت 1134 هـ/ 1638م ـ ت 1721م)، نشأ بالبصرة ولما دخل الأزهر أخذ عن علمائه؛ مثل البشبيشي و الشرنبابلي وأجازه حسن الجبرتي وغيره.(8)

---

(1) المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 39.

(2) مثل: عبد الله المعطي بن معتوق الحلبي البيري الحنفي هو من العراق (ت 1174 هـ/ 1760م) دخل حلب ودمشق. أنظر: نفس المصدر، ج3، ص 138.

(3) نفسه، ص 61.

(4) نفسه، ص 180.

(5) نفسه، ص 61، 62 . وهناك صوفي آخر دخل دمشق هو حسن بن مصطفى البغدادي القادري النتقشندي (ت 1182 هـ/ 1769م) قطن بالجامع الأموي وله مؤلفات في التصوف منها: " معراج في أحوال الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي". نفس المصدر، ج2، ص33.

(6) مثل: جرجيس الأديب الموصلي (ت 1141 هـ / 1728م) دخل حلب وكان فصيحا وذا بلاغة وتطارح مع أدبائها. نفسه، ج2، ص7، 8.

(7) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 332، 333. =

ومن البارعين في العلوم الرياضية، محمد العبدلي العراقي (ت1166 هـ / 1752م)، الذي كان متضلعا في الطّب والرياضيات وعارفا بالزيج، والإسطرلاب والهيئة والحساب والمنطق، وجاور بالأزهر ونفع وانتفع بعلمائه.[1] ومنهم من كان خطاطا مثل خليل أفندي البغدادي، (ت 1202 هـ / 1787م)، الذي دخل مصر وكان يحسن الخط، وعلّمه للأمير مراد بك وكان يملك كتبا كثيرة. [2]

أما عن العلاقات مع اليمن، فقد كانت الصلات الثقافية موجودة، بين علماء اليمن ونظرائهم في مصر والشام، خاصة خلال القرن 17م و 18م، حيث هاجر اليمنيون إلى المنطقة، وكان لهم دور في الحياة التعليمية بما أفادوا، وحتى علماء مصر والشام كان منهم من استوطن اليمن ودخل مجالس سلاطينها، وصار له مقام رفيع بين أهلها، ومن بين هؤلاء في القرن 17م/ 11 هـ الشيخ على المحلي الشافعي (ت 1090 هـ / 1679م) من مصر، الذي كان فقيها ومفتيا رحل إلى اليمن واجتمع بالإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم ، وحظي عنده بالتقدير والإكرام حتى رجع إلى بلده. [3]

ومحمد بن حجازي بن أحمد الرقباوي الإنبابي(ت 1078 هـ/ 1667م)، الذي كان من أشهر الشعراء بمصر في القرن 17م، دخل اليمن ومدح أئمة بني القاسم، وأصبحت له هناك شهرة ومكانة عظيمة.[4] ومن أهل الشام أحمد بن محمد بن يونس البدري(ت 1071هـ / 1660م)، وهو من القدس دخل إلى اليمن مع والده عام 1011 هـ / 1602 م، فأخذ عن علمائها وله مؤلفات عديدة. [5]

ومن دمشق جمال الدين بن نور الدين الحسيني الدمشقي (ت1098 هـ / 1686م)، كان أديبا وشاعرا ودخل اليمن، أيام الإمام أحمد بن حسن * ومدحه بقصيدة واشتهر أمره.[6] ورحل العلامة أحمد بن محمد الدمياطي الشافعي(ت 1117 هـ/ 1705م)، في القرن 18م/ 12 هـ طلبا للعلم إلى الحجاز ودخل اليمن، واجتمع فيها بسيدي أحمد بن عجيل ** فأخذ عنه الذكر عن طريق النقشبندية، ولازمه حتى أجازه وأمره

= (8) نفسه، ص 132.

(1) المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 125.

(2) الجبرتي، المصدر السابق، ج2(دار الكتب)، ص 261 .

(3) المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 202.

(4) نفسه، ص 415.

(5) نفسه، ج1، ص 344.

* أحمد بن الحسن بن القاسم، هو إمام اليمن ولي الإمامة بعد عمه ولقب نفسه بالمهدي، وكان مشهورا في اليمن ومحبا للعلوم والشعر وألف الأدباء في سيره مؤلفات عديدة. (ت 1092 هـ/ 1679م). نفس المصدر، ص 180، 181.

(6) نفسه، ص 494، 495.

** أحمد بن محمد بن عجيل أبو الوفا اليمني تلقى العلوم على أهل بلده واستوطن زبيد وقرأ الحديث وأخذ طريق النقشبندية عن تاج الدين النقشبندي، (982 هـ ـ ت 1074 هـ/ 1574م ـ1663م). نفس المصدر، ص 346، 347

بالرجوع إلى بلده وتلقين الطريقة.[1] وهذا دليل على حركة التواصل، التي ساهمت في نشر الطرق الصوفية. وفي مقابل ذلك دخل أهل اليمن مصر والشام ،ففي القرن 16م/10هـ دخل إلى الشام ابراهيم بن محمد اليمني الزبيدي المالكي (936هـ/1529م)، ومكث بدمشق ولازم علماءها وأخذ عنهم الفقه الشافعي.[2] أما خلال القرن 17م/11 هـ دخل بلاد الشام، الشيخ أحمد بن علي اليمني فمرّ بحماه، وكان متبحرا في جميع العلوم، فقرأ عليه محمد بن أبي بكر العلواني الحموي (949 هـ ـ ت 1016هـ / 1536م ـ 1603م) شرح الكافية للمنلا جامي، وشرح العقائد ولازمه سنين طويلة.[3]

ومن علماء اليمن المشهورين خلال القرن 18م/ 12 هـ، عبد الرحمن بن مصطفى بن شيخ العيدروس الشافعي الحسيني اليمني(1135 هـ ـ ت 1192 هـ / 1722م ـ 1778م)، الذي كان من أصحاب الكرامات ومن أهل التصوف، دخل مصر واستقبله أهلها، ودخل دمشق عام 1182 هـ/ 1768م، وله مؤلفات منها منظومة " العرف العاطر في معرفة الخواطر ". وقد هرع إليه صلحاء وعلماء مصر لّما دخلها، وصارت بينه وبينهم مطارحات ومذاكرات، وتلقى هو عن شيوخها مثل الملوي والجوهري، وزار عدة مدن بمصر واجتمع بعلمائها كالإسكندرية ودمياط. وحتى في الشام زار عدة مدن غير دمشق مثل غزة، نابلس، بيروت، صيدا، وهرع إليه أدباؤها وناظروه ومدحوه.[4] ومنهم أيضا محمد بن زين بأحسن جمل الليل الحسيني باعلوي التريمي (ت 1196 هـ / 1781م)، الذي دخل مصر عام 1181 هـ/ 1767م زائرا، وأخذ عن علمائها وكان له معرفة في الطب والتصوف.[5]

4ـ العلاقات مع الهند:

لقد هاجر عدد من علماء الهند إلى مصر والشام، وبالمثل هناك الكثير من المصريين والشوام انتقلوا إلى الهند، طلبا للتجارة أو العلم أو التعليم أو حتى بسبب استدعاء أمراء الهند لهم، وقد شغل بعضهم مناصب رفيعة في الإدارة هناك. ويوضح ذلك الصلات غير المنقطعة بين المنطقتين.[6] ومن علماء الهند أبو بكر السندي الشافعي(ت 1018 هـ/1609م)، الذي نزل بدمشق وكان عالما في المعقولات، وجاور بالطواشية شرقي الجامع الأموي نحو عشر سنوات، وقد درس وانتفع به الطلبة، ولازموه حتى مات.[7] وخضر بن

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس) ، ص 142 .

(2) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج2، ص75.

(3) المحبي، المصدر السابق، ج3، ص323.

(4) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 328، 329. الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس) ، ص 528.

(5) الجبرتي، نفسه، ص 566.

(6) ليلى الصباغ، من أعلام الفكر، ص 388، 389. =

حسين المارديني سبط الهندي(ت 1022 هـ / 1613م)، الذي دخل حلب عام 1013 هـ/ 1604م، وكان عارفا بالألسن الثلاث وله فيها إنشاء ونظم، وجرت بينه وبين علماء وأدباء حلب مطارحات أدبية، وألقى دروسا للطلبة وترقى في المناصب.(1)

وخلال القرن 18م/ 12 هـ، دخل الشيخ عبد الرحيم بن محمد بن أحمد الحنفي الكابلي الهندي (ت 1135 هـ/ 1722م)، إلى دمشق عام 1080 هـ/ 1669م، وأخذ عن علمائها وتولى التدريس في جامع تنكز* وبالمدرسة العذراوية**، منذ عام 1121 هـ/ 1709م. (2) أما من المتصوفة فدخل من الهند إلى دمشق عليم الله بن عبد الرشيد العباسي الحنفي، النقشبندي اللاهوري الهندي (ت 1176 هـ/ 1762م)، الذي كان صوفيا ولكن له معرفة في شتى العلوم كالمنطق، الفلسفة، النحو والصرف، وولي المدرسة القيمرية*** بدمشق، وكان يمكث في تكية يحضره فيها أهالي دمشق، ومجالسه كلها عامرة بالآداب والمعارف، وانتفع منه الناس كثيرا. (3)

وكان من علماء الهند الذين دخلوا مصر في القرن 18م/ 12 هـ، عالم متضلع في العلوم الرياضية، والمعارف الحكمية والفلسفية، وهو الشيخ حسام الدين الهندي الذي نزل بمسجد في مصر القديمة، فاجتمع حوله الطلبة مثل الوسمي وأحمد الدمنهوري، وتلقوا عنه علم الهيئة، وأخذ عنه حسن الجبرتي أشكال التأسيس في الهندسة، وتحرير إقليدس، وعلم الأرتماطيقي****، والجغرافيا وعلم المساحة. (4) ولاشك أن علماء مصر، قد انتفعوا بهذا العالم الهندي، خاصة وأن أشهر علماء مصر مثل حسن الجبرتي تتلمذ على يده وأخذ عنه العلوم الرياضية، التي انفرد بها بين نظرائه في مصر.

= (7) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 112.

(1) المحبي، المصدر السابق ، ج2، ص 130.

* جامع تنكز: دار القرآن والحديث شرقي حمام نورالدين الشهيد بسوق البزورية وتجاه دار الذهب، بناها نائب السلطنة ورتب فيها المشايخ (القرن 8 هـ/ 14م) . أنظر: النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص 91.

** المدرسة العذراوية بحارة الغرباء داخل باب النصر وهي وقف على الشافعية والحنفية أنشأتها الست عذراء بنت أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب عام 580 هـ/ 1184م . نفس المصدر، ص 283.

(2) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 261.

*** المدرسة القيمرية الجوانية بحارة القيمرية ، وهي من إنشاء الأمير ناصر الدين القيمر أحد أمراء الجند، وهي للشافعية . محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص 88.

(3) المصدر السابق.

(4) هو لفظ يوناني أطلقه العرب على علم الحساب الذي يبحث عن خواص العدد، سواء كان على التوالي أو بالتضعيف. مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، " أ " ، ص 23.

(5) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 453.

وفي مقابل ذلك رحل عدد من علماء الشام إلى الهند، مثل السيد جمال الدين بن نور الدين الحسيني الدمشقي (ت 1098 هـ/ 1687م)، الذي كان أديبا وشاعرا دخل إلى الهند وأقام بها بصفة دائمة، وأصبح نديما في مجلس صاحب الهند، وهو الملك أبو الحسن ومال إليه ومدحه.[1] والسيد محمد بن علي الحشري العاملي (ت بعد 1090 هـ/ 1679م) من جبل عامل، الذي أقام بالهند، وكان أديبا وشاعرا استدعاه سلطان الهند إلى حضرته فصار من ندمائه، وكان بارعا في النحو والبيان والحساب.[2]

إن هذه الفعاليات الفكرية بين مصر والشام، وباقي أقطار العالم الإسلامي، كما صورتها كتب التراجم بين القرنين 16م و 19م، توحي بالحركية الفكرية وحب العلم والسعي لطلبه في أي مكان، مما يستبعد القول بأن فترة العهد العثماني بمصر والشام، كانت مرحلة جمود فكري، فقد تواصلت هذه الفعاليات والعلاقات الفكرية، حتى خلال القرن 19م بل ازدادت، وكما ساهمت تلك الاتصالات في القرنين 16 و 18م في صبغ الفكر العربي الإسلامي تقريبا بصبغة واحدة في كل أنحاء العالم الإسلامي، وعملت على استمرار الثقافة العربية الإسلامية الأصلية، وحافظت على التراث والأصالة، دون أن يطرأ عليها جديد واضح، فإنها خلال القرن 19م، ساهمت في نشر أسس النهضة الفكرية، في أنحاء العالم الإسلامي انطلاقا من مصر والشام.

---

(1) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 494، 495.

(2) نفسه، ج4، ص 65، 66.

الفصل الثالث:

التعليم في مصر والشام

المبحث الأول: مؤسسات التعليم .

المبحث الثاني: تنظيم مؤسسات التعليم.

المبحث الثالث: مناهج التعليم و طرائقه.

المبحث الرابع: المكتبات.

الفصل الثالث: التعليم في مصر والشام

لقد تركت الدولة العثمانية لمصر والشام، مدارسها وتقاليدها التعليمية، التي تميزت بها قبل العهد العثماني، واستمرت في مسارها السابق دون أن يتدخل العثمانيون في أوقافها، وطرائق التدريس بها، أو إعاقتها عن أداء مهامها، بل على العكس من ذلك قاموا بتدعيمها وحمايتها، وإن كانت بعض المدارس ساءت أحوالها؛ فذلك راجع إلى ضعف إراداتها من الأوقاف، وليس بسبب قيود فرضتها السلطة العثمانية. ولا توجد أدلة على انحطاط مستويات التعليم ووسائله، عما كانت عليه في أواخر العهد المملوكي.[1]

لقد بينت المؤلفات المعاصرة، أن الغالبية العظمى من مساجد القاهرة و الأقاليم، كانت في العصر العثماني إلى منتصف القرن 19م/13هـ، تضم مدارس عامرة بأساتذتها وطلابها، بحيث أن الكثير من الطلاب والأساتذة، انتقلوا إليها بعد أن ضاق بهم الأزهر.[2] و هناك إشارات كثيرة تدل على أن المدارس التي بناها الأمراء والسلاطين في العصر المملوكي، كانت ما تزال تقوم بوظيفتها التربوية خلال العهد العثماني.[3]

وكذلك الشأن بالنسبة لبلاد الشام، فقد استمرت المدارس التي أنشأت في العصر المملوكي في نشاطها، ولم تكن دمشق فقط، هي المركز العلمي الوحيد في بلاد الشام؛ بل كان هناك مدارس وجوامع تعقد فيها الدروس في معظم المدن الكبرى مثل: حلب، طرابلس، حماه، نابلس، القدس، غزة، عكا، حمص، الرملة، بعلبك، صيدا.[4]

وذكرت كتب التراجم المعاصرة، حركة تعليمية نشيطة، ظلت قائمة بين علماء هذه المراكز العلمية، ولم تنقطع طوال العهد العثماني، إلى أواخر النصف الأول من القرن 19م/13هـ ، واكتسبت دمشق شهرة أكبر؛ لكونها أقدم مركز علمي في الشام؛ ولكثرة مدارسها وجامعها الأموي الكبير، فقد كان بها مجاورين من أنحاء المدن الشامية.[5] وفوق ذلك كله شهد العصر العثماني، نشاطا معماريا ملحوظا، حيث قام العديد من الولاة والأمراء، ببناء المساجد والزوايا والأضرحة، والكتاتيب التي كانت تقوم بدورها في التعليم.[6]

---

(1) ليلى الصباغ، من أعلام الفكر، ص 32.

(2) كمال حامد مغيث، مصر في العصر العثماني 1517ـ1798م المجتمع والتعليم، تق. رؤوف عباس، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، القاهرة، مصر، ط1، 1997م، ص 135.

(3) أوليا جلبي، سياحتنامه مصر، تر. محمد علي عوني، تح. عبد الوهاب عزام، أحمد السعيد سليماني، تق. ومر. أحمد فؤاد متولي، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، مصر، (د.ط)، 2003م، ص 311.

(4) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 173.

(5) هناك إشارات كثيرة في كتب التراجم تدل على ذلك أنظر : المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 41، 42، 80، 81، 93، 105، 218 و المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 44، 123. و ج3، ص 404. =

ومنذ دخول العثمانيين إلى مصر والشام، خلال القرن 16 م وإلى منتصف القرن 19م، ظلت هذه المؤسسات التعليمية التقليدية في نشاطها المعتاد، وظهر إلى جانبها منذ مطلع القرن 19 م، مدارس حديثة مختلفة عنها؛ لكونها كانت قائمة على النظم الأوروبية؛ ولهذا شهد النصف الأول من القرن 19 م سواء بمصر و الشام أو في الدولة العثمانية* ككل، ازدواجية في التعليم؛ فتمثلت المدارس الحديثة في مدارس الإرساليات، ومدارس محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا التي أنشأت بمصر والشام، فقد بقي التعليم التقليدي قائما بمعاهده ودراساته و علمائه، وفي المقابل قام نظام تعليمي موازٍ له، على الطراز الحديث مختلف عنه في طرائقه ومؤسساته.[1]

ولم تقتصر الاختلافات بين هذان النظامان في المؤسسات والطرائق، بل اختلفا حتى في الأهداف، فالتعليم التقليدي كان يهدف إلى الاستمتاع الفكري، والتثقيف والتأمل العقلي.[2] وهو يعد الفرد لوظائف دينية بالدرجة الأولى كالقضاء والإفتاء، والخطابة والتدريس وغيرها. وكان متاحا لكل فئات المجتمع دون استثناء؛ فهو يهدف لتثقيف المجتمع بصفة عامة، فكان من بين الناس من يطلب العلم، دون الرغبة في الوصول إلى وظيفة وإنما لطلب العلم في ذاته. فلم تكن المؤسسة التربوية في هذا النظام، تقف مهمتها عند حدود تلقين الطلاب العلم ومبادئه، وإنما كانت تمتد لتشمل التصدي لمشكلات المجتمع، والربط بين الفكر والتطبيق.[3]

بينما المدارس الحديثة التي أنشأها محمد علي سواء بمصر أو الشام، فكانت تهدف بالدرجة الأولى إلى أهداف عسكرية، وهي إعداد ما تحتاجه الحكومة من موظفين في الإدارة والجيش، وتأهيل الشباب للخدمة العسكرية.[4] فقد كان تعليما وظيفيا كل مدرسة كانت تسعى لإعداد موظفين لوظيفة معينة.[5] ولم يهدف هذا النظام من التعليم إلى تثقيف المجتمع، لتسهيل أمور حياته مع أن ذلك من أهم أهداف التعليم، وذلك لأن محمد علي لم يسعى إلى تعميم التعليم، بين فئات المجتمع كله، بل بقي ضمن حدود ضيقة ومقتصراً على

= (6) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 136.

* قام السلطان العثماني محمود الثاني في القرن 19م، بتجربة لإصلاح التعليم بحيث ترك المعاهد القديمة على حالها في اسطنبول والمدن الأخرى، ولم يجري أي محاولة لإعادة تنظيمها، بل أنشأ بالموازاة معها معاهد مستقلة ومختلفة عنها على النمط الأوروبي الحديث.

(1) أحمد عزت عبد الكريم، المرجع السابق، ص 261 . أنظر: سعد مرسي أحمد، سعيد إسماعيل علي، تاريخ التربية والتعليم، عالم الكتب، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1972م، ص 363.

(2) سعد مرسي وآخرون، نفسه، ص 36.

(3) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 176، 177.

(4) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 94. شمس الدين الرفاعي، المرجع السابق، ص 33، 34.

(5) سعد مرسي وآخرون، المرجع السابق، ص 350، 352.

فئات معينة فقط.[1] واقتصرت أهداف المدارس،التي أنشأتها الإرساليات في الواقع،على إعداد مبشرين للمذهب الذي تنتمي إليه،أكثر من رغبتها في تنوير الأذهان. ولذلك فإلى غاية منتصف القرن 19م سواء بمصر أو الشام بقي النظام التقليدي طاغيا ومنتشراً في نطاق واسع وبين كل فئات المجتمع، وكان له تأثير كبير في استمرار التقاليد الفكرية المتوارثة عكس التعليم الحديث الذي ظل ضيق النطاق، واستمر لفترة محدودة إلى غاية عام 1841م على الأرجح.

ومع ذلك يمكن القول أن التطور في نظام التعليم بمصر والشام بدأ يعرف خطواته الأولى منذ مطلع القرن 19م، في أول تجربة إصلاحية لهذا النظام بالمنطقة، حيث بدأت مظاهر التأثير الأوروبي تظهر على مؤسساته ومناهجه، وهو يدل على بداية مرحلة من مراحل التحولات الفكرية، والتي كان التعليم مظهراً من مظاهرها.

---

(1) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 95.

المبحث الأول : مؤسسات التعليم

1 ـ المؤسسات التقليدية

أ ـ الكتاتيب :

كانت الكتاتيب نوعا من المؤسسات التعليمية في العهد العثماني، وهي تمثل المدرسة الإبتدائية، وقد استمرت هذه المؤسسة في النشاط إلى غاية القرن 19م، فكان دور الكتاب يقتصر على تلقين المبادئ الأولى للقرآن الكريم واللغة، وتعليم القراءة والكتابة. وحسب الرحالة أوليا جلبي، فإن الكتاتيب كانت منتشرة كثيرا في مصر خلال القرن 17م/هـ11.[1] و حتى خلال القرن 12/18هـ ومطلع القرن 13/19هـ ظلت موجودة بالقاهرة والمدن الكبرى ،وحتى في القرى بشكل ملفت .[2] وكذلك الشأن في بلاد الشام كان الكتاب منتشرا في معظم القرى والمدن.[3]

ولم تكن الكتاتيب بالضرورة ذات بناء مستقل؛ بل كانت في أغلب الأحيان ملحقة بالمساجد أو مبنية فوق الأسبلة* ، والكثير منها كان موجودا في الزوايا و الخوانق والترب، وحتى في بيت الشيخ المدرس، وقد تكون في أي مكان آخر صالح للتعليم.[4] وانقسم الكتاب إلى نوعين فإما أن يكون كتابا للأيتام والفقراء، يؤسسه الأثرياء أو رجال الدولة عن طريق الوقف، بحيث يحددون من الوقف أجر الشيخ ونفقات الأطفال من غذاء وكساء. وإما أن يكون كتابا خاصا أسسه الشيخ؛ ليعلم الأطفال بأجر يأخذه منهم.[5] وبذلك يكون التعليم مجانيا إذا كان من تمويل الأوقاف.[6]

وكانت الوقفية تحدد الوظائف وعدد الموظفين والرواتب المخصصة لكل منهم، ويكلف الواقف ناظر

---

(1) أحصى أوليا جلبي نحو 2015 كتابا في القاهرة. أوليا جلبي، المصدر السابق، ص 216 بينما ذكر مؤرخ تركي أن عددها خلال القرن 17م أي في نفس الفترة كان يبلغ 6176 كتابا. أنظر: أوزوتونا يلماز، المرجع السابق، ص 489.

(2) ج.د ي. شابرول، وصف مصر "المصريون المحدثون"، تر. زهير الشايب، د. دار النشر، القاهرة، مصر، ط 3، 1992م، ص 75.

* جمع سابلة وهي مشتقة من كلمة سبيل، وهي أماكن لبيع المؤن واللوازم للجيش أو لعابري السبيل وتكون عادة في الطرق الرئيسية. أنظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، "س"، ص 233.

(3) علي المحافظة، الحركات الفكرية...في فلسطين، ص 31.

(4) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 309.

(5) نفسه، ص 310.

(6) محمد أحمد، "الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني (1876 ـ 1918م)"، مجلة جامعة دمشق، ع1ـ2، مج27، دمشق، سوريا، 2011م، ص 313.

الوقف بالإشراف عليها و إلا يشرف عليها بنفسه . وقد اختلفت أحجام الكتاتيب، حسب ما تتسع له من أطفال.[1] ولم يظهر ما يبين أن الدولة العثمانية، قد تدخلت سلبا أو إيجابا في هذه الكتاتيب، بل كانت تكتفي بالإشراف على أوقافها، عبر القاضي إذا كانت لها أوقاف.[2] وقد كان للطوائف الدينية المسيحية واليهودية بمصر والشام كتاتيب خاصة بهم، لا تختلف عن كتاتيب المسلمين. ففي الشام كانت الكنيسة أو الدير أو أي بيت خاص يمكن أن يعلم فيه المعلم تلاميذه المبادئ الأولى من الكتاب المقدس وغيرها، مثل اللغة السريانية التي كانت تدرس في القرن 16م/10 هـ.[3]

وكذلك الشأن عند الأقباط بمصر؛ حيث وجدت العديد من الكتاتيب القبطية، معظمها داخل الكنائس بالمدن والقرى، حيث كان يوجد كتاب على الأقل في كل قرية مصرية.[4] وكان الأطفال سواء ذكورا أو إناثا يلتحقون بالكتاب، غير أن عدد الإناث كان أقل، وكن ينقطعن عن الدراسة في سن 8 أو 9 سنوات.[5] ولعب الكتاب دورا هاما في انتشار العلم، في أوساط المجتمع بمصر والشام، رغم عدم توفر الظروف الملائمة للتعليم فيه، ومع ذلك منح للأطفال رصيداً معرفيا، أهلهم ليكملوا دراساتهم في الجوامع .[6]

ب ـ الجوامع والمساجد:

لقد لعب المسجد أو الجامع منذ عهد الرسول صلى الله عليه والسلم دوراً هاما في نشر العلم، وكان منذ ذلك العهد مركزا من مراكز التعليم، فحلقات الدروس فيه خلقت حركة تعليمية ساهمت في ازدهار الثقافة الدينية والعلمية؛ بما كان يحصل فيها من مجادلات فكرية وأدبية ودينية. وظلت المساجد حتى في العصور التالية لعصر الرسول صلى الله عليه وسلم المركز التعليمي الأول، الذي تخرج منه العديد من العلماء في مختلف الفنون.[7] واستمر دوره التربوي خلال العصر العثماني بمصر والشام.

---

(1) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 171، 172.

(2) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 310.

(3) نفسه، ص 309، 311. علي المحافظة، الحركات الفكرية، ص 32، فريد جحا، الحياة الفكرية في حلب، ص79.

(4) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 208، محمود فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 664، 665.

(5) دي. شابرول، المصدر السابق، ص 36. أنظر : منير عطا الله سليمان، رشدي لبيب، محمود عبد الرزاق شفشق، تاريخ ونظام التعليم في جمهورية مصر العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط3، 1972م، ص 60.

(6) أكمل الدين أحسان أوغلي، المرجع السابق، ص 310.

(7) حسين أمين، "المسجد وأثره في تطوير التعليم"، مجلة دراسات تاريخية، ع. 5، يوليو 1981م، ص 7ـ11.

1ـ في مصر :

الجامع الأزهر: لقد تصدر الأزهر كجامع وجامعة، قمة المؤسسات التعليمية القائمة بمصر وخارجها، منذ تأسيسه في العهد الفاطمي*. واستمر حتى خلال العهد العثماني، فلم يتدخل العثمانيون في مناهجه الدراسية ولا في حلقاته وأوقافه، بل قدموا له كل الاحترام، وظل يتمتع بمكانه علمية خاصة لكونه كان يمثل المذهب السني، كما بقيت له موارده المالية التي تنفق على التعليم.[1] وكان في الأزهر أروقة** مخصصة للطلبة المجاورين والعلماء؛ فمنها أروقة مصرية مخصصة لأهل البلد مثل : رواق الصعايدة، الفيومية والشرقاوية و الشنوانية و الفشنية ورواق البحرية، ومنها أروقة للغرباء، تجمع طلابا من مختلف الأمم الإسلامية مثل: رواق المغاربة والشوام والأتراك، ورواق الجبرت***، ورواق الحرمين، والبغدادية وغيره.[2]

وكان يضم هيئة تدريس لها دور كبير، في تعليم الطلاب من جهة وقيادة الجماهير من جهة أخرى، ضمت الفقهاء والأدباء والشعراء والمتصوفة. وحظي الطلاب المتخرجون من الأزهر بمكانة مرموقة في مصر، وحتى في البلاد الإسلامية الأخرى. وقد استمرت الحلقات الدراسية[3] في الجامع، خلال العهد العثماني غير منقطعة ليلا ونهارا.[4] بحيث وفر الأزهر التعليم، والإيواء والكساء والغذاء للطلاب مجانا.[5]

لقد ساهم عدد من الولاة في العهد العثماني في تجديد الجامع؛ ففي القرن 16م/10هـ قام الشريف محمد باشا والي مصر عام 1004هـ/1595 م بترميمه، كما عمّر الوزير حسن باشا الوالي مقام الحنفية عام

---

* أسسه جوهر الفاطمي الشيعي وبدأ في بنائه في 24 جمادى الأولى 359 هـ/أفريل 970م، وافتتح للصلاة عام 361هـ/971م يوم الجمعة من رمضان، وسمي في البداية باسم العاصمة الجديدة "جامع القاهرة" ، واستمرت التسمية لفترة طويلة ثم تحول إلى الأزهر في عهد العزيز بالله الفاطمي نسبة إلى فاطمة الزهراء ابنة الرسول "ص" أنظر : محمد عبد الله عنان، تاريخ الجامع الأزهر، مؤسسة الخانجي، القاهرة مصر، ط 2، 1958م، ص 18،19.

(1) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 163.

** بلغ عدد الأروقة خلال القرن 17م/11هـ (15 رواقا) وفي أواخر القرن 19م (29 رواقا) منها 6 أروقة مصرية و16 رواقا للغرباء. أنظر: محمد عنان، المرجع السابق، ص 302. أكمل الدين أوغلي، الدولة العثمانية، ص 324.

*** رواق الجبرت يقع داخل رواق البرانية وهو أكثر اتساعا منه وهو ينسب إلى الجبرت وهي مدينة بالحبشة . أنظر: سعاد ماهر، المرجع السابق، ص 216.

(2) محمد عنان، المرجع السابق، ص 302، 303.

(3) عقدت أول حلقة للقراءة بالأزهر في صفر 365 هـ/أكتوبر 975م في أواخر عهد المعز الفاطمي، وقد ألقاها القاضي أبو الحسن علي بن النعمان القيرواني، وأول من اقترح تعيين فقهاء في الأزهر يلقون الدروس هو الوزير ابن كلس عام 378 هـ/988 م حيث تم تعيين 37 فقيها رئيسهم أبو يعقوب ورتب لهم أرزاقا شهرية و بنى لهم دارا للسكنى. نفس المرجع، ص 41، 43.

(4) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 168ـ170.

(5) منير عطا الله وآخرون، المرجع السابق، ص 60، 61.

1014 هـ/1605م. وفي أوائل القرن 18م/12 هـ جدده الأمير إيواظ بك القاسمي، وأنشأ الأمير عبد الرحمن كتخدا القازدغلي، بهواً كبيرا في جانبه الشرقي ومحرابا ومنبرا، وأنشأ رواقا للصعايدة.[1] وأصبحت العديد من المدارس بالقاهرة خلال العهد العثماني فروعا للأزهر، فالعديد من شيوخه كانوا يدرسون بها.[2] ومر الأزهر في فترة الحملة الفرنسية بأزمة، فقد انقطعت الدروس فيه لفترات طويلة، ودخل الفرنسيون الجامع بخيولهم، وعاثوا في أروقته وخربوا مكتباته، وقتلوا العديد من العلماء.[3]

و في القرن 19 م خلال عهد محمد علي باشا، شهد الأزهر تراجعا في مستواه العلمي. وفقد علماؤه الكثير من هيبتهم، أمام السلطة عكس ما كان سابقا.[4] خاصة بعد قيام محمد علي باشا بمصادرة أوقافه، مما أضر بالطلبة والعلماء فقل عددهم وتراجع دوره، أمام المدارس والمعاهد الحديثة، ولم يحظى بالإصلاح.[5] ومع ذلك بقي حصنا لعلوم الدين واللغة، ومعقلا يعد ملاذا لطلاب العلوم الدينية، من أنحاء العالم الإسلامي والعربي.

ولم يكن الجامع الأزهر هو المؤسسة التعليمية الوحيدة ذات الشأن بمصر، بل كان فيها ما يزيد عن عشرون مدينة لها مساجد جامعة مشهورة بعلمائها، ومن تلك المدن ذات النشاط العلمي مدينة رشيد، دمياط، الإسكندرية، المحلة، المنصورة، طنطا وطهطا في مصر العليا ودسوق.[6] ومن الجوامع التي عقدت بها الدروس في القاهرة جامع أحمد بن طولون؛ الذي درس به أحمد العبيدي. وجامع الفاكهاني* درس به محمد الشنواني.[7] والمشهد الحسيني الذي درس به عدد كبير من علماء الأزهر؛ مثل عمر الطحلاوي (ت 1181 هـ/1767). [8] وجامع القريبة. [9] وجامع شيخون الذي درس به الزبيدي (ت 1205هـ/1791م)، وكانت دروسه به، مجمعا لطلاب العلم والعلماء والأمراء. [10] إضافة إلى جوامع أخرى مثل جامع أوزبك

(1) محمد عنان، المرجع السابق، ص 28، 29.

(2) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 164.

(3) المرجع السابق، ص 160، 164.

(4) الجبرتي، المصدر السابق، ج 3 (دار الفاس)، ص 278، 279، 268. A. Loutfi. op.cit, P.277

(5) محمد عنان، المرجع السابق، ص 229 ـ231.

(6) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 324.

* كان معروفا في القديم بجامع الظافر وهو من المساجد الفاطمية، عمره الخليفة الظافر بنصر الله عام 543 هـ /1148م) ورتب فيه حلقة درس وفقهاء، وجدده في العهد العثماني عام (1148 هـ/1735م) الأمير أحمد كتخذا الخربطلي. علي مبارك، المرجع السابق، ج 5، ص 67.

(7) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 165.

(8) الجبرتي، المصدر السابق، ج1، ص 338.

(9) المرجع السابق، ص 165. =

الذي ألقى فيه مصطفى المرحومي دروسا (ت1207 هـ/1792م)، وجامع الآثار درس به علي الأشبولي (ت 1211 هـ/1796م)ومسجد الحنفي.[1]واشتهرت مدينة الإسكندرية بمسجد النبي دانيال الذي وسعه محمد علي باشا عام (1238 هـ/1823م) وجامع الطرطوشي وغيره.[2] وفي دمياط جامع البحر الذي وصفه العياشي، عام (1037 هـ/1628م) بأنه كانت تعقد فيه الحلقات كما في الأزهر.[3] وجامع إبراهيم الدسوقي في دسوق.[4] وجامع أحمد البدوي بطنطا ؛الذي جدده علي بك الكبير، ورتب فيه مدرسين وطلابا، وكان يدرس فيه علوم القرآن. والجامع الكبير بالمحلة الكبرى، من علمائه شهاب السمنودي (ت 1794 م)، واشتهر برشيد جامع زغلول والمحلى.[5]

2 ـ بلاد الشام :

الجامع الأموي :يأتي في مقدمة الجوامع في بلاد الشام، الجامع الأموي بدمشق، الذي يعتبر من أهم مراكز التعليم بالشام، تم بناؤه في العهد الأموي.[6]وحظي بمكانة علمية هامة، حيث عقدت فيه حلقات الدرس وكان يدعم المدارس المجاورة بالمدرسين.[7] وبالجامع مشيخة على غرار الجامع الأزهر بمصر، تولاها العديد من العلماء حتى الغرباء عن دمشق،مثل محمد بن عبد الملك البغدادي (ت 1016 هـ/1607م)، ويلقب متول المشيخة بـ "شيخ الحرم الأموي".[8]

وكانت تعقد بالجامع دروس في العلوم النقلية الدينية، كالفقه والحديث والتفسير وفي العلوم اللغوية كالبيان والبديع والأدب وغيرها.[9] فكل شيخ كان يستند إلى سارية من سواري الجامع، يلقي فيها دروسه كما ألحقت بالجامع زاوية للمالكية، للتدريس بالجانب الغربي منه يجتمع فيها المغاربة.[10] و من إشارة

= (10) المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص 308. محمد سيد الكيلاني، المرجع السابق، ص41.

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص 308، 373، 403.

(2) علي مبارك، المرجع السابق، ج 7، ص 69، 70.

(3) سعد مرسي وآخرون، المرجع السابق، ص 283 ،284.

(4) محمد سيد الكيلاني، المرجع السابق، ص 41.

(5) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 166، 167.

(6) كان موضعه في السابق كنيسة وقام الخليفة عبد الله الوليد الأموي عام 86 هـ بإرضاء النصارى للتنازل عن نصيبهم فيها فهدمها وشرع في بناء الجامع. وقد حصلت إصلاحات فيه أيام المستظهر العباسي عام 503 هـ/1110م الذي جدد عمارة الحائط الشمالي وجدد في عام 728 هـ/1327م وعام 729 هـ/1328م و عام 730 هـ/1329م و 475 هـ /1082م و 611 هـ/1214م و 678 هـ/1279م. أنظر: علي الطنطاوي، الجامع الأموي في دمشق وصف وتأريخ، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ط 1، 1990 م، ص 38، 45، 46.

(7) ليندا شيلشر، المرجع السابق، ص 27، 28.

(8) المحبي، المصدر السابق، ج 4، ص 32.

(9) المرادي، المصدر السابق، ج 3، ص 6.

(10) علي الطنطاوي، المرجع السابق، ص 59.

المحبي يبدو أنه كانت به أروقة ؛حيث ذكر رواق اليمانية بالجامع الأموي،الذي جاور به حسن المجذوب المعروف بالغريق (ت 1018 هـ/1609م).[1] كما كان به محاريب للمذاهب الأربعة.[2] وكان بالجامع بقعة للتدريس، درّس بها العديد من علماء دمشق والمدن الأخرى، وكان لها وقف خاص يصرف لكل من يُدرّس بها، ومنهم محمد بن عثمان الصيداوي نزيل دمشق(995 هـ ـ ت 1065هـ /1587ـ1655م)، ومحمد القاسم الملقب بابن منقار الحلبي (931هـ ـ ت 1005هـ/1525 ـ1596م)، الذي درّس بها تفسير البيضاوي. [3]

و قد استحدثت في العهد العثماني خلال القرن 17 م ،بقبة النسر* وظيفة تدريس الحديث ، وذلك بعد عام 1050هـ/1640م، رتبها بهرام آغا كتخذا والدة السلطان إبراهيم، وعين للمدرس فيها 60 قرشا** ، وللمعيد 30 قرشا وللقارئ 10 قروش. [4] ومن الذين درسوا بها النجم محمد الغزي العامري الدمشقي (977هـ ـ ت 1060 هـ/1569ـ 1650م) الذي عقد دروس الحديث بها لمدة 27 سنة.[5] ومحمد بن محمد العيثاوي الدمشقي(ت 1080 هـ/1669م)،الذي درس بها صحيح البخاري.[6] ومحمد بن يحي الخباز البطنيني الدمشقي(ت 1075 هـ/1664م).[7] وقد ظل الجامع الأموي خلال العهد العثماني، مقصداً للطلاب من أنحاء الشام، ومن أقطار العالم الإسلامي.

وإلى جانب الجامع الأموي بدمشق، كان هناك جوامع أخرى لا تقل أهمية عنه، كانت مقصدا لطلاب العلم ؛ مثل الجامع القلعي بدمشق في سوق جقمق ؛الذي درس به عبد الحق الحمصي الدمشقي (962 هـ ـ ت 1020 هـ/1555م ـ1611م).[8]والجامع الجديد الذي تولى التدريس به أحمد بن محمد المقدسي الدمشقي(1110 هـ ـ ت 1180هـ/1698م ـ1766م).[9] وجامع المعلق.[10] وجامع الساحة بالميدان الذي

---

(1) المحبي، المصدر السابق، ج 2، ص 76.

(2) لقد ذكر المرادي أن أسعد المجلد (1097 هـ ـ ت 1108 هـ/1686 ـ 1696م) كان يدرس بالجامع الأموي عند محراب المالكية . المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 229. وتصدر عبد الرحمن الكناني الشافعي (1184 هـ ـ1264 هـ/1770 ـ 1848م) للتدريس بمحراب الحنابلة في الجامع الأموي، وتولى عبد الغني العامري الشافعي (ت 1216 هـ/1801م) إمامة الشافعية بالأموي. أنظر : محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 164، 172.

(3) المحبي، المصدر السابق، ج 4، ص 37، 115.

* "هي قبة الرصاص المتصلة بالمحراب في الجامع الأموي وهي تبدو للناظر على أنها نسر طائر، وكأن القبة رأسه والغارب صدره ونصف جدار البلاط عن اليمين والشمال جناحاه ولذلك يطلق عليها هذا الإسم . أنظر: علي الطنطاوي، المرجع السابق، ص 52.

** 1 قرش يساوي 5 دراهم ويساوي 40 بارة .

(4) المصدر السابق، ج 3، ص 408، 409.

(5) نفسه، ج 4، ص 198، 199.

(6) نفسه، ص 202.

(7) نفسه، ص 265. =

محمد الشهير بابن قولقسز الحنفي البسنوي الحلبي (ت 1164هـ/1751م) .[1] والجامع الصغير الذي كان يعقد فيه المحدث أبو عبد الله الكاملي (1044 هـ/1634م) دروسا، فيحضره عدد كبير من الطلاب والعلماء وعامة الناس.[2] ولم تكن دمشق فقط العامرة بالجوامع، بل في كل مدينة رئيسية في بلاد الشام كان هناك مسجد جامع وأحيانا أكثر، يستقطب كبار العلماء والمدرسين والطلبة، من أنحاء العالم العربي والإسلامي.[3] ففي حلب كان هناك الجامع الأموي الكبير* الذي كان يضاهي جامع دمشق في الزخرفة والفسيفساء، وفي كونه مركزاً من مراكز التعليم.[4]

ومن بين العلماء الذين درسوا به إبراهيم البخشي(1111 هـ ـ ت 1190 هـ /1699م ـ1776م).[5] وعبد القادر بن بشر الشافعي الحلبي (ولد 1120 هـ/1708م).[6]وجامع الفردوس في حلب، درس به سليمان بن خالد المعروف بالنحوي الحلبي(ت 1141 هـ/1728م).[7] وكان هناك بصيدا الجامع الكبير العمري وجامع البحر الذي ذكر عنه عبد الغني النابلسي أنه كانت تعقد به الدروس.[8] والجامع الكبير في بيروت.[9]

واشتهر بطرابلس الشام الجامع المنصوري الكبير؛ الذي عقدت فيها حلقات الدروس يوميا وارتاده العلماء لنشر العلم؛ ومن أشهر الذين درسوا به عمر بن مصطفى المشهور بابن كرامة (ت 1160 هـ /1747م).[10] ونجيب الزغبي الطرابلسي، الذي كان يحضر دروسه بهذا الجامع مشاهير العلماء والطلبة.[11] ودرس به حتى الواردين على طرابلس مثل: إسماعيل الأحمدي المصري (ت 1288 هـ ـ 1871م) حيث ألقى به دروس التفسير والحديث.[12]

= (8) نفسه، ج 2، ص 310.

(9) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 169.

(10) المصدر السابق، ج1، ص 370.

(1) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 134.

(2) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 141.

(3) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 314.

* بناه سليمان بن عبد الملك ليضاهي ما عمله أخوه الوليد في جامع دمشق وقيل بناه الوليد . كامل الغزي، نهر الذهب، ج2، ص 235.

(4) نفسه، ص 235، 236.

(5) المرادي، المصدر السابق، ج 2، ص 26.

(6) نفسه، ج 4، ص 29.

(7) نفسه، ج، 2، ص 158.

(8) عبد الغني النابلسي، الرحلة الطرابلسية، ص 33، 34.

(9) نفسه، ص 42.

(10) عبد الله نوفل، المرجع السابق، ص 35.

(11) نفسه، ص 41. =

أما القدس فاشتهرت بمسجدها الأقصى، الذي لم تنقطع فيه الدروس خلال العهد العثماني، وكان أغلب المدرسين فيه من عائلات علم، يتوارث أبناؤها منصب التدريس. وقد كان ينفق عليه من الصرة* الرومية (العثمانية)، والصرة المصرية ومن أوقاف خاصكي سلطان**، وكان هذا المسجد لمكانته الدينية في العالم الإسلامي، محل اهتمام السلاطين العثمانيين، فقد أعيد ترميمه من طرف السلطان محمد الثالث عام 1597م، وأحمد الأول عام 1603 م، ومصطفى الأول عام 1617م، وقد كان به عام 1648 م حوالي 800 إمام وواعظ يعملون بالحرم والمدارس المجاورة له، وعدد كبير من مرتلي القرآن، فقد ظل مركزاً للإشعاع الفكري والعلمي طوال العهد العثماني.(1)

ج ـ المدارس:***

سعى العثمانيون منذ دخولهم إلى مصر والشام، إلى للحفاظ على المدارس القائمة، بل أنشؤوا مدارس أخرى، وعاقبوا كل من أساء إليها أو استغل أوقافها.(2) وكانت معظم المدارس الموجودة آنذاك قائمة على أساس التخصص مثل مدارس المذاهب الأربعة، وبعضها لتدريس الحديث أو علوم القرآن، ومنها ما هو عام.(3)ورغم أن العديد من المدارس، التي أنشأت قبل العهد العثماني قد اندثرت؛ بفعل الفتن ونهب أوقافها إلا أن عددا آخر استمر في نشاطه التعليمي، ثم إنه بين القرنين 16م و 19م ، أنشأت مدارس أخرى.

= (12) نفسه، ص 255.

* الصرة: تعني خزنة المال المصنوعة من القماش وهي الأموال والهدايا التي كان السلطان العثماني يرسلها إلى الحجاز و القدس. أنظر: حسان حلاق وآخرون، المعجم الجامع، "ص"، ص 137.

** هي زوجة سليمان القانوني روكسلانة البولونية اليهودية الأصل.

(1) محمد أحمد، " الحياة الثقافة والفكرية في القدس في العصر العثماني"، مجلة جامعة دمشق، عدد خاص: القدس عاصمة الثقافية العربية لعام 2009م، دمشق، سوريا، 30 أفريل 2009م، ص 212، 213. (الإحصائيات المذكورة مأخوذة عن أوليا جلبي، المصدر السابق.)

*** يعود تأسيس المدارس أول الأمر إلى القرن 11م وكانت تدرس بها مبادئ الشريعة والدين واللغة ووجدت مدارس بمصر والشام منذ العهد الأيوبي. أنظر: علي المحافظة، الحركات الفكرية في فلسطين، ص 31. وفي الدولة العثمانية أنشأت أول مدرسة في أزنيق في عهد أورخان في القرن 14م (731 هـ/1330م ـ1331م) وأنشأ في عهد محمد الفاتح مجمع مدارس يتكون من 16 مدرسة وأقيمت إلى جانبها مؤسسات مكملة مثل دار الطعام والشفاء ومكتبة. وفي عهد سليمان القانوني في القرن 16م أنشأت مدرسة السليمانية و مدرسة الحديث والطب و 4 مدارس أخرى عرفت بمدارس الصحن ومؤسسات مكملة. وكانت هذه المدارس تسير وفق نظام تعليمي دقيق رائع استمر إلى القرن 19م، وقد تعلم فيها العديد من علماء مصر والشام. أنظر حولها : أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 454ـ458.
J. Hammer. op. cit, To.3.PP.523-525-296.297-To.6,PP. 241, 257, 258.

(2) لقد عاقبت السلطة العثمانية سنان القراماني بالشنق بسبب سوء استغلاله وظيفته كمتول لنظارة البيمارستان النوري والجامع الأموي وبسبب تخريبه مدرسة المالكية (الصمصامية) واضراره بالمدرسة النورية في بعلبك، ومعه ناظر السليمية حسين جلبي وذلك عام 966هـ /1559م. أنظر: نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة ، ج2، ص 149.

(3) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص 168.

1ـ مصر:

كان ما يزال بمصر خلال القرنين 16 م و 17 م مدارس يعود تأسيسها إلى ما قبل العهد العثماني، تلك التي أنشأها السلاطين السابقون مثل السلطان حسن وقلاوون والصالح وبرقوق، وفرج وسيف الدين وأيبك وغيرهم.[1] وهي مدارس للمذاهب أو للحديث، أنشأت خلال العهد الأيوبي والمملوكي، وحسب الرحالة أوليا جلبي أنه كان بمصر خلال القرن 17م/11 هـ حوالي 86 داراً لدرس الحديث.[2] ومدارس أخرى تابعة للمذاهب من أشهرها في القاهرة؛ المدرسة السنانية بالصناديقية درّس بها عبد الرحمان الجبرتي (ت 1188 هـ /1774م)، والمدرسة الصلاحية بجوار الإمام الشافعي، كان يدرس بها شيخ الأزهر.[3] والمدرسة الطيبرسية*، التي درّس بها الشرقاوي عبد الله (ت 1227 هـ/1812م).[4] والمدرسة الخشابية بجوار الصلاحية، كان يدرس بها أعظم علماء الشافعية، وهذه المدارس كلها كانت مختصة بالمذهب الشافعي.[5]

ومن المدارس الحنفية بمصر المدرسة الصرغتمشية** والإقبغاوية، التي درس بها حسن المقدسي (ت 1182 هـ/1768م).[6] وأحمد الحمامي الشافعي الأزهري (ت 1187 هـ /1773م).[7] والمدرسة المحمودية ألقى بها الدروس عبد السلام أفندي الأرزنجاني (ت 1192 هـ/1778م).[8] والجوهرية التي كان يدرس بها علي الصعيدي عام 1189هـ/1775م. والمدرسة العينية والأشرفية، تولى التدريس بها عطية الأجهوري (ت 1190هـ /1776م).[9] ومن المدارس الأخرى بحي الصليبة بالقاهرة نجد المدرسة البرقوقية.[10] و المدرسة الباسطية.[11] والمؤيدية.[12] والمدرسة الشيخونية.[13] والشعبانية بحارة الدويداري قرب الجامع الأزهر.[14]

---

(1) أوليا جلبي، المصدر السابق، ص 311، 312.

(2) نفسه، ص 313.

(3) المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 40.

* عمرها علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش بجوار الأزهر. أنظر: علي مبارك، المرجع السابق، ج 5، ص 41.

(4) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 164.

(5) محمد سيد الكيلاني، المرجع السابق، ص 40.

** عمرها بشارع الصليبة بالقاهرة الأشرف السيفي صرغتمش الملك الناصري عام 759 هـ . علي مبارك، المرجع السابق، ج5، ص 38.

(6) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 164.

(7) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 424.

(8) نفسه، ص 529.

(9) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 164.

(10) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 204.

(11) نفسه، ص 185.

(12) نفسه، ص 275. =

والمدرسة الكاملية.[1]وكانت بمصر حوالي 20 مدينة كبرى مزدهرة بمدارسها.[2] كمدارس مدينة طنطا ومدارس دمياط؛ كالمدرسة المتبولية التي يدرس فيها الفقه والحديث وعلوم اللغة،والمدرسة الرضوانية، وكذلك في مدينة رشيد وأسيوط،وطهطا وجرجا،والفيوم و فرشوط. فقد كان لكل مدينة مدارسها العامرة بالطلبة والعلماء.[3]

ورغم أن البعض ادعى أن العثمانيين أهملوا المدارس، وخربوها ونهبوا أوقافها بمصر.[4] إلا أن الواقع يثبت أن ولاة الدولة العثمانية ، اهتموا بالحفاظ على ما جدوه من مدارس بها، وأنشؤوا مدارس أخرى مثل السليمانية ببولاق،التي أقامها سليمان باشا الخادم عام 931 هـ/1528م أي في القرن 16م، وأقام آق سنقر الفرقاني الجشلي مدرسة مع مسجده عام 1080 هـ/1669م، وكان هناك مسجد ومدرسة حملت اسم السلطان محمود عام 1164 هـ/1750م.[5] ومن المدارس التي أنشئت في العهد العثماني على يد الأمراء المماليك مثلا المدرسة المحمدية؛ التي أنشأها محمد بك أبو الذهب عام 1188هـ/1774م، ودرس بها غالب مدرسي الأزهر.[6] والمدرسة السيوفية المعروفة بالشيخ مطهر؛ بانيها عبد الرحمن كتخذا.[7] وقد استمرت كل هذه المدارس في نشاطها التعليمي خلال القرن 19م.

2ـ بلاد الشام :

لقد أحصى النعيمي المدارس التي كانت في الشام أواخر القرن 15م/9هـ، حيث ذكر 60 مدرسة شافعية و 52 حنفية و4 مدارس مالكية و 11 مدرسة للحنابلة، و 3 مدارس للطب.[8] وقد تخرب عدد منها، ولكن بقي عدد كبير ، ينشط خلال العصر العثماني إضافة إلى ما أنشئ في هذا العصر. ففي دمشق ظلت العديد من المدارس على المذاهب الأربعة، ودور الحديث تقوم بنشاط تعليمي مثل المدرسة الباذرائية* التي

= (13) خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 74.

(14) الجبرتي، المصدر السابق، ج3 (دار الفارس)، ص 281.

(1) المحبي، المصدر السابق، ج 3 ص 196.

(2) سعد مرسى وآخرون، المرجع السابق، ص 269.

(3) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 165، 166، 168.

(4) علي مبارك، المرجع السابق، ج1، ص 88.

(5) أكمل الدين إحسان أوغلي، الثقافة التركية، ص 191.

(6) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 ، ص 484.

(7) نفسه، ص 489.

(8) أنظر حول هذه المدارس بالتفصيل: النعيمي، المصدر السابق، ج1 و ج2. ومحمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص 70ـ131.

* داخل باب الفرديس أنشأها نجم الدين البادرائي (ولد 594 هـ/1198م) . النعيمي، المصدر السابق ج1، ص 154، 155.

نزل بها عبد اللطيف البيروتي(ولد 1182 هـ/1768م) مفتي بيروت ودرس بها.[1] ونزل بها إلياس الكردي الدمشقي (1047 هـ ـ ت 1132م/1637م ـ1719م) حتى عام 1102هـ/ 1690م.[2]والمدرسة القصاعية الحنفية.[3] والمدرسة الشامية الجوانية والبرانية.[4] والمدرسة الفارسية الشافعية*التي كانت على نمط مدارس القسطنطينية برتبة الداخل والخارج، وقد درس بها حسين بن كمال الحراني (ت 1072 هـ/1661م) نزيل دمشق.[5]و المدرسة التقوية.[6] والمدرسة الجهاركسية**بصالحية دمشق؛ وهي المعروفة أيضا بالجركسية درس بها حسين القاري الدمشقي الحنفي (ت 1077 هـ/1666م) .[7]

والمدرسة القجماسية.[8]والماردانية بالجسر الأبيض بدمشق درس بها سعد المشهور بابن حمزة الدمشقي (1075هـ ـ ت 1132هـ/1664م ـ1719م) .[9] والمدرسة الدولعية.[10] ومن دور الحديث دار الحديث الأحمدية بالمشهد الشرقي للجامع الأموي، درس بها إبراهيم القتال الدمشقي (ت 1098 هـ/1687م).[11] و دار الحديث الأشرفية.[12] وغيرها من المدارس التي أنشأت قبل العهد العثماني واستمرت خلاله.

أما المدارس التي أنشئت خلال العهد العثماني بدمشق؛ فهي المدرسة السليمية من إنشاء السلطان سليم الأول، والمدرسة السليمانية و السنانية و السياغوجية.[13] والمدرسة المرادية جنوب الظاهرية الجوانية

---

(1) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 196.

(2) المرادي، المصدر السابق، ج 2، ص 272.

(3) بحارة القصاعين أنشأتها خطبلسي خاتون بنت ككجا عام 593هـ/1196م وهي للحنفية. النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص 434 . درس بها حسن أوزون (الطويل) الرومي (ت 1037 هـ/1627م الذي دخل دمشق خلال القرن 17م. المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 27.

(4) المدرسة الأولى أنشأتها ابنة نجم الدين شادي. وذكرها المحبي في تراجم القرن 17م. أنظر : النعيمي، نفسه، ص 227. والمدرسة الثانية من إنشائها أيضا عام 616 هـ/1219م وكلاهما للشافعية. أنظر : النعيمي، نفسه، ص 208. المرادي، المصدر السابق، ج 4، ص 126.

* غربي الجوزية واقفها الأمير سيف الدين فارس الداودار التنمي عام 808 هـ/1405م . النعيمي، نفسه، ص 324.

(5) المرادي، نفسه، ج2، ص 99. المحبي المصدر السابق، ج 1، ص 296.

(6) هي من مدارس الشافعية بانيها عام 574 هـ/1178م الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت 587هـ/1191م) . النعيمي، المصدر السابق، ص 162، 163. درس بها في القرن 17م عبد الحق الحمصي الدمشقي (ت 1020 هـ/1611م) . المحبي، نفسه، ج2، ص 310.

** من المدارس المشتركة بين الحنفية والشافعية واقفها فخر الدين شركس الصالحي 608 هـ/1211م. النعيمي، نفسه، ص 379.

(7) المحبي، المصدر السابق، ص 113.

(8) هي من مدارس الحنفية أنشأها نائب الشام قجماس الإسحاقي الشركسي عام 892 هـ/1487م. النعيمي، نفسه، ص 434. أنظر : المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 12.

(9) المرادي، نفسه، ص 157 . و هي من مدارس الحنفية وقفها عام 624 هـ عزيزة زوجة السلطان المعظم. النعيمي، نفسه، ص 454 ـ455.

(10) درس بها إسماعيل الحائك الدمشقي (1046 هـ ـ ت 1131 هـ/1636م ـ 1718م).

(11) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 52.

(12) جوار باب القلعة أمر الملك الأشرف عام 628هـ/1230م أن تحول دار أحد الأمراء إلى دار حديث وفتحت عام 630 هـ/1232م. النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص 15. أنظر : المحبي، نفسه، ج2، ص 310.

(13) ليلى الصباغ، من أعلام الفكر، ص 33.

أنشأها الشيخ مراد المرادي النقشبندي، عام 1132 هـ/1719م.[1] واستمرات إلى غاية القرن 19م. حيث جاور ودرس بها الشيخ عبد الرحمن مرعي الطيبي الدمشقي (1184 هـ ـ1264 هـ/1770 ـ1848م) وذلك منذ عام 1200هـ/1786م.[2] والمدرسة النقشبندية البرانية في سوق ساروجا ؛ بناها مراد المرادي وبنا قربها مسجداً.[3]

والمدرسة السليمانية التي أنشأها سليمان باشا العظم بباب البريد عام 1150هـ/1737م.[4] والمدرسة العبدلية، منشؤها عبد الله باشا العظم، في سوق السلاح عام 1193هـ/1179م. والإسماعيلية صاحبها اسماعيل العظم، في سوق الخياطين عام 1141 هـ/1728م.[5] ومنها أيضا المدرسة البيرمية بالقرب من سراية الحكم، بناها الوزير محمد باشا الشهير بابن كرد بيرم عام 1117هـ/1705م.[6]

أما في حلب فكانت ما تزال بها مدارس تعود إلى ما قبل العهد العثماني في المذاهب الأربعة.[7] مثل المدرسة الحلاوية.[8]والمدرسة المقدمية*التي درس بها إبراهيم البخشي(1111هـ ـ ت 1190هـ /1699ـ 1776 م).[9] والمدرسة الأسدية.[10] وهناك مدرسة تعرف بالطرنطائية أو الأويسية درس بها زين الدين الأشعافي الحلبي (ت 1032هـ/1622م) .[11] والمدرسة البولادية درس بها حسين الداد يخي الحلبي (1095 هـ ـ ت 1175هـ/1684 ـ ت 1761م) وهناك مدارس أخرى.[12]

ومن المدارس التي أنشأت خلال العهد العثماني، المدرسة الخسروية وهي أول مدرسة أنشأت انتهى بناؤها عام 951 هـ/1544م خلال القرن 16م/10هـ ؛ وهي عمارة كبيرة مكونة من جامع ومدرسة، تكية ومطبخ ،أمر ببنائها خسرو باشا .[13] وكانت مشروطة لمفتي حلب ، درّس بها أبو السعود الكواكبي الحنفي

---

(1) محمد كرد علي، المرجع السابق، ج 6، ص 101.

(2) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 163.

(3) المرجع السابق.

(4) محمد كرد علي، نفسه. المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 215.

(5) محمد كرد علي، نفسه، ص 102.

(6) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 217. المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 154.

(7) فريد جحا، الحياة الفكرية في حلب، ص 78، 79.

(8) كانت كنيسة ثم تحولت مسجداً عام 518 هـ، عرف بمسجد السراجين وقفه نور الدين مدرسة. ابن شداد، المصدر السابق، ج1، ص 110. و ذكرها : المرادي، المصدر السابق، ج 4، ص 29.

* أنشأها عز الدين عبد الملك المقدم سنة 545 هـ/1150م. ابن شداد، نفسه، ص 116.

(9) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 26.

(10) أنشأها بدر الدين الخادم حوالي القرن 7 هـ. ابن شداد، المصدر السابق، ج1، ص 117.

(11) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 189.

(12) المرادي، المصدر السابق، ج 4، ص 49.

=

الحلبي(1090هـ ـ ت 1137 هـ/1679ـ 1724م)، مفتي الحنفية بحلب منذ عام 1152 هـ/ 1739م.[1] والمدرسة الرضائية المعروفة بالعثمانية، أنشأها عثمان باشا الدوركي الحلبي، أحد ولاة حلب في القرن 10 هـ/16م.[2] وهناك المدرسة الإسماعلية بانيها إسماعيل بن محمد انطرمه لي.[3] والمدرسة الأحمدية التي أنشأها عام 1166هـ/1752م، القاضي أحمد بن طه زاده الجلبي أصله من الأكراد.[4]

و هناك المدرسة الكواكبية أنشأها عام 1167هـ/1753م، أحمد بن السيد أبي السعود بن أحمد الكواكبي وأوقف بها مكتبة قيمة.[5] إضافة إلى المدرسة السيافية، و واقفها إبراهيم آغا رئيس البوابين بالباب العالي السلطاني بن عبد الله آغا السياف، وذلك عام 1250 هـ/1834م.[6] وهناك مدرسة أخرى تعرف بالشعبانية أنشأها تقي الدين باشا عام 1269 هـ/1852م.[7] ومنها أيضا القرناصية* و البهائية والمنصورية.[8]

أما في مدينة حماه فكانت هناك العديد من المدارس، خلال القرن 16م تمولها الأوقاف، وكانت الدولة العثمانية تسهر على استمرار نشاطها التعليمي، وهي مدرسة نور الدين والمخلصية، و القاسمية ومدرسة الافتخارية و العصرونية**، الفرحية والجمالية.[9] ومنها أيضا المدرسة العزية و الجلدكية، التي درس بها المنلا حسين بن ناصر العقيلي الحموي (ت1042 هـ/1632م) .[10]

و في طرابلس الشام كان هناك 360 مدرسة، ولكن في القرن 17م كان تخرب عدد كبير منها.[11] ومن

= (13) كامل الغزي، نهر الذهب، ج2، ص 116، 117.

(1) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 58.

(2) كامل الغزي، المرجع السابق، ج2، ص 156، 157. أنظر حولها : فريد جحا، " المدارس الأثرية في مدينة حلب" مجلة أوراق، ع.5ـ6، المعهد الإسباني العربي، مدريد، اسبانيا، 1988ـ1983م، ص 76.

(3) كامل الغزي، نفسه، ص 138.

(4) نفسه، ص 52، محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص 116.

(5) محمد كرد علي، نفسه.

(6) كامل الغزي، المرجع السابق، ص 150ـ153.

(7) نفسه، ص 148.

* كانت في البداية جامعا عمره بكتمر القرناصي الحلبي عام 770 هـ/1368م. وفي عام 1242 هـ/1826م عمر فيه الحاج إسماعيل آغا بن عبد الرحمن أفندي شريف مدرسة. نفس المرجع، ص 174، 175.

(8) محمد كرد علي، المرجع السابق، ص 115.

** كانت من المدارس المنشأة قبل العهد العثماني واستمرت خلاله ودرس بها عبد القادر الكيلاني الحموي (1080 هـ ـ1157هـ/1669 ـ 1744م). المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 47.

(9) محمود عامر، "الوقف في الدولة العثمانية...."، ص 292.

(10) المحبي، المصدر السابق، ج 2، ص 120.

(11) عبد الغني النابلسي، الرحلة الطرابلسية، ص 33، 72.

بين المدارس التي بنيت فيها خلال العهد العثماني في القرن 19 م مدرسة دُبَّها، التي بناها الشيخ عبد الله الدُّبها الحلبي النقشبندي عام 1234 هـ/1818م. [1] أما في مدينة القدس فكان بها قبل العهد العثماني حوالي 45 مدرسة، ولكن تخرب بعضها وبقي البعض الآخر، ومن بينها المدرسة الصلاحية* التي كانت مشروطة لعلماء الشافعية، وكان أجره في كل يوم مثقال ذهب. [2] ودرس بها عدد كبير من العلماء. [3]

والمدرسة القادرية التي اجتمع فيها النابلسي في رحلته، مع علماء القدس عام 1105 هـ/1693م. [4] والمدرسة الفخرية بجانب جامع المغاربة، والتي كانت خلال القرن 17م مزدهرة بالكتب. [5] إضافة إلى المدرسة الجراحية. [6] والجوهرية. [7] والباسطية، ** والمدرسة الحمراء. [8] ومدرسة الطواشي بغزة. [9]

وقد أنشأ في العهد العثماني عدد من المدارس في القرن 16م/10هـ، مثل مدرسة خاصكي سلطان الملحقة بالمسجد. [10] وفي عام 1588م أنشأ محمد آغا باشا زاوية ملحق بها قاعة تدريس. [11] إن هذه المدارس وغيرها من مدارس مدن بلاد الشام، استمرت في نشاطها التعليمي والتثقيفي حتى خلال النصف الأول من القرن 19م.

د ـ مدارس الطرق الصوفية :

كانت هناك مدارس تلقن أصول الطرق الصوفية المعروفة آنذاك، أوقفت عليها أوقاف كثيرة، وأطلق على بعضها اسم الخانقاه***، وعلى بعضها الآخر اسم الرُّبط [12] والزوايا [13] وكان لها شيخ يقيم الذكر

---

(1) محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص 129.

* مؤسسها صلاح الدين الأيوبي للشافعية عند باب الأسباط وذلك عام 588 هـ/1192 م بالقدس واستمرت حتى القرن 18م، وتنازل عنها العثمانيون في القرن 19م للآباء البيض فجعلوها مدرسة إكليركية . نفس المرجع ، ج6، ص 122ـ123.

(2) المحبي، المصدر السابق، ج 1، ص 394.

(3) مثل الشيخ زين الدين البصروري الدمشقي (1039 هـ ـ ت 1102 هـ). المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 120.

(4) عبد الغني النابلسي، الحقيقة والمجاز، ج1 (دار المعرفة)، ص 333.

(5) نفسه، ص 338.

(6) و اقفها الأمير حسام الدين بن شرف الدين عيسى الجراحي من الأيوبيين في القرن 6 هـ. نفسه، هامش 5، ص 323.

(7) نفسه، ص 369.

** و اقفها القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقي عام 834 هـ. محمد كرد علي، المرجع السابق، ص 122.

(8) محمد أحمد، "الحياة الثقافية ....في القدس...."، ص 213.

(9) عبد الغني النابلسي، المصدر السابق، ص 438.

(10) المرجع السابق، ص 209.

(11) محمود عامر، "الأوضاع العامة للقدس"، ص 108، 109.

*** ويقال له أيضا الخانكاه وأصبح يعرف بالتكية وهو محل إقامة الدراويش والمريدين المتصوفة و هو كلمة فارسية معناها بيت العبادة، وأول من بناها السلطان صلاح الدين يوسف أحد سلاطين مصر. أنظر: محمد كرد علي، المرجع السابق، ص 133. =

و مريدين.[1] وكان بمصر والشام عدد كبير من هذه المدارس الصوفية، قبل العهد العثماني ذكرها النعيمي، والتي أنشأت في القرون 6هـ و 7هـ و8هـ 9هـ ، ولكن العثمانيون أبدو اهتماما كبيراً بهذا النوع من المؤسسات التعليمية، فقد اعتبرت الزوايا و التكايا أماكن للتعليم والتربية، واكتساب المعارف الدينية والصوفية، واقتصرت دروسها على الدين وكل ما يتصل بآداب الطريق، واختلفت من حيث مناهجها التعليمية من تكية لأخرى، باختلاف الطريقة الصوفية.[2]

لقد أحصى النعيمي في القرن 15م في بلاد الشام؛ 21 رباطا و27 زاوية تابعة لمختلف الطرق الصوفية، واستمر العديد منها في النشاط خلال العهد العثماني؛ مثل الزاوية الوطية أو زاوية المغاربة التي بقيت حتى القرن 19م.[3] فقد اعتنى العثمانيون، ببناء هذا النوع من المؤسسات بسبب حبهم للتصوف، ففي الشام قام السلطان سليم الأول ببناء عمارة جوار الجامع، الذي بناه حول ضريح الشيخ محي الدين بن عربي، وعرفت باسم التكية، وأنشأ سليمان القانوني التكية السليمانية عام 962 هـ/1555م بدمشق، وأنشأت زوجته تكية في القدس عام 964 هـ/1556م .[4]

ومن الزوايا التي أنشأت في أواخر القرن 10هـ/16م، تكية مولويخانه بالقرب من جامع تكنز عام 993 هـ/1585 م للمولوية، ومن الزوايا الحديثة زاوية الصمادية في الشاغور؛ أنشأت عام 1053 هـ/1643م من طرف محمد بن خليل الصمادي.[5] وبحلب زاوية أنشأت عام 1207 هـ/1792 م.[6] وفي القدس كانت هناك خانقاه معروفة بالصلاحية، قرب كنيسة القيامة، ومن أهم الزوايا بها الزاوية البسطامية و النقشبندية والزاوية القادرية، واشتهر من الرّبط الرباط المنصوري ورباط الأمير بيرم جاويش(عام 1540 م).[7] أما في مصر فذكر أوليا جلبي في القرن 17 م نحو 360 زاوية، لمختلف الطرق الصوفية بالقاهرة.[8]

= علي مبارك، المرجع السابق، ج1، ص 90.

(12) الرُّبط جمع رباط وهو المكان المسبل للأفعال الصالحة والعبادة و أول من اتخذه دار لضيافة الواردين هو الوليد بن عبد الملك الأموي وهو دار يسكنها الصوفية لملازمة العبادة. محمد كرد علي، نفسه، ص 138.

(13) هي جمع زاوية ومعناها لا يختلف عن الرباط والتكية يقيم فيها الصالحون للتعبد . علي مبارك، المرجع السابق، ج1، ص 89.

(1) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 76، 177.

(2) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 475، 476.

(3) النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص 151، 152، 159.

(4) محمد أرناؤوط، المرجع السابق، ص 104.

(5) محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص 142، 143.

(6) نفسه، ص 150.

(7) محمد أحمد، "الحياة الثقافية.....في القدس..."، ص 215، 216.

(8) أوليا جلبي، المصدر السابق، ص 318.

وفي القرن 19م كان عدد الزوايا قد تضاعف، فقد أنشأ في العهد العثماني العديد منها مثل زاوية الشيخ الدردير (1127 هـ ـ ت 1201 هـ/1715ـ1787م) .[1] والتكية البكتاشية المجاورة للقصر العيني، والتي كانت موقوفة على طائفة من الأعاجم، وأعاد بناءها مراد بيك عام 1201 هـ/1787م، ورتب لها أوقافا.[2]

2ـ مراكز التعليم و التثقيف الحرة :

لم تكن العملية التعليمية في العهد العثماني تتم في المؤسسات المذكورة سابقا فقط، بل كانت تتم في أماكن مستقلة؛ كدور الوزراء والأثرياء والأعيان والعلماء، و طوائف الحرف. وقد كان لهذا النمط من التعليم دوراً كبيراً في استكمال نقائص التعليم السابق، لكونه تميز بالمرونة من حيث طرائق التدريس والعلوم المدرسة، ولم يقتصر على العلوم النقلية بل درس كل العلوم والفنون بما فيها الرياضية.[3]

وكانت منازل بعض الأمراء والأعيان تعد مراكزا للعلم يحضرها العلماء، ويتجادلون بينهم ويجيزون من يشاء؛ مثلما كان يفعل مرتضى الزبيدي الذي كان يلقي دروس الحديث في منازل الأعيان والأمراء بمصر.[4] وعلي بن صدقة الحلبي البانقوسي الشافعي(ت 975 هـ/1567م)، وهو من علماء الشام، كان فقيها ومحدثا يلقي دروس البخاري في بيوت الأكابر والأمراء.[5] و هذا مثل ما كان يفعله السلاطين العثمانيين حين عقدوا مجالس العلم في قصورهم، والتي عرفت بدروس الحضرة السلطانية؛ التي كانت تعقد في شهر رمضان من كل عام، ويحضرها العلماء لإلقاء دروس التفسير، بحضور السلطان وأعيان الدولة.[6]

بينما فضل بعض العلماء إلقاء الدروس في بيوتهم؛ مثل حسن الجبرتي الذي فتح منزله ليرتاده الطلبة من كل الأقطار.[7] وكذلك الشيخ عمر سلطان بن أبي اليمن الصالحي (ت 967 هـ/1559م)، الذي كان يطالع الدروس للطلاب في منزله، ويعيرهم كتبه.[8]وهناك نمط آخر من التعليم كان يتم ضمن طوائف الحرف، وهو التعليم المهني، حيث كان لكل طائفة حرفية تقاليد راسخة في تعليم الحرفة . إذ يلتحق الطالب

---

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص 224.

(2) نفسه، ج1 (دار الفارس)، ص 219.

(3) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 211.

(4) المصدر السابق، ج2(دار الكتب)، ص309،308.

(5) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص 191.

(6) متين رئيس، " دروس الحضرة السلطانية"، مجلة حراء، ع. 35، السنة الثامنة، اسطنبول، مارس ـ أفريل 2013م، ص 54.

(7) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 461.

(8) نجم الدين الغزي، المصدر السابق، ص 196، 197.

بهذا المجال بعد إتمامه الدراسة في الكتاب، فيتلقاه المعلم "الأسطى" ليلقنه أصول وتقاليد الحرفة.[1] وكان عدد الصبيان المتمدرسين عند المعلم الواحد محدداً، وتصل مدة التعلم إلى 7 سنوات، وعند انتهائها يجري الصبيان امتحانا يختبرون فيه مدى كفاءتهم المهنية، ويؤهلهم النجاح فيه إلى مرتبة العريف "الصنائعي". وكان المعلم يعلن كفاءة الصبي في حفل يرأسه شيخ الطائفة.[2]

3ـ المؤسسات الحديثة(مدارس محمد علي بمصر والشام):

لقد أنشأت في مصر ثلاث أنواع من المدارس على أسس أوروبية، تمثل ثلاث مراحل من التعليم مرتبطة ببعضها البعض، وكان منها مدارس مدنية وعسكرية وهي :

أـ المدارس الإبتدائية :

وهي تمثل التعليم الأولي، أنشأت عام 1833م في العاصمة والمديريات، وعرفت بـ"مكاتب المبتديان"*، وبلغ عددها 50 مدرسة؛ منها 4 بالقاهرة وواحدة بالإسكندرية و 45 بالمديريات، وتصل مدة الدراسة فيها إلى 5 سنوات وكانت تشرف عليها الحكومة.[3] وكان الهدف منها إعداد التلاميذ للإلتحاق بالمدارس التجهيزية، ولكنها لم تكن تختلف عن الكتاتيب القديمة؛ من حيث سن التلاميذ وبرامج الدراسة ولكن كانت تمولها الحكومة وليس الأوقاف الخيرية.[4] وبحلول عام 1836 م نقص عددها إلى 45 مدرسة، ثم ألغيت عام 1841م/1257هـ.[5]

ب ـ المدارس التجهيزية :

وهي تمثل المرحلة الانتقالية بين مرحلة التعليم الأولي والعالي، حيث تستقبل التلاميذ من المدارس الابتدائية لإعدادهم للمدارس الخصوصية.[6] وقد أنشأت مدرستين إحداهما في القصر العيني بالقاهرة؛

---

(1) جب و بوون، المرجع السابق، ج 2، ص 121.

(2) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 206.

* لقد أنشأ السلطان محمود الثاني مدارس ابتدائية مشابهة في اسطنبول وحدد لها شروط ولمدرسها كذلك. أنظر :
J. Hammer, op. cit, To 17, P.199
G. Guémard , op. cit, P. 294.

(3) محمد فؤاد شكري وآخرون ، المرجع السابق، ص 96، 639.

(4) سعد مرسي وآخرون، المرجع السابق، ص 357.

(5) نفسه، ص 358، 359 . أنظر نماذج عن هذه المدارس ص 662ـ664 . و يتبين من وصفها أنها غير مهيئة ولا تختلف كثيرا عن الكتاتيب القديمة أنظر : نفس المرجع، ص 286ـ288.

(6) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 643.

وهي المدرسة الحربية التي تعد التلاميذ للمدارس الحربية، ثم فيما بعد أصبحت تعد طلبة الطب ، و الأخرى في الإسكندرية. [1]درست هذه المدارس علوما عديدة مثل الحساب، الرسم، اللغات العربية والفارسية والتركية والهندسة وغيرها. [2]

ج ـ المدارس الخصوصية :

كانت تمثل المرحلة العالية والمتخصصة من التعليم، حيث كان في مصر عدة مدارس عالية منها الحربية والمدنية. وهي المدرسة العسكرية بالقلعة 1816م،واثنتين بفرشوط والنخيلة ومدرسة المهمات الحربية 1823م، والجهادية والموسيقى العسكرية 1824. [3] ومدرسة الطب العسكري بمستشفى أبي زعبل؛ ترأسها الطبيب الفرنسي كلوت بك 1827م، وألحقت بها مدرسة للتمريض عام 1832م، ونقلت عام 1837م إلى القصر العيني. [4]

وفي عام 1829م ألحقت بها مدرسة الصيدلة (الحكمه خانه)، وأسست في نفس العام مدرسة الطب البيطري، ومدرسة الإشارة عام 1830م، وخلال عام 1831م أنشأت عدة مدارس هي الخيالة والبحرية والبيادة* ، ومدرسة الكيمياء الصناعية، ومدرسة الفنون والري. وفي عام 1834م أنشأت مدرسة التعدين. [5] والمهند سخانه لإعداد المهندسين ومعلمي الرياضيات. [6]وفي عام 1837م أنشأت مدرسة طب النساء والولادة. [7] ومدارس أخرى مثل مدرسة الألسن. [8] ومدرسة الزراعة 1834م، والمناجم 1834م، ومدرسة صناعية في 1839م، والإدارة في 1840م. [9]

أما في بلاد الشام فقد مهد الحكم المصري بها ما بين (1831ـ1841م)، طريقا لتحديث مؤسسات التعليم فيها، فقد أنشأت مدارس حكومية في المدن الرئيسية، وفق النظام المتبع في مصر وذلك منذ عام 1835م؛ ومنها المدرسة النظامية في دمشق ضمت 600 طالب مسلم يتعلمون باللغة التركية، ويتدربون على

---

(1) سمير عمر إبراهيم، المرجع السابق، ص 131، جورجي زيدان، المرجع السابق، ج4، ص 200.

(2) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 643. G.Guémard, op. cit, P. 296.

(3) منير عطا الله وآخرون، المرجع السابق، ص 86.

(4) المرجع السابق، ص 670، 671.

* البيادة هي مدرسة لتخريج، ضباط الجيش المشاة سعد مرسي، المرجع السابق، ص 344.

(5) منير عطا الله وآخرون، المرجع السابق، ص 84ـ87. Op. Cit, PP. 294,295 .

(6) الجبرتي، المصدر السابق، ج 3 (دار الفارس)، ص 535، 523، 524.

(7) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 673.

(8) غرضها إعداد مترجمين للمصالح العامة كانت تحت إشراف رفاعة الطهطاوي تدرس الفرنسية ومواد أخرى . نفس المرجع، ص 658.

(9) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 403.

بعض الحرف. ومدرسة حلب النظامية ضمت ما بين 400 و 450 طالبا، يدرسون الرياضيات التاريخ واللغات.[1]كما أنشأت عام 1837م، مدرسة للطب بحلب تعلم التشريح والصيدلة .[2]وكانت مدارس الطب في بيروت ودمشق وحلب، مرتبطة بمدرسة الطب في مصر، حيث تمولها بالكتب المترجمة والمدرسين.[3]وقد حضر كلوت بك إلى دمشق عام 1833م، ليشغل مهمة ناظر على المجلس الصحي بها.[4]

4- مدارس الطوائف الدينية والإرساليات التبشيرية :

لما وفدت الإرساليات إلى مصر والشام، نشرت المدارس في المدن الكبرى بها، فاقتدى بهم رؤساء الطوائف الدينية بالمنطقة، فازداد عدد المدارس، ومن أشهر مدارس الطوائف الدينية بالشام المدارس المارونية مثل : عين ورقة أنشأها القس خير الله أسطفان عام 1789م، وقد نبغ منها العديد من العلماء.[5] والمدرسة المارونية بحلب مختصة بالذكور، أنشأها اسطفان الدويهي اللبناني عام 1666م/1077هـ، كانت تدرس اللغة السريانية والإيطالية واللاتينية.[6] وأنشأ الخوري بطرس التولاوي مطران حلب مدرسة عام 1698م تخرج منها عدة علماء.[7]وخلال القرن 19م أنشأ المطران جرمانوس ثابت عام 1811م، مدرسة ماريوحنا مارون كفرحي.[8] وفي عام 1818 م أنشأ يوحنا الحلو مدرسة مار مارون الرومية.[9] إضافة إلى مدرسة مارعبدا هرهاريا و ريفون عام 1831م.[10]

أما مدارس المرسلين فمن أشهرها مدرسة عينطورة؛كان يديرها الآباء اليسوعيون منذ 1734م واستمرت إلى 1773م.[11] ومدرسة زاغرتا عام 1735م.[12] وخلال الحكم المصري للشام أنشأ الأرثوذكس اليونانيون مدرسة أولية في دمشق، وكان هناك مثلها في بيروت والقدس.[13] وفي حلب كانت هناك مدرسة للأرثوذكس عام 1800م.[14]

(1) لطيفه محمد سالم، المرجع السابق، ص 208، 209.
(2) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 671.
(3) أحمد شوكت الشطي، تاريخ الطب وآدابه وأعلامه، مطبعة طربين، القاهرة، مصر، (د، ط)، 1967، ص 477.
(4) ميخائيل مشاقة، المصدر السابق، ص 11.
(5) يوسف الدبس، المصدر السابق، ج 8، ص 133، 134 و ج 9، ص 488.
(6) كامل الغزي، نهر الذهب، ج2، ص 481، 482.
(7) المصدر السابق، ج 8، ص 89.
(8) لويس شيخو، المرجع السابق، ص 50.
(9) المصدر السابق، ج 9، ص 488.
(10) نفسه، ص 488 ـ 489.
(11) نفسه، ج 8، ص 130، 131.
(12) نفسه، ص 131، 132. =

أما بفلسطين فأنشأت الإرساليات اللاتينية والكاثوليكية، مدرسة داخلية للصبيان في دير الفرنسيسكان بالقدس عام 1700م.[1] أما في مصر فقد أنشأت الإرساليات العديد من المدارس؛ ففي عام 1731م أنشأ الرهبان الفرنسيسكان مدرسة صغيرة لتعليم الأطفال الكاثوليك؛ وهي تدرس اللغتين العربية والإيطالية بحي الموسكى.[2] وكان للآرمن مدرسة أنشأت عام 1828م وهي تابعة للكنيسة الأرثوذكسية في بولاق، وأنشأ الإيطاليون مدرسة عام 1829م للغات أسسها أويس السمعاني*، وهي تعلم اللغات العربية والإيطالية والفرنسية.[3] وكان لليونان مدرسة عام 1825م لكنها أغلقت وافتتحت مجددا عام 1843م، وهي أرثوذكسية.[4] وقد ازداد نشاط الإرساليات خلال عهد محمد علي، الذي شجعهم على إنشاء المدارس وتعليم اللغات الأجنبية.

= (13) لطيفة محمد سالم، المرجع السابق، ص 210.

(14) فريد جحا، الحياة الفكرية في حلب، ص 81.

(1) علي المحافظة، الحركات الفكرية في فلسطين، ص 39.

وأنشأ البروتستانت الألمان الكلية العبرية عام 1842م، لتعليم الرهبان اللاهوت واللغات، ومدرسة صناعية للحرف عام 1843 .

أنظر: علي المحافظة، "النشاط التبشيري..."، ص 59، 60.

(2) سلوى العطار، المرجع السابق، ص 345، سعد مرسي وآخرون، المرجع السابق، ص 268.

* هو من طائفة الإفرنج وأصله سوري عاش في إيطاليا وفرنسا ثم دخل مصر.

(3) سعد مرسي وآخرون، نفسه، ص 355، سلوى العطار، نفسه، ص 346.

(4) سعد مرسي وآخرون، نفسه، ص 356.

المبحث الثاني : تنظيم مؤسسات التعليم

1- هيئة التدريس

أ- المدرسون :

لقد اشتهر بين القرنين 16م ومنتصف القرن 19م، عدد كبير من العلماء المدرسين في المدارس التقليدية، أصدروا مؤلفات خاصة بالطلاب، واشتهرت أسر توارثت التعليم في مصر والشام.[1] فقد حظيت وظيفة التدريس والمدرس بمكانة احترام هام من طرف المجتمع والسلطة.[2] والملاحظ أن هذه الوظيفة لم تكن حكرا على أبناء البلد، بل اختلفت أصول المعلمين، فمنهم الأكراد والأعاجم وحتى الهنود.[3] وأطلق على المعلم ألقاب مختلفة حسب عدة اعتبارات.[4]

واختلفت الشروط الواجب توفرها في المدرس حسب وقفية المدرسة، وعموما لم يكن يشترط في مؤدب الكتاب أن يكون حاصلا على إجازات سوى أن يكون حافظا للقرآن، وعارفا بالكتابة والحساب الأولي والخط، وأن يكون من أهل الصلاح.[5] أما في المدارس العالية (الجوامع)، فالمعيار الذي كان يحدد نجاح المدرس هو ثقافته الموسوعية، وكثرة الإجازات التي حصل عليها.[6] وقد ذكرت كتب التراجم الكثير من المزايا والصفات، التي كانت تحدد كفاءة المعلم، حيث اشترط أن يكون فصيحا قادرا على التفهيم.[7] وله حسن استحضار للمعارف، وتقريرها بدقة.[8] واشترط في مدرس الحديث أن يكون له سند عال، ومطلعا على فروع العلوم.[9] وتعدت الشروط الرصيد المعرفي ،إلى طريقة معاملة الطلاب، فاشترط فيه حسن المعاملة والتواضع، ومراعاة الفروق الذهنية بين الطلاب، وعدم الاقتصار على تلقين المعارف فحسب بل تثقيفهم

---

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 335.

(2) دي. شابرول، المصدر السابق، ص 79، أنظر: الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 465 . المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 417.

(3) ليلى الصباغ، من أعلام الفكر، ص 247.

(4) كان يطلق على المدرس في الكتاب "خوجة" ثم شاع لقب "المعلم" وكان يطلق عليه "الشيخ" أما مدارس المسيحيين فكان المعلم راهبا، وفي مدارس الطرق الصوفية كان يطلق عليه الفقيه والأستاذ والقطب الروحي أنظر : دي. شابرول، المصدر السابق، ص 79. فريد جحا، الحياة الفكرية في حلب، ص 88، 89. أوزوتونا يلماز، المرجع السابق، ج2، ص 487، 488. عبد الحكيم عبد الغني، المرجع السابق، ص 127، 128.

(5) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 172، 173. كامل الغزي، نهر الذهب، ج2، ص 56.

(6) أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق، ص 334.

(7) الجبرتي، المصدر السابق، ج3 (دار الفارس)، ص 497، 498. المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 235.

(8) الجبرتي، نفسه، ج 1 (دار الفارس)، ص 124. المرادي ، نفسه، ص 31.

(9) الجبرتي نفسه، ص 596.

بالأخلاق والآداب.[1] وحدد علماء ذلك العصر الصفات المذمومة التي كانت تنفر الطلاب عن العلم، وتكمن أساسا في قلة رصيده العلمي، وكثرة أخطائه، وبخله في منح المعارف، وإن كان على إطلاع عليها. ومن أكثر السلبيات، أن يكون غير قادر على التقرير والتفهيم بفصاحة.[2] ولم يكن هناك تخصص معين لكل مدرس، فقد كان في وسعه أن يلقي على طلابه علوما شتى، مثل عثمان الملقب بالشمعة الدمشقي كان يدرس عشرة علوم لطلابه.[3] وقد اختلف عدد المدرسين، من مدرسة لأخرى حسب ما تحدده الوقفيات.[4]

أما في المدارس الحديثة بمصر، فكان المعلمون من الأزهريين المتضلعين في اللغة، وكذلك الأجانب المكلفون بتدريس العلوم الحديثة واللغات الأجنبية، وهم من الفرنسيين والإيطاليين. ثم اعتمد لاحقا على الطلاب المتخرجين من المدارس الجديدة، وأعضاء البعثات العلمية.[5] وكان لكل مادة أستاذ خاص يدرسها كالرياضيات والطبوغرافية واللغات وغيرها. واختلف عددهم حسب كل مدرسة فمدرسة الطب مثلا كان فيها 6 أساتذة، و3 مساعدين و7 معيدين ومترجمان ومصححان.[6]

أما في المكاتب الإبتدائية فلم يكن الأساتذة معلمي مواد بل يدرسون كل المواد المقررة، وكانوا على درجات خوجة أول، ثان، ثالث ولهم رئيس هو الباشخوجة.[7] وكان يشترط في المعلم أن يكون متخرجا من أحد المدارس، وله كفاءة علمية، فكان بعضهم يخضع لامتحان قبل تعيينه في منصبه.[8] أما في مدارس الإرساليات، فكان أغلبهم رهبان متضلعين في علوم الدين واللغات.

---

(1) أنظر : الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس) ص 124. المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 64. المرادي، المصدر السابق، ص 208، 209 . عبد الله نوفل، المرجع السابق، ص 256.

(2) كان بإمكان الطلبة أن يشتكوا من مدرسهم إذا لم تكن له كفاءة مثلما فعلوا مع موسى الرومي . ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 247. أنظر صفات المعلمين السلبية: المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 10. و المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 170. الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 525، 529، 603.

(3) المرادي، نفسه، ج3، ص 167.

(4) حيث حددت وقفية المدرسة الأحمدية بحلب 3 مدرسين أحدهم للتفسير وآخر للحديث وآخر للفقه. كامل الغزي، نهر الذهب، ج2، ص 56، 57 . وجعل أبو الذهب بمدرسته 16 مدرسا في المذاهب ولكل منهم قارئ. أنظر: علي مبارك، المرجع السابق، ج5، ص 107، 108. وكان في الأزهر بين 40 و 50 مدرسا في أواخر القرن 18م . وأنظر: دي. شابرول، المصدر السابق، ص 76.

(5) سعد مرسي وآخرون، المرجع السابق، ص 368، سمير إبراهيم، المرجع السابق، ص 129، 132 . G.Guémard, op.cit, P.297

(6) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 655، 656، 658، 659.

(7) سعد مرسي وآخرون، المرجع السابق، ص 368.

(8) نفسه، ص 369. لقد اشترط محمود الثاني في معلم الكتاب أن يكون عارفا بعدة علوم وهي 15 علما منها الهندسة النحو الشعر والتاريخ. أنظر: J. Hammer, op. cit. To 17, P. 199

ب ـ المعيد :

هو مساعد المعلم، يتولى مهمة إعادة الدرس للطلاب، بعد أن يكونوا قد سمعوه من مدرسهم، وكان يتولى هذه المهمة وهو في نفس الوقت يتابع دروسه، وهذا النظام كان معمولا به، في مدارس الدولة العثمانية التي أنشأت في عهد محمد الفاتح والقانوني.(1) وحتى في العهود السابقة للعهد العثماني كان هذا المنصب موجودا، فقد كان لكبار الأساتذة في الأزهر والجامع الأموي، معيدون من المدرسين الصغار، يعيدون الدرس أو ملخصه للطلاب.(2) و في الغالب كان المعيد هو أحد الطلاب الملازمين للشيخ المدرس، وقد شغل عدد من العلماء هذا المنصب.(3)

وكان يشترط فيه ما يشترط في المدرس.(4) ومن المدرسين من أعاد له عدة معيدين ومن هؤلاء من جمع بين وظيفة التدريس، وإعادة الدروس مثل شرف الدين الدمشقي(ت 1038هـ/1628م)، الذي تولى إعادة درس الحديث بالجامع الأموي، وكانت له حلقة تدريس بجامع جقمق.(5) وكان هناك معيدين تقريبا في كل المدارس مثل : المدرسة الناصرية الجوانية بدمشق.(6) و السيوفية بمصر.(7) وخلال القرن 19م ظل هذا النظام قائما حتى في المدارس الحديثة، حيث كان هناك عريف لكل فرقة من الطلبة، يعيد لهم الدروس ويراجع معهم المحاضرات.(8)

ج ـ قارئ الدرس :

كان من عادة الشيوخ بالأزهر، أن أفضل الطلبة لديهم يطالع لطلبة شيخه الدرس، قبل أن يلقيه عليهم، مطالعة بحث وتحقيق حتى يتهيؤوا لما سيلقيه عليهم الشيخ.(9) وكان لكل مدرس قارئا لدرسه، بحيث كان يتولى قراءة الكتاب للطلاب أو إملاءه عليهم، بينما يقوم الشيخ بشرح الدرس لهم ومناقشتهم فيه. وقد كان في مدرسة محمد أبي الذهب بمصر لكل مدرس مقرئ أو اثنين يتقاضى كل منهم راتبا.(10)

---

(1) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 171، 172 J. Hammer, op. cit , To 3, P. 524 .

(2) محمد عنان، المرجع السابق، ص 134.

(3) مثل عبد الوهاب الحموي (ت 1015 هـ) الذي لازم محب الدين المحبي وأصبح معيداً له. (المحبي، ج3، ص 101،102)وأعاد أحمد بن موسى العروسي (ت 1208 هـ) دروس شيخه علي الصعيدي. الجبرتي، المصدر السابق، ج2(دار الكتب)، ص 382.

(4) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 146.

(5) المحبي، المصدر السابق، ج 2، ص 225.

(6) هو زكريا بن خضر البقاعي نزيل دمشق (ت 1020هـ/1611م). نفس المصدر، ص 167.

(7) هو قاسم بن محمد التونسي (ت 1193 هـ/1779م). الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 543.

(8) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 659.

(9) مثل سالم الشبشيري نزيل مصر (ت 1609م) كان يطالع لطبلة شيخه النور الزيادي. الجبرتي، المصدر السابق، ج2، ص202. =

وكان للشيخ النجم محمد الغزي الدمشقي(977هـ ـ ت 1060هـ/1569م ـ 1650م)، ثلاثة مقرئين لدرسه في الحديث بقبة النسر.[1]

د ـ الوكيل :

كان بعض المدرسين ـ في نظام التعليم التقليدي ـ يجعلون وكيلا أو نائبا من طلابهم، ينوب عنهم في التدريس في حالة انشغالهم أو سفرهم لطلب العلم أو الحج، فقد كان حسن الجبرتي يوكل تدريس بعض العلوم، لبعض طلابه الملازمين له، وينشغل هو بتدريس الفقه ومراجعة الفتاوي؛ فجعل الشيخ محمد النفراوي على الطلاب العرب، ومحمود النيشي على الأعاجم والأتراك.[2]

وأوكل أمر تدريس الأمير آغا البارودي(ت 1188 هـ/1774م)لأحد طلابه؛وهو عبد الرحمن العريشي ليقرئه نيابة عنه درس الفقه.[3]وكان محمد بن يوسف الأسبيري الحلبي(1133 هـ ـ ت1194هـ/1720م ـ 1780م)، يتولى التدريس بعدة مدارس مثل الكلتاوية و الخسروية و الشعبانية، فجعل وكيله في الخسروية السيد عمر وفي الشعبانية يوسف النابلسي.[4]

ولما توفي عبد الله البشراوي شيخ الأزهر تولى أخوه عنه التدريس،فأوكل هذا الخير الأمر للشيخ يوسف الحفني(ت 1176 هـ/1762م) بدلا عنه.[5] ولما حج والد الشيخ علي الطيبي الدمشقي،(1216 هـ ـ ت 1255 هـ/1801 ـ 1839م)،جعله في الدرس نيابة عنه.[6] وفي المدارس الحديثة كان هناك أساتذة مساعدين، ينوبون عن المدرسين في حال غيابهم. ويعهد إليهم بالإشراف على المكتبة، وأعمال أخرى حيث كان في كل مدرسة على الأقل أستاذين مساعدين.[7]

2 ـ الطلبة

في المدارس التقليدية كان عدد الطلبة يختلف من مدرسة إلى أخرى، وذلك حسب الوقفية التي تحدد عدد الطلاب المجاورين بالمدرسة أو الجامع، كما تحدد عدد المدرسين فمثلا حدد محمد أبو الذهب، عدد

= (10) علي مبارك ،المرجع السابق، ج5، ص 107، 108.

(1) وهم: أحمد بن علي الصفوري ورمضان عبد الحق العكاري و مصطفى بن سوار. أنظر: المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 198، 199.

(2) الجبرتي، المصدر السابق، ج 1 (دار الفارس)، ص 462.

(3) نفسه، ص 172.

(4) المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 121.

(5) نفسه، ص 241.

(6) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 208.

(7) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 659.

الطلاب لكل مدرس في مدرسته وهم 16 مدرسا، تراوح عدد طلابهم ما بين 4 طلبة و 28 طالبا.[1] وكانت الدروس العامة التي تعقد في بعض المدارس والجوامع، لا يحدد فيها عدد الطلبة بحيث يزداد عددهم وإقبالهم على الدرس، بقدر كفاءة المدرس وشهرته، فكان يصل عددهم لدى البعض إلى 500 طالب.[2] ومنهم من وصل عدد طلابه إلى 130 طالبا ؛مثل محمد ابن النقيب البيروتي نزيل دمياط(ت 1064 هـ/1653م).[3]

أما الجامع الأزهر فكان يستقطب عددا كبيراً من الطلبة، من أنحاء العالم الإسلامي. وقد بلغ عددهم في القرن 15م/9هـ (750 طالبا) من أصول مختلفة.[4] وبلغ عددهم في أواخر القرن 18م/12هـ (9441) طالبا منهم 4571 شافعية و 3710 مالكية، و 1130 حنفية و 40 حنابلة وذلك عام 1209 هـ/1794م.[5] أما عدد الطلبة الذين يحضرون عند المدرس الواحد، فكان مختلفا حتى في الدروس الخاصة، فقد كان يحضر درس الشيخ شعبان الفيومي الشافعي، (1015 هـ ـ ت 1075هـ/1606 ـ 1664م)، أكثر من مائة طالب يوميا في ثلاث دروس يلقيها في الجامع كل يوم.[6]

بينما كان محمد العوفي المالكي (ت 1191 هـ/1777م)، يحضره ثلاثمائة طالب.[7] وكذلك في الجامع الأموي كان عدد الطلاب مختلفا، فقد وصل عدد طلاب محمد بن يحي الفرضي (ت 1090 هـ/1669م)، في الجامع أكثر من أربعين طالبا فقط.[8] أما في الكتاتيب فكان عدد الطلاب قليلا ؛ يتراوح بين 20 و 30 طالبا وقد يكون أقل.[9]

أما في المدارس الحديثة بمصر فبلغ عدد الطلاب حوالي عام 1836م (5.500) تلميذ في المكاتب الابتدائية، و 5215 في المدارس التجهيزية والخصوصية، وكان مجموع الطلاب في المدارس الحديثة لا يزيد عن 10715 تلميذا بينما بلغ عددهم في المدارس التقليدية عشرون ألف.[10] و اعتمد في اختيار الطلبة في هذه

---

(1) علي مبارك ،المرجع السابق، ج5، ص 107، 108.

(2) مثل عطية الأجهوري المصري (ت 1194 هـ) و محمد بن سالم الحفني المصري (1101 هـ ـ ت1181 هـ/ 1689م ـ 1767م).

(3) المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 307.

(4) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص 175، 176.

(5) هناك إحصاء آخر قدر عدد الطلبة في القرن 18م في 25 رواقا بـ 3 آلاف طالب فقط. أنظر : أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 334.

(6) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 231.

(7) الجبرتي، المصدر السابق، ج1، (دار الفارس)، ص 509.

(8) المصدر السابق، ج 4، ص 266.

(9) أوزوتونا يلماز، المرجع السابق، ج2، ص 489.

(10) سعد مرسي وآخرون، المرجع السابق، ص 366.

المدارس على عدة طرق ففي البداية كانوا من أولاد البلد والمماليك، ولما افتتحت مدرسة الطب اختير طلبتها من الأزهر، حوالي مائة طالب ،وعندما ألحقت بمدرسة الطب مدرسة القابلات (الولادة)، كانت الطالبات فيها من الحبشيات وليس من المصريات. أما في مدارس الشام التي أنشأها إبراهيم باشا، فتراوح عدد الطلبة بين 400 و 600 طالب.[1]

- **تعليم المرأة**

لم تكن المرأة بمصر والشام في العصر العثماني، محرومة من فرص التعليم المتنوعة بل كانت البنات تلتحقن بالكتاتيب ويتعلمن فيها مثل الذكور، وكانت بعض الكتاتيب مخصصة للإناث فقط، ولكن كن ينقطعن في سن 9 سنوات.[2] وكانت بنات الأسر الميسورة، يتعلمن القراءة والكتابة والقرآن في معقل الحريم، ويكون في العادة مدرسوهم رجالا كبارا في السن أو مكفوفين.[3]

وهناك من تأخذ العلم عن والدها أو أخيها، أو زوجها إذا كان من أهل العلم.[4] وكثيرا ما تعلمهن نساء مما يدل على أنه كانت هناك نساء مثقفات. ولتسهيل تعليمهن ألف بعض العلماء كتبا مبسطة للنساء؛ مثل الشيخ أحمد السجاعي (ت 1197 هـ /1783 م)، الذي شرح منظومة السنوسي في التوحيد "الحفيدة"، ليسهل على المبتدئين من النساء و الصبيان تعلمها.[5] ورغم ذلك كان عدد البنات المتعلمات قليلا.[6]

ولم يكن محظوراً على النساء حضور الدروس في الأزهر، فقد كانت تحضر امرأة عمياء دروس الشيخ عبد الله الشرقاوي في الأزهر.[7]وحتى في الشام كان أنيس الحمصي الدمشقي (ت 1198 هـ/1783م)، يعظ النساء في الجامع الأموي، وكنّ يحضرن إليه للتعلم كل يوم في مشهد الحسين.[8] وحتى الطوائف الدينية بمصر والشام، لم تكن لهم مدارس لتعليم البنات قبل القرن 19م، حيث التحقت القبطيات بالكُتّاب القبطي.[9]

---

(1) سمير عمر إبراهيم، المرجع السابق، ص 129، 130، لطيفة محمد سالم، المرجع السابق، ص 208، 209.

(2) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 153.

(3) دي. شابرول، المصدر السابق، ص 74.

(4) مثل باي خاتون الحلبية الشافعية (ت 942 هـ/1535م) التي قرأت على عمها ابن الشماع.

وزينب الغزية الشافعية ابنة محمد الغزي (910 هـ ـ 980 هـ/1505م ـ 1572م) أخذت عن والدها وأخيها.

وفاطمة بنت قريمزان الحلبية أخذت العلم عن زوجها كمال الأردبيلي. أنظر : نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج2، ص 128، 129، 238 و ج 3 ص 154، 155.

(5) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 153.

(6) منير عطا الله وآخرون، المرجع السابق، ص 60.

(7) المرجع السابق، ص 202.

(8) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 71.

(9) المرجع السابق، ص 208.

وكذلك في بلاد الشام، ولكن الملاحظ هو أن إقبال المسيحيات على التعليم، كان أكثر من المسلمات بسبب العادات والتقاليد.[1] وكانت النساء تحضرن أيضا، مجالس الوعظ والذكر التي تعقد في المنازل لدى العلماء أو الأعيان، مثل مجلس الزبيدي لقراءة الحديث الذي كان يحضره نساء يستمعن من وراء ستار.[2] وكان عثمان بن أحمد الشاغوري الواعظ يعظ النساء في البيوت.[3] وحضرت النساء حتى مجالس الذكر في الزوايا الصوفية، مثل حسن الغريق الذي كانت تحضر عنده مائة إمرأة.[4]

ولما ظهرت المدارس الحديثة، في النصف الأول من القرن 19م/13هـ، لم تدخل الإناث في تلك المدارس، خاصة وأنها كانت تعد الضباط والموظفين في الحكومة والجيش. ولكن مع إنشاء مدرسة القابلات فتح المجال لهن للإلتحاق بهذه المدارس، غير أن المجتمع قابل ذلك بالرفض، مما أدى للإستعانة بالزنجيات والسودانيات بدل بنات مصر، مع أنه فيما بعد التحقت بعض الفلاحات المصريات بالمدرسة، وكان محمد علي يسعى لتعليم عدد كاف منهن ليقمن بتعليم غيرهن.[5]

ولم تظهر مدارس لتعليم البنات، إلا ضمن مدارس الإرساليات خلال القرن 19م، مثل مدرسة البنات التي أنشأتها إرسالية الكنيسة الأنجليكانية، وكان من بين الطالبات مسلمات وقبطيات.[6] و في الشام لم يتم إنشاء مدارس للبنات، إلا في النصف الثاني من القرن 19م.[7]

(1) فريد جحا، الحياة الفكرية بحلب، ص 87، 88.

(2) كمال مغيث ،المرجع السابق ،ص 203.

(3) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج 3، ص 179.

(4) ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 246.

(5) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 673، 667، 668.

(6) نفسه، ص 665، 666.

(7) وهي مدرسة مار يوسف بحلب عام 1272 هـ/1855 م. فريد جحا، المرجع السابق، ص 87، 88.

3 ـ إدارة مؤسسات التعليم

أ ـ الإشراف العام والتفتيش :

كانت الهيئة الدينية خلال العهد العثماني، هي التي تتمتع بصلاحيات الإشراف على التعليم، والتي يقع على رأسها شيخ الإسلام مفتي الآستانة، ويأتي بعده كل القضاة في الولايات، وكان لهؤلاء صلاحيات التعيين والعزل، والسهر على مراقبة استمرار العملية التعليمية، ولهم حق التفتيش والتأكد من استمرار أوقافها، ولم تكن السلطة الحاكمة تتدخل في مؤسسات التعليم أو تمويله.[1]

أما في المدارس الحديثة خلال القرن 19 م، التي أنشأها محمد علي بمصر والشام، فكانت تسير وفق نظام دقيق؛ حيث أصبحت الدولة هي التي تشرف على التعليم وتموله، وأنشأ لأجل تنظيم المدارس والإشراف عليها ديوان الجهادية؛ الذي كان يختص بالأمور الإدارية، ثم أنشأ شورى المدارس[*]؛ الذي كان يختص بالإشراف العام على مؤسسات التعليم، وله مهام الترشيح والتعيين والتفتيش، ووضع لوائح العقاب والرواتب، وقد أنشأ عام 1251 هـ/1836م، ثم أحيلت مهام ديوان الجهادية والشورى إلى ديوان المدارس.[2]

وكان التفتيش في المؤسسات التعليمية، من مهام هذه الهيئات المذكورة أعلاه، ففي المدارس التقليدية كان من حق القاضي، أن يقوم بزيارات تفتيشية، في الجوامع والمدارس والكتاتيب. وعندما كان يكتشف أن المبالغ المخصصة للعناية بهذه المنشآت وتلاميذها، قد صرفت في غير مواضعها، فإنه كان يرغم القائمين عليها بالإمتثال بما ورد في الوقفية، وكان له الحق في أن يرغم القائم على المدرسة في أن يغير المدرس، إذا اتضح له عدم كفاءته المهنية.[3] وكان يحرص على استمرار، جرايات ورواتب الموظفين والتلاميذ. غير أنه لم يكن يتدخل في طرائق التدريس والمناهج.

أما في المدارس الحديثة فكان مجلس الشورى، يرسل في كل ثلاثة أشهر، مندوبا عنه للتفتيش.[4] ويرفع تقريراً إلى المجلس عن حالة المدرسة، ومستقبلها ووسائل إصلاحها، وكان هناك سجل يعرف منه مدى تقدم جميع التلاميذ في دروسهم، ترفع بياناته سنويا إلى الشورى. وكان في كل مدرسة مجلس للتعليم و النظام

---

(1) لويس برنار، اسطنبول، ص 181.

* وهي مجلس مكون من 3 أشخاص عدا الرئيس يحضر جلساته بعض نظار المدارس الخصوصية وكانت قراراته خاضعة لديوان الجهادية. محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 98.

(2) نفسه، ص 98، 637.

(3) دي. شابرول، المصدر السابق، ص 75، 76.

(4) G. Guémard, op. cit, pp. 295,296.

يجتمع كل شهر ويقدم تقريرا إلى شورى المدارس، ويتألف هذا المجلس من المدير والوكيل وأحد مراقبي الدراسة، واثنين من الأساتذة وسكرتير، يختار من بين المدرسين دون أن يكون له حق التصويت.[1] وكان مجلس الشورى يتولى مراقبة مهام المدرسين، ويعاقب* كل من أهمل واجباته، بناءاً على تقرير يقدمه مدير المدرسة.[2]

ب ـ تعيين و عزل المدرسين :

لقد كان التعيين في المؤسسات التعليمية، بالقسطنطينية والولايات بيد الدولة العثمانية، فكان شيخ الإسلام هو المكلف بذلك. ويكون عن طريق براءة تصدر من الدائرة المختصة في الأستانة، و فيها تعين قيمة مرتباتهم.[3] ولذلك كان عدد كبير من العلماء يرحلون إلى القسطنطينية، ويحصلون على براءة التدريس في إحدى المدارس، في الدولة العثمانية أو بلدهم.[4] ولم تكن براءات التدريس تمنح لكل من يطلبها، بل تمنح لمن يستحقها.[5]

وكان بإمكان القاضي أن يرشح المدرسين في المدارس، بعد شغور المنصب بالعزل أو الفراغ (التنازل أو الوفاة)، وله الحرية في الاختيار. ولكن كان لابد من إرسال مكتوب إلى الآستانة، لتبعث بدورها براءة التعيين** للمدرس الذي لا يباشر عمله بالمدرسة، حتى تصله تلك البراءة.[6] ثم تسجل تلك التعيينات في سجلات المحكمة الشرعية.[7] ومن حق القاضي أن يرفض تعيين أي مدرس ويعين من يراه مناسبا، خاصة وأن توريث منصب التدريس كان شائعا.[8] وحتى قرار العزل من منصب التدريس كان بيد شيخ الإسلام، حيث كانت تصدر براءات العزل مثل براءات التعيين، فقد عزل شيخ الإسلام المولى محمد الأسيري، السيد

---

(1) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 2.

* كانت عقوبات المعلمين في مدارس محمد علي بمصر ذات روح عسكرية ؛ بحيث كان ينبه في المرة الأولى ثم يحبس في المرة الثانية لمدة 24 ساعة وفي الثالثة يحبس أسبوعا. سعد مرسي وآخرون، المرجع السابق، ص 369.

(2) نفسه، ص 368، 369.

(3) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 333.

(4) مثل محمد القدسي ابن خصيب (ت 1008 هـ/1669م) الذي دخل القسطنطينية فأعطي له براءة تدريس الجوزية ثم لما عزل عنها عاد و أعطي براءة للتدريس بالمدرسة العمرية. المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 154.

(5) مثل محمد بن الكيال الغزي الذي طلب من شيخ الإسلام المدرسة الشامية البرانية فلم تمنح له ومنحت للأكفاء منه وهو إسماعيل النابلسي. أنظر: نفس المصدر، ص 143.

** لم تكن هذه البراءة موجودة بالنسبة لمدارس مصر وجامعها الأزهر ولكن معظم مدارس الشام كانت معنية بها.

(6) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 250، 251 . نجم الدين الغزي، لطف السمر، ج2، ص 537، 538.

(7) نهدي صبحي، المرجع السابق، ص 200، 201، 225، 226 . المرادي، نفسه، ص 251.

(8) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 61.

عبد الرحيم بن أبي اللطف القدسي (1037هـ ـ ت 1104 هـ/1627ـ1692م)، عن منصب الإفتاء والتدريس بالمدرسة العثمانية بالقدس عام 1069هـ /1658م) لأمر صدر منه.[1] ولكن كان في إمكان القاضي، أن يقرر عزل مدرس ما، إذا تبين له عدم جدارته.[2]

أما في الجامع الأزهر فكانت هناك شروط لتعيين المدرس، حيث كان يشترط عليه أن يحصل على إجازة التدريس من العلماء، والتي تمكنه من الترشح للتدريس بالأزهر، وكان من حق شيخ الأزهر، أن يمنح المنصب للشخص المناسب والأكفأ، خاصة إذا ترشح له عدد كبير من المدرسين، أما في غير الأزهر فكان يمكن أن يمارس التعليم في أي مسجد، بعد موافقة شيخ الأزهر.[3]

وفي بعض الكتاتيب والمدارس، كانت الوقفية تحدد صفات المدرس المطلوبة، وكان القائم على الوقف يحرص على تعيين من تتوفر فيه الشروط، والذي كان بدوره يخضع لإشراف القاضي، الذي يراقب مدى تطبيق تلك الشروط، خاصة إذا لم يكن القائم على الوقف من أهل الواقف.[4] وفي الكتاتيب التابعة للعلماء، كانوا يتولون التدريس فيها بأنفسهم.

أما بالنسبة للمدارس الحديثة، فكان مجلس المدارس، هو الذي يتكفل بترشيح وتعيين المدرسين، ويصادق على ذلك ناظر الشورى.[5] ولم يكن يتم تعيين المدرس إلا بعد امتحانه، والتأكد من كفاءته علميا وخلقيا، وفي الكثير من الأحيان يوضع تحت الاختبار، لفترة من الزمن قبل تثبيته، وكان المعلم يحاسب على نتائج تلاميذه، وكان من صلاحيات مجلس الشورى، أن يعزل المعلم من منصبه إذا اقتضى الأمر.[6]

ج ـ الرواتب :

لقد كانت الدولة في نظام التعليم التقليدي غير مسؤولة عن تمويل التعليم*، ولكنها مع ذلك ظلت حريصة على حسن سيره، وأجرت المرتبات على العلماء المدرسين، وأنفقت على طلاب العلم من الأوقاف

---

(1) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 2.

(2) دي. شابرول، المصدر السابق، ص 75.

(3) نفسه، ص 78، 79.

(4) أنظر وقفية المدرسة الأحمدية بحلب. أنظر: كامل الغزي، نهر الذهب، ج2، ص 56ـ58.

(5) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 637.

(6) سعد مرسي وآخرون، المرجع السابق، ص 368، 369.

* في المدارس التي أنشأت في القسطنطينية خلال عهد محمد الفاتح حدد قانون نامه الفاتح أجر المدرس فيها حسب درجة المدرسة حيث كان يبتدأ بـ 20 أقجة ثم 25 ثم 30 ليصل إلى 50 أقجة. وفي عهد سليمان القانوني كان أجر المدرسين الأربعة الذين يعينون على المدارس التي أنشأتها =

وزودت لهم الهبات و الجرايات، لضمان استمرار حركة التعليم. كما شجعت الأهالي لربط الأوقاف مع مؤسسات التعليم.[1] فكانت الأوقاف هي المصدر الأول لمرتبات وأجور العاملين في المدارس والجوامع، بحيث ارتبطت بحجم الوقف وإيراداته، وعدد العاملين في المدرسة وعدد الوظائف التي يتولاها الشخص. وخير مثال على ذلك مدرسة محمد أبي الذهب التي أنشأها عام 1188هـ/1774م وجعل فيها 16 مدرسا، فرتب للمدرسين الكبار في كل يوم 150 نصفا فضة* ، والمدرسين الأقل منهم 50 نصفا فضة، ورتب للطلبة راتبا يوميا؛ فجعل لبعضهم 10 أنصاف فضة في كل يوم ومنهم من جعل له أكثر أو أقل، ورتب لكل الموظفين بها رواتب أيضا.[2]

كما رتب واقف المدرسة الأحمدية بحلب عام 1166 هـ/1752م،رواتب للمدرس قدرها أربعين عثمانيا** وجعل لكل مجاور 8 عثمانيات يوميا، و 4 عثمانيات للمعيدين.[3] ورتب الأمير علي بك الدفتر دار تدريسا بالشهد الحسيني، وجعل للمدرس فيه ،راتبا قدره 10 أنصاف فضة كل يوم من الوقف.[4] أما في الجامع الأزهر، فلم يكن المدرسين يتقاضون أجورا، بل كانت الأوقاف المرصودة للجامع هي العائل لهم، والتي كانت إما أوقاف عامة أو خاصة بأساتذة المذاهب أو الأروقة وطلبتها، أو للإنفاق على تدريس مادة معينة، مثل الحديث أو الفقه وكان يشرف عليها شيخ الجامع.[5]

وكانت الدولة تقدم للأزهر كل عام 5.600 أردبا*** من الحبوب، توزع على الأروقة المختلفة.[6] وكان الأمراء يضيفون في ذلك. وقد بلغت ميزانية الأزهر، في عهد الحملة الفرنسية ما قدره 598.296 بارة، خصصت منها 576.030 بارة للعلماء و المدرسين، وأكثر من مليون وربع بارة للطلاب.[7] فالسلطة الحاكمة

= قدره 60 أقجة ومدرس الحديث 50 أقجة ومدرس مدرسة الطب 20 أقجة وبقي هذا التنظيم ساريا حتى القرن 19م.

أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية ،ص460. J.Hammer, op. cit, To 3, P. 524.

(1) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 236، 244.

* نصف فضة هي "البارة" و هي عملة عثمانية من الفضة سُكّت لأول مرة في القرن 17م بدلا من الأقجة وكانت تساوي 4 أقجات. حسان حلاق وآخرون، المعجم الجامع، " ب" ص 34.

(2) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 484، أنظر ملحق رقم : " 2 " حول الرواتب.

** عثماني هي عملة عثمانية .

(3) كامل الغزي، نهر الذهب، ج2، ص 56، 57 . أنظر ملحق رقم " 1 "

(4) الجبرتي، المصدر السابق، ج3 (دار الكتب)، ص 189.

(5) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص 172.

*** الأردب هو من المكاييل المعروفة بمصر سعته 24صاعا . مصطفى الخطيب ،معجم المصطلحات التاريخية ،"أ"، ص64.

(6) دي. شابرول، المصدر السابق، ص77 .

(7) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 247.

كانت ترتب للأزهر جراية سنوية* ،ولكنها كثيرا ما كانت تنهب من طرف القائمين عليها ، لذلك نجد في تاريخ الجبرتي، إشارات كثيرة لثورة المجاورين نتيجة لذلك.[1] وكان هناك من يتكفل بهذه الجراية، فيصرف منها الخبز لطلاب العلم، وقد بلغت عام 1204هـ/1789م ما قدره 5آلاف نصف فضة(بارة).[2]

و إضافة إلى الجرايات، كانت إلى جانبها الهبات المالية والعينية، التي يصرفها الأمراء والسلاطين وغيرهم والتي تعد موردا آخر يمول التعليم بالأزهر، فقد خصص السلطان سليم الثاني، في وقفه بمصر عام980هـ/1572م منحا مالية، تصرف كل 25رمضان لليتامى بالمكاتب، وجوامع القاهرة ومدارسها.[3] وبعث السلطان العثماني عام 1202 هـ /1788م، هبات مالية لمجاوري الأزهر قدرها ألف قرش رومي وزادها ثلاثة آلاف قرش، وزعت على المجاورين حسب أحوالهم، فأعطي للأعلى درجة 20 قرشا، ثم 10 للأوسط ثم للأدنى4 قروش، ومنح منها لطوائف الأروقة.[4]وجعل الأمير سليمان الجناحي في وقفه عام 993هـ /1585م، منحا مالية وعينية للأطفال و مؤدبهم في مكتبه.[5]

وفي الجامع الأموي بدمشق وغيره من جوامع الشام، كانت للطلبة جراية تدفع لهم من أوقاف الجامع، وكان لزاوية المالكية التابعة للمغاربة بالجامع جراية خاصة. ولكل سارية من سواريه، وقف يأخذه المدرس فيها وطلبته.[6]وكان الراتب الذي يتقاضاه المدرس بالجامع الأموي مختلفا، فلما استحدث درس الحديث في قبة النسر، عين للمدرس 60 قرشا وللمعيد 30 قرشا وللقارئ 10 قروش.[7]ولما تولى أحمد بن علي المنيني الدمشقي(1089 هـ ـ1180 هـ/1678ـ1766م)، التدريس بالجامع الأموي والخطابة أعطي له 20 عثمانيا.[8] وكان من المدرسين من يشتغل في مدارس أخرى غير الأموي، ويتقاضى راتبه من وقف الجامع.[9]

---

* ذكرها الجبرتي بأنها من وقف الملوك السالفة من الأموال الميرية للعساكر المرابطة، ومنها ما هو للأيتام وأهل العلم والأرامل وأنه ثبت تقرير إيرادها في كل ثلاثة أشهر من أول القرن 16م إلى أواخر القرن 18م. الجبرتي، المصدر السابق، ج3(د.الفارس)، ص 338.

(1) مثل ثورة المغاربة والشوام المجاورين بالأزهر عام 1202 هـ/1788م . نفس المصدر، ج 2، (دار الكتب) ص 251.

(2) نفسه، ص 282، 283.

(3) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 246.

(4) المصدر السابق، ص 246.

(5) المرجع السابق، ص 246.

(6) علي الطنطاوي، المرجع السابق، ص 59.

(7) المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 409.

(8) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 136.

(9) مثل عليم الله اللاهوري (ت 1176 هـ) الذي كان يدرس بالقيمرية ويأخذ من إيراد الجامع 20 عثمانيا. نفسه، ج3، ص 261.

ومن المصادر المالية التي كانت تدفع منها رواتب المدرسين والطلبة، هي صندوق السلطة (الضربخانه) فقد كان المدرسين الذين تعينهم الدولة العثمانية، يصرف لهم أجر من هذا الصندوق مثل محمد بن عبد الملك البغدادي الحنفي (ت 1016 هـ/1607م)، الذي تولى التدريس بالجامع الأموي، وكان يصرف له من الضربخانه كل يوم ما يزيد عن 40 عثمانيا. [1] وكان المدرسين بالقدس الذين تعينهم الدولة العثمانية، تحدد لهم راتبا يوميا قدره 40 أقجة، وحصل مدرس الحديث على 50 أقجة.* [2]

أما في مصر مثلا كان مصطفى أفندي اللازجي الحنفي، (ت 1207 هـ/ 1792م) يتقاضى مرتبا من هذا الصندوق؛ قدره 150 نصف فضة يوميا، وهو مدرس في رواق الأروام.[3] أما المدرسون الذين يعينهم قاضي القضاة، تحدد رواتبهم في قرار تعيينهم؛ مثل قرار تعيين الشيخ شهاب الدين الحنفي بالمدرسة العينية، الذي تضمن تحديد راتب قدره 12 قرشا شهريا، من الفضة الديوانية عام 1139 هـ/1727م.[4]

إضافة إلى ذلك كان البعض يتقاضى راتبه من ضريبة الجوالي** ، التي كانت توزع بعض أموالها على العلماء والمدرسين في دمشق، مثل إبراهيم بن محمد ابن الطباخ (ت 1006 هـ/1597م)، الذي حصل من المال المخصص للعلماء بخزينة الشام، كل يوم على 60 عثمانيا لقاء التدريس بالسليمية.[5] وعبد الحي أفندي الكردي، كان يحصل على مرتب من الجوالي، لقاء تدريسه بالمعينية بدمشق (ت 1025 هـ /1616 م) .[6]

أما بعض المدرسين، فكانوا يتلقون أجرهم من الطلبة خاصة الميسورين منهم، وكان هذا شائعا في الكتّاب، حيث يشترط بعضهم الإطعام على حساب الطلبة.[7] أو يقدم له مبلغا ماليا أو هدية عينية، كل خميس تعرف "بالخميسة".[8] وهذا كان في الكتاتيب التي ينشؤها المؤدب بنفسه.[9] وكان بعض المدرسين يشترطون أجرا ويساومون على ذلك.[10] في حين كان آخرون لا يأخذون شيئا مقابل التعليم.[11]

---

(1) المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 32.

* الأقجة: هي من العملات الفضية في العهد العثماني، ظهرت منذ عهد أورخان.أنظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، ص13

(2) محمود عامر، "الأوضاع العامة للقدس..."، ص 109.

(3) الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص 376، 377.

(4) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 244.

** هي جمع جالية وهو المال أو الجزية، التي تؤخذ من أهل الذمة الذين يعيشون في بلاد المسلمين أطلق هذا اللفظ منذ الخلافة الرشيدة واستمر حتى العهد العثماني. حسان حلاق وآخرون، المعجم الجامع، "ج"، ص 71.

(5) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 32.

(6) نجم الدين الغزي، لطف السمر، ج2، ص 500. وأنظر مثال آخر: نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص 54.

(7) علي المحافظة، الحركات الفكرية في فلسطين، ص 32.

(8) كامل الغزي، نهر الذهب، ج1، ص 165. أنظر: محمد أحمد، " الحياة الثقافية ...في دمشق"، ص 313.

(9) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 248. =

و ارتبطت قيمة الرواتب في نظام التعليم التقليدي بحجم الوقف، ولذلك كانت تبدو في بعض الأوقات كبيرة وأحيانا قليلة. ومن جهة أخرى كان الجمع بين وظيفتين أمرا شائعا، مثل التدريس والخطابة وغيره، أو التدريس في عدة مدارس في آن واحد ، فإذا حصلت الموازنة يصبح الراتب كبيراً، كأن يحصل على واحد أقجة من نظارة الوقف، ويحصل على أكثر من ذلك في الوقت نفسه من وظيفة أخرى.(1)

و من أمثلة ذلك علي بن محمد الأشبوني (ت1211 هـ /1796م)، الذي كان يتقاضى راتبا عن كل وظيفة موجهة إليه، فكان يدرس في جامع الآثار والنظامية.(2) وعبد الجواد الكيالي (ت 1192 هـ/1778م) كان يأخذ أجرا من تدريس الحديث بالأموي بحلب، وبجامع بشير باشا.(3) وفوق ذلك كان معظم العلماء والمدرسين يمارسون التجارة والسمسرة، وحتى الطلاب إذا لم تكن رواتبهم كافية.(4)

و في المدارس الحديثة بمصر، فأصبحت الدولة هي المكلفة بتمويل التعليم، حيث خصصت نفقات خاصة لصيانة معاهد التعليم، ودفع مرتبات المدرسين والموظفين والطلاب، ما يبلغ ثلاثون ألف كيس أي 15 مليون قرش سنويا وبذلك يتكلف الطالب الواحد سنويا 1600 قرش.(5) وهي تشمل أموال و تعيينات*، ترتب حسب المدارس والمستويات؛ ففي المدارس الابتدائية كان الباشخوجة (كبير المدرسين) يتقاضى أجرا شهريا يتراوح بين 75 و 100 قرش شهريا، أما المدرسين الآخرين فلهم 40 قرشا، والناظر 100 قرش والكاتب 50 قرشا وللخدم ما بين 15 و 25 قرشا إضافة إلى التعيينات. أما المدارس الخصوصية كمدرسة الطب، فكان الأستاذ يتقاضى أجراً قدره (5آلاف فرنك)، والناظر 7 آلاف فرنك سنويا.(6)

أما التلاميذ فكانوا يتقاضون في المدارس الإبتدائية، بين 8 و 12 قرشا شهريا إلى السنة الثالثة. وفي المدارس التجهيزية بين 15 و 30 قرشا شهريا إلى السنة الرابعة، أما المدارس الخصوصية فبين 40 و 80 قرشا حتى السنة الخامسة، وفي مدرسة العمليات كان الراتب بين 80 و100 قرش شهريا في ظرف ثلاث سنوات.(7)

= (10) مثل حسين (ت 1170 هـ/1756م) الذي كان يساوم في أجرة الدرس لكل من يريد التعلم عنه. الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 302.

(11) المرجع السابق، ص 248 . أنظر : نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج2، ص 92.

(1) محمد الأرناؤوط، المرجع السابق، ص 91.

(2) الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص 402.

(3) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 239.

(4) عبد الرحيم عبد الرحمن، المغاربة في مصر، ص 103. وهناك إشارات كثيرة في كتب التراجم حول ذلك ذكرناها في مواضع سابقة.

(5) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 339.

* هي الطعام والكساء.

(6) المرجع السابق، ص 663، 673، 672. =

4 ـ الإجازات والعقوبات والعطل المدرسية:

أ ـ الإجازات والدرجات العلمية :

لقد سار النظام التعليمي في مدارس الدولة العثمانية منذ القرن 16م إلى القرن 19م على نظام واحد، حيث نظم التعليم في 12 درجة، مع اشتراط الحصول في كل مرحلة على إجازة، وكان يسمح للطالب بعد الدرجة السادسة، وهو يتابع دراساته في الدرجات الأعلى، أن يعمل معيداً في الصفوف الدنيا ويصبح حينها متعلم "دانيشمند".[1]

و الإجازة عبارة عن شهادة تثبت نجاح الطالب في درس ما، أخذه عن أحد الشيوخ.[2] وكانت تكتب أحيانا بخط المجيز.[3] وأحيانا بخط المجاز نفسه، أو يكتبها كاتب خاص يكون أحد طلاب الشيخ.[4] ولم يكن عدد الإجازات محدودا، فقد حصل أحد العلماء على 14 إجازة من 14 شيخا.[5] وكان منها ما هو شفهي يقدمها المجيز في مجلس به شهود.[6] و منها ما يكون كتابة نثرا أو نظما.[7] ويراعى في كتابتها التأنق في الألفاظ، فتكون مسجعة مرصعة بالبيان.[8]واختلف حجمها فتراوحت بين بضعة أسطر، يذكر فيها الشيخ اسمه واسم الطالب ،و قد تكون في 5 كراريس يذكر فيها سند العلم الذي أجاز فيه، والشيوخ الذين أخذ عنهم.[9]

وتضمنت الإجازات أجزاءاً مختلفة، لكنها اشتركت في أخرى، بحيث كانت تبتدأ بالبسملة وحمد الله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم تليها مقدمة في أهمية العلم والأسباب الداعية لمنح الإجازة و ذكر اسم الطالب ومدحه، ثم يـذكر سند العلم الذي أجاز فيه وقد يذكر أعظم شيوخه ويصل بالسند إلى

= (7) نفسه، ص 638، 639 . أنظر الملحق : رقم "3" . وذكر هامر أن أجر المدرس في مدارس السلطان محمود الثاني باسطنبول خلال نفس الفترة كان يتراوح بين 200 و 800 قرش شهريا وأجر الطالب بين 50 و 100 قرش شهريا واعتبرها مرتفعة مقارنة مع ما كان في أوروبا في نفس الفترة J. Hammer, op. cit, To. 17, P. 200.

(1) ليلى الصباغ، المجتمع السوري ،ص171 . أنظر: Edward.S. Creasy , History of Ottoman Turks ,Henry Holt and Company ,New York,1st Ed ,To1,1887,p .105.

و الدانيشمند معناه طالب العلم الشرعي والعالم. حسان حلاق، المعجم الجامع، " د " ص 89. Ibid, P. 195.

(2) أوزوتونا يلماز، المرجع السابق، ج2، ص 490.

(3) كانت الكتابة بخط الشيخ المجيز فيها تشريف للطالب المجاز. أنظر: المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 333. محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 182.

(4) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 238.

(5) هو أبو الجمال محمد الجزائري. الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 115.(وذكر إبراهيم المعروف بابن حمزة (ت 1120 هـ /1708م) أنه أخذ عن 80 شيخا من مختلف الأقطار. المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 22، 23.

(6) الجبرتي، نفسه، ص 597، 600.

(7) المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 234. أنظر ملحق رقم " 4 " و"5" نموذجا عن هذه الإجازات.

(8) المصدر السابق، ص 596. =

الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة في العلوم الدينية، ثم يذكر الكتاب أو الكتب التي أجاز فيها، وقد تكون في علوم شتى. ويأذن للطالب بروايتها أو تدريسها، ثم يقدم النصح له ويدعو له بالتوفيق، وينهي الإجازة بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر اسمه وتاريخ توقيعه الإجازة، وكثيرا ما يمدح نسب الطالب إذا كان عالما أو من بيت علم.(1)

والإجازة أنواع فمنها الإجازة الخاصة، وتكون في كتاب معين أو علم واحد.(2) أو إجازة عامة، فتكون في كتب متعددة، و بجميع ما يجوز للشيخ روايته، وقد تكون في عدة علوم.(3) وهناك أيضا إجازة الأمالي؛ وهو الكتاب الذي يؤلفه الشيخ، من إملائه على طلابه مع الشرح، ولما ينتهي منه يراجعه معهم ويصححه، ثم يوقع على نسخة كل واحد ويجيزه بروايته عنه، وقد تكون نسخة من كتاب معروف، يدون عليها الطلاب شروح شيخهم في الهامش ثم يجيزهم.(4) وهناك إجازة الإفتاء والتدريس؛ بأن يدعو الطالب زملاءه لحضور درسه الأول، فيتجادلون معه فإذا أثبت جدارته أجازوه.(5)وإجازة قراءة القرآن.(6) أما المتصوفة فلهم إجازات خاصة غالبا ما تكون نظما.(7)بعد قراءة الأذكار وإلباس التاج، وهي علامة الانتساب للطريقة.(8)

وكانت هناك شروط في الإجازة، حيث يلازم الطالب شيخه في علم ما، وبعد أن يتحقق الشيخ من كفاءة طالبه ويختبر معارفه يجيزه.(9) فكان هناك شيوخ يتشددون في منح الإجازة و لم يعترفوا بالإجازة المطلقة أو بالمراسلة.(10) ومع ذلك كان هناك من يتساهل في منحها، فكانت تمنح لطالب لم يتم قراءة الكتاب على شيخه فيجيزه بكل كتبه.(11) ووصل الأمر بأحدهم إلى أن أجاز أهل عصره.(12) بل إن البعض أجاز طالبا

= (9) مثل إجازة محمد السفاريني للشيخ عبد القادر بن خليل الرومي المدني (ت 1187 هـ/1773م) . نفس المصدر، 428.

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 447، 448، 454، 455.

(2) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 235. المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 191.

(3) المصدر السابق، ص 447، المرادي، نفسه، ج3، ص 105.

(4) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 234، 235.

(5) دي. شابرول، المصدر السابق، ص 78، 79. مثل أبو بكر القواف الدمشقي (ت 1170 هـ/1756م) الذي أجيز بالإفتاء والتدريس. المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 52.

(6) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 236.

(7) الجبرتي، المصدر السابق، ج1، ص 596.

(8) نفسه، ج2 (دار الكتب)، ص 396.

(9) أنظر : نفس المصدر، ص 303. المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 125.

(10) الجبرتي، نفسه، ج1 (دار الفارس)، ص 596. المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 11.

(11) مثل محمد الحسني الدمشقي الذي سمع بعض صحيح البخاري عن الشمس الميداني فأجازه إجازة عامة. المحبي، المصدر السابق، ج 4، ص 125. =

قرأ عليه بعض الأحاديث في مجلس، بجميع ما له من مؤلفات حتى التي لم يؤلفها بعد.[1] وكانت هناك إجازة مكاتبة أو مراسلة، بحيث يستجيز الطالب من علماء الأقطار دون أن يكون قرأ عليهم أو عرفوه.[2] وكان بعض الصوفية يعترفون بالإجازة في المنام (الحلم).[3] وبعض الإجازات تمنح للمجاملة، فلا يمكن الحكم على أهلية الطالب، إلا من خلال دروسه التي يلقيها ومؤلفاته، وليس من خلال عدد الإجازات التي حصل عليها.

أما في المدارس الحديثة، فكانت تمنح للطلبة المتخرجين شهادة معترف بها، تؤهلهم لتولي الوظائف المتاحة حسب التخصص الذي درسوه، ولم تكن تختلف في صياغتها اللفظية عن الأساليب البيانية في الإجازات، فكانت مدرسة الطب تخرج الأطباء للخدمة المدنية، و ضباط للقسم الطبي في الجيش. ومدرسة الألسن كانت تخرج مترجمين للمصالح العامة، ومدرسين للمدارس التجهيزية.[4] و في عام 1842م قررت شورى المدارس، منح الأطباء خريجي مدرسة الطب لقب"دكتور"، و دبلوما في الطب المعمول به في أوروبا.[5]

ب ـ الامتحانات والعطل المدرسية :

لم تكن هناك امتحانات في المدارس التقليدية بمصر والشام بالمفهوم الحالي، ولكن كان النظام السائد فيها، هو أن يحضر الطالب دروس شيخه، ولما ينهي دراسته يختبره شيخه فيما تلقاه عنه من علوم، ويتأكد من فهمه لها فهما جيدا، وحينها يمنحه الإجازة التي تؤهله للتوظيف.[6] فمنهم من كان يصعب على الطالب، ومنهم من يتساهل في ذلك، فبعد أن يتم إملاءه وشرحه لكتاب، يطرح على طلبته أسئلة حول المتن والشرح، ويجادلهم ويناقشهم ويجيز من يشاء.[7] وفي الكتاب كان الصبيان يستظهرون لمؤدبهم كل ما حفظوه يوميا، ويصحح لهم أخطاءهم، وبعد انتهاء سنوات الدراسة، يعلن الشيخ ختمية الولد بحفظ القرآن.[8]

= (12) وهو خير الدين العليمي الرملي (ت 1081 هـ/1670م) كان متسامحا في الإجازة. نفس المصدر، ج2، ص 139.

(1) فمثلا أجاز عبد الغني النابلسي علي بن كرامة وعبد الله السري من طرابلس إجازة كهذه مع أنهما لم يقرآ عليه سوى بعض الأحاديث في مجلس. أنظر: عبد الغني النابلسي، الرحلة الطرابلسية، ص 86، 87. وأجاز الزبيدي جميع من سمع عنه صحيح مسلم بكل ماله من مقروءات ومسموعات ومعاجم. أنظر: كمال مغيث، المرجع السابق، ص 238.

(2) هناك أمثلة كثيرة عن ذلك في كتب التراجم وخير مثال على ذلك عبد الرحمن الكزبري (ت 1262 هـ/1845م) الذي كان من أهل دمشق وأجازه مكاتبة ومراسلة شيوخ مكة ومصر وبيروت وبغداد وحلب. محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 161.

(3) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 237.

(4) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 658.

(5) سعد مرسي وآخرون، المرجع السابق، ص 374.

(6) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 176.

(7) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 234، 235.

(8) قاسم الصمد، تاريخ الضنية السياسي والإجتماعي في العهد العثماني، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، (د.م.ط)، ط1، (د.ت)، =

و هي تدل على نجاحه في اجتياز المرحلة الأولى من التعليم، أما في المدارس الحديثة فأصبحت تجرى امتحانات رسمية سنوية، تشمل المقررات الدراسية، حيث كانت مدارس محمد علي تعقد امتحانا سنويا في شهر شعبان، يتولى الإشراف عليه شورى المدارس، وكانت الدولة تحرص على نتائج الامتحانات، فالناجحون ينتقلون إلى المدارس الأعلى، والراسبون يحولون إلى وظائف أخرى.[1]

أما عن العطل المدرسية، فكان العلماء في مدارس الدولة العثمانية (التقليدية)، يجعلون العطلة يومي الثلاثاء والجمعة، لكي يروح الطلاب على أنفسهم، ولم تكن هذه الأيام بدون فائدة، بل كانوا يستغلونها في إعداد بعض المواد من دروسهم.[2] أما في مدارس مصر والشام، فكانت العطلة بالأزهر على فترات، وهي تختلف طولا وقصراً، فالعطلة الأولى تبدأ من رجب إلى عيد الفطر أوائل شوال، وبعد ذلك بشهرين تبدأ عطلة عيد الأضحى وتستمر لأيام فقط، وكانت الدراسة تنقطع في أيام الموالد والأعياد.[3] وفي الجامع الأموي كان هناك يومي عطلة في الأسبوع.[4]

بينما في المدارس الأخرى، فكانت الوقفيات هي التي تحدد أيام العطلة وأيام الدروس. وكان الطلبة يقضون أوقات النزهة في استذكار الدروس، خاصة تلك التي لم يكن لها درس خاص. و كانوا يقسمون النزهة إلى قسمين؛ القسم الأول يشغلونه في مدارسة العلم، والقسم الثاني في مطارحة المسائل الأدبية، والنوادر والأبيات الشعرية، والمواليات والنكات وسرد الأخبار، والأحاديث التراثية.[5] أما في المدارس الحديثة فكانت مدارس محمد علي بمصر والشام، تخضع لنظام واحد والعطلة السنوية تبتدأ من أول رمضان إلى 4 شوال من كل عام إضافة إلى عطلة الأسبوع يوم الجمعة.[6]

ج ـ العقوبات المدرسية :

لقد كان العقاب في الكتاتيب، يطبق على الأطفال الذين يخلون بواجباتهم المدرسية، أو بعلاقتهم مع معلمهم، وذلك عن طريق الفلقة، وهي عدد من الضربات بالجريدة* على باطن القدمين.[7] وعادة لا يكون

= ص166

(1) محمد فؤاد شكري وآخرون، المراجع السابق، ص 638، 644.

(2) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 469.

(3) دائرة المعارف الإسلامية ،مج2، ص 60.

(4) لقد ذكرت كتب التراجم إشارات متفرقة عن أيام العمل في الجامع الأموي بدمشق واتضح منها أن الأيام التي كانت عطلة هي اثنين من هذه الأيام الثلاثة و هي : الأحد، الثلاثاء، السبت ولم أستطع تحديد أي اليومين بالضبط .أنظر : المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 208، 209 وج 4، ص 222.

(5) ذكر الجبرتي أن والده كان يقضي أوقات كهذه مع طلابه الملازمين له. الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 459.

أنظر : E.Brown, op. cit, pp. 167 ،168 =

مبرحا، وقد نصت وثائق الوقف على أن يعامل المؤدب الأطفال باللين واللطف، وأنه يجوز له أن يضرب الطفل ضربا خفيفا إذا أخل بالآداب، وهناك من اشترط موافقة والدي الطفل.[1] وهناك من كان يعتمد أساليب في العقاب تهين التلميذ كالضرب بالعصا واللطم وشد الأذن، وغير ذلك من أساليب الخشونة، بدلا من تنشيط الطفل الخامل بلطف.[2]

وحتى في غير الكتاب في المدارس والجوامع كان هناك مدرسين يعاقبون طلبتهم، بالضرب مثل يوسف القسي المالكي(ت 1061 هـ/1651م) كان من مشايخ الأزهر.[3]ومحمد بن الديري الشافعي الدمشقي (ت 1250 هـ/1834م) الذي كان شديدا على الطلبة حتى أنه يضرب من لا يفهم الدرس بخفه.[4] ومنهم من كان يعاقب طلابه بالكلام الجارح كأن يصفهم بالجهل والغباء.[5] وقد نصت بعض الوقفيات في المدارس على بعض العقوبات إذا بدر من الطالب ما يخالف الشرع، وذلك بوعظه فإن لم يرتدع طرد من المدرسة.[6]

أما في المدارس الحديثة التي أنشأها محمد علي في القرن 19م، فقد كانت نموذجا للمدرسة الحديثة، لكنها كانت ذات طابع عسكري في تنظيمها، وقبل أن تنظم الحكومة لوائح العقوبات في المدارس، ترك أمر توقيع العقاب إلى ناظر المدرسة ومدرسيها، فكان بعضهم يستخدم الكرباج،أو إجبار الطالب على لبس ملابسه بالمقلوب، والحبس في غرفة مظلمة، والعزل عن الزملاء ،وقد يصل الأمر إلى الطرد من المدرسة.[7]

ولما أعدت اللوائح نظم العقاب على مستويات وحددت الحالات التي توقع فيها تلك العقوبات وهي بالترتيب :"الإنذار، التأنيب على مسمع الزملاء عزل الطلبة المذنبين عن غيرهم، الإنزال من الرتبة، الحرمان منها، ارتداء السُّترة مقلوبة، الحجز في غرفة خاصة، الحبس، الحبس مع الاقتصار على تناول الخبز والماء،الحبس في غرفة مظلمة، الضرب بالكرباج، الطرد من المدرسة".[8]

=(6) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 638، 646.

* الجريدة هي عصا من فروع شجرة النخيل.

(7) دي. شابرول، المصدر السابق، ص 74.

(1) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 253.

(2) علي المحافظة، الحركات الفكرية في فلسطين، ص 32.

(3) المحبي، المصدر السابق، ج 4، ص 510.

(4) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 267.

(5) مثل محمد بن عثمان الصيداوي الشافعي الدمشقي (995 هـ ـ ت 1065هـ/1587 ـ 1655م) الذي كان إذا تهور على أحد الطلبة يؤلمه بكلام حتى يرتدع ثم لا يحقد عليه. أنظر: المصدر السابق، ص 37.

(6) كامل الغزي، نهر الذهب، ج 2، ص 57.

(7) سعد مرسي وآخرون، المرجع السابق، ص 361، منير عطا الله وآخرون، المرجع السابق، ص 82. =

أما في المدارس العسكرية فتمثلت العقوبات في: "الاعتقال، المحاكمة أمام ضباط النظام، السجن، السجن في غرفة مظلمة، الجلد، الطرد".[1] أما عن الفصل أو الطرد من المدرسة، فكان لا يتم إلا بقرار يصدره مجلس إدارة المدرسة، بعد أن يسمع من الطالب، ولابد من مصادقة شورى المدارس على قرار الفصل. والطالب المفصول يستخدم في إحدى الوظائف الصغرى.[2] وكان الطلاب الذين ذهبوا في بعثات علمية إلى أوروبا، ولم يستفيدوا يعاقبون بالسجن.[3]

= (8) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 643، 644.

(1) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق ، ص 656.

(2) نفسه، ص 644.

(3) بريس دافين، المصدر السابق، ص 35.

المبحث الثالث : مناهج التعليم و طرائقه

1 ـ مراحل التعليم و رزنامة سير الدروس

أ ـ مراحل التعليم : لقد كان التعليم في المدارس والمؤسسات التقليدية، يمر بمرحلتين ولكن في المدارس الحديثة، أضيفت إليهما مرحلة متوسطة بينهما خلال القرن 19م وتتمثل هذه المراحل في المرحلة الإبتدائية (التعليم الأولي) وكانت تتم في الكتاتيب حيث يلتحق بها الطفل في سن 4 إلى 6 سنوات، ومدة الدراسة تصل إلى 4 سنوات.(1) ولم تكن المرحلة الإبتدائية من التعليم إلزامية، ولكن كانت متاحة أمام كل فئات المجتمع بمختلف طوائفه، ولم تكن هناك برامج رسمية محددة، فقد ارتبط ذلك بعوامل منها: شروط الوقفية التي يمكن أن تفرض تدريس علم معين، وكذلك بقدرات المؤدب و المتعلمين. وفي الغالب كانت تدرس فيه المبادئ الأولى للقراءة والكتابة، ومبادئ القرآن الكريم وحفظه، وقواعد الدين الأساسية والتجويد والحساب.(2) وقراءة الإنجيل كانت تضاف إلى تلك العلوم في مكاتب المسيحيين.(3) وبعد انتهاء مدة الدراسة يعلن الشيخ ختمية الطفل، ويجري بمناسبة ذلك حفل خاص، حسب مستوى عائلة الولد.(4) وكان خريجو الكُتّاب يملكون قاعدة علمية، تمكنهم من إتمام دراساتهم في الجوامع (المرحلة العالية). أما الذين لا يرغبون في إكمال دراساتهم، فيلتحقون بمهنة ما أو تعلم حرفة.(5)

وفي القرن 19م ظهرت مكاتب المبتديان بمصر، وهي لا تختلف عن الكتاتيب كانت تحدد سن القبول بين 7 و 12 سنة، وحددت مدة الدراسة بثلاث سنوات وقد تصل إلى أربع سنوات. ولم تختلف مناهج التعليم عما كانت عليه في الكتاب، خاصة وأن أغلب النظار فيها كانوا من خريجي الأزهر.(6) وتنتهي الدراسة بامتحان أخير، يؤهل الناجحين للإلتحاق بالمدارس التجهيزية.(7)

---

(1) أوزوتونا يلماز، المرجع السابق، ص 488. كان طلاب القرى يلتحقون في سن متأخرة حوالي 7 أو 8 سنوات، عكس طلاب المدن. قاسم الصمد، المرجع السابق، ص 166.

(2) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 172، أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 450.

(3) فريد جحا، الحياة الفكرية في حلب، ص 88، 89.

(4) قاسم الصمد، المرجع السابق، ص 166.

(5) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 173.

(6) منير عطا الله وآخرون، المرجع السابق، ص 80، 81. في المكاتب التي أنشأها السلطان محمود باسطنبول في نفس الفترة من القرن 19م حدد فيها علوما كثيرة غير التي كانت في كتاتيب مصر الحديثة بناء على ما اشترطه في المدارس كعلم الخط والتاريخ والهندسة والعروض، الموسيقى والعقيدة وغيرها J. Hammer , op.cit, To. 17, P. 199. =

والمرحلة التجهيزية والتي لم تكن موجودة في التعليم التقليدي، ولكنها استحدثت ضمن تنظيم المدارس الحديثة، وهي مرحلة انتقالية بين المرحلة الأولية والعالية. و يتم خلالها إعداد الطالب للدراسات المتخصصة، في المدارس العالية.[1] و كانت الدراسة تستغرق من أربع إلى خمس سنوات، وشملت المناهج الدراسية اللغة العربية والتركية والفارسية، والحساب ومبادئ الجبر والجغرافيا والتاريخ العام، والخط، الرسم الخطي وغيره.[2] وكان يعقد في نهاية السنة امتحان سنوي لنقل الطلبة إلى الفرقة الأعلى، وفي نهاية المرحلة ينقل التلاميذ للمدارس الخصوصية.[3]

والمرحلة العالية (المتخصصة)وقد كانت هذه المرحلة في نظام التعليم التقليدي، تتم في الجوامع الكبرى كالجامع الأزهر بمصر و الأموي بدمشق؛ حيث يختار الطالب الذي يريد إتمام دراساته، الجامع الذي يريد أن يدرس فيه، بناءاً على ما يقدمه من غذاء وكساء وشهرته العلمية، ومن حيث مكانة مدرسيه. ولم تكن هناك سن محددة للإلتحاق بالجوامع، التي كانت بمثابة جامعات اليوم.[4]

ولم تكن سنوات الدراسة محددة، بل كان منهم من يستمر في الدراسة، وهو يشتغل بالتدريس في نفس الجامع أو خارجه. وكان الكثير من الطلبة يفضلون دراسة عدة علوم، ويمكن أن يختص بعلم واحد كالفقه أو الحديث، مع اطلاع على العلوم الأخرى. بل إن هذا كان من عادة العلماء المحببة، إذ من الخطأ عندهم أن يقتصر الطالب على علم واحد.[5] فمن كان يريد التفوق، عليه أن يدرس كل العلوم لكونها متداخلة فيما بينها، و الإشتغال بأحد من فروع المعرفة طيلة الحياة، يكون في نظرهم بعدا عن المعرفة الحقيقة.[6]

وكانت الدراسة في الجامع الأزهر تمر بثلاث مراحل؛ يتم في المرحلة الأولى إلقاء دروس أولية للطلبة المبتدئين، في مواد مختلفة تحت إشراف صغار المدرسين، وفي المرحلة الثانية تدرس الكتب المتوسطة على أساتذة أكثر كفاءة ثم في المرحلة الثالثة يدرس الكتب الصعبة على يد كبار العلماء.[7] ولم يكن هناك منهاج معين، بل كانت هناك كتب مخصصة لكل مرحلة، إلا أن عدد تلك الكتب لم يكن محددا، فمنهم من

= (7) نفسه، ص 82.

(1) سمير عمر إبراهيم ، المرجع السابق، ص 128.

(2) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 643.

(3) نفسه، ص 644، منير عطا الله وآخرون، المرجع السابق، ص 82.

(4) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 175.

(5) لقد أشار الجبرتي إلى نصيحة مرتضى الزبيدي لسليمان بن طه الشهير بالأكراشي (ت 1199 هـ/1784م) حيث أعاب عليه ملازمة شيخ، واحد في علم واحد ونصحه بدراسة باقي العلوم لأن الاقتصار على فن واحد غير مفيد . الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 600. =

قرأ ما يزيد عن 133 كتابا عن شيوخ مختلفين.[1] وكان الطلاب يتلقون في هذه المرحلة مختلف العلوم العقلية و النقلية، ويحصلون في نهاية دراستهم على إجازة.[2] وفي المدارس الحديثة أصبحت هذه المرحلة، تتم في المدارس الخصوصية كالمهند سخانه ومدرسة الطب وغيرها، حيث تستمر الدراسة فيها بين ثلاث إلى ست سنوات، وكان النجاح في امتحانات نهاية المرحلة، يؤهل صاحبه لنيل وظيفة ما.[3]

و حتى في المدارس الصوفية كان الطالب يجتاز مراحل خاصة؛ حيث يطلق على طالب المرحلة الأولى مريد يتعرف على المبادئ الأولية للتصوف، وفي المرحلة الثانية يطلق عليه النقيب أو السالك، حيث يتعلم علوما نظرية كالصبر والورع، وتطبيقية مثل القيام بالنوافل والأوراد، وفي الأخير يطلق على الطالب لقب النجيب أو الواصل، وهذه المرحلة تتعلق بالمجالس العلمية و آدابها وطرائق الجدال.[4]

ب ـ رزنامة سير الدروس في الأسبوع :

كان الطلبة في المدارس العثمانية باسطنبول وغيرها من المدن، حسب النظام التقليدي يتلقون خمسة دروس في الأسبوع، وكان الدرس لا يتجاوز عدة أسطر من كتاب، وكانوا قبل يوم واحد يتلقون الدرس لثمان أو تسع ساعات، ويستمر الدرس في اليوم الموالي بين أربع أو خمس ساعات.[5]

وفي مصر والشام، كان تنظيم الدروس في اليوم والأسبوع، بالمدارس والجوامع تحدده الوقفية. فمثلا حددت وقفية المدرسة الأحمدية بحلب، بأن تقرر فيها تدريس التفسير يومي الاثنين والخميس وعلوم مختلفة في باقي أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة ويوم الثلاثاء ،التي يدرس فيها الحديث،أما في يوم الأحد والأربعاء فتقرر تدريس الفقه الحنفي.[6] وكان بعض المدرسين يحددون لكل يوم درسا مثل لطفي بن محمد البصير الدمشقي (ت 1005 هـ/1596م) الذي كان يلقي دروسا في الأموي في الحكمة والمنطق والهيئة في كل يوم درسا واحدا يستمر من مطلع الشمس إلى وسط النهار.[7]

= (6) خليل إينالجيك، الدولة العثمانية، ص 254.

(7) كمال مغيث، المرجع السابق. فمثلا في مدارس سليمان القانوني كانت الدرجات الأولى الثلاثة تسمى حسب الكتب التي تدرس فيها وهي حاشية التجريد والمفتاح والتلويح. أنظر: أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 458.

(1) فمثلا قرأ محمد بن سالم الحنفي 17 كتابا وحسن الجبرتي 117 . أنظر: كمال مغيث، المرجع السابق، ص 176.

(2) دي. شابرول، المصدر السابق، ص 76، 77.

(3) سمير عمر إبراهيم ، المرجع السابق، ص 128، محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 644، 655، 658.

(4) عبد الحكيم عبد الغني، المرجع السابق، ص 124 ـ 126.

(5) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 468. =

أما في الجامع الأزهر، فكانوا يدرسون التفسير والحديث، وعلم الكلام ونحوه بعد الفجر، و عند الشروق يدرسون حلقات الفقه على المذاهب الأربعة، وبعد الظهر يدرّسُ النحو والبيان والبديع، وبعد العصر دروس المنطق والحكمة والحساب والتاريخ والفلك، وبعد المغرب تعقد مجالس لفنون ومناقشات مختلفة، أما بعد العشاء فيفرغ الجامع للصلوات والأذكار.[1]

و في الجامع الأموي كانت الدروس كل أيام الأسبوع، ماعدا يومي العطلة.[2]وكان بعض المدرسين يرتبطون بوظائف تدريس في عدة مدارس إلى جانب الأموي؛ فكانوا ينظمون دروسهم وفق ذلك.[3] وحتى في الجامع الأموي بدمشق، كانت الدروس تبتدأ من مطلع الفجر إلى ما بعد العشاء.[4] أما في الكتّاب فكان الدرس يستمر في بعض الكتاتيب الفترة الصباحية فقط، ومنها ما يستمر حتى المساء، ولا توجد فترة راحة إلا عند الذهاب للبيت، لجلب وجبة الغداء.[5] وكانت بعض الكتاتيب في الريف تدرس في فصل الشتاء فقط، بحيث لا يتعارض ذلك مع أعمال الفلاحة بينما تتوقف في الصيف.[6]

وفي المدارس الحديثة كانت خطة الدراسة تنظم حسب المواد المقررة، وفق منهاج كل مدرسة ويقوم مجلس إدارة المدرسة بتنظيم منهج الدراسة كل سنة، و يصادق عليه شورى المدارس.[7] حيث كانت الدروس كل أيام الأسبوع ماعدا الجمعة، وتستمر منذ الصباح حتى الليل، تتخللها فترات راحة وتقرر للتلاميذ دروساً حتى بعد وجبة العشاء، وهي في الغالب دروس استذكار. و لما كانت تحتاج بعض الدروس مثل الطب والهندسة أعمالا تطبيقية، كان جدول الدروس اليومي يخصص فترات لذلك.[8]

= (6) كامل الغزي، نهر الذهب، ج2، ص 56، 57.

(7) المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 306.

(1) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 228، دائرة المعارف الإسلامية، مج 2، مج 2، ص 58.

فمثلا كان الشيخ شعبان الأزهري (1015 هـ ـ ت 1075 هـ/1606ـ1664م) يدرس كل أيام الأسبوع في الأزهر وله في اليوم ثلاث دروس أحدها بعد الفجر إلى طلوع الشمس والثاني بعد الظهر والثالث بعد العصر. أنظر: المحبي، المصدر السابق، ج 2، ص 231.

(2) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 208، 209 . أنظر ترجمة صالح بن إبراهيم الجنيني (ت 1170 هـ/1756م).

(3) مثل موسى بن أسعد المحاسني الدمشقي (ت 1173 هـ/1759م)، الذي كان يدرس بالجامع الأموي، صباح يوم الجمعة وبالمدرسة الفتحية يوم السبت و الإثنين يدرس بالعمرية. أنظر: نفس المصدر، ج 4، ص 222.

(4) نفس المصدر، ج 3، ص 167.

(5) علي المحافظة، الحركات الفكرية في فلسطين، ص 32.

(6) قاسم الصمد، المرجع السابق، ص 166.

(7) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 645.

(8) أنظر نموذجا عن جدول توقيت أسبوعي لمدرسة المهندسخانة بمصر ملحق رقم " 7 ".

2 ـ العلوم المدرسة والكتاب المدرسي

أ- العلوم المدرسة :

لقد اختلفت العلوم المدرسة في مصر والشام، من مؤسسة تعليمية لأخرى ولم تكن محدودة فيمكن أن تقتصر على العلوم الشرعية في بعض المدارس، ويمكن أن تتجاوزها إلى علوم عقلية ورياضية في مدارس أخرى. ويرتبط ذلك بالوقف؛ بحيث تحدد الوقفية العلوم المشروط تدريسها.[1] كما يرتبط أيضا بطبيعة التعليم والتعلم في النظام التقليدي، حيث لم تكن المدرسة هي المحور الأساسي في هذه العملية، بل المُدرّس هو المحور باعتباره مصدرا للمعرفة. ولذلك كان العديد من الطلبة يتلقون قدرا من العلوم الدينية واللغوية في الجوامع، ثم يتابعون دراساتهم خارجها، للحصول على معارف مختلفة، بالتقرب إلى العلماء المشهورين في تلك العلوم.[2]

فالتعليم لم يكن يتم في المؤسسات التعليمية فقط، بل كان متاحا وبشكل أكبر خارجها لكون العالم بإمكانه التدريس في منزله أو في أي مكان آخر، ولذلك لا يمكن حصر العلوم التي كان يدرسها الطلاب في النظام التقليدي، فقط في تلك التي كانت مبرمجة في إطار المؤسسة. وفي الواقع حتى داخل المؤسسات عدد العلوم التي درست لم يكن محدودا وخير مثال على ذلك الشيخ محمد ابن النقيب البيروتي (ت 1064هـ/1653م) نزيل دمياط بمصر، درس بالجامع الأزهر مدة أربعين سنة في 21 علما.[3] وعثمان الشمعة الدمشقي (ت 1126هـ/1714م)، الذي درس بالجامع الأموي أكثر من عشرة علوم.[4] بينما لو نظرنا إلى مدارس محمد الفاتح وسليمان القانوني، في نفس الفترة (16م ـ19م) ، فإنها كانت تدرس عشرة علوم.[5]

و لذلك لو أردنا تحديد العلوم، التي درسها طلاب وعلماء مصر والشام في العصر العثماني، خلال هذه الفترة بما فيها التي درسوها خارج الجوامع والمدارس، فهي تتمثل في العلوم الدينية كانت علوم الدين في مقدمة العلوم المدرسة، في مدارس مصر والشام أو خارجها، وذلك لطغيان الفكر الديني في تلك الفترة، ولكونها كانت السبيل للحصول على المناصب في الدولة ومن هذه العلوم : الفقه وأصوله.[6] والحديث.[7]

---

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 336.

(2) خليل إينالجيك، الدولة العثمانية، ص 255.

(3) المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 307.

(4) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 166، 167.

(5) و هي : علم الصرف، النحو، المنطق، علم الكلام، الأدب، البديع، المعاني، علم البيان، الهندسة وعلم الحياة.
= J.Hammer, op. cit, To 3, P . 523.

و الفرائض، التفسير، علم التوحيد، العقائد و القراءات.[1] وعلم التجريد والتصوف أو علم الحقيقة.[2] ويأتي بعدها علوم اللغة العربية ،التي حظيت بنفس المكانة التي حظيتها علوم الدين، لكونها كانت الأدوات الأساسية لفهم العلوم الدينية، فكان هم العلماء والمدرسين في تلك الفترة، ترسيخ مبادئ اللغة العربية وإبعاد اللحن عنها، وتبيان الدخيل عليها من الألفاظ التركية والفارسية.[3] وشملت النحو والبيان، الصرف و المعاني، العروض، الاستعارات، الأدب، الشعر، البلاغة، البديع و الخط.[4]

ثم العلوم العقلية والرياضية حيث شملت العلوم العقلية علم الكلام والحكمة.[5] والمنطق والفلسفة.[6] والتاريخ.[7] و الموسيقى.[8] أما العلوم الرياضية فشملت الحساب والجبر والمقابلة، وعلم

=(6) حسن زغلول الزرقاني، الروض الأنضر في مبادئ الفنون المشهورة بالجامع الأزهر، موقع مخطوطات الأزهر (www.alazharonline.org)، رقم 339359، ص 21.

(7) كان مرتضى الزبيدي يدرس الحديث ويراعي في ذلك ذكر السند والرواة ويشرح معانيه.أنظر: الجبرتي ، ج1 (دار الفارس)، ص 308.

(1) كان عمر البصير المصري الحلبي(ت 1137 هـ/1724م)، يعلم القراءات باختلافها وله طرائق كالإنتقال من نغم إلى آخر وقراءة التحقيق والترتيل والوقف ويعلم الطالب طول النفس عند القراءة . المرادي، المصدر السابق، ج 3، ص 189. وكان عمر بن شاهين الحلبي(ت 1183 هـ /1769م) يدرس القراءات بالجامع الأموي حتى للأتراك. أنظر: نفس المصدر، ص 177.

(2) كان التصوف يدرس في التكايا التابعة للطرق الصوفية، ولكنه كان يدرس في بعض المدارس والجوامع إلى جانب العلوم الأخرى، وكان هناك علماء في الطب والفلك درسوا التصوف وأجيزوا فيه. أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 337. أنظر أمثلة عن ذلك : الجبرتي، المصدر السابق، ج1، ص 327، 330، 336.

(3) أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق، ص 339.

(4) كان علما يدرس ويجاز فيه وله قواعد ومبادئ وأنواع وهناك أمثلة عديدة أنظر : المرادي، المصدر السابق، ج 2، ص 304، 305 وج 3، ص 57. أنظر: المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 52، 357، الجبرتي، المصدر السابق، ج 1 ، ص 551، 563، 332.

(5) الجبرتي، نفسه ، ص 339، 340، المرادي، نفسه ، ج2، ص 304، 305. فريد جحا، الحياة الفكرية في حلب، ص 91.

(6) لم تكن دراسته بنفس القدر الذي كانت عليه سابقا خاصة وأن المؤلفات التي ترجمت سابقا عن التراث اليوناني في الفلسفة والمنطق لم تعد موجودة بشكل كبير بل الأكثر كان شروحا و تلخيصات عنها، ومع ذلك كان المنطق يدرس في الأزهر. دي. شابرول، المصدر السابق، ص 77.

(7) لم يكن تدريس التاريخ في مدارس مصر والشام مبرمجا كعلم ولم يتفرغ لتدريسه أي أستاذ وإنما كان يدرسه بعض الشيوخ المؤرخين وإجازة الطلاب في بعض الكتب التاريخية ولم تحدث برمجته ضمن الدروس إلا في القرن 19م بإنشاء مدرسة التاريخ والجغرافيا بمصر عام 1251هـ/1835م واعترف به لأول مرة كعلم وجعل له مدرس في مدرسة الألسن، ثم أصبح ضمن مناهج التعليم في المدارس التجهيزية. أنظر: جمال الدين الشيال،التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن 19م، إشراف أحمد عزت عبد الكريم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1958م، ص 53، 54، 56، 58، 59. أما في الشام فكانت المدارس الطائفية للموارنة و الإرساليات المسيحية تدرس تاريخ الكنائس والتاريخ القديم من ناحية صلتها بالدراسات الدينية وذلك منذ القرن 16م. أنظر: عبد الجليل شلبي، المرجع السابق، ص 161، 163.

(8) لم تكن الموسيقى علما يدرس في المدارس بمصر والشام قبل القرن 19م، بل كانت تؤخذ عن البارعين فيها، لمن أراد ذلك خارج المؤسسات التعليمية. (المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 274.) أما في القرن 19م فأصبحت تدرس في المدارس العسكرية "موسيقى عسكرية". (أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 414.

وضع المزاول (الساعات)، وعلم المساحة والهندسة.[1] وعلم المعادن والفلك وعلم الميقات.[2] وعلوم الحرف والزايرجة و الأوفاق.[3] والطبيعيات يأتي في مقدمتها الطب والصيدلة.[4] والكيمياء (السيمياء).[5] والفيزياء الكلاسيكية.[6] وعلم الحيوان والنبات والمواليد، وعلم الملاحة والجغرافيا.[7]

وقد حظيت هذه العلوم الرياضية بعناية في المدارس إلى غاية القرن 17م، ولكنها تراجعت بعد ذلك في القرن 18م.[8] رغم أنها ظلت تدرّس في البيوت وأماكن العمل و البيمارستانات، واشتهر علماء كثيرون، انتفع منهم طلاب العلم؛ مثل حسن الجبرتي وتلميذه محمد بن إسماعيل النفراوي (ت 1185 هـ/1771م)، الذي درس هذه العلوم وكان يأتيه طلاب من الآفاق. ومصطفى الخياط (ت 1203 هـ/1788م)، الذي كان يدرس الحساب في مكان اشتغاله بالخياطة.[9]

وفي الشام خليل الموصلي (ت 1114 هـ/1702م)، الذي درس الهندسة والحساب والجبر، وأخذ عنه العديد من الطلاب مثل الحبال، عثمان الشمعة ، ومحمد الكناني.[10] ومن كان يريد التعمق أكثر كان يهاجر إلى اسطنبول لاشتهارها بها.[11] أو يأخذونها عن الواردين إليهم من الأكراد والهنود والأتراك وغيرهم.[12]

---

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس)، ص 278، 449، 452، 651. المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 98.
E .Brown, op.cit ,pp. 177 ,178. Toderini , op.cit.To.1, pp. 89,100

(2) لقد ارتبط علم الميقات والفلك بمواقيت العبادات، ولذلك استمر تدرسيه في مدارس مصر و الشام منذ القرن 16 م إلى غاية القرن 19م، وكان يعتمد على المؤلفات الكلاسيكية. وفي القرن 19م نقلت الأزياج عن الغرب. ومن أشهر مدرسي الفلك في الشام خلال القرن 18م محمد الصالحي الهلالي (ت 1115 هـ/1703م) الذي كان له زيج كبير يقرأ عليه وحسن الجبرتي بمصر. أنظر على التوالي: أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 348، المحبي، المصدر السابق، ج 3، ص 187، الجبرتي، نفسه، ص 278.

(3) ارتبطت علوم الحرف و الأوفاق و الزايرجة ببعضها ، وكادت تكون ضربا من السحر ومع ذلك درسها العلماء المشهورين بها لكن خارج المدارس.أنظر: المرادي، المصدر السابق، ج 3، ص 202. الجبرتي، نفسه، ص 237، 238. عبد الله نوفل، المرجع السابق، ص 30.

(4) كان الطب ضمن العلوم المدرسة سواء في المدارس التقليدية أو الحديثة منذ القرن 16م، وكان يتم تدريسه في البيمارستان مثل البيمارستان النوري و القيمري ومدارس الطب الثلاث بالشام وكذلك البيمارستان المنصوري بمصر، ودرس علم الأقراباذين (صناعة الأدوية). أنظر: ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 202، 203. الجبرتي، نفسه، ص 543.

(5) السيمياء فن من فنون السحر واستخدام تعاويذ وأخلاط. مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، "س"، ص 264. وارتبط مفهوم الكيمياء لديهم بفن تحويل المعادن منذ القرن 16 م وحتى القرن 19م وظلت علما يتلقاه الأفراد خارج المؤسسات التعليمية لكنه في القرن 19م أدخل ضمن برامج الدراسة في المدارس ولكن بمفهومه الحديث، ومع ذلك بقي العديد من العلماء إلى منتصف القرن يعتبرونه غير ذي فائدة . أنظر: سعد مرسي وآخرون، المرجع السابق، ص 228. E .Brown, op.cit, P. 60 Toderini , op.cit, To.1, P. 138.

(6) كانت تدرس في الآستانة وفق الكتب الكلاسيكية بينما في مصر والشام فلم تدرس سوى خلال القرن 19م.
أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص469 . Toderini , ibid, P.106, 107, 110 .

(7) رغم اهتمام العثمانيين بعلم الجغرافيا، إلا أنه لا يوجد دليل على أنه يدرس في مدارسهم، ولا في مصر و الشام إلا خلال القرن 19م في المدارس الحديثة حيث أصبح يدرس في المدارس الابتدائية والتجهيزية بمصر. جمال الدين الشيال، التاريخ والمؤرخون، ص 53، 54، 58. أكمل الدين إحسان أوغلي، نفسه، ص 340.

(8) دائرة المعارف الإسلامية، مج2، ص 57. إلهام ذهني، المرجع السابق، ص 85، 90.

(9) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 412، 280. =

وذهب بعض المؤرخين إلى إثبات صريح بأن الحساب والجبر والمقابلة، والأزياج والتقويم، وأسباب الأمراض وعلاجها، وبعض من قانون ابن سينا، والحدود والدوائر و الهيئة، وعلم الإسطرلاب والهندسة وغيرها كانت تدرس في الأزهر طيلة العهد العثماني، من طرف علماء مشهورين أمثال أحمد الدمنهوري وحسن العطار والطحان، الذين درسوا الطب والعلوم الرياضية، وعثمان الورداني الفلكي.[1]

وخلال القرن 19م/13هـ ازداد الاحتكاك بالغرب فدخلت ضمن برامج المدارس الحديثة علوم جديدة مثل علم التشريح، وعلم وظائف الأعضاء، وعلم الأدوية.[2] وعلم الجراحة والتاريخ الطبيعي، والجيولوجيا، وعلم الميكانيكا، والصباغة والطب البيطري، والمحاسبة والإحصاء، وعلم الآلات والرسم الخطي، و الطبوغرافي والاقتصاد السياسي والفنون الحربية المختلفة.[3]

- **تدريس اللغات :**

لم يكن تدريس اللغات يدخل ضمن البرامج الدراسية، في مدارس وجوامع مصر والشام قبل القرن 19م، بل كان من يريد تعلمها يلتحق بأحد العلماء البارعين فيها، وكان يتعلق الأمر باللغة التركية والفارسية، حيث كان الغرض من تعلمهما هو الرغبة في الحصول على وظائف معينة، أو الترحال إلى القسطنطينية. خاصة وأن هاتين اللغتين ظلتا لغتي الثقافة والإدارة والدواوين، في الدولة العثمانية وولاياتها طيلة العصر العثماني.[4] كما أنها كانت تدرس في بعض الكتاتيب في بلاد الشام.[5] ومع ذلك كان الإقبال عليها محدودا مقارنة مع اللغة العربية، التي كانت تحتل الصدارة. ولكن في القرن 19 م أدخل في برامج المدارس الحديثة بمصر والشام تدريس هاتين اللغتين.[6]

=(10) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 98.

(11) مثل محمد بن عرفة الدسوقي وحسن العطار. أنظر: بيتر جران، المرجع السابق، ص 298.

(12) مثل علي بن عبد الطيبي الدمشقي (ت 1225 هـ/1810م) كان يأخذ عن الأغراب الواردين على الشام علوم الجبر و المقابلة والحساب، المساحة. محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 208.

(1) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 138، 139، 223.

(2) حتى في مدارس اسطنبول خلال القرن 19م كانت تدرس هذه العلوم J. Hammer , op.cit, To.17,p. 200.

(3) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 644، 645.

(4) من أمثلة الذين تعلموا هذه اللغات حسن البوريني (ت 1024 هـ/1615م) على الحافظ التبريزي. المحبي: المصدر السابق، ج 2، ص 52. وعبد القادر بن شاهين الحلبي (ت 1122 هـ/1710م) تعلمها على عمر المقرقع. المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 57. E .Brown, op.cit, P . 59 . Toderini, op.cit, To.1, P. 7 .

(5) فريد جحا، الحياة الفكرية في حلب، ص 92.

(6) نفسه، ص 88، 89، أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 414.

أما اللغات الأجنبية فلم يبدي الشوام ولا المصريون ـ خاصة المسلمين ـ إلى القرن 19 م أي اهتمام بتعلمها، وذلك لاعتبارها لغة الكفار.[1] وحتى في مدارس الأقباط بمصر، لم تكن تدرس أي لغة منها. وخلال الحملة الفرنسية، لم يبدي أحد الرغبة في تعلم الفرنسية، حتى من طرف العلماء الذين احتكوا بالفرنسيين، إلا واحدا من الأقباط كان عمره حينها 15 سنة.[2] ولكن خلال القرن 18 م كانت المدرسة التابعة للكنيسة الكاثوليكية بمصر المنشأة عام 1732م، أول من أدخل تدريس اللغة الإيطالية، والتي ظلت تحظى بنفوذ بين اللغات حتى خلال القرن 19 م، حيث أنشأ محمد علي المدارس الحديثة، وأصبحت اللغات الأجنبية ضرورية، وتدرس إجباريا لتسهيل الترجمة.[3]

و في بلاد الشام فرغم أن المسلمين، لم يهتموا بدراسة هذه اللغات الأوروبية قبل القرن 19م، إلا أن الطوائف المسيحية كانت تدرسها في مدارسها، بغرض دراسة الكتب المقدسة ؛ وهي اللغة الإيطالية واليونانية والفرنسية، والسريانية ،والعبرانية واللاتينية، والانجليزية.[4] واعتنت المدارس التابعة للإرساليات في الشام بتدريس اللغات إلى جانب اللغة العربية، فدرست مثلا الألمانية في حلب والروسية في فلسطين، ولذلك نبغ في بلاد الشام العديد من الأدباء، الذين أجادوا هذه اللغات.[5]

ب ـ الكتاب المدرسي :

كانت الدراسة في مصر والشام، في العصر العثماني بين القرن 16م ومنتصف القرن 19م، دراسة كتب لا دراسة مناهج، سواء في المدارس التقليدية أو الحديثة. حيث كان الطالب يقرأ كتبا في الهندسة والحساب، والطب والفقه والحديث وغيرها.[6] واختلفت مضامين هذه الكتب بين المدارس التقليدية والحديثة، إلا أن الشيء المؤكد هو وجود كتاب مدرسي مخصص للتدريس في كلتا المدارس، ففي النمط التقليدي كان العلماء يؤلفون كتبا تخصص لتدريس الطلبة ؛ وهي في أغلبها شروح وحواشي وتعليقات، فيها الكثير من الإضافات على الكتب الأصلية بشكل مختصر وسهل، لتمكين الطلبة من استيعابها. وإضافة إلى هذا النوع كان هناك عدد لا يحصى من المؤلفات التي كتبت في عصور سابقة وضعت هي الأخرى محل التدريس.[7]

(1) Toderini, op.cit,T.1, pp. 7 ,8

(2) وهو اليوس بقطر الذي وضع فيما بعد قاموسا فرنسي ـ عربي، ورحل معهم وأصبح مترجما لديهم. جمال الدين الشيال، التاريخ والمؤرخون، ص 61، 63.

(3) سلوى العطار، المرجع السابق، ص 345، 357. محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 658.

(4) يوسف الدبس، المصدر السابق، ج8، ص 85. عبد الله نوفل، المرجع السابق، ص 39، 40، 53.

(5) فريد جحا، الحياة الفكرية في حلب، ص 92 . أنظر أمثلة : خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 219، 223.

(6) سعد مرسي وآخرون، المرجع السابق، ص 371.

(7) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 227، 228 . أنظر : ملحق رقم " 6 "حول الكتب المدرسة في المدارس التقليدية بمصر الشام.

وكان العديد من المدرسين يكتبون على أطراف الكتب التي يدرسونها للطلبة، شروحهم وأصبحت تلك الكتب مشهورة بين الطلبة، مثل مؤلفات أحمد بن عبد الفتاح المجيري (ت 1181 هـ/1767م).[1] وكان البعض يقوم بجمع خلاصة ما كتبه، من تقارير وتعليقات وشروح، على مجمل الكتب التي قرأها ويجعلها كتابا جامعا ينتفع به الطلبة.[2] ويراعى في هذه الكتب مستوى الطلاب وفروع العلم الذي يتلقونه.[3] فكانت تبرمج حسب مستواهم، فيتم تدريسها تدريجيا حسب كل مرحلة من التعليم، بداية بالكتب السهلة إلى الأكثر تعقيدا، ومع ذلك كان للطلاب الحرية في اختيار عدد ونوع الكتب، التي يريدون قراءتها.[4]

أما في المدارس الحديثة، فقد اهتم محمد علي بإعداد الكتاب المدرسي، حسب العلوم الجديدة التي أدخلت في برامج الدراسة، وأصبح الكتاب المدرسي أكثر تخصصا، وموحدا عكس ما كان سابقا. وكانت مصادر هذه الكتب من أوروبا، حيث استقدمها وأمر بترجمتها لتصبح في متناول الطلاب، حيث أحضر كتبا في الهندسة والطب والكيمياء، والفنون العسكرية وغيرها.[5] وانتشرت هذه الكتب أيضا، في مدارس الشام مع بعض الكتب التركية والفارسية، وكتب التراث العربية.

3 ـ أساليب التدريس

أ ـ في الجوامع والمدارس :

إن الأسلوب الشائع في التعليم، بالجوامع والمدارس وحتى في الكتاتيب هو أسلوب الحلقات، حيث يجلس الطلبة حول أستاذهم في شكل حلقة على الأرض.[6] وفي الجامع الأزهر بمصر والأموي بدمشق، كان الطلبة ينتظمون في شكل حلقة ذات صفوف، فيجلس بالقرب من الأستاذ الأفضل ويليه الأقل فالأقل، وهذه الصفوف تسمى طبقات، لذلك يقال فلان من أهل الطبقة الأولى أو غيرها. وكان بعض المدرسين يتخذون ملاحظا يتولى إجلاس الطلاب في أماكنهم، ويكون عادة من الطلبة.[7] أما إذا زاد عدد الطلاب في الحلقة، فيتخذ الشيخ كرسيا، ويجتمعون أمامه دون تحلق.[8]

---

(1) مثل عبد اللطيف الجالقي القزديري الدمشقي (ت 1043 هـ/1633م) كان له مؤلف هو المنظومة في عبادات الفقه . المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 16. الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 336.

(2) مثل حسن بن عمر الجوهري (ت 1198 هـ/1783م)، الذي دون تقاريره على نسخة الجامع الصغير، وأصبحت مؤلفا متداولا بين الطلبة. و المحدث حسن المنطاوي المدابغي الأزهري كانت له حواشي كثيرة يتداولها الطلبة. الجبرتي، نفس المصدر ، ص 586، 298.

(3) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 338، 339.

(4) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 176.

(5) سعد مرسي وآخرون، المرجع السابق، ص 333.

(6) نفسه، ص 278.

(7) محمد سيد الكيلاني، المرجع السابق، ص 39. =

لقد كانت الحلقات في الجامع الأزهر، تنظم زمانيا ومكانيا طبقا لمواد الدراسة، حيث يجلس الأستاذ في المكان المخصص له وحوله طلبته.(1) حيث كان لكل مذهب أعمدة في الجامع، يجلس ليدرس فيها ولكل شيخ من أهل المذهب عمود لا يتعداه هو، ولا يتعدى عليه أحد.(2) ونفس الشيء في الجامع الأموي.(3) و كان من حق الطالب ،أن ينتقل من حلقة إلى أخرى ومن شيخ إلى آخر، دون أن يثير ذلك غضب شيخه.(4)

واختلف حجم الحلقة من مدرس لآخر، تبعا لشهرته العلمية، فمثلا كان الشيخ علي بن محمد هيكل تتسع حلقته حتى تضيق بها أروقة الأزهر، فيخرج إلى الصحن ثم إلى السنانية لكثرة عدد من يحضر درسه.(5) وكان بعض المدرسين لا يدخل إلى درسه حتى تكتمل الحلقة، وإذا بدأ درسه لا يدخل إليه أحد ولا يخرج حتى ينهي الدرس.(6) كما كان لكل علم أستاذ يحرص طلابه على ملازمته فترة طويلة.(7)

و الدروس التي تعقد في الجوامع والمدارس على نوعين : إما أن تكون دروسا خاصة وهي التي يحضرها طلبة الشيخ المعروفين، ولا يحضرها أحد من غيرهم.(8) أو دروسا عامة وهي التي يعقدها الشيخ، فيحضرها مختلف فئات المجتمع، ويتفاوت عدد الحاضرين فيها في مستوى الفهم والإدراك، وذكرت كتب التراجم أمثلة عديدة عنها.(9)

وكانت هناك حرية في طريقة التدريس في الحلقات، حيث يقرأ المدرس نصا من كتاب إما بقراءته أو إملائه على طلابه، وهم يصغون إلى شروحه وتعليقاته، ويسألونه ويتجادلون معه.(10) وكانت هذه الطريقة تعتمد أساسا على الحفظ والاستظهار. و يستهل المدرس درسه بالتوجه إلى الله وذكر المصادر التي رجع إليها في درسه.(11)وكان الطلبة يدونون كل ما يقوله الشيخ، على نسخة الكتاب الذي لديهم. وعند ختام الدرس

= (8) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 225.

(1) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص 171.

(2) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 226.

(3) علي الطنطاوي، المرجع السابق، ص 59.

(4) المرجع السابق، فهناك من درس الفقه على 18 شيخا شافعيا و 11 مالكيا و 2 من الأحناف وواحد حنبلي.

(5) نفسه، ص 250.

(6) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 241.

(7) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص 175.

(8) ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 245.

(9) أنظر : المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 66. عبد الله نوفل، المرجع السابق، ص 46.

(10) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 176.

(11) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص 176.

يقبلون يده، ويقرأ فاتحة الكتاب.[1] وبذلك يخرج الطالب من درسه، مستفيدا من حاشية فيها من الشروح والنوادر، والتعليقات الشيء الهام والمفيد.[2]

ب ـ في الكتاتيب و مدارس الطرق الصوفية:

كان طلاب الكتاب يتعلمون كتابة الحروف والكلمات في نفس الوقت الذي يتدربون على نطقها، وكان الشيخ يعتمد على الحفظ والاستظهار، حيث يجتمع الصبيان ويرددون بصوت عال الدرس الذي سبق لهم تلقيه، وعندما يتقدمون في القراءة والكتابة يبدؤون بالتعليم بطريقة الإملاء.[3] وكان شيخ الكتاب يكلف كل طفل بحفظ آيات معينة، وآخر بالكتابة في لوحة وثالث بعمل آخر، وبذلك ينال كل طفل حقه من التعليم، ويحفظ الأطفال دروسهم و يستظهرونها أمام شيخهم بصوت عال، وهو يصحح أخطاءهم.[4]

أما في مدارس الصوفية، فقد اختلفت طرائق تلقين علوم و آداب الطريق، حسب كل طريقة صوفية.[5] وأخذ شيوخ التصوف طرائقهم من التربية الإسلامية، ولم تكن لهم طريقة ثابتة، بل اعتمدوا على أساليب متعددة مثل الحفظ والرواية، و الحلقات ،الاستظهار، السّماع، المناقشة، الإملاء، الشرح . أو بالاستشـهاد بالقرآن الكريم والحديث أو من الحكم والأمثال والقصص والشعر. لكون هذه الطرائق تعود الصوفي على التذوق الروحي.[6]

ج ـ في المدارس الحديثة :

في مدارس مصر خلال القرن 19م، كان الطلاب يقسمون إلى فرق تخصص، لكل منها قاعات للدرس، وفي البداية كانت تتم الدروس عن طريق أساتذة أجانب ،مع وجود أستاذ آخر يترجم الدرس للطلبة، ولاحقا أصبح هناك مدرسين يلقون الدرس مباشرة باللغة العربية.[7] ورغم تأثرها بالنظم الأوروبية، إلا أنها ظلت تعتمد على الحفظ والاستظهار.[8]

ولم تكن تخلو حلقات الدرس خاصة تلك التي تعقد في الجوامع والمدارس الكبرى من حرية الجدال والمناقشة بين الطلبة ومدرسهم، فكان الطلاب أحرارا في أن يسألوا ما بدا لهم، ويجادلونه في القضايا التي

(1) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 226.

(2) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 651، 654، 237.

(3) دي شابرول، المصدر السابق، ص 74.

(4) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 252.

(5) الجبرتي، المصدر السابق، ص 354، 345، 351، 352، 382.

(6) عبد الحكيم عبد الغني، المرجع السابق، ص 123، 124.

(7) سعد مرسي وآخرون، المرجع السابق، ص 332، 334. =

يعرضها عليهم، وكثيرا ما يخالفون رأيه. فلم يكونوا أبدا مستمعين سلبيين، وكان بإمكانهم أن يوقفوا مدرسهم ليشرح نقطة لم يفهموها، ويعارضوا رأيه برأي شيخ آخر حتى يصلوا إلى الإقتناع.[1] فرغم اعتمادهم كثيرا على الحفظ، إلا أنهم كانوا يقرؤون الكتب المقررة لهم، قراءة بحث وتحقيق أيضا.[2] بل كان الشيخ يشجع طلبته على طرح الأسئلة العميقة، وكان يقوم مقام السائل في أحيان أخرى فيختبر طلبته، ويشرح لهم ما تعسر عليهم.[3] فكان المدرس يبذل ما في وسعه لتفهيم طلبته، بانتهاج كل الطرق التي تيسر لهم ذلك، فيقرر ويشرح ويكرر العبارات، كما كان يتدرج في تقديم المعلومات ولا يلقيها دفعة واحدة.[4] ويراعي التأني في التقرير والإملاء حتى لا يضيع عليهم شيء.[5] وكان علي الشبراملسي المصري مثلا يحفز طلبته على التفاعل معه في الدرس، إذا أحس منهم التعب والضجر.[6]

وكان بعض المدرسين يراعون الفروق الفردية بين طلابهم، ويمنحون الفرصة لهم، و يشجعونهم على الحوار والمناقشة وتبادل الرأي، فكان من الضروري مراعاة إمكانيات كل طالب الذهنية ؛ ولذلك كان يعاب على بعض المدرسيين، أنهم يجمعون الطالب المتمكن مع المبتدئ، فيغفل ذهنه وسط جدال لا يفقهه، فلا يستوعب دروسه.[7] وهذا ما حذا ببعض الشيوخ إلى تدريس المبتدئين في دروس خاصة.[8]

= (8) نفسه، ص 371. G. Guémard, op. cit, P. 297

(1) دي شابرول، المصدر السابق، ص 78. لقد اعتبر البعض هذا الجدال وإن كان موجودا، إلا أنه لم يكن حول قضايا هامة بل في أمور شكلية. أنظر : سعد مرسي وآخرون، المرجع السابق، ص 227، 228.

(2) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 459.

(3) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 252.

(4) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 175.

(5) مثلما كان يفعل عطية بن عطية الأجهوري المصري (ت 1190 هـ/1776م)، الجبرتي، المصدر السابق، ص488.

(6) المصدر السابق، ج 3، ص 175.

(7) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 251.

(8) الجبرتي، المصدر السابق، ص 468، محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 141، 165.

4 ـ الملازمة كأسلوب من أساليب التعليم

أ- الملازمة في التعليم العثماني :

لقد كانت الملازمة من التقاليد المعمول بها في المدارس العثمانية، وكانت تعني المرحلة التي تنحصر بين إنهاء الطالب دراسته ، وحصوله على إجازته من إحدى المدارس، وبين تعيينه في منصب عمله. وتكون بأن يلازم الطالب عالما كبيراً من قضاة العسكر، أو أحد كبار رجال العلمية؛ التي تضم كبار العلماء في القضاء و التدريس، للاستفادة منهم والحصول على خبرة عالية في التدريس.[1]

وظهر هذا النظام في عهد السلطان سليمان القانوني، من طرف قاضي عسكر الروملي "أبو السعود أفندي"، حيث كان المرشح للملازمة، يخضع لرعاية كبيرة من طرف هيئة العلمية ، مثل قاضي عسكر أو مدرس في السليمانية. وكانت تسجل أسماء الملازمين، في سجل يدعى "المطلب"؛ يحدد فيه عدد الملازمين الذين يمكن ترشيحهم لوظيفة مدرس، من بين الطلاب المجازين. ويحدد فيه كذلك حصة كل مدرس من الملازمين.[2] وكان الشوام والمصريون وغيرهم، ممن يلتحقون بمدارس الدولة العثمانية في اسطنبول أو المدن الأخرى، ويطلبون الوظائف يلازمون على عادتهم. وبعد انتهاء فترة الملازمة يعينون في وظائفهم.

ب ـ الملازمة في مصر والشام :

لم تتخذ الملازمة فيهما صفة هذا النظام الدقيق، كما هو الحال في مدارس الدولة العثمانية، رغم أن مضمونها لم يكن يختلف كثيرا عنها. فقد كان طلاب العلم في مصر و الشام، يلازمون أكثر من شيخ في شتى العلوم والفنون، قبل أن يحصلوا على الإجازة منهم.[3]

ولم يكتفي هؤلاء بملازمة شيخ واحد، بل كثيراً ما يلازمون عددا من كبار الشيوخ المتبحرين، في علم من العلوم كالفقه أو الحديث أو غيره، فيقرؤون في نفس العلم عن عدة شيوخ ويحصلون من كل واحد على إجازة؛ مثل عبد الرحمن بن عبد الله الحنبلي البعلي الدمشقي، (1115 هـ ـ 1192 هـ/1703م ـ1778م) الذي لازم عددا من الشيوخ في الفقه والحديث؛ مثل الشيخ عواد الحنبلي النابلسي 20 سنة. ولازم أبو المواهب الحنبلي 5 سنوات، والشيخ عبد القادر التغلبي في العلوم السابقة، ولازم في علوم أخرى هي النحو والفرائض

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 313.

(2) نفسه، ص 313.

(3) كان هناك علماء مشهورين بعلمهم في ذلك العصر حتى صار يوصى بملازمتهم لأخذ العلم عنهم مثل أحمد بن يونس العثياوي الدمشقي (ت 1025 هـ/1616م)، الذي أوصاه والده بملازمة أقضى القضاة في مصر نور الدين علي النسفي المصري لما نزل بدمشق، المحبي : المصدر السابق، ج1، ص 370.

والحساب لمدة 15 سنة. وبعده لازم حفيده محمد المواهبي لـ 9 سنوات في الفقه والحديث، وحصل منهم على الإجازة.[1] ولم يكن هذا حصراً على أهل الشام ، بل كان علماء وطلبة مصر يفعلون ذلك أيضا ؛ فقد ذكر الجبرتي أن الشيخ شاهين بن منصور الأرمناوي الحنفي (1030 هـ ـ 1104 هـ/1620 ـ 1692م)، الذي لازم عددا من علماء الأزهر في الفقه.[2] وأحمد بن عبد اللطيف البشبيشي (ت 1096 هـ/1684م)، الذي لازم الشيخ سلطان المزاحي في الفقه والحديث والفرائض، وعلوم العربية وعلوم عديدة أخرى.[3]

ج ـ أنواع الملازمة:

وهي نوعين ملازمة جزئية إن صح القول، وهي أن يرتبط الطالب بدروس مع شيخ يلازمه، ولكن بالتردد عليه والأخذ عنه من حين لآخر وفي مواعيد معينة.[4] أما النوع الثاني فهو الملازمة الكلية، التي تطول لسنين عديدة ؛ ومعناها أن يصاحب الطالب شيخه في كل أوقاته، فلا يفارقه مطلقا . والكثير منهم كان يعيش في بيته مع أبنائه، فقد ذكر الجبرتي أن والده كان يلازمه عدد من الطلاب، ملازمة كلية فيجاورون في بيته ويعيشون مع أبنائه، ومنهم من مكث عنده 20 سنة، لا يتكلف لأمر معاشه ولا نومه وغيره.[5]

وكان منهم من يلازمه طول النهار، ولا يفارقه إلا في وقت متأخر من الليل، ثم يعود في الفجر مثل علي بن عبد الرحمن الجديمي العدوي المالكي الخرائطي (ت 1185 هـ/1771م)، الذي لازمه في العلوم الرياضية، فأعطاه مفتاح خزانة بيته يضع فيها كتبه، واشترى له دابة وجعل له كسوة ومصروفا.[6] وكانت الملازمة من هذا النوع، تقتضي أن يكون الطالب مع شيخه، أينما كان حتى في حالة سفره.[7] وقد وصف المحبي الملازمة الكلية بقوله :" ملازمة الروح للجسد".[8] ووصفها المرادي بقوله: "لازمه ملازمة الظل".[9] تعبيرا عن مدى ارتباط الطالب بشيخه.

---

(1) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 304، 305.

(2) الجبرتي، المصدرالسابق، ج1(د.الفارس)، ص120.وهم أحمد المنشاوي وأحمد الشوبري الحنفي ومحمد المنزلاوي وعمر الدفري والقليوبي.

(3) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 238.

(4) المصدر السابق، ص 459.

(5) نفسه، ص 458.

(6) نفسه، ص 411.

(7) نفسه، ج3 (د.الكتب)، ص 453. مثل أحمد اللحام اليونسي المعروف بالعريشي (ت 1218هـ/1803م) الذي سافر مع شيخه الملازم له وهو عبد الرحمن العريشي إلى اسطنبول وتلقى الدروس هناك وعاد معه.

(8) المحبي، المصدر السابق، ج 4، ص 264.

(9) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 6، 7.

د ـ مدة الملازمة وأهميتها:

لم تكن مدة الملازمة محددة، إلا أنها كانت تصل إلى سنين طويلة تراوحت بين 6 سنوات و 20 سنة وقد تتجاوز ذلك.[1] وذكرت كتب التراجم، أمثلة كثيرة عن أشخاص قضوا سنين عمرهم، ملازمين للعلماء فإذا توفي أحدهم لازم عالما غيره، مثل حسين بن طعمة بن طعمة البيتماني الدمشقي(ت 1175هـ /1761م) الذي لازم الشيخ إلياس الكردي نزيل دمشق 15 سنة، أخذ فيها التصوف والفقه وغيره وأجازه ولازم عبد الغني النابلسي لمدة 15 سنة قرأ عليه علم الحقيقة. كما لازم الشيخ عبد الرحمن بن مصطفى البكفلوني الحلبي، لمدة 6 سنوات وأجازه بكل مروياته.[2]

ولم تكن الملازمة مقتصرة على طلاب العلم، الذين يبحثون عن الإجازة فقط، بل كان منهم من يلازم مدى حياته لا يفارقه إلا وقت إلقاء دروسه. فلم يكن علماء ذلك العصر، يكتفون من طلب العلم حتى بعد توليهم وظائفهم، أو كونهم علماء مشهورين في عصرهم.[3]

ورغم أن الملازمة في مصر و الشام، لم تكن تسير وفق نظام دقيق، كما هو الحال في الدولة العثمانية (الآستانة)، إلا أن فائدتها كانت كبيرة بالنسبة لطلاب العلم، خاصة لكونها لم تكن مقيدة بفترة زمنية محددة ولا بدفتر سجلات يحدد فيه الشيخ الملازم وعدد طلابه، إلا أنها كانت تهيؤ الملازمين في غالب الأحيان خاصة الملازمة الكلية، فقد كان أغلب الطلاب يحصلون على وظائف لدى شيوخهم، يتقاضون من ورائها مرتبا، والأمثلة كثيرة على ذلك؛ مثل الشيخ إبراهيم سليمان الجينيني (1040 هـ ـ ت 1108 هـ/1630م ـ 1696م)، الذي لازم المفتي الحنفي في الرملة ، فأصبح كاتب الأسئلة الفقهية عنده ورتب فتاويه.[4]

والشيخ إبراهيم بن عبد الرحمن المعروف بابن الحكيم، (1113 هـ ـ ت 1192 هـ/1701م ـ 1778م) الذي كان ملازما للشيخ عبد الغني النابلسي وجالسه مدة 16 سنة، وكان يكتب له مؤلفاته.[5] وأحمد بن أحمد الحرشي الدمشقي (1040 هـ ـ ت 1115 هـ/1630م ـ 1703م)، الذي لازم كمال الدين بن يحي الدمشقي لمدة 15 سنة، ثم المفتي إسماعيل الحائك وصار كاتب الفتوى عنده.[6]

---

(1) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 262.

(2) المرادي ، المصدر السابق، ج2، ص 52، 53، أنظر: الجبرتي، المصدر السابق، ج1، (دار الفارس)، ص 135، 410.

(3) ذكر الجبرتي أن العديد من العلماء النابغين الذين كانت لهم وظائف التدريس وغيرها يلازمون والده ليلا ونهاراً لا يفارقونه إلا لإقراء الدروس مثل محمد الصبان، ومحمد بن إسماعيل النفراوي، و محمد عرفة الدسوقي، محمد الشوبري.

(4) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 6، 7.

(5) نفسه، ص 10. =

وكان العديد من الملازمين يتحولون إلى معيدين لدروس شيوخهم، أو مقرئين لهم مثل محمد بن موسى الجناحي المالكي(ت 1200 هـ/1785م)، الذي كان ملازما للشيخ الصعيدي ملازمة كلية ثم صار مقرئه ومعيداً لدروسه.[1] والأكثر من ذلك قد يتنازل الشيخ لطالبه الملازم له، عن بعض وظائفه كالتدريس مثل محمد بن حسن الجزايرلي المدني(ت 1187 هـ/1773م)، الذي قدم إلى مصر ولازم الشيخ حسن المقدسي مفتي الحنفية فصار معيداً لدروسه وكاتبا لأسئلة الفتوى عنده، وأذن له عدة مرات في كتابة الفتوى، وتنازل له عن تدريس الحديث في الصرغتمشية، وصار بعد وفاته متصدراً للتدريس في مكانه.[2]

و كان الشيخ ينيب عنه الطالب الملازم له، في التدريس أو مهامه الأخرى فترة سفره أو حجه مثلا.[3] كما أن العديد من الشيوخ، كانوا يرشحون الطلاب الملازمين لهم، ليتولوا وظائف معينة كالتدريس أو الإفتاء أوغيره.[4]مثلما فعل حسن الجبرتي مع طالبه الملازم له، وهو مصطفى المعروف بالريس البولاقي (ت 1194هـ/1780م)، حيث اعترف بفضله وكفاءته، وأخذ له تدريس الفقه الحنفي بجامع السنانية، وجامع الواسطي، وساعده في الأحكام العامة ببولاق حتى عظم شأنه.[5]

وحتى عند المتصوفة، كانت الملازمة تقتضي أن يصبح الملازم خليفة لشيخه، في تلقين الذكر والإرشاد إلى الطريق. وذلك بعد أن يكون قد لقنه شيخه الأسماء على الطريقة، والأوراد والأذكار وألبسه التاج ؛ مثل محمود السقاط الخلوتي المغربي الأصل، الذي أخذ طريقة الخلوتية عن الشيخ محمود الكردي في مصر ولازمه ملازمة كلية، فأذن له بالتلقين ولما مات صار خليفة له.[6]وعلى هذا الأساس كانت الملازمة من أصول التعلم، في مصر والشام خلال العهد العثماني، ولم تخلو الحياة العلمية لأي عالم في ذلك العصر، من فترة لازم فيها على الأقل شيخا واحدا أو اثنين، وكتب التراجم فيها أمثلة كثيرة عن ذلك.

= (6) المرادي، المصدر السابق، ص 81.

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(د.الفارس)، ص 650.

(2) نفسه، ص 430.

(3) نفسه، ص 126.

(4) نفسه، ص 546.

(5) نفسه، ص 550.

(6) نفسه، ج2 (د.الكتب)، ص 395.

المبحث الرابع : المكتبات

لقد أنشأت بالآستانة العديد من المكتبات، ينسب أكثرها إلى رجال من الخاصة وقفوا مكتباتهم لمنفعة العامة والطلاب، وبعضها وقفها السلاطين، حيث كان فيها نحو 22 مكتبة مجموع كتبها يقدر بثلاثة آلاف مجلد ومن أشهرها: مكتبة كوبرلي التي أسسها محمد باشا كوبرلي عام 1072 هـ/1661م، ومكتبة عاطف أفندي (1104 هـ/1692م)، والمكتبة الفيضية لفيض الله شيخ الإسلام عام 1112 هـ/1700م. ومكتبة شاه زاده بن السلطان محمد 1127 هـ /1715م. ومكتبة أندرون همايون؛ التي أسسها السلطان أحمد الثالث عام (1131 هـ/1718م) ومكتبة إبراهيم باشا الداماد 1132 هـ/1719م). وهناك مكتبات أخرى مثل مكتبة السليمانية 1165 هـ/1751م). والمكتبة الحميدية منشؤها السلطان عبد الحميد الأول 1194 هـ/1780م.[1]

واشتهرت مصر والشام بالمكتبات حتى قبل العهد العثماني*، وذلك لولوع أهلها بجمع الكتب، فلم يكن يخلو بيت من البيوت من خزانة كتب، وألحقت بكل مدرسة أو جامع مكتبه يستفيد منها طلاب العلم.[2] فهي إذن على نوعان مكتبات خاصة وعامة.

1ـ المكتبات في مصر

كانت المكتبات بمصر كثيرة، سواء في القاهرة أو في المدن الأخرى، ومنها العامة المعدة لعموم الناس، ومنها ما هو خاص بالأسر أو العلماء، كانت تحتوي على كتب نفيسة ورائعة.[3]

أ ـ المكتبات الخاصة : وتتمثل في :

- **مكتبات العلماء :** لقد اقتنى العلماء كتبا نفسية في خزائنهم الخاصة، وكانوا لا يمانعون في إعارتها لطلبة العلم ومن أشهرها : مكتبة الشيخ شرف الدين بن زين العابدين السُّنيكي المصري، وهو حفيد القاضي زكريا الأنصاري(1030 هـ ـ ت 1092 هـ/1620م ـ1681م)، الذي اجتمع لديه كتب كثيرة منها كتب

(1) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج4، ص 97 ـ 99. لقد وصف تودريني الرحالة الإيطالي الذي زار اسطنبول في القرن 18م المكتبات بها وأعجب بما كانت تملكه من كتب في مختلف الفنون والعلوم. أنظر في أماكن متفرقة من كتابه :

Toderini, op. cit,T.1,P .110 ،117 ،118 ،119 ،135 ،144

* أنشأت أول خزانة كتب في الإسلام بدمشق أنشأها حكيم آل مروان خالدين بن يزيد الأموي (ت 85 هـ) وكانت تحوي كتبا قبطية ويونانية وسريانية، وكانت القاهرة عام 435 هـ/1043م خزانة كتب تحوي كرة نحاس أما أول مكتبة أنشأت بمصر كانت في طيبة بالصعيد أنشأت في أواخر القرن 14 ق.م أسسها رعمسيس الثاني وكتب على بابها "شفاء الروح" . أنظر:

محمد كرد علي، المرجع السابق، ج 6، ص 189. اسكندر المعلوف، " خزائن الكتب العربية وعلم وصف مخطوطاتها"، مجلة المجمع العربي، مج3، ج 5، 6، دمشق، سوريا، أيار- حزيران، 1993م، ص 140.

(2) محمد كرد علي، المرجع السابق، ص 193.

(3) E.Brown, op. cit, pp. 174,175

جده شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (1420 م ـ ت 1520م)، وأضاف إليها ما استكتبه وما اشتراه حيث كان لديه 18 نسخة من طبقات السُبكي البكري"طبقات الشافعية الكبرى"،و28 شرحا على البخاري و 40 تفسيراً. [1] ومكتبة أحمد بن أحمد المصري العجمي (1014 هـ ـ ت 1086 هـ ـ 1605ـ 1675م)، جمع فيها كتبا في سائر العلوم والفنون.[2] ومنها مكتبة الفقيه عند الله الشبراوي (1082 هـ ـ ت 1171 هـ/1671م ـ1757م)، التي احتوت على نفائس الكتب بالخطوط الحسنة.[3]

ومكتبة الأديب عبد الله بن منصور التلباني الشافعي،(1098 هـ ـ ت 1185 هـ/1686م ـ1771م)، احتوت على كتب مفيدة كان يعيرها لمن يطلبها.[4] ومكتبة الشيخ حسن المقدسي (ت 1182 هـ/1768م).[5] والشيخ محمد بن داود الخربتاوي (ت 1207 هـ /1792م)، الذي ورث عن والده مكتبة نفيسة، وجمع هو كتبا أخرى. [6] ومكتبة أحمد بن أبي الفوز الشيشيني (ت 1192 هـ/1778م)،التي كان يعير منها لطلاب العلم. [7] وكان للشيخ عامر بن عبد الله البشراوي(ت 1192 هـ/1778م)،مكتبة كبيرة كان يبذل الأموال للحصول على الكتب القيمة واستكتابها،وتجليدها ونقشها بالذهب،وقد وجدت بها كتب هامة مثل مقامات الحريري وشروحها للزمزمي، ورسوم لآلات فلكية.[8]

ومن أشهر مكتبات العلماء في مصر في القرن 18م ؛ مكتبة حسن الجبرتي التي وصفها ابنه عبد الرحمن الجبرتي،إذ كانت تحتوي على كتب في شتى العلوم مثل كتب المنطق،والمعاني والاستعارات والحديث، التفسير، الفقه. وكتب الأعاجم (الفارسية) وكان يملك كتبا ليست عند غيره، مما أرسله له السلاطين والأمراء بالقسطنطينية و تونس والجزائر، واحتوت على صور وآلات فلكية، فكان يعيرها لطلبة العلم و من بين تلك الكتب كليلة ودمنة، الأشموني ،وشرح الجوهرة وغيرها.[9]

- **مكتبات الأعيان :** ليس فقط العلماء من كانت لهم خزائن الكتب، بل حتى التجار وغيرهم من عامة الناس،مثل مكتبة آل الشرايبي ؛ وهم من أعيان التجار في مصر كان يتردد إلى منازلهم العلماء، وكانت

(1) ليلى الصباغ، من أعلام الفكر، ص 252، المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 223.

(2) المحبي، نفسه، ج1، ص 176.

(3) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 297.

(4) نفسه، ص 415.

(5) نفسه، ص 368.

(6) نفسه، ج2، (دار الكتب)، ص 371.

(7) نفسه، ج1، ص 526.

(8) نفسه، ص 530.

(9) نفسه، ص 460، 461.

مجالسهم عامرة بالعلم، وكانوا يملكون كتبا قيّمة، يجعلونها للإعارة لفائدة طلاب العلم، ولا يوقفونها أو يتوارثونها، ويشترون الكتب بأغلى الأثمان. فكانوا يعيرون كل من يحتاج في شتى العلوم، ولا يمانعون أن يأخذ الكتاب دون إرجاعه؛ لأنهم لا يطلبونه منه بل يشترون غيره.(1)

- **مكتبات الأمراء :** حتى الأمراء كانوا يهتمون بجمع الكتب، ووجد لدى الكثير منهم خزائن كتب نفيسة في كل الفنون، ومنها مكتبة الأمير ذو الفقار البكري (ت 1221 هـ/1806م)، التي اقتنى كتبها عن طريق الشراء والاستكتاب، وكانت تحتوي على أجزاء من تاريخ "مرآة الزمان" لابن الجوزي، و"خطط المقريزي" وغيرها.(2) ومكتبة الأمير حسن أفندي شقبون كاتب الحوالة(ت 1205 هـ/1790م)، والتي احتوت على كتب هامة، بخط الأعاجم والخطوط المكلفة والمذهبة، من بين كتبها كليلة ودمنة، ديوان حافظ والتواريخ المصور فيها صور الملوك.(3)

وكان للأمير أيوب بك الكبير (ت 1215 هـ/1800م) مكتبة،اقتنى فيها كتبا و مصاحفا بالخطوط المنسوبة، و استكتب الكثير منها.(4) ومكتبة الأمير إبراهيم كتخذا البركاوي مملوك يوسف كتخذا عزبان، كان فيها كتب في كل فن، حتى الكتب النادرة، وكان يعير الناس للاستفادة منها والمطالعة.(5) ومنها أيضا مكتبة الأمير علي مولى بشير (ت 1176 هـ/1762م)، التي كانت عامرة بالكتب القيمة منها البرهان القاطع للتبريزي بالفارسية، وسفينة الراغب وكشف الظنون.(6) ومكتبة الأمير حسين الشمسي القاهري، كانت تحتوي على كتب في عدة علوم، خاصة الطب والعلوم الغريبة وكان يعيرها لطلبة العلم.(7)

ب ـ المكتبات العامة :

وهي المكتبات الموقوفة على المدارس والمساجد، وكان بمصر عدد هام منها يأتي على رأسها مكتبات الأروقة بالأزهر، فقد كان لكل رواق مكتبة خاصة، وقاعات للمطالعة يتناسب عدد الكتب فيها، مع ثراء الأوقاف المرصودة للرواق، والعلوم التي يدرسها الطلبة هناك.(8) وقد بلغ مجموع الكتب في هذه الأروقة

---

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج 1 (دار الفارس)، ص 289.

(2) نفسه، ج3 ،ص 147.

(3) نفسه، ج2 (دار الكتب) ص 340.

(4) نفسه، ج 3، ص 278.

(5) نفسه، ج1(دار الفارس)، ص 591.

(6) نفسه، ص 329.

(7) نفسه، ج 2(دار الكتب)، ص 394.

(8) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 241.

أوائل القرن 19م حوالي 1099 كتابا ثم ازدادت في أواسط القرن. وكانت تشمل كتبا في علوم مختلفة كاللغة والتاريخ، الجغرافيا، الفقه، الحديث وغيره.[1] وإضافة إليها توجد مكتبات عديدة أخرى؛ مثل المكتبة البكرية التابعة للسادة البكرية التي كان مقرها سراي خرنفش وفيها مجلدات في شتى العلوم، ومكتبة السادات الوفائية التي احتوت على حوالي ألف مجلد في أواسط القرن 19م، في التاريخ واللغة والأصول. ومكتبة الدردير وهو الشيخ الدردير العدوي (ت 1201 هـ/1786م)، جمع فيها ما عنده من كتب، وجعل مقرها في مسجد صاحب الضريح.[2]

ومكتبة جامع الفاكهاني التي تضم حوالي 900 كتاب، وكان بالمدرسة الصرغتمشية مكتبة، وبجامع المؤيد، وجامع الأشرف قايتباي، وجامع أوزبك، الذي كان بمكتبته حجرة خاصة، بكتب الفلك والميقات وأدواتها.[3] ومكتبة جامع شيخون العمري، التي أوقف بها الأمير أحمد جاويش أرناؤود باش كتبه، وجعل عليها خازنا للكتب.[4]

ومن أشهر المكتبات بمصر مكتبة المدرسة المحمدية؛ التي أنشأها محمد بك أبو الذهب، حيث جعل فيها كتبا هامة، واشترى كتاب تاج العروس للزبيدي، بمائة ألف درهم ووضعه فيها، وبلغ عدد كتبها في أواخر القرن 18م/12هـ، حوالي 1296 مجلداً عدا المصاحف المذهبة، وشملت 93 كتابا في الفقه الحنفي و 43 في الشافعي و 31 في المالكي و 8 في الحنبلي، كما ضمت كتبا في النحو والتاريخ والجبر حوالي 31 كتابا. ولبعضها عدة نسخ.[5] ومن أهم تلك الكتب كتاب الفخر الرازي، والكشاف والدرّ المنثور والبحر والبيضاوي، وكتب الحديث كالسنن الستة والشفاء والجمع بين الصحيحين، وكتب التصوف والنحو والمعاني والمنطق والتوحيد وغيرها.[6]

وخلال القرن 19 م في عهد محمد علي، اعتنى كثيرا باقتناء الكتب الحديثة من أوروبا، وترجمتها مما أثرى المكتبات بكتب مختلفة، خاصة في علم الطب والكيمياء والهندسة، وكان لكل مدرسة من المدارس الحديثة مكتبة، مثل مكتبة مدرسة الطب والهندسة، وكانت مطبعة بولاق تزود هذه المكتبات.

---

(1) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج 4، ص 102.

(2) نفسه، ص 104.

(3) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 342.

(4) الجبرتي، المصدر السابق، ج 2 (دار الكتب)، ص 228.

(5) نفسه، ص 307. كمال مغيث، المرجع السابق، ص 243.

(6) علي مبارك، المرجع السابق، ج 5، ص 108.

2ـ المكتبات في بلاد الشام

أ ـ المكتبات الخاصة :

كان أهل الشام مولعين باقتناء الكتب خاصة الحلبيين، ولذلك نجد عددا كبيرا من خزائن الكتب الخاصة، فلا يكاد يخلو بيت من البيوت المتوسطة من خزانة كتب، أو ما كان يسمى "كتيبة" وهي رفوف أعدت لحفظ الكتب. [1] فكانوا يتنافسون على شراء الكتب المخطوطة النادرة، ويدفعون لأجل ذلك أموالا كبيرة. [2] وذلك حباً في المطالعة ولتزيين البيوت، ولاعتقادهم بأن اقتناء الكتب يورث الغنى. [3] ومن أهم تلك المكتبات :

- **دمشق :**

لقد اشتهرت بها عدة مكتبات، في مقدمتها مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، التي وقفها لطلاب العلم، وكان فيها ألوف المخطوطات والمجلدات. [4] ومكتبة علي الدفتري (ت 1018 هـ/ 1609م)، الذي ولي الدفترية في الشام، مرتين عام 1007 هـ/1598م و 1014 هـ/1605م الذي وقف كتبه الخاصة في بيت الخطابة، بالقرب من مقصورة الجامع الأموي وفيها كتب قيمة. [5] وكان عبد اللطيف بن محمد صاحب الدين (966 هـ ـ1023 هـ/1558ـ1614م)، يمتلك مكتبة بها ما يقارب 150 كتابا وغالبها بخطه، وأغلب تلك الكتب فيها تصحيحات وتعليقات. وفيها مؤلفات ألفها بنفسه منها كتاب جمع فيه خمسة علوم هي: التفسير، الحديث، الفقه، التصوف، الأدب. [6]

وجمع فضل الله بن علي الأسطواني الدمشقي الحنفي، (ت 1100 هـ/1688م) كتبا نفيسة. [7] وكان لخير الدين بن أحمد الرملي الحنفي(993 هـ ـ ت1081 هـ/1585ـ1670م)، مكتبة خاصة احتوت على ما يقارب 1100 كتابا، غالبها من أهم الكتب في كل علم، وكان لديه منها نسخ مكررة. [8] ومكتبة رمضان بن موسى المعروف بابن عطيف الدمشقي(1019هـ ـ ت 1095 هـ/1610ـ1683م)التي جمع فيها كتبا نفيسة

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 359.

(2) فقد استنسخ أحدهم كتاب "رد المحتار حاشية الدر المختار" في الفقه الحنفي بمائة ذهب عثماني وكتب أحدهم كتاب تاج العروس للزبيدي بمائتي ذهب عثماني. أنظر: كامل الغزي، نهر الذهب، ج 1، ص 169.

(3) فريد جحا، الحياة الفكرية في حلب، ص 116، كامل الغزي ، نهر الذهب، ج1، ص 171.

(4) محمد كرد علي، المرجع السابق، ج 6، ص 194.

(5) المحبي، المصدر السابق، ج 3، ص 220.

(6) نفسه، ص 19.

(7) نفسه، ص 276.

(8) نفسه، ج2، ص 138.

من كل فن.[1] ومن المكتبات الخاصة التي امتلكها العلماء والأعيان، مكتبة إبراهيم بن عبد الرحمان المعروف بالسؤالاتي(ت1095 هـ/1683م)، وقفها على ابنته.[2] ومكتبة حسن الكردي العمادي الشافعي(ت1048 هـ /1638م).[3] ومكتبة أمين بن محمد القسطنطيني الدمشقي (ابن الكمش)، (1136 هـ - ت 1200هـ/1723 ـ1785م، أمير الجاويشية بدمشق، وقد كان يشتري الكتب القيمة في كل العلوم، واستكتب الكثير منها وكان يعيرها لطلبة العلم.[4]

وكانت لأحمد بن محمد الفلاقنسي الدمشقي (ت 1173 هـ /1759م) مكتبة وقف كتبها في فزانة كتب أسعد باشا داخل مدرسة والده بسوق الخياطين.[5] ومكتبة عبد الله البصروري الدمشقي (1097 هـ - ت 1170 هـ/ـ1686 ـ 1757م) التي جعلها للإعارة.[6] ومحمد ابن سنان القرماني الدمشقي (1139 هـ - ت 1210 هـ/1726ـ 1795م) كانت له مكتبة.[7] وكذلك درويش محمد الطالوي، الذي عمر مكانا في بيته، وجعله للكتب وعمل على الحفاظ عليها.[8]

- **حلب :**

لقد اشتهرت العديد من الأسر التي امتلكت خزائن كتب خاصة، من أشهرها مكتبة حسن بن علي الطباخ الحلبي (1080 هـ - ت 1140 هـ/1669ـ 1727م)، الذي جمع كتبا كثيرة وكان يعتني بتحصحيها.[9] وخزانة الفرابي، وهي من أقدم خزائن الكتب في حلب تعود إلى 339 هـ/950م) وهي تشمل نوادر الكتب الفلسفية والموسيقية.[10]

- **حمص :**

كانت هناك مكتبة من أشهر المكتبات التي أوقفها العلماء، وهي المكتبة الجمالية التي أنشأها العالم الفقيه جمال الدين الجمالي، والمكتبة الأتاسية لآل الأتاسي والمكتبة الجندية التي تعود إلى الشيخ أمين الجندي (1180 هـ - ت 1257 هـ/1766ـ1841م)، وهو من أشهر شعراء زمانه وضمت مخطوطات نفسية.[11]

---

(1) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 169.

(2) نفسه، ج1، ص 29.

(3) نفسه، ج2، ص 78.

(4) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 275.

(5) نفسه، ص 163.

(6) نفسه، ج3، ص 87.

(7) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 244.

(8) ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 250.

(9) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 30. =

- **طرابلس :**

كانت هناك العديد من خزائن الكتب ؛ مثل خزانة كتب مصطفى آغا ابن خضري آغا ، كان بها كتب ومجاميع هامة ؛ منها شرح الملتقى المسمى "سكب الأبحر على ملتقى الأبحر" لعلاء الدين المفتي بدمشق ، ومنها "الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير" ، ومجموعة فيها "شرح البردة" وشرح "بانت سعاد" وغيره. [1] وكان لدى هبة الله أفندي مفتي الحنفية بطرابلس عام 1105 هـ/ 1693م ، خزانة كتب تحتوي على نفائس الكتب منها طبقات الإمام الشعراني ، وكتاب "الرياض النضرة في فضائل العشرة" للمُحبّ الطبري ، وشرح البردة لمحمد بن رضي الدين المقدسي. [2]

وخزانة كتب الشيخ عبد اللطيف الشهير بابن سنين ، التي كانت تضم مجموعاً كبيراً من الرسائل أكثرها للإمام جلال الدين السيوطي ، منها رسالة "الإسفار في تقليم الأظفار" ورسالة "أنباء الأذكياء لحياة الأنبياء". [3] وتوجد أيضا خزانة كتب الشيخ الحاج مصطفى الملقب بأبي الأحول الطرابلسي (1207 هـ ـ1261 هـ/1792ـ1845م) ، كانت تحتوي على كتب في الشعر واللغة والعلوم. [4] ومكتبة محمد رشيد بن مصطفى الميقاتي الطرابلسي ، (1198 هـ ـ ت 1282 هـ/1783ـ1865م) أوقفها على طلاب العلم بطرابلس. [5]

وخلال القرن 19م كانت هناك خزانة كتب لنوفل نعمة الله الطرابلسي (1811ـ ت1887م) ، جمع فيها كتبا نفيسة ؛ شملت مئات المجلدات في الأدب والتاريخ والفكاهة ، بين مطبوع ومخطوط ، أوقفها على المدرسة الكلية الإنجيلية قبيل وفاته. [6]

- **حماه والقدس :**

لقد أنشأ الأمراء في حماه خزائن كتب ، أقدمها خزانة أبي الفداء (672 هـ ـ ت 732 هـ /1273م ـ1331م) ، كانت فيها مخطوطات هامة وبلغ عدد مجلداتها سبعة ألاف مجلد. [7]

= (10) سماء زكي المحاسني ، "من تاريخ المكتبات في سوريا" ، المجلة المغربية للتوثيق والمعلومات ، ع. 3 ، منشورات مركز البحوث في علم المكتبات والمعلومات ، تونس ، مارس 1985م ، ص 134.

(11) نفسه ، ص 135.

(1) عبد الغني النابلسي ، الرحلة الطرابلسية ، ص 79.

(2) عبد الغني النابلسي ، الحقيقة والمجاز ، ج1 (دار المعرفة) ، ص 210.

(3) المصدر السابق ، ص 98، 90.

(4) عبد الله نوفل ، المرجع السابق ، ص 46.

(5) نفسه ، ص 56.

(6) نفسه ، ص 76.

(7) المرادي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 30.

أما في القدس فاشتهرت مكتبة عبد الحي جار الله؛ التي ضمت كتبا في الفقه والحديث والفلسفة والتاريخ و اللغة والطب، ومكتبة الشيخ سليمان أفندي المدرس وحسين أفندي نقيب الأشراف، ومكتبة محمد نسيبة وخليل الجاغوني، ومكتبة آل قطينة وآل البديري.[1]

ب ـ المكتبات العامة :

كان في بلاد الشام الكثير من المكتبات الملحقة بالمدارس والمساجد، ويعد القرنين 17م و 18م عصر المكتبات لكثرة ما أنشأ فيهما، ومن أشهرها في دمشق مكتبة الجامع الأموي التي كانت تحتوي على رقوق في اللغات اليونانية واللاتينية والعبرانية وغيرها، ومخطوطات عربية وتضم آلاف الكتب.[2]

ومن مكتبات المدارس كانت هناك مكتبة المدرسة العمرية، التي وقفها الشيخ عمر القدسي (ت607 هـ/1210م)، ومكتبة مدرسة عبد الله العظم وقفها عام 1211 هـ/1796م، و ضم إليها كتب والده. و مكتبة سليمان باشا العظم، وقفها عام 1196 هـ/1781م بمدرسة. ومكتبة الملا عثمان الكردي بمدرسة السليمانية، ومكتبة مدرسة الخياطين، وقفها أسعد باشا العظم بعد عام 1165 هـ/1751م، كان مقرها بمدرسة والده إسماعيل العظم. وهناك مكتبة المرادية بمدرسة سياوش باشا، ومكتبة بيت الأوقاف وبيت الخطابة بالجامع الأموي.[3] وكانت هناك مكتبات في المدارس الأخرى، مثل المدرسة العروية والناصرية وغيرها.[4]

أما في حلب فاشتهرت المدرسة الأحمدية التي أسسها أحمد الجلبي طه زاده، وجمع فيها أنفس المخطوطات والأجهزة الفلكية، أبرزها تاريخ الحافظ بن كثير في عشر مجلدات.[5] وكان فيها ثلاثة آلاف كتاب مخطوط.[6] ومكتبة المدرسة الرضائية؛ التي أنشأها عثمان باشا الدوركي في القرن 19م، وأوقف عليها 1500 مجلدا من أشهرها الدّر الثمين في أسماء البنات والبنين.[7] ومكتبة المدرسة الخسروية والكواكبية، والبختية ومكتبة التكية المولوية بحلب، والتي وقفها الشيخ أحمد القاري في أواسط القرن 16م، وبقيت إلى القرن 19م وضمت كتبا في مختلف العلوم والفنون.[8]

---

(1) محمد أحمد، " الحياة الثقافية....في القدس"، ص 219.

(2) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج 4، ص 118.

(3) محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص 305.

(4) نفسه، ص 195.

(5) سماء زكي المحاسني، المرجع السابق، ص 134.

(6) فريد جحا، الحياة الفكرية في حلب، ص 116، 117. جورجي زيدان، المرجع السابق، ج4، ص 121.

(7) جورجي زيدان، نفسه، ص 121، 222.

(8) فريد جحا، المرجع السابق، ص 112، 113، 117. كامل الغزي، نهر الذهب، ج1، ص 175.

و في القدس كان هناك نحو 50 مكتبة مليئة بالكتب، أهمها مكتبة المسجد الأقصى؛ التي كانت تحتوي على الآلاف من المؤلفات، في اللغة والدين والتاريخ والحساب. إضافة إلى مكتبات المدارس مثل المدرسة الأمينية، التي احتوت على كتب الشيخ محمد صالح الإمام شيخ المدرسة في القرن 19م.[1] ومكتبة جامع الجزار في عكا، ومكتبة الحرم الإبراهيمي في الخليل.[2]

3ـ مكتبات الطوائف المسيحية بمصر والشام :

كانت الكنائس والأديرة والمدارس الطائفية لغير المسلمين، توجد بها مكتبات أغلب كتبها دينية، ومن أهمها في دمشق مكتبة المطران يوسف داود السرياني، في كنيسة الكلدان ومكتبة دير الشاغورية، ومكتبة معلولا التي تحتوي على مخطوطات عربية وسريانية في الدين، ومكتبة المطران غريغوريوس عطا في يبرود، تحتوي على كتب للروم الكاثوليك.[3]

أما في حلب فاشتهرت المكتبة المارونية؛ من إنشاء المطران جرمانوس فرحات عام1725م، جمع فيها ما كان مبعثرا من كتب أسلافه، في الأدب واللغة والدين والتاريخ، وأكثرها في السريانية والعربية، وهي تشتمل على ألف مجلد في علوم شتى.[4] والمكتبة الملكية للروم الكاثوليك، ومكتبة بني الدلال وهي لجبرائيل الدلال.[5] والمكتبة السريانية، وهي لطائفة السريان الكاثوليك، أنشأت في القرن 16م وكان بعض مخطوطاتها عربية، يونانية، سريانية ولاتينية.[6] إضافة إلى مكتبة المقدسي نصر الله الطرزي (1751 م ـ ت1808م)، كان طبيبا وصيدليا.[7]

وفي بيروت كانت هناك مكتبات في الأديرة والمدارس الطائفية الكبرى، مثل مكتبة دير التلميذ للروم الأرثوذكس ومكتبة دير المخلص للكاثوليك، والمكتبات المارونية مثل عين ورقة و مارعبدا وعينطورة وغيرها. والمكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين، احتوت على مخطوطات هامة، ونادرة في التركية والعربية و الفارسية والسريانية، في الآداب الدينية والعلمية.[8] ومكتبة دير مار شليطا أنشأها الدويهي، وجعل الرهبان

---

(1) محمد أحمد، "الحياة الثقافية ...في القدس..."، ص 218.

(2) علي المحافظة، الحركات الفكرية في فلسطين، ص 54.

(3) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج 4، ص 119، 120.

(4) كامل الغزي، نهر الذهب، ج 2، ص 482.

(5) المرجع السابق، ص 122، 123.

(6) نفس المرجع، ص 123. فريد جحا، الحياة الفكرية في حلب، ص 119.

(7) فريد جحا، نفسه، ص 118.

(8) جورجي زيدان ،المرجع السابق، ص 123، 126.

يجمعون وينسخون الكتب لها.[1] أما بالقدس فهناك مكتبة دير الروم الأرثوذكس، ودير اللاتين الدومينيكان ومكتبة الآباء البيض، ودير الفرنسيسكان ومكتبة دير الآرمن.[2] إضافة إلى مكتبة القديس المخلص تضم ما يزيد عن 25 ألف كتاب، باللغات المختلفة والمكتبة الإنجيلية.[3]

وفي مصر اشتهرت المكتبات القبطية الموجودة في الأديرة، كانت أكثر كتبها في الطقوس الدينية، وتواريخ الكنائس، وهي باللغات القبطية والسريانية والعربية واليونانية؛ من أمثلتها مكتبة دير طور سينا التي تحتوي على كتب دينية نصرانية.[4]

4 ـ نظام المكتبة ونسخ الكتب

أ ـ نظام المكتبة

- **خازن الكتب :**

كان هناك موظفون في المكتبة، يقومون على خدمة روادها من طلاب العلم والعلماء، ويكون هذا الخازن في كثير من الأحيان خطيبا بالجامع الملحق به المكتبة أو مدرسا بالمدرسة، ويمكن أن يكون شخصا آخر، وكان يشترط فيه الديانة و الأمانة.[5] وكان يعين إلى جانبه نائب يعوضه في حالة غيابه، مثلما فعل محمد أبو الذهب، عندما عين على مكتبة مدرسته، محمد أفندي حافظ خازنا، وجعل نائبه محمد الشافعي الجناحي.[6] وكان من مهامه مراقبة حركة الكتب، وضمان عودتها إلى أماكنها و إصلاح ما تلف منها.[7] وتزويد المكتبة بالمخطوطات الجديدة، وكان يتحمل مسؤولية ضياع الكتاب من ماله الخاص، ويتقاضى راتبا من الوقف المخصص للمدرسة أو الجامع.[8] و في كثير من الأحيان كان الخازن يتكفل بمهام أخرى؛ مثل نسخ الكتب ومقابلتها وتصحيحها.[9]

---

(1) يوسف الدبس، المصدر السابق، ج 9، ص 331.

(2) علي المحافظة، الحركات الفكرية في فلسطين، ص 54.

(3) محمد أحمد، "الحياة الثقافية ... في القدس..."، ص 219.

(4) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج4، ص 116.

(5) مثل الشيخ موسى بن داود الشيخوني، الذي كان إماما في جامع شيخون بمصر وخطيبه وخازن مكتبته. ومحمد بن موسى الجناحي (ت 1200 هـ) عين في وظيفة الخازن في مكتبة مدرسة المحمدية وكان مدرسا بها أيضا. الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 566، 651، 652.

(6) نفسه، ص 483.

(7) نفسه، ص 328.

(8) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 243، 244. محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص 195، 196.

أنظر مثالا عن راتب الخازن ملحق رقم " 1 "

(9) محمد كرد علي، نفسه، ص 195.

- **الإعارة :**

كانت الإعارة في المكتبات العامة التابعة للجوامع والمدارس، داخلية فقط، ولم يكن يسمح بالإعارة الخارجية إلا في بعض المكتبات؛ وذلك حفاظا على الكتب من الضياع والتلف. فقد اشترط الواقفون في وقفياتهم ذلك؛ مثل محمد أبو الأنوار السادات؛ الذي أوقف كتبا في زاوية السادات الوفائية، واشترط أن لا يخرج شيء منها، بل ينتفع بها طلاب العلم في مكانها. وكان منهم من يشترط، أن لا تباع أو ترهن أو تبدل.[1] وجاء في وقفية مكتبة المدرسة الأحمدية بحلب، التي أوقفها أحمد أفندي، أنه لا يخرج أي كتاب منها مطلقا ويمكن للطالب أن يكتب منها ما يشاء في المكتبة، ولكنه سمح للمجاورين بالمدرسة التي فيها المكتبة أن يأخذوا من الكتب ما يشاؤون إلى حجراتهم بكفالة المدرس.[2]

أما في المكتبات الخاصة، فكان غالبية أصحابها متسامحين في إعارتها، ويأذنون للطالب بأخذ الكتاب، ويمكن أن لا يعيده أو يبيعه أو يتلفه، مثلما كان في مكتبة آل الشرايبي.[3] وكان حسن الجبرتي يجعل مكانا في منزله، يضع فيه الكتب المتداولة بين طلاب الأزهر، ويسمح لهم بالمطالعة فيها و الكتابة منها، ويأخذون منها معهم.[4]

ب ـ نسخ وتجارة الكتب

لقد اشتهرت حرفة نسخ الكتب بمصر والشام، وأقيمت لها أسواق خاصة، فكان لكبار العلماء المؤلفين نساخ يخدمون كتبهم.[5] وارتقت أساليب النسخ إلى الكتابة بمختلف الخطوط، والنقش والتصوير والتجليد وتلوين الورق والحبر وغيره، حتى أن البعض كتب في آداب هذا الفن؛ مثل الشيخ عبد الرحمان بن أحمد بن مسك البخاري (ت 1025 هـ/1616م)؛ الذي وضع كتاب "تنويق النطافة في علم الوراقة".[6]

وقد كان نسخ الكتب حرفة ناجحة يسترزق منها الخطاطين، وحتى طلاب العلم الفقراء.[7] و ذكرت كتب التراجم خلال العهد العثماني العديد من الناسخين أو الخطاطين البارعين، فاشتهر مثلا في الشام خلال

(1) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 243.

(2) كامل الغزي، نهر الذهب، ج2، ص 57، 58.

(3) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 289. أنظر : نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص 132، 196، 197.

(4) الجبرتي، نفسه، ص 460.

(5) محمد كرد علي، المرجع السابق، ج 6، ص 195.

(6) علي إبراهيم النملة، الوراقة وأشهر أعلام الوراقين، مطبوعات الملك فهد الوطنية، الرياض، السعودية، (د.ط)، 1995م، ص 145.

(7) كامل الغزي، نهر الذهب، ج1، ص 169، 170.

القرن 17م، المنلا محمد الأخلاقي نزيل دمشق (943 هـ ـ ت 1021 هـ/1536ـ1612م) كتب كتاب أخلاق علائي في أربعين مجلداً في ثلاث لغات العربية والفارسية والتركية وكان ماهراً في النسخ.(1) ومحمد بن نجم الدين الهلالي الدمشقي (ت 1012هـ/1603م) كان شاعراً وكتب بخط في غاية الجودة حتى اشتهر أمره بالقسطنطينية.(2)ومحمد بن بركان بن الكيال الدمشقي(ت 1027 هـ/1617م)، الذي كان يكتب أنواع الخطوط وكانت كتبه يتغالى الناس فيها. (3)

وحتى المسيحيين من أهل الشام اهتموا بالنسخ، فكان الموارنة في لبنان منذ القرن 15م، يصرفون أوقات فراغهم في نسخ المخطوطات الدينية.(4)وفي حلب نسخوا عدة كتب وترجموها عن السريانية مثل "استفازا دور الأرمني الذي ألف ونسخ بعض الكتب الدينية خلال القرن 17م.(5)وموسى بن جرجس نوفل الطرابلسي (ولد 1727م) الذي نسخ المزامير. (6)

واشتهر بمصر إبراهيم السكاكيني(ت1171هـ/1757م)، الذي نسخ مقامات الحريري ورسائل في الرياضيات.(7) وإسماعيل بن عبد الرحمن الرومي المصري الو هبي (ت 1187 هـ/1773م)، كان شيخا للخطاطين وكتب بخطه كتبا كثيرة، مثل دلائل الخيرات، وكان يحضر مجالس أهل الخط ويعلمه.(8) كما كان أهل مصر والشام يعنون بتجليد الكتب، وتنميقها بالنقوش المذهبة والفضية، وتلوينها بالأصباغ والرسومات، حتى عرف بعضهم بالمجلد لاشتغاله بهذه الحرفة. (9)

وكان النسخ يتخذ أحيانا صورة التحقيق والتعليق على المخطوطة، فلم يكن يكتفي الناسخ بكتابة المخطوط، بل يقابله مع نسخ أخرى ويصححه.(10) كما يعتني بالتعليق على ما جاء فيه ووضع حواشيه، وشرح الألفاظ الغريبة فيه (11) واستمر نشاط النُسّاخ حتى مع ظهور المطبعة إلى منتصف القرن 19م، حيث بدأ نشاط المطابع يطغى على مجال صناعة الكتاب. (12)

---

(1) المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 294.

(2) نفسه، ص 239.

(3) نفسه، ج 3، ص 402، 403.

(4) محمد كرد علي، المرجع السابق، ص 196.

(5) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 356.

(6) عبد الله نوفل، المرجع السابق، ص 39، 40.

(7) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 307.

(8) نفسه، ص 440.

(9) أنظر أمثلة عن ذلك في : الجبرتي، نفسه، ص 530. المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 59.

(10) فريد جحا، الحياة الفكرية في حلب، ص 120. =

واهتم أهل مصر والشام باقتناء الكتب لمكتباتهم، فكانوا يدفعون أموالا كبيرة لشرائها، وكثيراً ما يضطرون إلى السفر إلى أماكن بعيدة، بحثا عن نسخة لكتاب معين، فقد ذكر الجبرتي أن والده اشترى كتبا وهو في الحجاز باثني عشر ألف دينار.[1] وكان محمد الجوهري (ت 1215 هـ/1800م) يتردد على الحجاز، ويجلب منها كتبا نفسية يدخلها إلى مصر.[2]

و خلال القرن 19م حصل اهتمام كبير بالكتب القادمة من أوروبا، بهدف ترجمتها والاستفادة من المعارف الحديثة التي تحويها، فقد جلب الرحالة العرب الذين دخلوا أوروبا في هذه الفترة كتبا قيمة، منها في علم الهيئة والكواكب، والعلوم الطبيعية ليس لها مثيل في بلادهم.[3] وجلب محمد علي كتبا كثيرة في مختلف الفنون، خاصة العلوم الطبيعية والرياضية؛ لترجمتها وتولت مطبعة بولاق طباعتها ونشرها.[4]واستفادت بلاد الشام من تلك الكتب حيث كانت كل من حلب، دمشق، اللاذقية وطرابلس، يافا، غزة. ترسل قوائم الكتب اللازمة في مدارسها، إلى ديوان المدارس بمصر لإرسالها إليها. وكانت أغلبها تخص فروع العلوم والآداب والطب والهندسة، الزراعة والقواميس وغيرها.[5]

ووجدت بمصر والشام أسواق خاصة ببيع الكتب، فكان بالقاهرة سوق للكتاب يحتوي على عدد كبير من المخطوطات المعروضة للبيع، في الآداب والتاريخ والفلك وغيره.[6] كما كان في الشام بمحلة الكلاسة بدمشق، مكان مخصص لبيع الكتب، وراء الحائط الشمالي للجامع الأموي حيث كان لها دلاّل خاص.[7]وكان بعض الأشخاص يشترون الكتب للمتاجرة بها مثل خليل أفندي البغدادي(ت 1202هـ /1787م) الذي كان يبيع الكتب بمصر.[8]ومحمود بن بركات الباقاني الدمشقي(ت 1003 هـ/1594م) الذي

= (11) مثل الأديب عبد الله الإدكاوي المصري (ت 1184 هـ/1770م) ، الذي أضاف حوا ش وشروحا للألفاظ، على ديوان حسّان رضي الله عنه. أنظر: الجبرتي، المصدر السابق، ج1(د. الفارس)، ص 401. أنظر مثالا آخر : المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 160.

(12) شمس الدين الرفاعي، المرجع السابق، ص 17.

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1، (د. الفارس)، ص 561.

(2) نفسه، ج3 (دار الكتب)، ص 267.

(3) فقد جلب بطرس عنحوري خال ميخائيل مشاقة عام 1814م، إلى دير القمر كتبا قيمة من أوروبا لما عاد إلى بلده ، تخص العلوم الطبيعية وغيرها. ميخائيل مشاقة، المصدر السابق، ص 10.

(4) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 106، 107.

(5) لطيفة سالم، المرجع السابق، ص 209.

(6) سمير عمر إبراهيم، المرجع السابق، ص 251.

(7) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 102 ، ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 252.

(8) الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص 261.

كان يتاجر في الكتب و يكسب منها ما لا كثيرا.[1] ووصل الأمر ببعض سماسرة الكتب، إلى بيع المخطوطات النفسية، التي كانت بخزائن الكتب في الشام و مصر إلى القساوسة، ورجال الدين والمبشرين الأوربيين، وأدى ذلك إلى نهب تراث البلاد خلال القرنين 17م/11هـ و 18م/12 هـ.[2] أما خزائن الكتب الخاصة فكثيرا ما كانت تندثر بعد موت صاحبها فتباع في تركته.[3]

وإذا جئنا إلى تقييم التعليم في مصر والشام خلال العهد العثماني، من القرن 16م إلى منتصف القرن 19م خلال مرحلتين مليئتين بالاختلافات، فلا يجوز الحكم على التربية والتعليم، بطرائقه ومؤسساته التي كانت سائدة في تلك الفترة، وفق معايير العصر الحالي، أو انطلاقا من المفاهيم المعاصرة. فقد حكم العديد من المؤرخين على نظام التعليم التقليدي بالعقم، بل إن كثيراً منهم أكدوا أنه لم يكن هناك أي نشاط تعليمي في مصر والشام قبل القرن 19م، أي قبل ظهور نظام المدارس الحديثة.[4] واعتبروا أن الكتّاب والجامع لم يكونا ينفعان، لتكوين جيل قادر على التغيير، بالنظر إلى طرائق التدريس وأهدافه.[5]

إلا أنه لا يجب أن ننسى أن التعليم التقليدي، الذي كان سائدا في العصر العثماني، هو من أنظمة العصور الوسطى؛ التي ساهمت فيما مضى في ازدهار الحياة الفكرية. وكان يعتمد على الأوقاف ولم تكن تموله الدولة، كما هو الحال في نظام التعليم الحديث. ولذلك لم يكن منحصراً في مؤسسات بعينها، ولا في علوم معينة، بل كان بإمكان الطالب أن يختار العلم والتخصص الذي يريد دراسته والمكان أيضا.

وكان التعليم مجانيا وديمقراطيا، بحيث أتيحت فرص التعلم لكل فئات المجتمع، بما فيهم الفقراء والأيتام والمكفوفين، فقد كان لهم الحق في التعلم والوصول إلى مناصب هامة، وكانت الإجازات أو الشهادات العلمية التي يحصل عليها الطالب من شيخه تؤهله لتسلم وظيفة في المجتمع. كما أنه كان يتلاءم مع الوظائف التي كانت متاحة حينها وهي أغلبها دينية، بمعنى أن التعليم كان يلبي حاجات المجتمع. بل وكانت الدروس العامة التي يحضرها كل من يرغب في ذلك من الناس دون استثناء، بمثابة المحاضرات العامة التي تسعى لتثقيف المجتمع.[6]

---

(1) المحبي، المصدر السابق، ج 4، ص 318.

(2) محمد كرد علي، المرجع السابق، ج 6، ص 198، 199.

(3) الجبرتي، المصدر السابق، ج2(د. الكتب)، ص 343.

(4) أنظر : محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 94، لطيفة سالم، المرجع السابق، ص 207.

(5) سعد مرسي وآخرون، المرجع السابق، ص 228، 279.

(6) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 248 ـ250.

ويمكن القول بأن التعليم التقليدي، حتى وإن بقي غير مواكب للتطورات، التي حصلت في أوروبا من حيث التنظيم وغيره، إلا أنه كان يحقق الكثير من أهدافه ولم يكن عقيما بل إنه خرج جيلا تلقى المؤثرات الغربية وقبل التغيير والإصلاح، فالتحولات الفكرية التي حصلت في مصر في النصف الأول من القرن 19م على الأقل كانت من صنيع جيل أنشأه الأزهر مثل الطهطاوي والطنطاوي، حسن العطار وغيرهم من الذين ساهموا في المطبعة والترجمة، مع أنهم كانوا مشبعين بالثقافة العربية الإسلامية، وتخرجوا من معاهد التعليم التقليدية.

أما التعليم الحديث الذي عرفته مصر و بلاد الشام، من خلال مدارس محمد علي باشا ،على الرغم من أنها كانت خطوة هامة في سبيل إصلاح التعليم وتطويره، بما يتلاءم مع تطورات العصر، إلا أنها ما لبثت أن تراجعت فمنذ عام 1841م، أصدر محمد علي قرارات تقضي بإلغاء المدارس الابتدائية، والمدرسة التجهيزية بالقاهرة، ومدرسة الموسيقى وتقليص عدد التلاميذ، وتخفيض مرتباتهم في كل المراحل.[1]

أما مدارس الشام فتوقفت مباشرة بعد انحسار الحكم المصري عن المنطقة ،بداية من التاريخ السابق ؛ و يعود سبب هذا الإنهيار السريع، إلى صعوبة تطبيق طرائق التدريس والمناهج ؛التي لم تكن مناسبة للطلبة المصريين، لكونها مقتبسة من النظم الفرنسية دون أدنى تعديل. ولم تكن تهدف في الواقع إلا لتخريج موظفين في الجيش والإدارة.[2] و بقي تأثيرها سطحيا لكونها مست فئات محددة من المجتمع، وظلت معزولة عنه في وقت ظل أفراده، يستمتعون بالتثقيف من المؤسسات التقليدية.[3]

ولذلك لم يتمكن التعليم الحديث خلال هذه الفترة على الأقل، من إعداد جيل قادر على استيعاب نظريات الغرب ثم الإبتكار ؛ وذلك لأنه تلقاها في مرحلة متقدمة، فلم تنمو معارفه تدريجيا بنفس الوتيرة التي حصلت في أوروبا.[4]فلو عمل على تطوير النظام التقليدي تدريجيا، دون تهميشه لكانت النتائج أكثر إيجابية، ثم إن المجتمع لم يكن مهيئا لتقبل تلك الإصلاحات، بأنماط غريبة عنه بشكل سريع ودون استيعاب، ولذلك رفضها خاصة وأنها ارتبطت فوق ذلك كله بالتجنيد.[5] ونفس الشيء حصل في الآستانة، في عهد محمود الثاني الذي أدت إصلاحاته في مجال التعليم، إلى حدوث اصطدام بين النظام التقليدي والنظام الجديد.[6]

(1) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 99.

(2) منير عطا الله وآخرون، المرجع السابق، ص 93.

(3) سمير عمر إبراهيم، المرجع السابق، ص 132.

(4) بريس دافين، المصدر السابق، ص 92، 93.

(5) سعد مرسي وآخرون، المرجع السابق، ص 339، 342.

(6) محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص 95.

وحتى المدارس المسيحية التي ظهرت في هذه الفترة، لم تؤثر كثيرا لارتباطها بالثقافة الدينية، مما أدى لحصول نوع من القطيعة، بين المؤسسات الإسلامية والمسيحية؛ فبينما كان الطلاب المسيحيون مرتبطون بجامعات أوروبا، ظل المسلمون مرتبطون بمراكز العلم في العالم الإسلامي حتى نهاية النصف الأول من القرن 19م، ومع ذلك فإن هذه التحولات التي حصلت في هذا المجال، مهدت الطريق لظهور نظام تعليمي على أسس حديثة ومتطورة بالمنطقة، وذلك في النصف الثاني من القرن.

الفصل الرابع :

الإنتاج الفكري في مصر والشام

المبحث الأول : الدراسات الدينية .

المبحث الثاني : الدراسات اللغوية و الأدبية.

المبحث الثالث : الدراسات الإجتماعية.

المبحث الرابع : الدراسات العلمية.

الفصل الرابع: الإنتـــاج الفـكـري في مصر والشام

لقد ظهرت في هذه الفترة من تاريخ مصر والشام، العديد من المؤلفات والترجمات، في مختلف مجالات العلوم، الشرعية واللغوية والأدبية والعلمية. ويدل الرصيد العلمي، الذي أنتج في هذه الفترة على خصب الحياة الفكرية وازدهارها، فهناك مؤلفات لا حصر لها في علوم الحديث والقرآن، والتوحيد والفقه وعلم النحو والبلاغة والصرف، والمنطق وعلم الكلام، والتصوف والتاريخ . وحتى في العلوم الرياضية كالحساب والهندسة، والفلك والطب و التشريح وغيره. واهتم علماء هذه الفترة بإحياء تراثهم الأدبي والعلمي السابق، من خلال الشروح والحواشي، والمختصرات والمنظومات، التي كان غرضها في الأساس تعليمي.[1]

وقد سار الإنتاج الفكري على النمط التقليدي، الذي كان في العهد المملوكي، ولذلك فإن المستوى العام للفكر بمصر والشام خلال العهد العثماني، لا يختلف في سماته عن العهد السابق له، فقد كان العصر يعجّ بالمحدثين والفقهاء، واللغويين والأدباء والشعراء والمؤرخين، الذين تركوا كمّا كبيرا من المؤلفات.[2] مع أن هذه المؤلفات كانت من وحي الأعمال السابقة، إلا أنها لم تكن من دون فائدة بل كان فيها تصحيحات لما ورد بها، وإضافات لاستكمال النقائص فيها، ومواءمته مع روح العصر، وكان منها الشروح التي أزالت الغموض الذي ظلّ يلف العديد من المؤلفات القديمة . حتى أن أحد علماء القرن 17م/ 11 هـ، صنف أقسام التأليف في عصره إلى سبعة أقسام وهي: التأليف في أمور جديدة لم يؤلف فيها سابقا، أو حتى إتمام النقص في المؤلفات السابقة، أو تصحيح الخطأ فيها أو شرحها، أو جمع المتفرق منها.[3] وهذه هي في الواقع أصول التأليف حتى في وقتنا الحاضر.

كما يلاحظ على الإنتاج الفكري خلال الفترة المدروسة، أنه بين القرنين 16 و 18م، ازدهرت حركة التأليف في مختلف المجالات الفكرية، بينما توقفت خلال النصف الأول من القرن 19م خاصة بمصر، ومالت إلى الترجمة للمؤلفات الغربية. و الملاحظة الأخرى هي أن الغالب على الإنتاج الفكري في هذه الفترة كان في العلوم الدينية واللغوية، وذلك بحكم الطابع الديني السائد، ولكون الوظائف كانت دينية، فكان الرصيد الفكري الأكبر يمس هذه العلوم. أما العلوم الطبيعية و الرياضية فكان الإنتاج فيها قليلا، وذلك لكونها لم تكن توصل إلى المناصب، و الإشتغال بها كان مكلفا، ومع ذلك ظهرت مؤلفات عديدة فيها.[4]

---

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 338، 339.

(2) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص202. =

ثم إنه خلال النصف الأول من القرن 19م، كانت كل الكتب المترجمة عن اللغات الأوروبية، في هذه العلوم تقريبا . أما من حيث التجديد والإبداع، فقد اعتبر الكثيرون أن العصر العثماني كان عصر تقليد وجمود فكري، لا فيه إبداع ولا ابتكار في مختلف المجالات الفكرية. إلا أن الواقع أنه لم تكن كل تلك المؤلفات، مجرد تكرار للماضي بل كان فيها إبداع، لكونها كانت تفسر القواعد المنقولة، على ضوء الحقائق الجديدة، فقد كانت تمثل استجابة لظروف العصر.[1]

كما أنه لم تكن كل المؤلفات من قبيل الشروح والحواشي، بل كانت هناك أشعار مبتكرة من صميم الواقع، وكتبت رسائل في مواضيع متعددة كانت من روح العصر، والفتاوى التي وضعت على المستجدات التي عاشوها في تلك الفترة، إضافة إلى كتب الرحلات التي ألفوها من تجاربهم الشخصية؛ التي عاشوها بأنفسهم، وكذلك مؤلفات التاريخ خاصة الحوليات والتراجم، التي صورت الحياة السياسية و الإجتماعية و الإقتصادية والفكرية بكل تفاصيلها. ولذلك لا يمكن القول بأن الإبتكار وروح الإبداع، قد ماتت تماما في هذا العصر، لأنها ظلت موجودة على الرغم من أنها لم تكن ذات قوة كافية، لقلب الأوضاع و إحداث التغيير الجذري.[2] وفي هذا الفصل سنعرض بعض النماذج من الإنتاج الفكري في الفترة المدروسة.

= (3) المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 41، هذه المقولة كانت للشيخ محمد بن علاء الدين البابلي القاهري (1000 هـ ـ ت 1077 هـ/ 1591ـ ت1666 م).

(4) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص204.

(1) كمال مغيث، المرجع السابق، ص137.

(2) جب و بوون، المرجع السابق، ج2، ص26.

المبحث الأول: الدراسات الدينية

لقد كان التيار الديني نشيطا، في العهد العثماني بمصر والشام، بل كان الطاغي على حركة التأليف، والهدف من ذلك هو تمكين أصول الدين الصحيحة في النفوس، والوقوف في وجه البدع والخرافات، ودعم تيار السنّة في وجه التيارات الدينية، والمذهبية المنحرفة والدروشة، وكل المظاهر والأفكار التي يمكن أن تحدث خللا على وحدة الدين وأصوله. وكانت النتيجة أن أنتجت هذه الفترة، كمّا كبيرا من المؤلفات في ميدان العلوم الدينية، كالفقه والتفسير والحديث، والقراءات. وذلك من خلال الشروح والتعليقات والمختصرات والحواشي التي وضعت على الكتب السابقة ومع أن الجديد لم يظهر إلا في نطاق محدود، إلا أنهم تمكنوا من فهم العلوم الدينية وتبسيطها، وشرحها والتفقه فيها.[1]

1ـ الفقه

لقد كان المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي في الدولة العثمانية، ولذلك سعت إلى الترويج له، عن طريق تأليف الكتب في مناقب أبي حنيفة النعمان، مثل كتاب " عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان " لمحمد بن يوسف وهو من فقهاء القرن 10 هـ/ 16م، وكتاب " الكلمات الشريفة في تنزيه أبي حنيفة من الترهات السخيفة " لمصطفى بن نوح (ت 1070 هـ/ 1659م)، وكان العثمانيون يؤثرون الأحناف للوظائف القضائية والوظائف الدينية الأخرى ، ورغم ذلك ظلت المذاهب الأخرى سائدة، ولم يرضى المصريون ولا الشاميون، بالإجتماع على مذهب واحد، فقد تمسك قسم كبير منهم بالمذهب الشافعي والمالكي، وآخرون بالحنبلي.[2]

لقد تمتع المجتمع بحرية التمذهب، فمنهم من كان يتخذ مذهبا ويطلّع على المذاهب الأخرى، مثل محمد بن بدر الدين بن بلبان البعلي الدمشقي الصالحي(ت 1083 هـ/1672م)، الذي كان فقيها حنبليا، ومع ذلك كان يدرس المذاهب الأربعة.[3] وكان العالم والفقيه إبراهيم بن مسلم القادري الدمشقي(998هـ ـ ت1073م/1689ـ 1662م) شافعي المذهب، ولكن أبناءه كانوا على المذاهب الأربعة، فمسلم كان مالكيا وعبد الله حنبليا وموسى شافعي ومحمد حنفي.[4] ولم يكن تغيير المذهب أمرا يسيء إلى صاحبه.

(1) ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 16، 18.

(2) محمد سيد الكيلاني، المرجع السابق، ص 36، 37. ليندا شيلشر، المرجع السابق، ص150 . جب وبوون، المرجع السابق، ج1، ص 35، 36.

(3) المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 401.

(4) نفسه.

ولم تفرض الدولة العثمانية المذهب الحنفي قسرا على الناس، بل هناك أمثلة عديدة لعلماء غيّروا مذهبهم، أو اعتنقوا منذ البداية مذهبا غير مذهب أسرتهم.[1] وكان غالبية من غيّرُوا مذهبهم اتجهوا نحو المذهب الحنفي رغبة في المناصب. أما عن التجديد في الفقه خلال العهد العثماني فلم يكن هناك جديد إلا في المسائل الثانوية، فقد قدّم علماء هذا العصر شروحات، وتعليقات وحواش وملخصات مفيدة، حول الكتب الفقهية السابقة واستوعبوها. ولكن غلق باب الاجتهاد، و اعتبار أن علماء القرون السابقة للعصر العثماني قد درسوا المسائل الدينية، ونضجت على أيديهم المذاهب الفقهية، ولم يعد هناك داع لتجديد البحث فيها، جعلهم يكتفون بشرحها والتعليق عليها. و مع ذلك ظهرت إسهامات جديدة في الفقه من خلال الفتاوى التي كان يكتبها الشيوخ، خاصة على الأمور المستجدة، فهناك رسائل كثيرة حول الفتوى في أمور مستحدثة.[2]

ومن المؤلفات البارزة خلال القرن 16م/ 10 هـ في بلاد الشام، مؤلفات الفقيه أبو بكر بن عبد الله بن قاضي عجلون (ت 928 هـ/1521م) الذي درّس بالجامع الأموي، ودخل إلى القاهرة وكانت له دروس حافلة بها، وألف كتابا سماه " أعلام التنبيه مما زاد على المنهاج من الحاوي والبهجة والتنبيه ". والذي كان مرجعا هاما في الفقه، وشرحه محمد بن أبي الوفا بن الموقع المصري الحلبي (ت 973 هـ/1565م).[3]

واشتهر فقيه آخر هو إبراهيم بن محمد الحلبي (ت 956 هـ/1549م)، الذي دخل مصر وإسطنبول وصار إماما بجامع السلطان محمد، وكانت له براعة في الفقه وحل المشكلات والفتاوى، وألف كتابا هاما سماه " ملتقى الأبحر "، جمع فيه بين المقدور والمختار والكنز والوقاية.[4] وهو في الفقه الحنفي وجعله بعبارة سهلة، وأضاف إلى ذلك ما يحتاج إليه من مسائل المجمع ونبذة من الهداية، ورجح بين الأقوال المختلفة في المسائل الفقهية في المذاهب الأربعة، وأتمه عام 923 هـ/1517م. وقد وضعت عليه شروح كثيرة، مثل شرح تلميذة الحاج علي الحلبي (ت 967 هـ/1559م) والذي أضاف إليه الإعتراض وشروح المتون الأربعة. وشرحه نور الدين عبد الباقاني القادري وسماه"مجرى الأنهر على ملتقى الأبحر"، وقدم في القرن 17م/11هـ شـرحا له ؛ من طرف إسماعيل أفندي السيواسي(ت 1047هـ/1637م)، في أربع مجلدات أضـاف إليه الكثير

---

(1) أنظر أمثلة عن ذلك : المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 207 و ج3، ص 143. المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 212، 213، 386، 387، الجبرتي، المصدر السابق، ج1، (دار الفارس)، ص 466، 509، 525، 550.

(2) محمد سيد الكيلاني، المرجع السابق، ص39. خليل إيناجيك، الدولة العثمانية، ص 263 ـ 265.

(3) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص 114 ـ117. وج3، ص 73.

(4) نفسه، ج2، ص77.

وسماه " الفرائد " وكذلك الإمام علاء الدين الطرابلسي الدمشقي (ت 1032 هـ/1622م)، وسماه "سكب الأنهر على فرائض ملتقى الأبحر" . وعلاء الدين الحصكفي الدمشقي (ت 1088 هـ/1677م)، الذي وضع شرحا له سماه " الدّر المنتقى في شرح الملتقى ". و في القرن 18م / 12 هـ وضع شرح آخر له من طرف علي بن شرف الدين الشهير بظريفي، سماه " نور التقى في شرح الملتقى " أتمه عام (1108 هـ/1696 م).[1]

وظهر الفقيه إبراهيم بن فخش الصوسوي الحنفي مفتي حلب، وهو من الروم له مؤلفات منها: " رسالة في أقسام أموال بيت المال وأحكامها ومصارفها " و " رسالة في تحريم الحشيش والبنج ".[2] ومحمد بن عبد الله الخطيب التمرتاشي الغزي(ت 1004 هـ/1595م)، وهو فقيه حنفي دخل القاهرة أربع مرات وله مؤلف في الفقه مشهور سماه " تنوير الأبصار " وزاد عليه شرحا سماه " منح الغفار " ،وهو من أنفع كتب المذهب الحنفي وقد وضع عليه جماعة شروحا منهم العلاء الحصكفي، وله غير ذلك مجلدين في الفتاوى . وله رسائل مفيدة في مسائل فقهية، وهي " رسالة النفائس في أحكام الكنائس "، و " رسالة في عصمة الأنبياء" ، وأخرى في دخول الحمام و"رسالة في النقود" وأخرى" في أحكام الدروز و الروافض " فيها إضافات مفيدة.[3]

وبرز فقيه حنبلي خلال القرن 16م في دمشق هو أحمد بن محمد الشويكي النابلسي كان مفت للحنابلة بدمشق (875 هـ/ 876 هـ ـ ت 939 هـ/1470ـ1532م)، جاور بمكة سنين وصنّف كتاب " التوضيح" جمع فيه المقنع والتنقيح، الأول للموفق بن قدامة والثاني للعلاء المرادي، وزاد عليهما أشياء هامة.[4] وفي مصر اشتهرت مؤلفات زكريا بن القاضي زين الدين الأنصاري،وهو فقيه شافعي (823 هـ/ 824هـ ـ ت 926 هـ/1420ـ1520م)،الذي صنّف شرحا على الروض وله شرح البهجة الكبير والصغير سماه " الخلاصة "وشرح على المنهاج.[5] وألف محمد بن عبد الرحمن العلقمي الشافعي(897 هـ ـ ت 961 هـ /1491ـ1553م)، حواشي و شروح في الفقه الشافعي، منها حاشية على الجامع الصغير للسيوطي، وكتاب سماه " ملتقى البحرين في الجمع بين كلام الشيخين ".[6] وهناك فقيه شافعي آخر، هو أحمد شهاب الدين

---

(1) مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي (حاجي خليفة)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، د.د. النشر، د.م. النشر، (د.ط)، ج1، (د، ت)، ص1814ـ 1816.

(2) نجم الدين الغزي ،الكواكب السائرة، ج2 ، ص 79.

(3) المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 19.

(4) المصدر السابق، ص99.

(5) نفسه، ص 201.

(6) نفسه، ص 41.

الرملي المتوفي المصري (ت 957 هـ/1550م)، كان يصحح مؤلفات شيخه زكريا الأنصاري سابق الذكر، وكتب شرحا على كتاب"صفوة الزبد"* لابن أرسلان في الفقه، وله فتاوى في مجلد جمعها الشيخ شمس الدين الشربيني.(1) و رسالة في شروط الإمامة وغيرها.(2) وكان لابنه محمد الملقب بالشافعي الصغير (917 هـ ـ ت 1004 هـ/1511ـ1595م)، مؤلفات في الفقه الشافعي وكان مرجعا في تحرير الفتاوى، ومن مؤلفاته شرح المنهاج؛ وهو"منهاج الطالبين "للنووي؛ سماه "نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج"، وله شرح "الإيضاح في المناسك" للإمام محي الدين بن شرف النووي الشافعي (ت 676 هـ/ 1277 م)، سماه " الغرر البهية في شرح مناسك النووية "، وله أيضا شرح البهجة الوردية في نظم الحاوي الصغير في فروع الشافعية؛ وهي للشيخ عمر بن مظفر الوردي الشافعي (ت 749 هـ/ 1348م) في خمسة آلاف بيت.(3)

وخلال القرن 17م اشتهر في الشام، فقيه شافعي هو أحمد بن يونس العيثاوي الدمشقي (944 هـ ـ ت 1025 هـ/1537ـ1616م)، تولى مناصب عديدة كالخطابة والتدريس والإفتاء، وألف في الفقه متنا على طريقة الإرشاد**، سماه " الحبب" وشرحه باسم " الخبب في التقاط الحبب ".(4) وكتب الفقيه محمد بن تقي الدين الحموي (951 هـ ـ ت 1016 هـ/1544ـ1607م)، الذي كان شافعيا وتحوّل حنفيا أرجوزة في الفقه سماها " عمدة الحكام ومرجع القضاة في الأحكام " جمع فيها مسائل فقهية هامة.(5) وكتب الفقيه إسماعيل بن عبد الغني النابلسي الحنفي(1017 هـ ـ ت 1062 هـ/1608ـ1651م) مؤلفا في الفقه، سماه " الأحكام شرح الدرر" في 12 مجلدا، وهو كتاب مفيد وقد كان فقيها متبحرا درس بعدة مدارس بدمشق والقاهرة.(6)

---

* " صفوة الزبد " هو كتاب في الفقه الشافعي، لشهاب الدين أحمد بن الحسين الرملي القدسي (ت 844 هـ /1440م) وشرحه شرحين من شروحه " فتح الصمد " لمحمد بن إبراهيم الصفدي. أنظر: مصطفى بن عبد الله (حاجي خليفة)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تص. محمد شرف الدين يالتقايا ورفعت بيكه الكليسي، دار الإحياء العربي، بيروت، لبنان، (د، ط)، ج2، (د، ت)، ص 1079.

(1) نجم الدين الغزي ،الكواكب السائرة، ج2، ص 119، 120.

(2) نفسه، ج3، ص 111.

(3) نجم الدين الغزي، لطف السمر، ج1، ص 81. و هامش رقم1، 3، 4 ص 81.

** هناك "إرشاد الماهر لنفائس الجواهر " على مسائل الفقه للشيخ تاج الدين أبي النصر قاضي قضاة الشافعية بحلب عبد الوهاب بن محمد الحسيني(ت 875 هـ/1470م)،وهناك كتاب آخر"إرشاد في فروع الشافعية " لشرف الدين إسماعيل المقري اليمني الشافعي (ت 836 هـ/1432م) اختصر فيه الحاوي الصغير وعمل عليه شرحا في مجلدين وشرحه مصلح الدين اللاري (ت 979 هـ/1571م) ، ولخصه أبو العباس القسطلاني (ت 923 هـ/1517م) وسماه "الإسعاد " وهو الأرجح. أنظر: حاجي خليفة، المصدر السابق، ج1، (د،د، النشر)، ص67، 69.

(4) المصدر السابق، ص 310 ـ 312، 320.

(5) نفسه، ص 114، 115، 120 .

(6) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 407، 408.

وفي مصر اشتهرت مؤلفات عبد الرؤوف المناوي (ت 1031 هـ/1622م)، الذي كان متبحرا في علوم شتى وله مصنفات في شتى العلوم، له رسائل وشروح عديدة في الفقه مثل كتاب في أحكام الأوقاف، وهو كتاب لا مثيل له سماه " تيسير الوقوف على غوامض أحكام الوقوف "، وله أيضا كتاب جمع فيه أحكام ومناسك الحج على المذاهب الأربعة؛ سماه "إتحاف الناسك بأحكام المناسك" وله آخر في المساجد، وأحكامها الفقهية سماه " تهذيب التسهيل"، وكتاب " النزهة الزهية في أحكام الحّمام الشرعية والطبية "، و هو كتاب جمع فيه فوائد فقهية وصحية.[1] وفي الفقه المالكي اشتهر بمصر الفقيه علي بن زين العابدين الأجهوري (ت 1066 هـ/1655م)، و هو من أجهور بمصر له كتاب في الفقه المالكي، و شروحه الثلاثة على "مختصر خليل" في فقه المالكية في 12 مجلدا وله شرح متوسط في خمس مجلدات، والثالث صغير في مجلدين.[2]

وخلال القرن 18م/ 12 هـ ظهرت شروح ومؤلفات في الفقه على المذاهب الأربعة مثل الفقيه أحمد بن محمد الكواكبي الحلبي الحنفي (1054 هـ ـ ت 1124هـ/1644ـ1712م) كان مفتيا للحنفية بحلب، ودخل إسطنبول ودرّس بها، ودخل طرابلس ودمشق، ومن مؤلفاته الفقهية حاشية على منظومة والده في الفروع سماها " الفرائد السّنية "، وحاشية على منظومة والده في الأصول وهي " منظومة الكواكب" وشرحها تحت اسم " إرشاد الطالب ".[3]

والفقيه عبد الرحيم بن أبي اللطف القدسي(1037 هـ ـ ت 1104 هـ/1627ـ1692م)، وتولى إفتاء الحنفية بالقدس، وله تصانيف و فتاوى منها " الفتاوى الرحيمية "وكتاب "منح الغفار" في 10 كراريس، وجمع بعض كتب الفقه في كتاب سماه " الفوائد الرحيمية "، وهي في الفقه الحنفي وأضاف لها زيادات.[4] وترك الفقيه والمفتي الحنفي، مصطفى بن عبد الفتاح النابلسي الشهير بالتميمي(1111 هـ ـ ت 1183هـ /1699ـ1769م) مؤلفات في الفقه، وقد تولى الإفتاء مدة 40 سنة. ومن كتبه "إرشاد المفتي إلى جواب المستفتي " وله رسائل في مهمات الفرائض.[5]

أما في مصر فاشتهر أبو العباس أحمد بن عمر الديزي الشافعي (ت 1151 هـ/1738م)، الذي برع في الفقه والفرائض، وألف كتابا في الفقه على المذاهب الأربعة سماه " غاية المقصود على الأئمة الأربعة"، وله " شرح فتح الملك الباري بالكلام على آخر شرح المنهج للشيخ زكريا الأنصاري".[6] و في الفقه المالكي اشتهر

---

(1) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 414، 415.

(2) نفسه، ج3، ص 157، 158.

(3) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص175ـ181.

(4) نفسه ، ج3، ص2،3.

(5) نفسه، ج4، ص184. =

بمصر الشيخ علي بن أحمد الصعيدي(1112 هـ/ت 1189 هـ/1700ـ1775م)، الذي كانت له حواشي وشروح على كتب الفقه المالكي.[1] أما في القرن 19م/ 13 هـ فقد استمرت وتيرة التأليف، خلال النصف الأول منه وظهر الفقهاء الذين وضعوا شروحا على الكتب الفقهية السابقة، مثل محمد أمين بن عمر المشهور بابن عابدين الدمشقي (1198 هـ ـ ت 1252 هـ/1783ـ1836م) ، الذي ألف حاشية على الدُّر المختار في خمسة مجلدات سماها "رد المحتار على الدر المختار ".[2] ووضع حواشي على شرح الملتقي للعلائي وله " العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية " وحواشي على البحر الرائق سماها " منحة الخالق ".[3]

ومنهم أيضا عبد الغني بن شاكر السادات الدمشقي الحنفي (1200 هـ ـ ت 1265 هـ/1785ـ1848م)، شاع علمه في المسائل الفقهية، وكان يتعاطى الدعاوي في المحاكم الشرعية، وله مؤلفات ورسائل منها " الدر اليتيم في حكم مال اليتيم " و " جمع اللآلي في الشبك في حكم الحائط المشترك " و"نشر الخزام في المحاماة عن تكفير أهل الإسلام " ؛ وهي رسالة في 10 ورقات، كتبها في حادثة إبطال زواج الذي سبّ الدين وغيرها. [4]

وفضلا عن الشروح والملخصات والحواشي على كتب الفقه، التي كانت فيها إضافات معينة، جمع فقهاء العصر العثماني فتاويهم، في كتب كان فيها الكثير من الأحكام الفقهية المستجدة، في المسائل التي طرحت في ذلك الوقت، مثل مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي (ت 1033 هـ/1623م)، الذي كتب فتاوي حول الدخان سماها " تحقيق البرهان في شأن الدخان الذي يشربه الناس الآن ".[5] وجمع بدر الدين بن محمد القدسي الحنفي(ت 1180 هـ/1766م)، مفتي الحنفية في القدس فتاويه في مدة إفتائه وهي 10 سنوات سماها "البدرية" في عشرين كراسة.[6]

وخير الدين الفاروقي الأيوبي العلمي الأزهري (ت 1081 هـ/1670م)، الذي كتب فتاويه في كتاب سماه " الفتاوى الخيرية لنفع البرية ".[7] ومحمد بن عبد الرحمن المعروف بالتاجي صاحب الفتاوى المعروفة بـ " التاجية " (1072هـ ـ ت 1114 هـ/1661ـ1702م).[8] وغيرها من الفتاوى والمصنفات.

= (6) المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص239 ـ241.

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 ، ص 475، 477.

(2) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 250، 251.

(3) خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 36ـ39.

(4) المرجع السابق، ص 173، 174.

(5) المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 359.

(6) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 2، 3.

(7) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج3، ص 359.

(8) المصدر السابق، ج4، ص52.

2 ـ التفسير

إن المصنفات التي وضعت في تفسير القرآن خلال العصر العثماني، من طرف علماء مصر والشام، كانت حواش وشروحا و تلخيصات للتفاسير الأولى، خاصة تفسير البيضاوي (ت 716 هـ/1316م)، حيث وضعوا عليه عدة شروح، ومن أشهر هؤلاء العلماء المفسرين خلال القرن 16م/ 10 هـ محمد بدر الدين الغزي (904 هـ ـ ت 984 هـ/1498ـ1576م)،الذي وضع ثلاث تفاسير على القرآن الكريم،منشور ومنظومان أشهرها المنظوم الكبير في مائة ألف بيت.[1]

و في القرن 17م/11 هـ كتب تاج العارفين بن محمد أبو الوفا المصري البكري الشافعي (ت1080هـ /1669م) مؤلفات في التفسير،منها تفسير القرآن في أربع مجلدات،وله تفسير مستقل لسورة الأنعام في مجلدين، وسورة الكهف في مجلد والفتح في مجلد.[2] وكتب أبو الوفا العرضي بن عمر الشافعي الحلبي(993 هـ ـ ت 1071 هـ/1585ـ1660م)، في التفسير حاشية على تفسير البيضاوي.[3]

وخلال القرن 18م/ 12 هـ ،وضع عبد الغني النابلسي الدمشقي الحنفي(1050 هـ ـ ت 1143هـ /1640 ـ 1730م)، مؤلفات في الفقه والحديث والتفسير، وصنف في هذا الأخير كتاب " تحرير الحاوي بشرح تفسير البيضاوي"،وهو في ثلاث مجلدات،وله منظوم سماه "بواطن القرآن ومواطن العرفان ".[4] ووضع شمس الدين محمد بن سلامة الإسكندري المكي(ت 1149 هـ/ 1736م) تفسيرا للقرآن منظوما في 10 مجلدات.[5]و هناك علماء اعترضوا كثيرا على نظم التفسير، ورغم ذلك أباحه العديد من الفقهاء بحجة تسهيل حفظه.

3 ـ الحديث

لقد ظلت أمهات الكتب في الحديث كالصحيحين وغيرها، من كتب الحديث وما يتصل بها من مؤلفات حول السيرة النبوية محل الدراسة،فقد وضع عليها علماء العصر العثماني شروحهم،وأعادوا تصنيف الأحاديث،ووضعوا عليها تعليقات وحواش مفيدة. ومن أبرز المؤلفات التي كان في شرحها وتلخيصها وتنقيحها فائدة كبيرة؛كتاب"المقاصد الحسنة في كثير من الأحاديث المنتشرة على الألسنة " للسخاوي (ت 902 هـ/1496م)، والذي كان يجمع الأحاديث المنتشرة بين الناس وهي في الأصل ليست

(1) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص6، 7.

(2) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 474.

(3) نفسه، 149.

(4) المرادي ، المصدر السابق، ج3، ص 30 ـ38.

(5) الجبرتي، المصدر السابق، ج1، (دار الفارس)، ص239.

من كلام النبي صلى اله عليه وسلم، ولخصه عبد الرحمن الشيباني (الديبع) (ت 944 هـ/1537م) و سماه " تمييز الطيّب من الخبيث مما يدور على ألسنة الناس من الحديث "، وزاد فيه فوائد قيمة ولخصه أيضا شهاب الدين أحمد بن عبد السلام (ت 931 هـ/1524م)،وسماه "الدرة اللامعة في بيان كثير من الأحاديث الشائعة ".[1]

وخلال القرن 17م/ 11 هـ برز عبد الرؤوف المناوي(ت 1031 هـ/1621م)،الذي ألف في الحديث مؤلفات نافعة،مثل كتاب " الجامع الأزهر من حديث النبي الأنور "جمع فيه ثلاثون ألف حديثا وبيّن ما فيها من الزيادة على الجامع الكبير،وله كتاب آخر سماه "المجموع الفائق من حديث خاتمة رسل الخلائق "،وكتاب في الأحاديث القصيرة جمع فيه عشرة آلاف حديث في عشرة كراريس، سماه " كنز الحقائق في حديث خير الخلائق"،كما شرح الأربعين النووية وكتاب "الشمائل" للترميذي، وله كتاب في الأحاديث القدسية،كتاب في اصطلاح الحديث سماه "بغية الطالبين لمعرفة اصطلاح المحدثين ".[2]

وألف علي بن زين العابدين الأجهوري (ت 1066 هـ/1655م)، مجلدا في الأحاديث التي اختصرها ابن حمزة من البخاري.[3] ومن المؤلفات التي وضعت عليها شروح كتاب " نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر"لابن حجر العسقلاني(ت 852 هـ/1448م)،حيث شرحها علي بن سلطان الهروي القاري (ت 1014هـ /1605م) شرحا سماه "مصطلحات أهل الأثر"،ووضع عبد الرؤوف المناوي شرحا عليها سماه "اليواقيت والدرر ".[4]

ووضع إبراهيم اللقاني (ت 1041 هـ/1631م) حاشية على أحد شروحها سماه " قضاء الوطر من نزهة النظر في توضيح نخبة الأثر ".[5] وفي الشام برز عمر بن عبد الوهاب العرضي الحلبي (950 هـ ـ ت 1024 هـ/ 1543ـ1615م)، كان فقيها ومحدثا له " شرح الشفا * في حديث المصطفى " في أربعة أسفار وقد شاع أمره،واشتهر هذا الكتاب كثيرا لفائدته. وله كتاب في وصف النبي صلى الله عليه وسلم، سماه " مناهج أهل الوفا فيما تضمنه من الفوائد اسم المصطفى ".[6]

---

(1) حاجي خليفة، المصدر السابق، ج2 (إحياء التراث)، ص 1779، 1780.

(2) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 414.

(3) نفسه، ج3، ص 157، 158.

(4) حاجي خليفة، المصدر السابق، ص1936.

(5) المصدر السابق، ج1، ص 6، 7.

* هو كتاب " الشفا في تعريف حقوق المصطفى " للحافظ أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت 544 هـ/ 1149م) وفيه 4 أبواب يصف فيها النبي (ص) ومآثره و خصاله، وهو كتاب نافع وضعت عليه العديد من الشروح والمختصرات. حاجي خليفة، المصدر السابق، ج2 (إحياء التراث)، ص 1052 ـ 1055. =

وخلال القرن 18م/ 12 هـ، اشتهر مرتضي الزبيدي(ت 1205 هـ/1790م) بمصر، من مؤلفاته " مناقب أصحاب الحديث " و " بلغة الأريب في مصطلح آثار الحبيب " وكان بارعا في تخريج الأحاديث وله سند عال.[(1)] وفي الشام اشتهر إسماعيل بن محمد الشهير بالجراحي العجلوني الدمشقي(1089 هـ ـ ت 1162هـ /1678ـ1748م)، الذي صنّف في علم الحديث مؤلفات هامة منها: " حلية أهل الفضل والكمال باتصال الأسانيد بكمل الرجال "، وكتب شروحا مثل " أسنى الوسائل بشرح الشمائل "، وشرح صحيح البخاري سماه "الفيض والجاري بشرح صحيح البخاري ".[(2)] والشيخ أحمد بن زين الدين عمر الملقب باسطا الكفيري الدمشقي (1043 هـ ـ ت 1130 هـ/ 1633ـ1717م)، الذي كتب هو الآخر شرحا على البخاري في ستة مجلدات، وله كتاب في الأحاديث سماه "إضاءة النور اللامع فيما اتصل من أحاديث النبي الشافع ".[(3)]

وفي غضون نفس القرن، وضعت شروح كثيرة إلى جانب صحيح البخاري، على الأربعين النووية للإمام النووي، منها شرح وضعه برهان الدين إبراهيم بن مرعي الشبرخيتي (ت 1106 هـ/1694م).[(4)] وعلي بن شمس الدين الخضري الفقيه والمحدث (ت 1186 هـ/1772م) ،الذي وضع حاشية على الشرح الذي وضعه الشبشيري على الأحاديث النووية.[(5)] وشرحها أيضا أحمد البسطامي(ت1157 هـ/1744م).[(6)]

واهتم علماء الحديث في العصر العثماني عامة بالسيرة النبوية، فكتبوا مؤلفات شرحوا فيها ما كتب سابقا، وأضافوا عليها تعليقاتهم مثل ما كتبه محمد بن أحمد السفاريني النابلسي(ت 1188 هـ/1774م)، وهو شرح لنونية الصرصري في السيرة سماه " معارج الأنوار في سيرة النبي المختار " وفيه زيادات .[(7)] وكتب علي بن إبراهيم الحلبي القاهري (ت 1044 هـ/1634م)، كتابا في السيرة هو شرح واختصار لسيرة الشيخ محمد الشامي في ثلاث مجلدات ،سماه " إنسان العيون في سيرة النبي ا لمأمون " وزاد عليها أشياء كثيرة.[(8)]

وكتب علماء الحديث مؤلفات، في بيان الأحاديث الموضوعة التي نسبت للرسول (ص)، واشتهرت بين الناس مثل كتاب محمد السفاريني السابق، سماه "الدرر المصنوعات في الأحاديث الموضوعة".[(9)] وكتاب

= (6) المصدر السابق، ج3، ص 215 ـ 218، الخفاجي، المصدر السابق، ورقة رقم 71.

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج2(دار الكتب)، ص 307،308،313،314.

(2) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 259 ـ 261.

(3) نفسه، ج4، ص 41، 42.

(4) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس) ، ص117، 118.

(5) نفسه، ص 423.

(6) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 82.

(7) نفسه، ج4، ص31.

(8) المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 123، 124.

(9) المصدر السابق.

"كشف الإلتباس فيما خفي عن كثير من الناس" لغرس الدين الخليلي (ت 1057 هـ /1647م) ، وهو مفيد في تعريف الناس في تلك الفترة، بالكثير من الأخطاء حول الأحاديث المنسوبة للرسول (ص).[1]

وخلال القرن 19م تراجعت حركة التأليف في الحديث إلى حد ما، ومن الكتب المصنفة مثلا " هدية أهل المحبة في معنى قوله صلى الله عليه وسلم "من عرف نفسه عرف ربه"، وهو لأبي الوفا عمر بن محمد الدمياطي اليافي (ت 1233 هـ/1817م).[2] ورسالة بعنوان " كشف الإلتباس في قول البخاري قال بعض الناس "لعبد الغني بن طالب الغنيمي الدمشقي (ت 1298هـ/1880م). [3]

إن المؤلفات التي كتبت في علم الحديث خلال العصر العثماني، دلّت على ازدهار هذا العلم فالشروح والمختصرات وغيرها أكملت النقص في المؤلفات السابقة، وصححت الأخطاء التي كانت فيها، وزادت عليها زيادات مفيدة، وكشفت الغموض عن الأحاديث، التي لم تكن أصلا منسوبة للرسول(ص) وتداولها الناس في ذلك العصر.

4 ـ القرآآت

لقد كان القرآن الكريم يقرأ بعدة لهجات، وعرفت بالقرآآت السبع * ، ومنهم من وصل بها إلى عشر وأربعة عشر، وقد شرح علماء القرآآت في العصر العثماني، مؤلفات السابقين ونظموها في قصائد، وزادوا عليها فوائد، منها في القرن 16م كتاب " الشمعة المضيّة في نشر قرآآت السبعة المرضية " لمحمد بن أبي الوفا بن الموقع المصري الحلبي (ت 973 هـ /1565م)، الذي كان بحرا في التفسير و القرآآت. [4] ومن البارعين في الشام أحمد بن بدر الدين الطيبي المقرئ (ت 938 هـ/1531م).[5]

وخلال القرن 18م/ 12 هـ ، كتبت مؤلفات عديدة منها "إتحاف البشر بالقرآآت الأربعة عشر" لأحمد بن محمد الدمياطي الشافعي (ت1117هـ /1705م).[6] و من الشروح التي وضعت على كتاب " طيبة النشر في القراءات العشر** " ، شرح ألفه محمد بن إبراهيم التركماني الدمشقي (ت 1131 هـ/1718م).[7] و شرح على

(1) المحبي ، المصدر السابق، ج3، ص 247.

(2) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 211، 212.

(3) نفسه، ص 175، 176.

* هو لقب أطلق على القرّاء السبعة للقرآن الكريم وهم: نافع بن عبد الرحمن الليثي، وأبو معبد ، وعبد الله بن عامر اليحصبي، وعاصم بن أبي النجود الأسدي الكوفي، حمزة بن عمارة الزيات ، وعلي بن حمزة الكساني الكوفي. أنظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، " ق"، ص 348.

(4) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص73.

(5) نفسه، ج2، ص 103.

(6) الجبرتي، المصدر السابق، ج1، (دار الفارس)، ص141، 142.

** هي منظومة للشيخ شمس الدين محمد بن محمد الجزري (ت 833 هـ/1429م)، وهي ألفية أتمها بالروم عام 799هـ/1396م. أنظر: حاجي خليفة، المصدر السابق، ج2 (إحياء التراث)، ص 1118. =

" الذرة "* ،وآخر على الطيبة من طرف محمد المنير بن الحسن السمنودي الشافعي المصري (ت 1199هـ /1784م)، الذي كانت له منظومة في طريقة ورش ورسالة في رواية حفص، ورسالة في أصول القرآن. [1]

5 ـ التصوف

لقد نما التيار التصوفي في البلاد العربية، ضمن حركة العلم الديني، وسعى العاملون في بابه إلى رفع مستوى التفكير، و التأمل في الوجود والبحث في العقائد وعلم التوحيد، وغيرها من القضايا الروحية. [2] ولذلك ترك العلماء المتصوفة مؤلفات غزيرة من الصعب حصرها، وهي رسائل نثرية ومنظومات شعرية، وأذكـار و أوراد ومواعظ، وكتب تصف مناقب المتصوفية، وكتب في الحكم والآداب والمدائح الدينية. [3] فقد بلغ عدد مؤلفات التصوف التي ألفها أيوب القريشي الخلوتي الصالحي (ت 1071 هـ/1660م)؛ نحو 50 كتابا وما يلحقه. وألف محي الدين أبو محمد البكري الصديقي الخلوتي(ت 1162 هـ/1748م)، نحو45 كتابا في التصوف، خاصة في الطريقة الخلوتية. [4]

ومن أكثر الكتب التي درست ووضعت عليها الشروح، والحواشي والتعليقات ؛هي كتب محي الدين بن عربي" الفتوحات المكية " و" فصوص الحكم ". وكانت قضية وحدة الوجود، من القضايا التي أثارت الجدل، بين المتصوفة والفقهاء طيلة العهد العثماني.[5] وفي القرن 18م/12 هـ حصلت الصحوة في الكتابات الصوفية التي كانـت تطبق عمليا.[6] وإن لم تكن كتـاباتهم وصلت إلى الإبداع، فإنـها كانت تدعم الأعمـال الأدبية والدينية الكلاسيكية. [7]

و من المؤلفات التي كتبت في هذا المجال من طرف علماء مصر والشام، رسالة " تحفة الحبيب فيما يبهجه من رياض الشهود و التقريب".[8] ألفها الصوفي محمد بن علي الحموي (ت 954 هـ/1547م).[9] وكتب

= (7) المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 25 ـ 27.

* هو " الدرّة المضيئة في قراآت الأئمة الثلاث المرضية" للشيخ الجزري نظمها تكملة للشاطبية على وزنها ورويّها ولها شروح غير المذكور أعلاه هو لجمال حسين الحصني (ت 953 هـ/ 1546م) وسماه " الغرّة ". حاجي خليفة ،المصدر السابق، ج1، (د.د.نشر)، ص 372.

(1) نفسه، ص 122.

(2) ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 37.

(3) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 337.

(4) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج3، ص 362.

(5) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 105، 180.

(6) بيتر جران، المرجع السابق، ص 129.

(7) نفسه، ص 124.

(8) حاجي خليفة، المصدر السابق، ج2 (إحياء التراث)، ص200.

(9) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج2، ص 50 ـ 52.

عبد الوهاب بن أحمد الشعراني (ت 973 هـ/1565م)، كتابا حول الخلوة في التصوف سماه " الجوهر المصون والسّر المرقوم فيما تنتخبه الخلوة من الأسرار والعلوم ".[1] و في القرن 16م أيضا كتب محمد بن محمد الغزي الدمشقي(ت 935 هـ/1528م) ألفية في التصوف سماها "الجوهر الفريد في أدب الصوفي والمريد ". [2]

ومن الكتب التي وضعت في مناقب المتصوفة وتراجمهم، كتاب وضعه عبد الرؤوف المناوي (ت 1031 هـ/1621م)، و هو" الكواكب الدرّية في تراجم السادة الصوفية ".[3] وكتاب آخر في القرن 18م/ 12هـ لمحمد بن إبراهيم التركماني الدمشقي (ت 1131 هـ/1718م)، سماه "تراجم رجال سلسلة طريقة الشاذلية ".[4] ووضع حسين بن عبد الرحمن المنزلاوي (ت 1212 هـ/ 1796ـ1797م)، منظومة بليغة في سلسلة الوفائية سماها "عقد الصفا في ذكر سلسلة ساداتنا بني الوفا ". [5] وألف عبد الغني النابلسي (1050هـ ـ1143 هـ/ 1640ـ1730م)كتابا في تراجم الصوفية سماه "زهر الحقيقة في ترجمة رجال الطريقة ". [6]

ومن الشروح والمؤلفات التي وضعت على كتب ابن عربي، نذكر عبد الغني النابلسي المذكور أعلاه الذي كان متشبثا بعقائد الصوفي ابن عربي، وألف في مدحه والرّد على المعترضين عليه رسائل وقصائد، منها كتابه المسمى " الردّ المتين على منتقص العارف محي الدين"، وله كتاب في مدح ضريحه كتاب سماه " السرّ المختبي في ضريح ابن العربي "، وشرح كتابه " فصوص الحكم " في مجلدين، سماه " جواهر النصوص في حل كلمات الفصوص " . [7]

وألف كتابا مهما حول وحدة الوجود التي دار حولها الخلاف، والتي كانت من صميم عقيدة ابن عربي سماه "المقصود في وحدة الوجود"، وله غير ذلك كتاب " الفتح الرباني والفيض الرحماني " في التصوف أيضا.[8] ومن الذين اعتنوا بكتب ابن عربي أيضا، حسين بن طعمة بن طعمة الدمشقي (ت 1175هـ /1761م)، الذي وضع ملخصا لكتاب الفتوحات المكية؛ سماه " ملخص علوم الفتوحات المكية " وله غير ذلك في التصوف كتب ورسائل، منها شرح مختصر الرسالة العظيمة " ذخيرة الإسلام ". وله كتاب" الهداية والتوفيق في سلوك آداب الطريق " وله مدائح جمعها في ديوان شعر سماه " فتح الملك الجواد في

(1) حاجي خليفة، المصدر السابق، ج1، (د.د.النشر)، ص 316.

(2) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج2، ص5.

(3) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 415.

(4) المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 25- 27.

(5) الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص411.

(6) المصدر السابق، ج3، ص32.

(7) عبد الغني النابلسي، الحقيقة والمجاز، ج1 (دار المعرفة)، ص 76، 77.

(8) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 232

نظم الحقائق ومدح الأسياد ".[1] وألف عبد اللطيف البعلي البهائي القاضي (ت 1082 هـ/1671م) شرحا على فصوص الحكم.[2] أما المؤلفات في التصوف عامة ، فنذكر كتاب " طريق الهدى في التصوف " لأبي الوفا بن عمر الحلبي الشافعي العرضي(993 هـ ـ ت 1071 هـ/1585ـ1660م).[3] وألف أحمد بن علي الخلوتي الدمشقي العمري (ت 1086 هـ/1675م)، الذي أخذ طريق الخلوتية وصنّف كتبا في الصوفية منها " سماء نهل الوارد في الحث على قراءة الأوراد "، وكتاب" تحفة الملوك لمن أراد تجريد السلوك "، وله "رسالة في الحب" ويقصد به الحب عند الصوفية.[4]

وكان أيوب بن أحمد الخلوتي الصالحي (ت 1071 هـ/1585م)، متصوفا خلوتيا ترك مؤلفات عديدة أشهرها ؛ رسالته المسماة " ذخيرة الأنوار وسميرة الأفكار "، و "رسالة اليقين وذخيرة المرض"، و " الرسالة الإسمائية في طريق الخلوتية "، وقد جمع في مؤلفاته بين علم الشريعة والحقيقة.[5] ومن الذين ألفوا حول الخلوتية عبد الرحيم بن مصطفى الشهير بابن شقيقة الدمشقي (ت 1173 هـ/1759م)، وضع كتابا سماه " هدية الله السنيّة في شرح ورد الخلوتية " وضعه على ورد الوسائل. [6]

ومن أكثر المؤلفين في التصوف ، مصطفى بن كمال الدين الصديقي البكري الدمشقي (ت 1162 هـ/ 1748م)، كان متصوفا وله رحلات عديدة، وله حوالي مائتي كتاب في عدة علوم، بين المقامة والرحلة والدواوين الشعرية ، وبلغت الأوراد والأحزاب الصوفية التي وضعها ، أكثر من ستون وردا أشهرها " الورد السحري " في الخلوتية .[7]

ومن مؤلفاته أيضا ألفية في التصوف، وأراجيز في علوم الطريقة وشرح كتاب " الكشف الأنسي والفتح القدسي " في ثلاث شروح، وله كتاب "بلوغ المرام في خلوتية الشام"، و" نظم القلادة في كيفية إجلاس المريد على السجادة ".[8] وكتب داوود بن سليمان الرحماني المصري (ت 1078هـ /1667م)، الذي تولى الإفتاء بالأزهر كتابا في التصوف سماه " تحفة أولى الألباب والجواهر النسبية في أصول الطريقة الصوفية ".[9]

---

(1) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 52ـ55.

(2) المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 14.

(3) نفسه، ج1، ص 149.

(4) نفسه، ص 253، 254.

(5) نفسه، ص 428.

(6) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 11.

(7) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 246، 247.

(8) المصدر السابق، ص 190، 195 ـ 197 .

(9) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 140.

وكتب مرتضي الزبيدي مؤلفات عديدة في التصوف،أهمها كتاب " العقد الثمين في طرق الإلباس والتلقين " و "التفتيش في معنى لفظ درويش"،وكتاب حول الطريقة النقشبندية سماه " المقاعد العندية في المشاهد النقشبندية ".[1] ومن مؤلفات القرن 19م/ 13هـ على سبيل المثال لا الحصر،ما كتبه المتصوف الخلوتي والفقيه المحدث؛ أبو الوفا قطب الدين عمر بن محمد اليافي (ت 1233 هـ/1817م)، منها رسالة في النقشبندية "،ورسالة في حكمة اجتماع الذاكرين وحركاتهم على الطريقة الصوفية، ورسالة في معنى التصوف والصوفي.[2]

وقد كتب المتصوفة رسائل عديدة في الردّ على خصومهم من الفقهاء، وألف هؤلاء رسائل في سلبيات التصوف، ومنكرات المتصوفة، وكان ذلك الصراع عاملا هاما،ساهم في توضيح الغموض حول التصوف، ومعناه ومقاصده،خاصة وأن الحركات والأقوال الصوفية،لديها معنى ظاهري وباطني، حسب المفهوم الصوفي لكل طريقة، وكانت معظم تلك المؤلفات، من وحي الواقع وليست دائما تقليدا للسابقين.

---

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص 313، 314.

(2) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 211، 213.

المبحث الثاني : الدراسات اللغوية و الأدبية

1 ـ علوم اللغة العربية

لقد اعتنى العلماء بمصر والشام خلال العهد العثماني، بفنون اللغة العربية وآدابها، فوضعوا شروحا وتعليقات وحواشي، على المؤلفات السابقة لأجل تدريسها، وأضافوا ما أضافوه عليها فظهرت مؤلفات لا حصر لها في النحو والصرف والبلاغة والعروض.[1] ففي النحو اشتهر العديد من النحويين، الذين درسوا وقدموا أعمالا إضافية في النحو؛ مثل الشروح التي وضعت على الكتاب المشهور بـ "مقدمة الأجرومية في النحو" لأبي عبد الله محمد الصنهاجي المعروف بابن آجروم (ت 732 هـ/1331م)، مثل الشرح المطول الذي وضعه أبو بكر الشنواني المصري (ت 1019 هـ/1610م)، وأرفقه بحاشية على شرح خالد الأزهري لها.[2]

ومنهم أيضا كمال الدين محمد البكري الغزي(ت 1143 هـ/1730م)، وهو أديب وشاعر شرح منظومة والده على الأجرومية في النحو وسماها "الجوهر الفريد والكلمات البكرية في حل معاني الأجرومية".[3] كما قام حسن الكفراوي الأزهري(ت 1202 هـ/1787م) بإعرابها.[4]وشرحها عمر أفندي الغزي الدمشقي(ت 1277هـ/1860م)، الذي شرح أيضا منظومة جده في النحو و سماها "الكواكب الدرية".[5] و وضع حسن العطار "رسالة على الأجرومية" انتقد فيها كتب المعاصرين له، وفقه اللغة وبين مزاياه و مساوئه.[6]

و من المؤلفات النحوية التي اهتموا بدراستها وتنقيحها ألفية ابن مالك (ت 672 هـ/1273م) و"لامية الأفعال" له أيضا و الأشموني(ت 900 هـ/1494م)الذي كانت له شروح مفيدة في النحو.[7] وعدا ذلك كتب علماء اللغة مؤلفات في النحو والصرف مثل "منظم القطر" في علم النحو لعمر بن محمد الفارسكوري المصري(ت 1018 هـ/1609م).[8]واشتهرت مؤلفات أحمد بن علي السندوبي المصري(ت 1097هـ/1685م)

---

(1) محمود رزق سليم، الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1957م، ص 166.

(2) حاجي خليفة، المصدر السابق، ج2 (إحياء التراث)، ص 1296، 1297.

(3) المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 14، 15.

(4) الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص 255، 256.

(5) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 214، 215.

(6) بيتر جران، المرجع السابق، ص 155، 156.

(7) دائرة المعارف الإسلامية، مج2، ص 66.

(8) المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 222.

منها شرح "القصيدة الشيبانية"، وشرح "العنقود في النحو للموصلي وله وهو منظومة في الحال.[1] واشتهر كتاب آخر بين الطلاب والمدرسين؛ وهو "ابتهاج الصدور في بيان كيفية الإضافة والتثنية والجمع للمنقوص والممدود والمقصور"، وكتاب "إرشاد الطلاب إلى لفظ لباب الإعراب" وهو شرح للشعرانية في العربية، وحاشية على شرح الاستعارات للمولى عصام وهي مؤلفات للنحوي أحمد بن محمد الغنيمي(ت 1044هـ /1634م).[2] واشتهرت مؤلفات الأديب أحمد بن محمد الملقب شهاب الدين الخفاجي المصري (ت 1069هـ /1658م) كان له مؤلف هام هو "طراز المجالس"، الذي احتوى على فوائد نحوية وأصولية وغيرها، وله كتاب أبرز فيه الكلمات الأصيلة في اللغة العربية، والدخيل عليها من اللغات الأخرى؛ وهو "شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل".[3]

ومن الشوام في القرن 18م/12هـ ،الذين ألفوا في قواعد اللغة العربية، محمد أمين المحبي الدمشقي (1061 هـ ـ ت 1111 هـ/1650ـ1699م)، المؤرخ والأديب والشاعر من مؤلفاته "المعول عليه في المضاف والمضاف إليه" و"المثنى الذي لا يكاد يتثنى"، و"الدر المرصوف في الصفة والموصوف"، وله كتاب في تبيان الكلمات الدخيلة على اللغة العربية، وهو كتاب "قصد السبيل فيما في لغة العرب من الدخيل".[4] و في نفس الفترة وضع الأديب عبد الجليل بن أبي المواهب الدمشقي (ت 1110 هـ/1698م) نظما على الشافية* في الصرف، وشرحها شرحا حافلا.[5]

و في القرن 19م كتب علي بن محمد الدمشقي المعروف بابن الشمعة (ت 1219 هـ/1804م)، النحوي الفقيه كتابا في النحو هو نظم لمفردات قواعد الإعراب المعروف باسم "الهشامية".[6] و في علم الصرف ألف الأديب عبد الغني الغنيمي الدمشقي (ت 1298 هـ/1880م) شرحا على "المراح"** في الصرف.[7]

---

(1) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 256، 257.

(2) نفسه، ص 314.

(3) نفسه، ص 333.

(4) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص10.

* " الشافية " في الصرف لأبي عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجي (ت 646 هـ/1248م) النحوي وهي مقدمة مشهورة واعتنى بشرحها جماعة منهم أحمد بن محمد المعروف بابن المنلا الحلبي (ت 990 هـ) /1582م) وابنه إبراهيم (ت 1020 هـ/1611م) سماها "الغنية الكافية من بغية حل الشافية". حاجي خليفة، المصدر السابق، ج2 (إحياء التراث)، ص 1020 ـ 1022.

(5) المصدر السابق، ج2، ص 234، 207.

(6) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 206، 207.

** "مراح الأرواح" في علم الصرف لأحمد بن علي بن مسعود وهو مختصر متداول شرحه جماعة وترجم إلى التركية بعنوان "ريحان الأرواح" عام 943 هـ/1536م) . حاجي خليفة، المصدر السابق، ص 1651.

(7) المرجع السابق، ص 175، 176.

واهتم علماء اللغة في العصر العثماني، بعلم البلاغة والمعاني والبيان، فوضعوا العديد من المؤلفات فيه، مثل "شرح شواهد التلخيص في المعاني والبيان"، لمحمد بدر الدين الغزي (ت 984 هـ/1576م)، والذي وضع فضلا عن ذلك ثلاث شروح للألفية في النحو.[1] ومحمد بن محمد الغزي الدمشقي (ت 935 هـ/1528م)، من علماء الحديث والعروض والعربية، وضع ألفية في اللغة وشرحاً على أرجوزة البارزة في المعاني والبيان وألف مختصراً في المعاني أيضا.[2]

ومن الشوام في القرن 17م/11هـ، الأديب والشاعر أحمد بن محمد المعروف بابن المنقار الحلبي الدمشقي(ت 1032 هـ/1622م)،الذي ألف رسالة في الاستعارة،وبين أقسامها وتحقيق المجاز والحقيقة فيها.[3] ومن المصريين منصور سبط شيخ الإسلام؛ ناصر الدين الطبلاوي (ت 1014 هـ/1605م)،الذي نظم الاستعارات،وشرحها شرحا مفيدا.[4] وعبد الله بن محمد الطبلاوي (ت 1027 هـ/1617م)، الذي برع في المعقول والمنقول وفي علوم اللغة، وله "شرح عقود الجمان في المعاني والبيان"* .[5]

وازدادت الحاجة إلى إحياء دراسة البلاغة، مع زيادة الحاجة إلى الإنشاء في القرن 18م/12هـ، وكانت أغلب الشروح والحواشي التي وضعت في هذه الفترة والتي سبقتها حول كتاب "تلخيص المفتاح" للقزويني، والذي كتب أصلا على متن "مفتاح العلوم"** للسكاكي (ت 626 هـ/1228م)، ومن أشهر الذين كتبوا في هذا المجال بمصر محمد الصبان، ومحمد بن عرفة الدسوقي و الحفناوي وغيرهم. فقد حققت مؤلفاتهم شعبية استمرت إلى القرن 19م، مثل كتابين لأحمد السجاعي حول استخدام الاستعارة ،ومحمد الأمير الذي ألف شرحا على "السمرقندية" عام 1185 هـ/1778 م واشتهر كثيرا، أما العمل الأكثر تأثيرا فهو للصّبان "رسالة في البيان".[6] وألف علي الطحان المصري (ت 1207 هـ/1793م)، منظومة في البيان ذات فائدة للطلاب.[7]

---

(1) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص 6، 7.

(2) نفسه، ج 2، ص 5.

(3) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 296.

(4) نفسه، ج4، ص 468.

* هو لجلال الدين السيوطي (ت 911 هـ/1505م) نظم فيه تلخيص المفتاح ثم شرحه وفيه زيادات حسنة وبعضها اعتراضات عليه. حاجي خليفة، المصدر السابق، ج2 (إحياء التراث)، ص 1154، 1155.

(5) المصدر السابق، ج3، ص 66، 67.

** "مفتاح العلوم" هو في ثلاثة أقسام الأول في علم الصرف والثاني في علم النحو والثالث في علم المعاني والبيان وأورد الكلام في تكملة علم المعاني في فصلين الأول في ذكر الجدل والثاني في الاستدلال وفيه علم العروض وشرحه جماعة. المصدر السابق، ص 1762، 1763.

(6) بيتر جران، المرجع السابق، ص128.

(7) الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص 374.

واهتم الموارنة المسيحيون في بلاد الشام بدراسة علوم العربية، خلال القرنين 17 و18م فدرسوا وألفوا في النحو والصرف، والبيان والعروض والبديع، ومن أشهرهم اسطفان الدويهي والأسقف الشدراوي، والمطران جرمانوس فرحات (1670 م ـ ت 1732م)؛ الذي ترك مؤلفات هامة كانت متداولة في ذلك العصر، ومنها كتاب "بحث المطالب وحث الطالب" جمع به قواعد التصريف والنحو بأوجز عبارة، وكان متداولا بين الطلبة وكتاب "المثلثات الدرية"، جمع بها نظما الأسماء مختلفة المعاني، باختلاف حركة أولها وشرحها شرحا أدبيا وعلميا، وله في علم البديع كتاب سماه "بلوغ الأرب في علم البديع"؛ جمع به أنواع الجناس والبديع، مرصعا إياه بالشواهد من البديعيات ، وله أيضا رسالة الفوائد في فن العروض.[1]

و خلال القرن 19م اشتهرت على وجه الخصوص، مؤلفات حسن العطار في النحو والبلاغة، فقد كتب منظومة في النحو عام 1786م، وكتابا في البلاغة عام 1212 هـ/1797 ـ 1798م عرض فيه العناصر الأساسية في علم البيان وكتب حاشية على الأزهرية*.[2] ووضع أديب معاصر له أصله مغربي ولد بمصر هو حسن بن علي قويدر المغربي المصري(ت 1262 هـ/1846 م)، شرحا مطولا على منظومة أستاذه حسن العطار في النحو، وله إنشاء ومراسلات كما أنه وضع كتابا سماه "نيل الأرب في مثلثات العرب"، وهي مزدوجات ضمنها الألفاظ المثلثة الحركات مختلفة المعاني مثل مثلثات قطرب**.[3]

أما علم العروض فقد حظي هو الآخر بالاهتمام، وألف علماء العصر العثماني رسائل وشروح ومختصرات مفيدة فيه، نذكر على سبيل المثال لا الحصر الشرح الذي وضعه عبد الله الطبلاوي (ت 1027هـ /1617م) على كتاب " تأنيس المروض في علم العروض".[4] والمنظومة التي وضعها أحمد بن أبي بكر النسفي الشهير بقعود(ت 1007 هـ/1598م)، في الزحافات والعلل العروضية.[5] وكتب عبد الرحيم الطواقي الدمشقي النحوي الفقيه (ت 1123 هـ/1711م)، مؤلفا في النحو سماه "نظم مسوغات الابتداء بالنكرة" وهو أرجوزة وشرحها، وكتب نظما على شرح أرجوزة القليبي في العروض.[6]

---

(1) يوسف الدبس، المصدر السابق، ج8، ص 82، 83.

* الأزهرية في النحو لأبي الحسن علي بن محمد الهروي جمع فيها ما في كتابه "الزخائر" وزاد عليه. حاجي خليفة، المصدر السابق، ج1 (د.د.النشر)، ص 71.

(2) بيتر جران، المرجع السابق، ص 155، 156.

** هو أول من وضع المثلث في اللغة وهو قطرب النحوي (ت 206 هـ/821م) وهي 32 بيتا. المصدر السابق، ج2 (إحياء التراث)، ص 1586.

(3) خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 157، 158.

(4) المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 66، 67.

(5) نفسه، ج1، ص 159 ـ161. =

ووضع عبد الله الإدكاوي المصري (ت 1184 هـ/1770م) مؤلفات في الفنون الأدبية، منها كتاب سماه "عقود الدرر في أوزان الأبحر الستة عشر". [1] و خلال القرن 19م/13 هـ وضعت مؤلفات في العروض والقوافي؛ منها شرح"الكافي في العروض والقوافي" [*]، الذي وضعه حسن بن عمر الشطي الدمشقي(ت 1274 هـ /1857م) كان نحويا وفقيها. [2] وألف محمد أمين عابدين الدمشقي (ت في القرن 19م)، الأديب الشاعر شرحا على متن الكافي السابق ذكره، وكتاب "الرحيق المختوم شرح قلائد المنظوم"، وفي العروض "الدّرة المضية في شرح الأبحر الشعرية". [3]

و رغم أن العديد من هذه المؤلفات كانت شروحا إلا البعض، غير أنها كانت ذات فائدة بما أضافته من تعليقات وتصحيحات لما سبق من المؤلفات، وساهم علماء اللغة في الحفاظ على قواعدها، وساهموا في استمرار أصالتها، في وجه الدخيل من اللغات التركية والفارسية.

2 ـ الشعر

لقد عرف الشعر في العصر العثماني، حركة نشيطة في مصر والشام، ويظهر ذلك من خلال عدد الشعراء الذين ظهروا وكتبوا دواوين شعرهم. وقد تنوعت أساليب الشعر وأوزانه وتعددت أغراضه، وغدت أكثر واقعية، مع استمرار تقاليد الشعر العربي الأصيل في العهد الأموي والعباسي. [4]

و كان الشعر الذي كتب خلال هذه الفترة، يتميز بدرجة من الإحساس والعاطفة، رغم وجود الشعر المتكلف، الذي كان يفتقد لهذه المزايا. [5] ولكن لا يمكن أن نحكم على كل الشعر، الذي كتب في هذه الفترة على أنه من هذا النوع، خاصة وأن أدباء ذلك العصر سواء كانوا مصريين أو شوام، عارضوا التكلف في الشعر والنثر على حد سواء. وهناك إشارات في الكتب التي ترجمت لأدباء وشعراء العصر العثماني، إلى أن الشعر كان يوضع في ميزان النقد، فكان منه العالي المستوى والمتوسط والضعيف، ودليل ذلك أن الشاعر إسماعيل الوهبي المعروف بالخشاب، انتقد أحد شعراء عصره وهو محمد بن الحسن الطيب (ت 1205هـ /

= (6) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 10.

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 400 ، 401.

* هو" الكافي في علمي العروض والقوافي " لابن زكريا يحي الخطيب التبريزي (ت 502 هـ/1108م). حاجي خليفة، المصدر السابق، ج2(إحياء التراث)، ص1377.

(2) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 76، 77، 79.

(3) نفسه، ص 250، 251.

(4) ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 29 ـ30.

(5) بيتر جران، المرجع السابق، ص 119.

بسبب تكلفه في الشعر بقوله :

ألزمت نفسك في القريض مذاهبا — ذهبت بشعرك في الحضيض الأوهد

وتركت ما قــــد كان فيه لازما — هلا عكست فجئت بالقول السَدى

كدرت منه بمـا صنعت بحـوره — فغدت مشارع ليس لمحوها الصدى.[1]

وكان هناك الشعر الفصيح البليغ والشعر العامي، الذي كثر في مصر و الشام خلال العصر العثماني، وله أوزان يشبه بعضها أوزان الشعر الفصيح، مع دخول بعض التغيرات عليها، وهو شعر فيه كلام عامي كثير، ولا يراعى في نظمه الإعراب أو اللغة، ولكن كان فيه خيال وإحساس خاص.[2]

وخلال النصف الأول من القرن 19م/13 هـ بظهور حركة الترجمة، وإطلاع الأدباء العرب على ضروب من الكلام والعلوم، لا عهد لهم بها، كان ذلك حافزا لهم للاقتباس من الأوروبيين، فدخلت تجديدات على الشعر العربي؛ مثلما فعل الطهطاوي الذي تأثر بالشعر الأوروبي، وترجم قصيدة "المارسيليز" إلى العربية ،وتصرف في شعرها بعض الشيء، ثم ألف بعد ذلك على نهجها أناشيد وطنية مصرية، ومدائح للحكام مزجها بذكر مجد البلاد، فكانت النواة الأولى للأناشيد القومية، وكذلك السيد عبد الله النديم، الذي أدخل خيالات جديدة في الزجل، وأخضعه لمعاني الشعر الرفيعة.[3]

أ ـ أنواع الشعر: اشتهرت العديد من الأنواع، والأوزان الشعرية في العهد العثماني ومنها ما كان موجودا سابقا و هي :

1ـ الدوبيت (الرباعيات):

و هو نوع من أوزان الشعر أول من اخترعه الفرس ونظموه بلغتهم ومعناه بيتان. ويقال له الرباعي*، واشتهر كثيراً في العصر العثماني، ومن أمثلة ذلك قول الشاعر علي بن يحي الكيلاني الحموي شيخ السجادة القادرية بحماه (ت 1113 هـ/1701م) :

---

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص 331.

(2) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج4، ص 206، دي شابرول، المصدر السابق، ص 81، 82.

(3) محمد كامل الفقي، الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة، المطبعة المنيرية، القاهرة، مصر، ط1، ج3، 1956م، ص 94.

* هو المقطوعة الشعرية المكونة من أربعة أبيات أومن أربعة أشطر، وتختلف الرباعيات في نظام التقفية على ثلاثة أقسام يكون بأربع قواف كالمواليات وأعرج بثلاث قواف و مردوف بأربع، وكله على وزن واحد. أنظر: المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 250. إيميل بديع يعقوب، ميشال عاصي، المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت ،لبنان، ط1، مج1، 1987م، ص659.

القلب من الزفير من وجدي حار   والدمع من العيون أجريت بحار

و المغرم في عشق جمالك قد حار   ما حيلة من في شرك القانص حار.[1]

2 ـ التشطير[*] **:** كان تشطير الأبيان الشعرية، أمراً شائعاً في العصر العثماني، حتى أن الكثير من المؤرخين أعابوا على شعراء العصر، أن أغلب شعرهم كان من شعر غيرهم كناية على التشطير، ومع ذلك فهو أحد فنون الشعر المميزة ومثله قول الشاعر يحي بن أحمد الشهير بابن القطب العطار (ت 1201 هـ أو 1202 هـ/1786م) الذي شطر بيتا للشمس محمد الحنفي المصري فقال :

(أهـــــيم بليلى ما حييت وإن أمت)   فلا عجب موت المحب من الوجد.

فإن أحسنت بالوصل أحيت وإن أست   (وكّلت بليلى من يهيم بها بعدي).[2]

وقال آخر وهو عمر بن حسين الشهير باللبقي (1189 هـ/1775م) مشطرا :

(قدر الله أن أكـــون غـــريبا)   بين قوم أغدو مضاعا لديها

ورمتني الأقدار بعد دمشـــــق   (في بلاد أساق كرها إليها)

(وبقلبي مخدرات معـــــان)   حين تبدو تختال عجبا وتيها

صرت إن رمت كشفها فأراها   (نزلت آية الحجاب عليها) .[3]

3 ـ التطريز : وهو نوع من أنواع الشعر "يبتدئ فيه بذكر جمل من الذوات غير مفصلة، ثم يخبر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررة، بحسب العدد الذي قرره في تلك الجمل الأولى".[4] ومنه قول الشاعر أحمد بن محمد الزراق البهنسي الدمشقي (ت 1148 هـ/1735م):

أقول لعاذل مـــذ لام جهلا   أما تسلو هوى هذا الغلام

سلوى والوصال ونوم عيني   حــرام حــرام في حــرام.[5]

---

(1) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 250.

* و هو أن يعود الشاعر إلى أبيات لغيره فيقسم البيت شطرين، يضيف إلى كل منهما شطرا من عنده. أنظر: إيميل بديع يعقوب وآخرون، المرجع السابق، ص393.

(2) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 293.

(3) المرادي، المصدر السابق، ص 175. أنظر : الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص 332.

(4) إ يميل بديع يعقوب وآخرون، المرجع السابق، ص427، 428.

(5) المرادي، المصدر السابق ، ج1، ص 196.

4 ـ التوليد : وهو ضرب من الشعر يولد فيه كلمة من تشبيهات، وذكر حروف معينة ومنه قول الشاعر محمد بن عمر العرضي الحلبي (ت 1071 هـ/1660م) :

لم يبق من هوى ذاك الغزال سوى   بقية من حياة نازعت بـــــدني

(فسيـن) طرته مع (نون) حاجبـه   كلاهما (سن) لي سيفا من المحن

فإنه بذلك ولد من الطرة (السين) ومن الحاجب (النون) لفظة (سن) .[1]

5 ـ الإغراب : وهو فن من فنون الشعر النادرة ،وهو وصف ما لا يعهد وصفه وتشبيهه ومنه قول الأمين المحبي المؤرخ (ت 1111 هـ/1699م) :

فتح الورد في الرياض صباحا   عندمـــــا قبل النسيم خدوده

بلع الزعفــــــران فهو لهذا   ضاحك شق من سـرور بـروده.[2]

6 ـ التضمين* **:** ومنه قول الشاعر محمد بن عبد الرحمن الغزي الدمشقي مفتي الشافعية بدمشق (ت 1167 هـ/1753م) :

إذا نصحت قليل العقل نلت   بذا عداوة منه لا تخفى مساويها

فالحمق داء قبيح لا دواء لـه   قد قال فيه من الأشعار راويها

لكل داء دواء يستـــطب به   إلا الحماقة أعيت من يداويها.[3]

7 ـ التخميس : هو ضرب من الشعر، يضيف فيه الشاعر لكل أربعة أبيات من شعر غيره بيتا في نفس المعنى، وقد كثر هذا النوع من الشعر في العصر العثماني مثل قول الشاعر محمد بن عبد المعطي بن الشيخ أحمد الحريري (ت 1220 هـ/1805م) مخمسا بيتين مشهورين لأحد الشعراء :

قد قلت لما وهى جسمي وأقلقني   ما حلّ بي من سقام أنحلت بدني

و ما رماني به دهـري مـن المحـن   يـا رب إن كان تمريضـي يقـربنـي

(زلفى إليك فباب العفو أوسع لي).[4]

---

(1) المحبي، المصدر السابق، ج 4، ص 92.

(2) نفسه، ص 90.

* التضمين : و هو استعارة الشاعر شطرا أو بيتا من غيره في شعره . إ يميل بديع يعقوب وآخرون، المرجع السابق، ص426.

(3) المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 57.

(4) الجبرتي، المصدر السابق، ج3 (دار الكتب)، ص 566.

8 ـ البديعيات* : وهو من أهم فنون الشعر الجديدة التي ازدهرت في العهد العثماني ، وهي وليدة العناية بالبديع فالقصيدة البديعية يتضمن كل بيت منها لونا معينا من البديع على الأقل، وأغلب مواضيع هذا النوع يكون في المديح النبوي.[1] وقد كتب شعراء العصر العثماني بديعيات؛ مثل قول محمد بن عمر العرضي الحلبي (ت 1071 هـ/1660م) في إحدى بديعياته :

ما الخال متكافت في الأجياد — بل إنه بقي فثبت فؤادي

أو أنه شحرور روضة وجهه — قد جاوبته بلابل الإنشاد.[2]

9 ـ المعمى : " فن من فنون الشعر،وهو إبراز الكلام على خلاف مقتضى العبارة،فهو قول يستخرج منه كلمة فأكثر بطريق الرمز أو هو الكلام الدال على بعض الأسماء".[3] و المعمى من أدب الفرس والترك وهو قليل عند العرب، لكنه ازدهر في العهد العثماني، وكانت المعميات عند الفرس في قمة عبقريتها وتقدم للملوك كتحف وطرف من الذكاء، وعند الترك كان الغرض منها إخفاء اسم المحبوب.[4] و قد أكثر شعراء مصر والشام خلال هذه الفترة من المعميات.[5]

10 ـ الألغاز و الأحجيات في الشعر** : لقد كان شعراء العصر العثماني يتنافسون في الألغاز و الأحجيات و يتراسلون بها، ويردون على بعضهم بعضا، فكانت بمثابة استعراض للذكاء والقدرة البيانية، فقد نظم مثلا الأديب محمد العطار الدمشقي من شعراء القرن 18 م،لغزا أرسله إلى الشيخ إبراهيم الحلبي فشرحه في رسالة .[6] ونظم خليل الشهير بالخشنة الدمشقي (ت 1242 هـ/1826م) لغزا أيضا.[7]

11ـ الزجل والموشحات و المواليا : و هي الأشعار التي تكون عادة في الأغاني،وكان يغلب عليها

---

* لا يعرف من ابتكر هذا النوع هل هو ابن جابر الأندلسي (ت 780 هـ/1378م) أو صفي الدين الحلى (ت 750 هـ/1349م).

(1) إ يميل بديع يعقوب وآخرون، المرجع السابق، ص317.

(2) المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 100.

(3) نفسه، ج2، ص 393.

(4) حسين مجيب ، الأدب العربي والتركي، ص 498، 499.

(5) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص 40.

** يأتي اللغز في الشعر على هيئة السؤال، و هو يدل على شيء له صفات تميزه عما عداه . والأحجية أن يؤتى بلفظ مركب ويطلب معناه من تحليل لفظ مفرد وكلاهما فيه اختبار للبداهة. المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 392، 393. إ يميل بديع يعقوب وآخرون،المرجع السابق، ص1078.

(6) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 144، 145.

(7) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 113.

الكلام العامي البسيط، ومن أشهر الذين نظموا في هذا النوع في الشام عبد الرحمن السؤالاتي؛ الذي كانت له موشحات وخمريات وأغاني عديدة ، وإسماعيل المسوري الذي أبدع في الموشحات بألفاظه.[1]

أما في مصر فاشتهر العديد منهم مثل قاسم بن عطاء الله المصري (ت 1204 هـ/1789م) ،الذي كان يعرف بالزجال لإتقانه الزجل، وللشاعر المصري أحمد بن موسى العروسي (ت 1208 هـ/1793م) موشح طويل مشهور.[2] وخلال القرن 18م كان الزجال المعروف بابن عروس، الذي ظهر عام 1780 م من الصعيد مشهوراً بزجله، وكان كثير الذم للدنيا ومن أزجاله قوله :

دنياك ما منها مغنم وكلها ما تسوا شي

شبه الذي بات يحلم طلع النهار ما لقا شي.[3]

و خلال القرن 19 م ظهر أبو محمد الفحام وهو من الأزهريين، وقد كان زجله يميل إلى الفصحى أكثر من العامية. وعثمان جلال من خريجي مدرسة الألسن، الذي كان مترجما لقصص الحيوان للافونتين، وتأثر به مما جعله يدخلها في زجله مثل زجل الضفادع.[4]

12ـ التأريخ الشعري : كان هذا النوع من الشعر مظهرا غالبا على الشعر في العصر العثماني، لأن الأمراء رغبوا في تسجيل أعمالهم،وضبطها بسنوات حدوثها، مما جعل الشعراء يكثرون منه، فقد كتبت التواريخ الشعرية لتأريخ الوفاة والولادة وعلى المنشآت، وكانت له قواعد في كتابته وقراءته.[5] مثل البيتين الذين نظمهما الشيخ الحسن بن علي البدري العوضي(ت 1219 هـ/1804م)، وأرخ بهما مولد السادات بني الوفا وهما : قصدناكم فأثنينا عليكم بأجمل مدح وأجل صيغه

وشاهدنا الذي جدد تموه فأرخنا موالدكم (بليغه) .[6]

---

(1) عبد الرحمن بن شاشو، تراجم بعض أعيان دمشق من علمائها وأدبائها، المطبعة اللبنانية، بيروت ،لبنان، (د.ط)، 1886م، ص 162، 163، 210، 211.

(2) الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص 285، 289، 383، 384.

(3) حسين مجيب، الأدب العربي و التركي ، ص 312، 313.

(4) نفسه ، ص 313، 314.

(5) محمد الفقي، المرجع السابق، ص 86،132 . والتأريخ الشعري هو ضرب من الحساب يجعل فيه لكل حرف عددا من 1 إلى 1000 على ترتيب خاص وهو : من 1 إلى 10 الحروف التالية أ، ب، جـ، د، هـ، و، ز ح، ط، ي ثم من 20، 30، 40 إلى 100 الحروف : ك، ل، م، ن، س، ع، ف، ص، ق ومن 200، 300 إلى 1000 الحروف : ر، ش، ت، ث، خ، ذ، ض، ظ، غ. أنظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، "ح"، ص 143.

(6) الجبرتي، المصدر السابق، ج3 (دار الكتب)، ص 189.

وكتب عبد الرحمن المنيني (ت 1172 هـ/1758م)، قصيدة فيها تهنئة مؤرخا عامها وهو(1162 هـ /1748م) للمولى أبو بكر الرومي.(1)

ب ـ أغراض الشعر في العهد العثماني :

لقد تعددت أغراض الشعر، كما كانت في السابق قبل العهد العثماني، كالمدح والهجاء والغزل والرثاء، والوصف والعتاب واللوم، والشكر و الحكم وغيرها، و ازدهر في هذه الفترة الشعر الصوفي والسياسي، والاجتماعي الناقد للأوضاع. وكان الفن الشعري غالبا على المجتمع، حتى كان هناك من يقوله ارتجالا مثل أبو السماع البصير (ت 1066 هـ/1655م)، وقاسم بن عطاء الله (ت 1254 هـ/1838م) حتى أنهم استخدموه في أحيان كثيرة، فيما استخدم له النثر كالإجازات العلمية، والرسائل وتقريظ الكتب.(2) واستخدم في أسئلة الفتوى والتأريخ، وقيدوا به عدة علوم لتسهيل حفظها، مثل نظم في أدوية السعال :

دوا السعال إذا ما ومت صورته	يفلفل وبمر ثم أفيون
وميعه بيضة رطباء سائله	ورب سوس نفيس غير معفون
وقدر لكل أجزاء مساوية	وبقدر الحمص السدون.(3)

والشعر الذي كتبه محمد عبد المعطي الحريري (ت 1220 هـ/1805م)، وقيد فيه أركان التشبيه :

مشبه به مع المشبه	أداة تشبيه ووجه شبه
والخامس المشبه النبيه	فقد حوى أركانه التشبيه.(4)

وهناك الحوار العلمي أو الأدبي، في شكل مطارحة شعرية، كالحوار الذي جرى بين الشيخ محمد الأمير والشيخ الحسن بن علي العوضي فقال الأول :

حي الفقيه الشافعي وقل له	ما ذلك الحكم الذي يستغرب
نجسٌ عفُوا عنه ولو خالفه	نجس فإن العفو باق يصحب
وإذا طرا بدل النجاسة طاهر	لا عفوٌ يا أهل الذكاء تعجبوا

(1) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 279.

(2) ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 265.

(3) الدميري، قضاة مصر في القرن العاشر والربع الأول من القرن الحادي عشر هجري، تح. عبد الرازق عبد الرازق عيسى ويوسف مصطفى المحمودي، العربي للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2000م، ص 133، 134.

(4) الجبرتي، المصدر السابق، ج3 (دار الكتب)، ص 566.

فأجابه العوضي : حييت إذ حيـــيتنا وسألتنا مستغربا من حيث لا يستـــغرب

العفو عن نجس عراه ميلــه من جنســه لا مطلـقا فاستوعبــوا

وأراك قد أطلقت ما قيدوا وهو العجيب وفهم ذلك أعجبُ.[1]

ومن الأغراض التي شاعت بين شعراء العصر هي :

• **الوصف :** فقد اعتنى الشعراء بوصف الحدائق والبساتين والطبيعة، وامتازت هذه القصائد الوصفية، برقة أسلوبها وسهولته وجودة معانيها؛ مثل وصف الشبراوي لجزيرة الروضة (مصر) في قوله :

في كثيب من الجزيرة يختــال دلالا في حلة خضراء

حيث مجرى الخليج والماء فيه يتثنى كالحية الرقطاء.[2]

ووصف عبد الغني النابلسي، المدن التي زارها في رحلاته، وأثنى على محاسنها وحدائقها، ومن أشعاره في صيدا لما دخلها عام 1112 هـ/1700م قوله :

صيدا التي في الهوى تزهو مراكبها والبحر أمواجـه زادت موكبها

وحين جئنا لها طابت ســواكبــها و استقبلتنا وقد هزت منا كبها.[3]

• **المدح :** كان لشعراء العصر العثماني بمصر والشام، مدائح في أمرائهم، وكثر أيضا مدح الأولياء من أرباب الطرق الصوفية، وكذلك المديح النبوي، ومثال ذلك مدح الشاعر إبراهيم بن أبي اليمن الحلبي (ت 1053 هـ/1643م)، للأمير محمد بن سيفا من أمراء طرابلس في قوله :

أربى على شجو الحمام العرد وشـدا فبـرح بالحســان الحــرد.

شاد يشاد به الســرور لمــعشر عمروا مجالس أنسهم بالصرحد.[4]

وفي المديح النبوي قال الشاعر أحمد بن صالح الوراق الحلبي (ت 1189 هـ/1775م) :

وأجل الكروب بمدح طه المصطفى نور البصـــائر

---

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج3 (دار الكتب)، ص 188.

(2) محمد سيد الكيلاني، المرجع السابق، ص 210.

(3) عبد الغني النابلسي، الرحلة الطرابلسية، ص 7.

(4) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 10، 11.

الفــاتـــح الــبــر الــرؤو ف محمد زاكي العناصر.[1]

- **الهجاء :** كان الشعراء في العهد العثماني يكتبون في الهجاء، وهناك من اشتهر به مثل محمد بن عثمان الصالحي (ت 1004 هـ/1595م)، الذي كان كثير الهجو فلما سئل قال "إن خاطري لا يغرف إلا من البحر المنتن". وكان يعمل بالمحكمة فهجا مجلسها بقوله :

قضاتنـــــا أربعــة جميعهم لا يفقهون

شهــــــودنا عدتهم تسعه رهط يفسدون

و الكيخيا والترجمان في جهنم خالـــدون.[2]

- **العتاب واللوم :** مثل الشعر الذي كتبه عبد الرحمن السؤالاتي الدمشقي، لما مدح بعض الأكابر فانتقصه فرد عليه :

مدحتك لا رغبة في نـــدا ك وإن ملكته الورى رقــها

ولا رهبة من سطاك الذي أذاق الأعـادي مــــاذاقـها

ولكن لمعنى تراه الكـــرا م وذاك لا قضى العلا حقها.[3]

- **الغزل :** امتاز في العصر العثماني بالرقة والسلاسة، وانتشر انتشارا واسعا في الشعر الفصيح والعامي كالأغاني والموشحات، والأزجال والمواويل، وكانت أشعاره تدور حول وصف المحبوب ولقائه وهجره وأوصافه، وكثيرا ما كانوا يمزجون الغزل بوصف الأزهار والرياض، ويستعملون في الغالب الضمير المذكر للتورية.[4] مثل قول الشبراوي :

في مجلس من ما فيه عيب سوى نمام عارضه ونفحة وردة

وتناثـــــرت أزهـــاره لمـا رأى هذا الغزال محجبا في برده

وفي أحيان أخرى يمزجون الغزل بالدعاء،أوالاقتباس من القرآن، وارتبط الغزل أيضا بوصف الخمر والدعوة إلى شربها، وذكر الغناء والطرب مثل قول الخشاب :

(1) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 113ـ116.

(2) نجم الدين الغزي، لطف السمر، ج1، ص 131، 132.

(3) ابن شاشو، المصدر السابق، ص 162، 163.

(4) محمد سيد الكيلاني، المرجع السابق، ص 217.

أدر لي في الربا قدحا   وكــن للعــذل مطــرحا

ونبه صـــاح ساقيها   فضوء الصبح قد وضحا

وهذا الشعر من وحي حياتهم الواقعية ،وامتاز بوضوحه وطابعه الموسيقي.[1] و عرف أيضا الغزل الماجن، واشتهر به عدد من الشعراء مثل عبد الرسول بن الطريحي (ت 1186 هـ/1772م).[2] وعبد الحي الشهير بالخال الطالوي الدمشقي (ت 1117 هـ/1578م)، الذي كتب أكثر شعره في المجون.[3] وكان الشعر عامة في العهد العثماني، مرآة للواقع ومن صميمه، بحيث كتب الشعراء في معظم ما طرأ من مستجدات على مجتمعهم، مثل الدخان والقهوة والأفيون، فمثلا امتدح القاضي الرومي علي بن محمد المعروف بالرضائي (بمصر) الغليون بقوله :

غليوننا حين همت كــــل نائبة   به وسامرنا هم وأفكار

قد اهتدينا إلى شرب الدخان به   كأنه علم في رأسه نار.[4]

وقال الشاعر محمد بن محمد بن عماد الدين الدمشقي (ت 986 هـ/1578م) ممتدحا القهوة :

هذه القهوة الحلال أتتكم   تتهــادى والطيب يعبــق منها

سودوها على الحرام بحل   و أماطوا غوائل الغول عنها.[5]

وذم العديد من الشعراء، شرب المكيفات كالبرش والكيف والأفيون، التي انتشرت في القرن 17م مثل قول الشاعر فتح الله ابن النحاس الحلبي (ت 1052 هـ/1642م)، في ذم الأفيون رغم أنه يشربه :

من يدخل الأفيون بيت لهاته   فليــلق بين يديــه نفــد حياته

لو يا بثين رأيت صبــك قبـل   ما الأفيون أنحله وحل بذاته.[6]

كما كتب الشعراء في النقد الاجتماعي، ووصفوا أحوالهم الاجتماعية ؛ مثل الشعر الذي وصف به شمس الدين الطلخاوي، أحوال الناس للقاضي حسن أفندي بعد عزله.[7]

---

(1) محمد سيد الكيلاني، المرجع السابق، ص 220، 227 . أنظر مثالا آخر: المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 252.

(2) المرادي، نفسه، ج3، ص 25.

(3) نفسه، ج2، ص 252.

(4) ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 205، 206.

(5) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص 41.

(6) المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 258. =

وانتقد الخفاجي ظلم السلطان، وتولية من لا يستحق في مناصب رفيعة في قوله :

رأيت الدهر يرفع كل وغد ويخفض كل ذي شيم شريفه

كمثل البحر يغرق فيه حي ولا ينفك تطفو فيه جيفه.[1]

وكتبوا أيضا في الوعظ والحكم والآداب، مثل قول نجم الدين الغزي في ترغيب التواضع وذم الكبر:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تكن كالدخان يعلو بنفسه في طبقات الجو وهو وضيع.[2]

وقال عبد الرحيم العباسي المصري، ينصح غريب الديار كيف يعامل قومها :

إذا ما كنت في قوم غريبا فعاملهم بفعل يستطـــــاب

ولا تحزن إذا فاهو بفحش غريب الديار تنبحه الكلاب.[3]

و كتبوا في التوحيد والزهد مثل قول عمر القاري الدمشقي من شعراء القرن 17م :

لولا ثلاث هنا أقصى المراد ما اخترت أن أبقى في دار النفاذ

تهذيب نفسي بالعلوم التي بـهـا لـقد نلت جـميـع المـراد

وطــاعة أرجو بإخلاصها نــورا به تشـرق أرض الفـؤاد

وكذاك عرفان الإله الذي لأجــلـه كــان وجــود العباد.[4]

ج ـ الإقتباس والتكلف في الشعر:

لقد انتشرت ظاهرة الاقتباس في الشعر خلال العهد العثماني، من القرآن الكريم والأحاديث النبوية مثل قول حسن العطار مقتبسا من سورة الرحمن الآية "19" :

مرج البحرين فيضا دمعه إذ رأى جفنيه لا يلتقيان.[5]

= (7) الدميري، المصدر السابق، ص 133، 134.

(1)أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، مخطوط بمكتبة جامعة الرياض، رقم2960 ، (www.al- mostafa.com) ، ورقة رقم 182.

(2) ابن شاشو، المصدر السابق، ص 103، 104.

(3) المصدر السابق، ورقة رقم: 127.

(4) المصدر السابق، ص 83، 84. =

وكانوا أيضا يقتبسون من شعر الأقدمين من العرب؛مثل قول الشاعر عبد اللطيف الكوراني الحلبي(القرن 18 م) :

كأن ذا الدهر روض ورد جناه من قبلنا خصيبا

ونحــن جئنــا لنــجتنيــه فــراعنا شوكه جديبا

والأصل فيه قول المتنبي : أتى الزمان بنوه في شيبته فسرهم وأتيناه على هرم.[1]

ومنهم من كان يقتبس من الشعر الفارسي والتركي،ويعرّبه مثل عمر اللبقي الحلبي(ت 1189 هـ/1775م) الذي أخذ المعنى من شعر فارسي وعربه :

في المـــرء إن لم يكن شيء يميزه عن جنسه بذكاء الفـهم والأدب

كما إذا لم تكن في العود رائحة لكان لا فرق بين العود والحطب.[2]

أما عن الشعر المتكلف؛ فهو أن يلتزم الشاعر إيراد أشياء ليست لازمة في الشعر، مثل إيراد جميع الحروف الهجائية في البيت الواحد، مثلما فعل عبد الرحمن الحميدي (ت 1005 هـ/1596م) في ديوانه "الدر المنظم في مدح الحبيب الأعظم". و أحيانا كان يلتزم الحروف التي لا تنطق، وله قصيدة سماها "شفاء العين" في المديح النبوي فيها 49 بيتا،كل بيت ينتهي بكلمة "عين"، وهو يجمع فيها المعاني المختلفة لهذه الكلمة. وهناك نوع آخر هو "وسع الإطلاع" جاء به نور الدين القلعي (ت 1170 هـ/1756م) وكتب مثله الإدكاوي؛ وهو أن تبدأ كل كلمة في البيت، بالحرف الذي تنتهي به الكلمة السابقة ما عدا القافية. و غيرها من مظاهر التكلف التي لا نفع منها،بل تزيد الشعر غموضا وتضعف فيه العاطفة.[3] ومن أمثلة هذا النوع من الشعر قول علي الدرويش المصري (ت 1270 هـ/1853م) :

جسمي لعرى غدا بالبرد مكتسيا ليلا وشمس نهارى بردى الثاني

بـردان لا نفع للبردان عندهمـا وجبة البــرد تكــو كــل عريــان

أخـاف أطلـب بردا أستغـيث به برده بــرداً بالــغيث حــرمـاني.[4]

= (5) محمد كامل الفقي، المرجع السابق، ص 117، 118.

(1) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 161، 162.

(2) نفسه، ص 174.

(3) محمد سيد الكيلاني، المرجع السابق، ص 63ـ65.

(4) محمد كامل الفقي، المرجع السابق، ص 149.

3ـ النثر: لقد عرف الأدب المصري والشامي خلال العهد العثماني نوعان من الكتابة النثرية و هما :

أـ النثر المرسل :

و هو الكتابة التي لا يلتزم فيها صاحبها بالمحسنات اللفظية، بل تكون كتابة مسترسلة، غرضها الموضوع في ذاته وليس الألفاظ. وقد اتخذ العديد من المؤلفين في العصر العثماني هذا الأسلوب للكتابة، خاصة في المواضيع الإخبارية ؛ مثل مؤلفات الشعراني التي كانت في معظمها نقدا اجتماعيا لمجتمعه، وأحوال عصره خاصة المتصوفة، فكان يورد صوراً وقصصا عن فساد أخلاقهم، ويقارن بينهم وبين السلف الصالح، في أسلوب سهل واضح يشبه الأساليب النثرية الحالية. ومنهم أبو الحسن البكري (ت 952 هـ/1545م) في كتابه "الجوهرة المضيئة في تجويز إضافة الإيمان إلى المشيئة"، الذي كتبه في أسلوب سهل أيضا.[1] وكان علي بن موسى ابن النقيب (ت 1186 هـ/1772م)، يكتب بأسلوب غير متكلف.[2] وأحمد بن شاهين القبرسي الدمشقي (ت 1053 هـ/1643م)، الذي كان له نثر بليغ المعاني لكنه لا يتكلف فيه السجع والبديع.[3]

بل إن أدباء العصر العثماني،أعابوا على من يكثر من البديع، في نثره وشعره مثل المحبي و الخفاجي.[4] وحتى المحبي في كتابه "خلاصة الأثر"، ونجم الدين الغزي في كتابيه "الكواكب السائرة" و"لطف السمر"، والجبرتي في "عجائب الآثار" وغيرهم، لم يتكلفوا في نثرهم وكتبوا بأسلوب مسترسل وسهل. ولكن الغالب على مؤلفاتهم، أنها كانت ذات عناوين مسجوعة، وفي كثير من الأحيان لا تعكس محتوى الكتاب مثل كتاب "اتحاف ربّ البريّة إلى معرفة الأمور الضرورية" وهو مؤلف في الطب.[5]

ب ـ النثر الفني :

وهو النثر الذي يلتزم فيه صاحبه المحسنات اللفظية، لاستعراض بلاغته اللغوية، باستعمال الجناس والطباق والسجع وغيره، وهي كتابة فنية، مثل شهاب الدين الخفاجي الذي كتب كتابه "ريحانة الألبا" على هذا النمط فكان مستوعبا للأدب، ومتمكناً من اللغة العربية، فجاء أسلوبه قويا في توظيف السجع، وباقي المحسنات البديعية، فلم يبدو في أسلوبه الضعف أو التكلف والغموض. وكان يضمن كتاباته من القرآن والحكم والأمثال وغيرها.[6] مثل قوله في ترجمته لأحمد العناياتي : "وهو في جبهة الشام غره، وفي حدائقها

---

(1) محمد سيد الكيلاني، المرجع السابق، ص 267، 268.

(2) محمد عزباوي، الشوام في مصر، ص 282.

(3) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 210، 211.

(4) نفسه، ج4، ص 502، الخفاجي، المصدر السابق، ورقة رقم 136.

(5) كمال مغيث ،المرجع السابق، ص222.

=

النضرة زهرة، وفي سماء كمالها الزاهية زهره..." .[1] ومن كتاب هذا النوع أيضا الحفناوي، ويوسف بن مرعي الحنبلي (ت 1030 هـ/1620م). وقد استخدم النثر الفني في مقدمات الكتب، و التقاريظ والرسائل وغيرها، وهذا النوع الذي نتحدث عنه لم يكن متكلفا في البديع، بحيث يثقل ويفسد معناه، ولكن كانت هناك كتابة متكلفة في الصناعة الفنية، ظهرت قبل العصر العثماني واستمرت خلاله، بحيث يتكلف فيها الكاتب جهدا عقليا لتنميق الألفاظ واختراع البديع، ويستغرق وقتا طويلا لإنشائه، مثل كتابات عبد الله الإدكاوي كقوله "عبد الله عند الله أوجه دلت معاينه معانيه على علّى رتبه..".[2] واستخدم النثر الفني في أغراض عديدة منها :

- **المقامات:**

وهي من الفنون وليدة العصر العباسي، وهي عبارة عن قصص موجزة في أسلوب بديعي مسجّع، فيها فكاهة ونقد ووصف وعبرة، وقد اعتنى بها الأدباء في العصر العثماني.[3] واستخدمت في الأغراض التي استخدم فيها الشعر، فنجد مقامات في المدح والهجاء وغيره . وقد وضعت في هذه الفترة العديد من الشروح والملخصات على مقامات الحريري* الشهيرة، مثل الشرح الذي وضعه عبد الرحيم العباسي القاهري (ت963 هـ/1555م).[4] ومحمد بن محمد الفلاتي الكثناوي الدانكركوي (ت1155 هـ/1742م) الذي حفظ المقامات لأغراض لغوية، وكتب حسن الجبرتي شرحا مطولا حول المقامات الحريرية، وكان عبد الله الإدكاوي الشاعر يحفظ أجزاء منها.[5]

ومن الأدباء الذين كتبوا في هذا الفن، وساهموا في بعث أدب المقامة بمقاماتهم المبتكرة، شهاب الدين الخفاجي الذي كتب عددا من المقامات جعلها في كتابه "ريحانة الألبا" مثل "المقامة الرومية" التي وصف فيها رحلته إلى اسطنبول.[6] وكتب أحمد بن محمد البربير الشافعي البيروتي، المولود بدمياط (1160 هـ/1747م)، وكان حيا عام 1206 هـ/1791م)، مقامة سماها "المفاخرة بين الماء والهواء".[7]

= (6) محمد سيد الكيلاني، المرجع السابق، ص 249.

(1) الخفاجي، المصدر السابق، ورقة رقم 4.

(2) محمد سيد الكيلاني، المرجع السابق، ص 250ـ253.

(3) محمد رزق سليم، المرجع السابق، ص 149.

* المقامات الحريرية هي 50 مقامة بديعية في الجد والهزل وهي لأبي محمد قاسم بن علي الحريري. حاجي خليفة، المصدر السابق، ج2 (إحياء التراث)، ص 1787.

(4) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج2، ص 161، 163، 164.

(5) بيتر جران، المرجع السابق، ص 123، 124.

(6) الخفاجي، المصدر السابق، ورقة رقم : 184ـ 188. =

وخلال القرن 19م، ظهر عدد من كتاب المقامات، مثل حسن العطار وأحمد السجاعي ومحمد بن قانصوه، من أشهرها ما كتبه القس حنانيا منير الزوقي، الذي برع في الفنون الأدبية وهو شامي من النصارى له مجموع أمثال لبنان والشام نحو أربعة آلاف مثل، وله كتاب في مقامات بديعة جامعة بين الفصاحة والبلاغة.[1] وكتب نقولا الترك الأديب والشاعر الشامي (ت 1828م)، الذي عارض أصحاب المقامات ووضع 11 مقامة، نسبها إلى راو اسمه الحازم ومسفار سماه أبو النوادر، ومنها "المقامة الديرية" نسبة إلى دير القمر موطنه.[2] وكتب ناصيف اليازجي اللبناني (1288 هـ/1871م)، وهو أديب وشاعر مقامات سماها "مجمع البحرين".[3] و هذه المقامات لم تكن تقليدا، ولم تعتمد على الخيال وحده، بل كانت تصور واقع الحياة التي يعيشها الأدباء في مجتمعهم.

- **الرسائل :**

وهي أنواع ويتمثل النوع الأول في الرسائل الرسمية ؛ وهي التي تكتب للسلاطين والوزراء والأمراء، وتمتاز بوصفه بصفات التفخيم، وتشتمل على المحسنات اللفظية، ومن كتاب الرسائل محمد البكري (ت 994 هـ/1585م)، الذي كتب مجموعة رسائل سماها "دستور الغرائب ومعدن الرغائب"، ومنهم أيضا مرعي بن يوسف الحنبلي(ت 1033 هـ/1623م)، ومن جملة التعابير المستخدمة فيها مثلا قول هذا الأخير في مطلع رسالة : "... الوزير المعظم والمشير المفخم، ومدبر أمور جمهور الأمم بين مرتبتي العلم و العمل ...".[4] وكتب الخفاجي رسالة إلى أحد الرؤساء في الدولة العثمانية، انتقد فيها الأوضاع التي آلت إليها البلاد والعباد، وكان فيها سجع ولكن أسلوبها سهل وواضح.[5]

والنوع الثاني هو الرسائل الإخوانية ؛ وهي الرسائل التي يكتبها الأصدقاء لبعضهم البعض، في مدح أو شكر أو تهنئة، أو سؤال علمي أو أدبي وغيره من الأغراض. وراج هذا النوع منذ العهد العباسي والمملوكي.[6] ومن أمثلتها ما كتبه أحمد بن إلياس الملقب بالأرجاني الكردي الدمشقي، الذي كتب رسالة إلى شيخه أحمد المنيني جاء في مطلعها : "ربما خطر ببال سيدي أن يسأل عن عبده الأقدم، وسهم كنانته

= (7) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 34.

(1) لويس شيخو، المرجع السابق، ص 35.

(2) نفسه، ص 40.

(3) خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 235 ـ237.

(4) محمد سيد الكيلاني، المرجع السابق، ص 255، 256، 258.

(5) الخفاجي، المصدر السابق، ورقة رقم 182 ـ 184.

(6) محمود رزق سليم، المرجع السابق، ص 31.

الأقوم من حطه وترحاله، وتلاعب الدهر بأحواله، لجرد ربوع العهود الدوارس ويضيء ليالي تفرقنا الدوامس..."[1] ومن الذين كتبوا رسائل إخوانية، أحمد بن حسين باشا الكيواني الدمشقي(ت 1173هـ /1759م) وأحمد السعيد بن علي المرادي (ت 1180 هـ/1766م).[2] وحسن العطار الذي كتب رسائل عديدة مسجوعة، جعلها في كتاب سماه "إنشاء العطار"، وجعله قسمين أحدهما كتابة الشروط والصكوك، و الثاني إنشاء المراسلات المختلفة؛ بحيث لكل مناسبة إنشاء مختلف.[3] والنوع الثالث هو الرسائل الديوانية؛ وهي التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء، والذي يكتب فيه المقررات الصادرة عن السلطة الحاكمة.[4]

- **التقريظ على الكتب:**

كان من بين أنواع النثر الفني؛ وهو كتابة مديح في كتاب ما، ويكون نثرا كما يكون شعرا، ويستعرض فيه الأديب بلاغته اللغوية من خلال البديع. ومن أمثلة ذلك ما كتبه مصطفى بن أحمد الصاوي(ت 1216 هـ /1801م)، تقريظا على الكتاب الذي ألفه محمد عبد اللطيف الطحلاوي، فقال "حمد المولى يضيق نطاق المنطق عن شكره، ويعجز لسان اللسن عن الإفصاح بذكره، يدنى لب الموحد إلى فهم مقامات التوحيد ويعرفه سبل التهجد والتحميد...أما بعد فقد سرحت طرفي في رياض هذا التأليف الرائق وفرحت بصري بالمشاهدة لمحاسن هذا التصنيف الفائق..." .[5]

- **الحكايات و القصص:**

لقد تداول أفراد المجتمع، العديد من القصص والحكايات، التي كتبت في السابق، وزاد عليها كل من كتبها بعد ذلك، وكان الحكواتي يسردها في المقاهي، مثل قصص أبوزيد الهلالي والظاهر بيبرس، وعنترة بن شداد وألف ليلة وليلة.[6] وقد ظهرت محاولات في العصر العثماني، لكتابة حكايات ونوادر طريفة من بعض الأدباء في القرن 17م و 18م، مثل عبد الحق الأدهمي المرزباني الشامي (ت 1070 هـ/1659م)، الذي كتب مجموعا نادراً في كل معنى نادر وحكاية طريفة.[7] وعبد الحي بن علي الشهير بالخال، أو بابن الطويل الطالوي الدمشقي (ت 1117 هـ/1705م)، كان أديبا وشاعـرا له نظم في المـواليا والمـوشح وجمع كتـابا في

---

(1) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 85.
(2) نفسه، ص 103- 106، 146.
(3) محمد كامل الفقي، المرجع السابق، ص 144، 145.
(4) محمود رزق سليم، المرجع السابق، ص 143.
(5) الجبرتي، المصدر السابق، ج3 (دار الكتب)، ص 242، 243.
(6) سمير عمر إبراهيم، المرجع السابق، ص 251، 252.
(7) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 316.

الأدب سماه "مرور الصبا والشمول وسرور الصبا والمشمول"؛رتبه في 10 أبواب وجعل به كل نادرة مستحسنة وحكايات لطيفة وأشعار.[1] وفي القرن 19م ظهر كتاب حكايات على شكل ألف ليلة وليلة من تأليف محمد الحفني المعروف بالمهدي المصري (ت 1230 هـ/1814م)،وهو من أبوين قبطيين وأسلم وهو صغير وتعلم ودرس بالأزهر، وسماه "تحفة المستيقظ و الآنس في نزهة المستنيم الناعس".[2]

- **الخطابة:**

كان فن الخطابة موجودا في العصر العثماني، وكان هناك العديد من الخطباء الذين أنشؤوا خطبا بليغة،منها ما هو مقتبس من التراث،ومن أشهر الخطباء الخطيب حسين بن عبد الرحمن المنزلاوي (ت 1212 هـ/1814م)،الذي أنشأ خطبا بليغة،كان يخطب بها في المشهد الحسيني، وفي زاوية السادات الوفائية، حسب ما تقتضيه المناسبات.[3] وكذلك سعد الشنواني (ت 1188 هـ/1797م).[4]

ج ـ المعاجم:

لقد ازدادت العناية بعلم المعاجم في مصر والشام خلال القرن 17م و 18م، فقد كانت دراسة المعاجم مرتبطة ومكملة لعمل المحدثين، للترابط الدقيق بين معاني الكلمات وأصولها، وكان الغرض منها تصحيح الأخطاء في ميدان الحديث والتفسير.[5] فقد قام الأديب المصري عبد الله بن محمد الطبلاوي (ت 1027 هـ / 1617م) خلال القرن 17م،بوضع مختصر على "لسان العرب"،سماه "رشف الضرب من لسان العرب".[6]

وخلال القرن 18م ازداد الاهتمام، حيث كتب أحد الموارنة في بلاد الشام معجما في اللغة العربية، وهو المطران جرمانوس فرحات (ت 1732 هـ)، انتقاه من قاموس الفيروز أبادي وغيره سماه "باب الإعراب عن لغة الأعراب".[7] وأشهر عمل ظهر في هذه الفترة، كان لمرتضى الزبيدي (ت 1205 هـ/1790م)، وهو الشرح الذي كتبه على قاموس الفيروزأباذي، وسماه "تاج العروس في شرح القاموس"، أتمه في عدة سنين في 14 مجلداً، وكانت له قيمة علمية في ذلك العصر، فقد اشتراه منه الأمير أبو الذهب بمائة ألف درهم.[8] حاول الزبيدي في شرحه أن يرصد كل كلمة مفردة وتحرى معانيها، من خلال علاقاته بالواردين إلى مصر ومن

---

(1) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 244.

(2) خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 159.

(3) الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص 411.

(4) نفسه، ج1 (دار الفارس)، ص 467.

(5) بيتر جران، المرجع السابق، ص 125.

(6) المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 66، 67.

(7) يوسف الدبس، المصدر السابق، ج8، ص 82، 83. =

خلال رحلاته، وتقصى الكلمات العربية من القبائل،التي كانت ما تزال لغتها أقل تحريفا،واعتمد على مراجع ومعاجم سابقة،فكان في تاج العروس معلومات كثيرة عن أسماء المواقع الجغرافية،والأشخاص إضافة إلى الأسماء الواردة فيه.[1]

وخلال القرن 19م تعاظمت الحاجة إلى المعاجم والقواميس،مع ازدياد حركة الترجمة،فقد اعتنى الكثير من المترجمين والمصححين في مصر،خلال عهد محمد علي بإلحاق معاجم صغيرة بالكتب التي ترجموها إلى العربية؛لتوضيح بعض الألفاظ الغريبة،مثلما فعل رفاعة الطهطاوي عندما ترجم "قلائد المفاخر"، وغيره ومن أمثلة القواميس التي وضعت في سبيل تسهيل عملية الترجمة، القاموس الذي أعده الأب أنطون روفائيل زاخور راهبه وهو "قاموس إيطالي ـ عربي"؛وهو من أوائل الكتب التي طبعت في بولاق عام 1238 هـ/1822م،وقاموس فارسي ـ تركي وضعه خيرت أفندي،وآخر فارسي ـ تركي "تحفة وهبي" وآخر عربي ـ فارسي ـ تركي هو "سبحة الصبيان".[2]

د ـ الكتابة الصحفية (الصحافة)*:

دخلت أول صحيفة إلى مصر في أواخر القرن 18م مع الحملة الفرنسية، حيث نشرت البعثة العلمية التي جاءت معها، ثلاث جرائد في المطبعة التي استقدموها،وهي "الحوادث اليومية"؛التي كان يحررها إسماعيل الخشاب والثانية اسمها "Décade Égyptienne" والثانية "Courrier d'Égypte" باللسان الفرنسي، ولكنها توقفت بعد خروج الحملة،وكان الغرض منها إذاعة الأخبار والأوامر؛التي تصدرها الحكومة الفرنسية للناس.[3]

وهناك من اعتبر أن صحيفة "الحوادث اليومية" التي كانت تصدر باللسان العربي،هي أول صحيفة عربية.[4] بينما اعتبر البعض الآخر أنها كانت مجرد تسجيل لحوادث الديوان فحسب، وأشاروا إلى أن الجنرال

= (8) الجبرتي، المصدر السابق، ج2، ص 304، 307.

(1) بيتر جران، المرجع السابق، ص 127.

(2) محمد فؤاد شكري و أخرون، الرجع السابق، ص 119.

* الصحافة هي صناعة الصحف، وهي جمع صحيفة والمراد بها؛ الأوراق المطبوعة التي تنشر الأنباء والعلوم بين الناس في أوقات معينة، واختلفت تسمياتها فاتخذت اسم "غزتة" وهي أول صحيفة ظهرت في البندقية عام 1566م، فلما أنشأت الصحف العربية سميت كذلك ثم أطلق عليها لفظ "وقائع" 1828م ثم "جرنال" 1858م وأخيرا استعمل فارس الشدياق لفظ "جريدة" فيما بعد حسب معجم اللغة العربية. أنظر: فليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، المطبعة الأدبية، بيروت، لبنان، (د.ط)، ج1، 1913م، ص 5ـ7.

(3) نفسه، ص 45.

(4) نفسه، ص 48، 49.

مينو قرر إصدار جريدة "التنبيه" باللسان العربي، وتقرر الخشاب محررا فيها، ولكن لم توجد أية أعداد لها تدل على صدورها، واعتبرت أول محاولة لتقنين الصحافة العربية.[1] و في عهد محمد علي باشا في القرن 19م، ظهرت أول جريدة عربية هي "الوقائع المصرية"، في 25 جمادى 1244 هـ/1828/9/3م، والتي كانت تنشر الأخبار القادمة إلى الديوان من الداخل، ومن الأقطار كالسودان والحجاز، ولم يكن صدور أعدادها منتظما.[2] وفي البداية صدرت باللسان التركي،ثم باللغتين العربية والتركية،وتولى تحريرها في البداية إسماعيل الخشاب ثم رفاعة الطهطاوي.[3]

وإلى جانبها ظهرت الصحيفة الأسبوعية ؛وهي "المونيتير إجبسيان" في الإسكندرية في أوت 1833م، صدر أول عدد لها في 1833/08/17،وكان رئيس تحريرها فرنسيا هو كاميل تورل "Camile Tureles" والغرض منها نشر أعمال وإصلاحات محمد علي،للرد على المونيتير أتومان التي كانت تهاجم أعماله وتصدر في اسطنبول،ولكنها لم تستمر وصدر آخر عدد لها في 1834/03/22م،وكانت أصدرت 31 عددا في ثماني أشهر.[4]

أما بلاد الشام فكانت ترد عليها الصحافة،خلال النصف الأول من القرن 19م من الخارج، خاصة من اسطنبول،حيث كانت تصدر صحيفة باللغة التركية عام 1831م، بأمر من السلطان محمود الثاني هي "تقويم وقائع". كما كانت تصلهم أعداد من صحيفة الوقائع المصرية، خاصة خلال فترة الحكم المصري في الشام. و لكن فجر الصحافة في الشام، لم ينبثق إلا في مطلع النصف الثاني من القرن 19م.[5]

4 ـ الموسيقى

لقد اعتنى الشعراء وغيرهم في العصر العثماني بالموسيقى، فكتبوا الأغاني وألفوا الألحان،وكانوا على معرفة بالآلات الموسيقية،وظهر خلال هذه الفترة،الكثير من المنشدين والمغنين الذين تكسّبُوا بالغناء، والضرب على الآلات الموسيقية، ولم يكن هذا الفن منبوذا اجتماعيا ؛ بدليل أن العديد من الفقهاء والمؤذنين والمتصوفة والأدباء كانوا يمارسونه.[6] وكانت فئة من الفقهاء يتشددون على الغناء والموسيقى، واعتبروا من

(1) أحمد حسين الصاوي،فجر الصحافة في مصر، دراسة في إعلام الحملة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1975م، ص 78 ـ 86.

(2) سمير عمر إبراهيم، المرجع السابق، ص 149، 150.

(3) نفسه، ص 153.

(4) محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 124، 125.

(5) شمس الدين الرفاعي، المرجع السابق، ص 47، 48، 52 . أول جريدة في بيروت هي "مجموع فوائد" عام 1851م.

(6) ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 294.

يسترزق بالغناء ساقطا، وكانوا يسامحون من يغني في جماعة.[1] واستمر الجدل بين الفقهاء والمتصوفة حول الرقص والغناء، والضرب على الآلات في حلقات الذكر والموالد، فكان الفقهاء يحرمونه والمتصوفة يحلونه وقد كتب عبد الرحمان بن مصطفى العيدروس(ت 1182 هـ/1768م) بالقاهرة، رسالة سماها "تشنيف الأسماع ببعض أسرار السماع" أيد فيها رأي المتصوفة.[2]

وخلال القرن 19م أنشأ محمد علي معهدا لتعليم الموسيقى العسكرية بمصر، واستقدم مؤطرين فرنسيين من الموسيقيين ليدربوا نحو 200 طالبا مختلف الفنون الموسيقية، والضرب على الآلات الغربية.[3] ومن أشهر الموسيقيين والمنشدين، في العصر العثماني على سبيل المثال لا الحصر، نذكر في القرن 16م عبد الباسط العلماوي (ت 981هـ/1573م)، رئيس المؤذنيين بالأموي بدمشق كان بارعا في علم النغمات والتلحين، وله أناشيد وعظية كانت تنشد في الموالد.[4]

وفي القرن 17م اشتهر بعث الله المصري (ت 1016 هـ/1607م)، كان شيخا للمولد وأستاذ أهل الصنعة وكان عارفا بالفنون الموسيقية، وحسن الصوت، وبرع في أداء القصائد الفصيحة.[5] واشتهر بالشام مصطفى بن تنكر (ت 1016 هـ/1608م)، الذي انفرد في فن الموسيقى في عصره، وكان حسن الصوت وله براعة في ترتيب الألحان بالآلات الموسيقية، فينشد الوعظ في مجالس الصوفية.[6] ومحمد بن عبد الباقي الدمشقي (ت 1068 هـ/1657م)، الذي برع في صنع آلات الموسيقى وغيرهم.[7] أما في القرن 18م و 19م فاشتهر مثلا إسماعيل الظهوري المصري(ت1211 هـ/1796م).[8] وسعيد بن محمد السمان الدمشقي(ت 1172هـ /1758 م).[9] وخليل السفرجلاني الدمشقي(ت1275هـ /1858م).[10]

---

(1) محمد كرد علي، المرجع السابق، ج4، ص 110.

(2) محمد سيد الكيلاني، المرجع السابق، ص 28.

(3) سمير عمر إبراهيم، المرجع السابق، ص 249.

(4) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص 114.

(5) نجم الدين الغزي، لطف السمر، ج1، ص 343 ـ346، المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 453.

(6) نجم الدين الغزي، نفسه، ج2، ص 663، 666.

(7) المحبي، المصدر السابق، ج 3، ص 479.

(8) الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص 403، 405.

(9) المرادي، المصدر السابق، ج2، ص 141.

(10) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 115.

المبحث الثالث: الدراسات الإجتماعية

1ـ الفلسفة والمنطق وعلم الكلام

لم تكن دراسة الفلسفة في العهد العثماني، تتم إلا في حدود القضايا التي لا تتعارض مع الدين، فقد أخذ العثمانيون برأي الغزالي، بأن دراسة الفلسفة جائزة لدراسة علم الكلام، الذي يهدف لإثبات عقائد الإسلام بالأدلة العقلية.(1)

ومن الكتب والرسائل التي ألفت في علم الكلام، حول القضايا التي أثيرت في العهود السابقة، كتاب عبد الرؤوف المناوي (ت 1031 هـ/1658م)، المسمى "إعلام الأعلام بأصول فني المنطق والكلام".(2) ومن المؤلفات التي كتبت خلال القرن 18م ، في مسألة الإيمان هل هو مخلوق أو غير مخلوق ، رسالة "الدر النظيم في تحقيق الكلام القديم،" للشيخ أحمد الجوهري (ت 1182 هـ/1768م)،وله أيضا "رسالة الجزء الاختياري"، ورسالة "الفطرة السليمة في تحقيق دلالة القرآن على الصفة القديمة".(3) ووضع محمد بن يوسف الغزالي الحلبي الشهير بالأسبيري (ت 1199 هـ/1784م)، مؤلفات في المنطق والتوحيد وعلم الكلام منها "رسالة الجزء الاختياري"، ورسالة في عصمة الأنبياء وأخرى في التوحيد.(4)

وخلال القرن 19م ازدهر علم الكلام في مصر؛ بحيث عمد الكثير من الطلبة والعلماء إلى إحياء علم المنطق وعلم الكلام، مثل رسالة حسن العطار في خلق الأفعال، عالج فيها قضية خلق الأفعال، وكتب مقالا آخر تناول فيه قضية هل العالم مخلوق أم سرمدي، وكان مهتما بكتابات الإيجي في علم الكلام.(5)

واهتم العلماء بعلم المنطق، رغم أن الكتابات التي وضعت فيه خلال هذه الفترة، كانت شروحا للمؤلفات السابقة، أو محاولة لإحياء المنطق الأرسطي، و مع ذلك لا يمكن إهمال دورها في حياة الفكر. ومن تلك المؤلفات التي وضعت عليها شروح كثيرة، وكانت محل التدريس خلال العهد العثماني، كتاب"إيساغوجي"* في المنطق للقاضي زكريا الأنصاري(ت 910 هـ/1504م) وهو شرحٌ في الأصل ،وقد

---

(1) خليل إينالجيك، الدولة العثمانية، ص 268، 269.

(2) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 413.

(3) محمد سيد الكيلاني، المرجع السابق، ص 36.

(4) المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 121.

(5) بيتر جران، المرجع السابق، ص 243، 244.

* هو لفظ يوناني معناه الكليات الخمس وهي الجنس، النوع، الفصل، الخاصة، العرض العام و هو باب من أبواب المنطق التسعة وكتاب إيساغوجي المذكور وهو لأثير الدين الأبهري (ت 700 هـ/1300م) . حاجي خليفة، المصدر السابق، ج1 (د.د. النشر)، ص 135، 136.

شرحه عدد من العلماء المهتمين بالمنطق مثل مصلح الدين مصطفى السروري (ت 969 هـ/1561م)، ونظمه إبراهيم الشبشيري (ت 920 هـ/1514م).[1] ومن شروحه أيضا في القرن 17م /11هـ، شرح محمد بن علي البشراملسي(ت 1021 هـ/1612م).[2] وأحمد الملقب شهاب الدين الغنيمي المصري (ت 1044 هـ /1634م).[3] وفي القرن 18م/12 هـ وضعت عليه شروح أخرى،مثل الشرح الذي كتبه محمد الأسبيري الحلبي(ت 1199 هـ/1784م)،وسماه "الفوائد الأسبيرية على الرسالة الأثيرية".[4] وصنف محمد العزيزي المعروف با بن الست (ت 1199 هـ/1784م) ديباجة عليه.[5]

ووضعت شروح وحواشي على كتاب مشهور، هو "تهذيب المنطق والكلام" لسعد الدين التفتازاني (ت 792 هـ/1389م) ، وهو كتاب مشهور مقسم إلى قسمين أحدهما للمنطق والثاني في علم الكلام، وقد اعتنى به علماء العصر العثماني، ودرسوه وشرحوه وكتبوا له حواشي، مثل حاشية مير أبي الفتح السعدي (ت 950 هـ/1543م)، وحاشية مصلح الدين اللاري (ت 979 هـ/1571م) وله شرح عليه أيضا. وحاشية حسين الحسيني الخلخالي (ت 1030 هـ/1620م) .[6] وكتب عليه علي بن زين العابدين الأجهوري (ت 1066 هـ/1655م)، شرحا مفيدا.[7] واختصره عبد الباقي المعروف بابن السمان الدمشقي(ت 1088 هـ /1677م).[8] وخلال القرن 19م كتب عليه مصطفى الصفوري القلعاوي، (ت 1230 هـ/1814م) منظومة و شرحها.[9]

وظهرت عدا ذلك مؤلفات مختلفة،أضافت ما أضافته إلى الكتب السابقة،مثل علي بن أحمد المنسيفيسي العدوي الصعيدي،الذي وضع حاشية على شرح السلم للأخضري* في المنطق.[10] ووضع أبو الحسن القلعي (ت 1199 هـ/1784م)، الذي برع في علم الكلام والمنطق مؤلفات وحواشي نافعة، منها

---

(1) حاجي خليفة، المصدر السابق، ج1 (د.د.النشر)، ص 136.

(2) المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 40.

(3) نفسه، ج1، ص 314.

(4) المرادي، المصدر السابق، ج4، ص 121.

(5) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 604، 605.

(6) حاجي خليفة، المصدر السابق، ص 269.

(7) المحبي، المصدر السابق، ج3، ص 157، 158.

(8) نفسه، ج2، ص 270.

(9) الجبرتي، المصدر السابق، ج3 (دار الفارس)، ص 498.

* وهو السلم المنورق "المرونق" في علم المنطق وهو أرجوزة في نظم إيساغوجي لعبد الرحمن الصغير وشرحها. حاجي خليفة، المصدر السابق، ج2 (إحياء التراث)، ص 998.

(10) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 206.

حاشية على السلم المذكور، وحاشية على رسالة محمد أفندي الكرماني في علم الكلام ؛ وهي في غاية الدقة.[1] ومن الكتب التي عنيت بالشرح والتعليق كتاب "الشمسية" في المنطق، لنجم الدين القزويني (ت 693 هـ/1293م)، مثل الحاشية التي وضعها أحمد الخليفي (ت 1209 هـ/1794م)، على شرح الشمسية وكان له حاشية على شرح الملوي للسلم المذكور أعلاه.[2] وفضلا عن ذلك وضع محمد الغزي الدمشقي (ت 935 هـ/1528م)، منظومة على رسالة السيد الشريف في علمي المنطق والجدل.[3] وكتب داود الأنطاكي (ت 1008 هـ/1599م)، رسالة في الفلسفة وشرح قصيدة "الروح" لابن سينا.[4]

أما خلال القرن 18م فقد ازدهرت دراسة المنطق، منها رسائل العطار حول العلم الطبيعي وحرية الإنسان، مثل الرسالة التي كتبها عام 1813م/1228 هـ وهو في الشام، بعنوان "هذا جواب الشيخ العطار عن سؤال مصطفى البدري"، عالج فيها وجهة نظر حركة الإصلاح فيما يتعلق بالطبيعيين، وشرح الأفكار التي قدمها مستدلا بكتب أرسطو في العلوم الطبيعية، وجالينوس في الطب.[5] وخصص الصبان في كتاباته صفحات لمواضيع تخص الاستدلال بالقياس.[6]

وفي الشام احتك المسيحيون بالفلسفة الأوروبية، خلال القرن 18م وألفوا فيها، مثل نقولا الكاتب الشهير بالخوري سابا، الذي ولد بحمص وكان والده أرثوذكسيا ووالدته كاثوليكية (ت 1727م)، تلقى علوم العربية في الشام ثم رحل إلى روما ؛ حيث أتقن العلوم الفلسفية واللاهوتية وتعلم اللغات، ولما رجع انقطع إلى التأليف فألف كتبا في الفلسفة، منها رسائل في النفس وجوهرها وخواصها وله كتاب في المنطق.[7]

ولكن الملاحظ هو أن الكتب الفلسفية، التي ترجمت عن التراث اليوناني خلال العهد العباسي لم تكن توضع محل الدراسة، بل الذي ظل متداولا طيلة العهد العثماني، هي الشروح والحواشي التي وضعت عليها خلال العهد المملوكي ولذلك لم تأتي دراسات المنطق وعلم الكلام بجديد يذكر.

---

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 602.

(2) حاجي خليفة، المصدر السابق، ج2 (إحياء التراث)، ص 1063.

(3) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج2، ص 5.

(4) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 140 ـ 143، الخفاجي، المصدر السابق، ورقة، رقم 137.

(5) بيتر جران، المرجع السابق، ص 243.

(6) نفسه، ص 255، 256.

(7) لويس شيخو، المرجع السابق، ص 44، 45.

2 ـ علم التاريخ

لقد ازدهر التأليف التاريخي، خلال العهد العثماني، بالنظر إلى ما أنتجته مدارسه التقليدية من المؤلفات، فكان هناك كتب الحوليات والوقائع التاريخية، وكتب السير والتراجم، ونشطت إلى جانب ذلك مدرسة الأجناد، التي تختلف كثيرا عن المدرستين السابقتين.[1] فقد برز في العهد العثماني العديد من المؤرخين موسوعي المعرفة، وقد كانوا يشترطون لصحة الكتابة التاريخية العلمية، شروطا ما تزال متعارفا عليها إلى اليوم؛ كتحري المصادر الموثوقة والمتنوعة، ونقد المصدر والوقائع، والتزام الصدق والأمانة في نقل الخبر، والكتابة بموضوعية، والتدقيق في الأنساب وأسماء الشخصيات، والكتابة بأسلوب رصين وواضح.[2]

غير أن علم التاريخ خلال القرن 17م/11 هـ تدهورت أحواله، وذلك لأسباب عديدة كعدم الاهتمام به وبدراسته، وتسرب الكتب إلى اسطنبول وأوروبا، مما أفقد المنطقة العديد من تراثها.[3] و عبّر الجبرتي و المرادي خلال القرن 18م/12هـ، عن الحال الذي آل إليه هذا العلم، وأن الكثيرين كانوا يعتبرونه فنّا وليس علما.[4] ومع ذلك شهد نفس القرن خطوة كبيرة في التأليف التاريخي. [5] فقد كتب مرتضى الزبيدي إلى جانب علم الأنساب كتبا أخرى في التاريخ، وكذلك عبد الرحمن الجبرتي، الذي مزج بين اتجاهين رئيسيين في التاريخ؛ وهما الحوليات والتراجم، وكانت في كتاباته مزايا تدل على الصحوة. [6] وظهر في بلاد الشام المحبي و المرادي (ت 1206 هـ/1791م)، الذين كتبا في التراجم بأسلوب لا يختلف عن الجبرتي.

ومن المميزات العامة، التي اتصفت بها المؤلفات التاريخية، خلال العصر العثماني، أنها كانت تتميز بالإستطراد وهو من الصفات السلبية؛ فرغم كونه يدل على سعة اطلاع المؤلف، إلا أنه يخرجه عن الموضوع وهو مضعف للعنصر التاريخي. و الصفة الثانية هي السرد، حيث تقدم المعلومات دون ترابط متين فيما بينها. ثم إن الصفة الثالثة تتمثل في التعليلات غير الواقعية و الميتافيزيقية، التي كانت من صميم روح العصر.[7] و رغم ذلك اشتملت هذه المؤلفات، على العديد من الميزات العلمية المتعلقة بالبحث التاريخي الحديث؛ كالنقد التاريخي والأدبي، كما أن التعليلات لم تكن كلها غير واقعية، بل كانت تقدم أيضا تعليلات إقتصادية وسياسية و إجتماعية أيضا.[8]

---

(1) محمد أنيس، المرجع السابق، ص 18.

(2) نفسه، ص 29. ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 300، 339.

(3) محمد أنيس، نفسه، ص 11، 12ـ 17.

(4) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 11 و ج2 (دار الكتب)، ص 357.

(5) المرجع السابق، ص 27.

(6) بيتر جران، المرجع السابق، ص 134، 136. =

أ- مدرسة الحوليات :

كانت مجمل الكتابات في هذا المجال، تبتدأ بالتأريخ من أقدم العصور، وتعتمد على طريقة كتابة الحوادث وفق عصر كل وال من الولاة ، أو كتابة أحداث كل سنة لوحدها. وكثير من المؤرخين يتحدثون عن أنفسهم وتجاربهم، خاصة حين يؤرخون للأحداث التي عاصروها، فجمعت بين صفة المذكرات والتأريخ. واعتنت أغلب المؤلفات التاريخية، بذكر محاسن البلد الذي تؤرخ له، وذكر صفات أهلها وأرضها، وما ورد بشأنها من فضائل في القرآن والحديث النبوي.[1]

ومن أمثلة المؤلفات التي كتبت في مصر والشام خلال العهد العثماني، نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما كتبه المؤرخ الدمشقي محمد ابن طولون (ت 953 هـ /1546م)، الذي أرخ للفترة الأولى من العهد العثماني بالشام، مثل كتاب "مفاكهة الخلان في حوادث الزمان". وكتاب "إعلام الورى بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى"؛ وهو يصور فيها الحياة اليومية في دمشق، ويؤرخ للقضاة الولاة وأصحاب الحرف.[2] وهناك مؤرخ آخر في نفس الفترة هو محمد ابن الحنبلي (ت 971 هـ/1563م)، له كتاب "درّ الحبب في تاريخ حلب".[3]

وفي مصر خلال القرن 17م، برز المؤرخ محمد بن أبي السرور البكري المصري (ت 1087 هـ/1676م)، الذي كتب الكثير في التاريخ، مثل "المنح الرحمانية في تاريخ الدولة العثمانية"، و "الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة " ، و "الفتوحات العثمانية للديار المصرية"، وكتاب "تحفة الظرفاء في ذكر الملوك والخلفاء". و لم تكن مؤلفاته حوليات بالمعنى التام، و لكنه جعل فيها طابعه الخاص، وهو أكثر مؤرخي القرن 17م إنتاجا في مصر.[4] ومنهم أيضا أحمد القرماني، الذي جمع تاريخا تحدث فيه عن الأمراء المتأخرين سماه "أخبار الدول وآثار الأول"، وقد لخص فيه عدة كتب وزاد عليها.[5] وكتب الإسحاقي كتابا سماه "أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول".[6]

= (7) ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 363، 364، 368، 370.

(8) نفسه، ص 349 ـ351، 337 ـ343.

(1) محمد أنيس، المرجع السابق، ص 25.

(2) محمد ابن طولون الدمشقي، إعلام الورى بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تح. محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1984م، ص 11 ـ14.

(3) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص 42، 43.

(4) محمد ابن السرور، النزهة الزهية، ص 63، 64.

(5) المصدر السابق، ج1، ص 195، 196.

(6) محمد أنيس، المرجع السابق، ص 20.

وخلال القرن 18م ظهر في الشام مؤرخين، أمثال اسطفان الدويهي بكتابه "تاريخ الأزمنة"، ويوسف السمعاني بكتابه "المكتبة الشرقية".[1] ومن المسلمين عبد الله الأفيوني الطرابلسي (ت 1154 هـ/1741م)، الذي ألف كتابا في تاريخ الشام سماه "الزهر البسام في فضائل الشام".[2] وكتب عبد الله الشبراوي المصري (ت 1171 هـ/1757م)، كتابا سماه "شرح الصدر في غزوة بدر"؛ وذكر فيه نبذة عن تاريخ ولاة مصر خلال العهد العثماني.[3] و حسين الصديق (ت 1186 هـ/1772م) ألّف هو الآخر كتابا سماه "غرائب البدائع وعجائب الوقائع فيما وقع بين الثائرين وعثمان باشا والي الشام عام 1184 هـ/1770م".[4]

وفي القرن 19م ظهرت مؤلفات تاريخية، أرخت لأواخر القرن 18م والنصف الأول من القرن 19م، من أشهرها بمصر مؤلفات عبد الله الشرقاوي (ت 1227هـ/1715م)، " تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين "، الذي أرخ فيه لولاة مصر منذ الفتح إلى دخول الحملة الفرنسية على مصر، وتحدث عنها. و إسماعيل الخشاب (ت 1230 هـ/1814م)؛ الذي كتب تاريخا سماه "تأريخ حوادث وقعت بمصر من سنة 1120 /1708 م إلى دخول الفرنسيين". وظهر مؤرخ آخر هو خليل بن أحمد الرحبي، الذي كتب تاريخ يمدح فيه أعمال محمد علي باشا سماه "تاريخ محمد علي باشا".[5] وكتب المؤرخ شمس الدين السبربائي (ت 1206 هـ/1791م) أراجيز، أرّخ فيها لعهد محمد أبي الذهب، وعلي بك الكبير ومصطفى بك.[6]

أما في الشام فبرز أحمد البربير البيروتي، (كان حيا عام 1206 هـ/1791م)، الذي ألف تاريخا أرخ فيه للفيضان بدمشق عام 1206 هـ/1791م، سماه "زهر الغيضة في ذكر الفيضه".[7] وبرز المؤرخ والشاعر نقولا الترك (1763هـ ــ ت 1828م)، الذي عاصر الحملة الفرنسية بمصر، وله مؤلفات هامة في تاريخ القرن 19م منها "ذكر تملك الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية"، وكتاب حول تاريخ الشهابيين إلى عهد بشير الثاني سماه "نزهة الزمان في حوادث لبنان"، و"تاريخ نابليون" و"تاريخ أحمد باشا الجزار"؛ الذي وصف فيه أحوال الشام في الربع الأخير من القرن 18م وأوائل القرن 19م.[8] ومنهم أيضا إبراهيم بن حنا العوراء

---

(1) محمد كرد علي، المرجع السابق، ج4، ص 67.

(2) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 93، 94.

(3) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 297.

(4) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج3، ص 326 ــ330.

(5) جمال الدين الشيال، التاريخ و المؤرخون، ص 27، 35، 36.

(6) الجبرتي، المصدر السابق، ج 2 (دار الكتب)، ص 354 ــ358 .

(7) محمد جميل الشطي، المرجع السابق، ص 32، 33.

(8) سعد داغر، المرجع السابق، ص 217، 218

الرومي الكاثوليكي، الذي كتب تاريخا حول عهد أحمد باشا الجزار وسليمان باشا.[1] وميخائيل بن نقولا الصباغ (ت 1232 هـ/1816م) ، له تاريخ حول مصر والشام وحول تاريخ أسرته آل الصباغ، ولأخيه عبود كتاب حول أخبار ظاهر العمر هو "الروض الزاهر في تاريخ ظاهر".[2] والمؤرخ القس حنانيا المنير (كان حيا عام 1222هـ/1807م) له مؤلفات تاريخية مثل "الدّر المرصوف في حوادث الشوف"، و هو يتناول تاريخ وقائع جرت بلبنان بين 1109 هـ إلى 1222 هـ/1807/1697م.[3]

ب - مدرسة الأجناد :

هناك فريق من المؤرخين في العصر العثماني، يمثلون مدرسة خاصة بهم، لكونهم لم يكونوا من المؤرخين وأهل العلم، بل أغلبهم من الأجناد، وكانوا هواة لكتابة التاريخ.[4] فتميزت كتاباتهم بالأسلوب الوصفي وغياب التحليل، واستعمال الألفاظ العامية، والميل إلى الكتابة سجعا وإدراج الشعر، وركزوا على بعض الأحداث دون الأخرى، فلم تأتي كتاباتهم مترابطة الأحداث.[5] ومع ذلك هم يمثلون حلقة من حلقات التاريخ العثماني بمصر والشام. ومن أمثلتهم ابن زنبل المحلي الرملي (القرن 16م)، له "تاريخ أخذ مصر من الجراكسة "، وهو يؤرخ لدخول العثمانيين مصر. وخلال القرن 18م برز علي الشاذلي بكتاب "تاريخ ثورة إفرنج أحمد"، وكتب أحمد الدمرداش كتخدا عزبان "الدرة المصانة في أخبار الكنانة"، وإبراهيم مصطفى "تاريخ وقائع مصر القاهرة".[6] وازدهرت هذه المدرسة بمصر أكثر من الشام.

ج- مدرسة التراجم :

لقد ازدهرت هذه المدرسة، وظلت الرائدة منذ العهد السابق للعهد العثماني، فقد كتب الكثيرون في ميدانها.[7] غير أن التفوق كان لبلاد الشام ودمشق بالذات، التي أثرت بدورها في كامل الشرق العربي.[8] ففي هذه المدرسة ظهر نوع من البعث والإحياء خلال العصر العثماني، ولم تعرف الصفة المحلية أو الإقليمية

---

(1) خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 222.

(2) نفسه، ص 204، 205.

(3) نفسه، ص 203، 204.

(4) محمد أنيس، المرجع السابق، ص 54.

(5) عبد الوهاب بكر، "المستوى الثقافي لمؤرخي القرن الثامن عشر في مصر: دراسة نقدية لمخطوطة الأمير الدمرداش كتخذا عزبان الدرة المصانة..." المؤتمر العالمي الثالث للدراسات العثمانية حول الحياة الفكرية في الولايات العربية، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية، زغوان، تونس، (د، ط)، 1990م، ص 868، 687.

(6) المرجع السابق، ص 54، 55.

(7) ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 304.

(8) المرجع السابق، ص 47.

التي عرفها التاريخ العام، وإنما كانت التراجم تشمل العالم الإسلامي. خاصة تراجم بلاد الشام التي ترجمت لكل فرد فعال، له أثر علمي أو أدبي أو غيره.(1) ومن أهم التراجم التي وضعت خلال القرن 16م ومطلع القرن 17م ما كتبه نجم الدين الغزي الدمشقي(ت 1060 هـ/1650م)، منها "الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة"، وذيله بكتاب أرخ فيه لرجال الربع الأول من القرن 17م، سماه "لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر".(2) وفي مصر برز محمد القرافي (ت 1008هـ /1599م) الذي كتب ذيلا على الديباج لابن فرحون ترجم فيه لأكثر من ثلاثمائة شخص.(3)

أما في القرن 17م فاشتهرت تراجم حسن البوريني (ت 1024 هـ/1615م)، المسماة "أخبار الأعيان من أبناء الزمان"، وضمّن كتابه تراجم من وجد في زمنه من الأعيان والأدباء والأمراء والسلاطين، وكان غالبهم من أهل الشام.(4) واشتهر بشكل كبير محمد الأمين المحبي بكتابه "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" الذي ترجم فيه لـ 1289 سيرة من أنحاء العالم الإسلامي.(5) وكتب ذيلا على "ريحانة الألبا" لشهاب الدين الخفاجي لمعاصر له وهو من مصر.(6) سماها "نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة"، و ترجم كلاهما للأدباء بأسلوب مسجوع.(7)

أما في القرن 18 و 19م، فاشتهر كتاب عبد الرحمن الجبرتي "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" الذي كان مزيجا بين التراجم والتاريخ العام، ويعد من أهم التراجم في مصر خلال القرن 18م، والنصف الأول من القرن 19م، حيث أرخ للصراعات السياسية والحياة الفكرية والحملة الفرنسية، وجزء من عهد محمد علي باشا.(8) وفي نفس الفترة برزت تراجم خليل المرادي (ت 1206 هـ/1791م)، الذي ألف كتابا سماه "سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر".(9) و مصطفى فتح الله الحموي (ت 1123 هـ/1711م)، الذي كان له كتاب سماه " فوائد الإرتحال ونتائج السفر في أخبار أهل القرن الحادي عشر "، تكلم فيه عن مشايخ وعلماء القرن 17م بمصر والشام.(10)

---

(1) محمد أنيس، المرجع السابق، ص 46.
(2) المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 197.
(3) نفسه، ص 258، 259.
(4) محمد أنيس، المرجع السابق، ص 50.
(5) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج3، ص 318، 319، ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 148، 152.
(6) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 333.
(7) جورجي زيدان، المرجع السابق.
(8) نفسه.
(9) الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص 355. =

وقد عرف علم التاريخ خلال النصف الأول من القرن 19م، نوعا من الصحوة بعد الاحتكاك بالغرب الأوروبي، حيث ترجمت العديد من المؤلفات التاريخية الأوروبية، من طرف رفاعة الطهطاوي وتلاميذ وخريجي مدرسة الألسن بمصر. كان الهدف منها الإلمام بتاريخ العالم، من أقدم العصور إلى العصر الحديث، خاصة وأن المصريين والشوام، لم يكونوا على إطلاع بتواريخ العالم، بل ظلوا يتدارسون التواريخ المحلية والتي تخص العالم الإسلامي فحسب*، ولكن مع ترجمة هذه الكتب اطلع العرب على المستجدات التاريخية الحديثة، التي وصل إليها مؤرخو أوروبا اعتمادا على الأبحاث الأثرية.[1]

ومن أمثلة المؤلفات المترجمة، كتاب "بداية القدماء و هداية الحكماء"، الذي ترجمه الطهطاوي وهو فرنسي، وأضاف إليه ذيلا معتمدا على كتاب أبي الفداء. وكتاب "مطالع شموس السير في وقائع كارلوس الثاني عشر" ملك السويد، الذي ترجمه محمد مصطفى البياع، وذيل عليه الطهطاوي بذكر من حكم بعده.[2] إلا أن الملاحظ أن حركة التأليف توقفت في النصف الأول من القرن 19م، وانصرف الكل نحو الترجمة.[3]

3 ـ علم الجغرافيا

اهتم العثمانيون بعلم الجغرافيا منذ القرن 16م، وظهرت خلال هذه الفترة ترجمات لكتب جغرافية عديدة أغلبها على النهج التقليدي، وأشهر تلك الأعمال كانت لبيري رئيس(ت 962 هـ/1554 م ـ 1555م)، حيث ظهر فيها تأثر واضح بالمعالم الجغرافية الأوروبية، فقد رسم خريطتان الأولى للعالم انتهى منها عام 1513م، وقدمها للسلطان سليم الأولى لما كان في مصر عام 1517م؛ وكانت تضم اسبانيا وشرق إفريقيا والمحيط الأطلسي، والجزء الخاص بأمريكا كان من خريطة كريستوف كولومبس.

أما الخريطة الثانية فكانت بتاريخ 1528م. كما أنه ألف كتاب "بحريت" عام 927 هـ/1520م ـ 1521م. كما ظهر أيضا الملاح الشهير سيدي علي رئيس بن حسين الكاتبي (ت 970 هـ/1562م ـ1563م)، الذي ألف كتابين بالتركية هما "مرآت المماليك"، وكتاب "المحيط في الأفلاك والأبحر" كما أبدع مطرقجي نصوح في

= (10) محمد أنيس، المرجع السابق، ص 50.

* لقد ظهر في الدولة العثمانية (الآستانة) منذ القرن 16 و 17م، اهتمام لدى بعض المؤرخين الأتراك بأوروبا، بحيث اطلعوا على المصادر الأوروبية، وترجموا مؤلفات في التاريخ والجغرافيا؛ مثل إبراهيم مولهمي (ت 1650 م)، له كتاب "تاريخ ملوك الرومان والإفرنج" وكاتب جلبي (حاجي خليفة)، له كتاب "التاريخ الإفرنجي للملوك الكفار"، وهو مترجم من مؤلف أوروبي وإبراهيم رسفي (ولد 1574م) له تاريخ حول الإمبراطورية العثمانية خلال القرن 17م، وهو يتحدث فيه عن ملوك أوروبا واهتم المسيحيون الشوام بالتاريخ الأوروبي واطلعوا عليه خاصة الديني منذ القرن 16 و 17م.. أنظر: لويس برنار، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ص 174، 183، خالد زيادة، المرجع السابق، ص 33

(1) جمال الدين الشيال، التاريخ و المؤرخون، ص 64، 65.

(2) نفسه، ص 59، 60، 61، 63.

(3) نفسه، ص 197، 198.

تصوير الخرائط البرية.[1] وفي القرن 17م اشتهر كتاب حاجي خليفة "جهانما"، الذي استفاد فيه من الأطالس الجغرافية الأوروبية.[2] وكتاب "تحفة الكبار في أسرار البحار".[3] وقدم أوليا جلبي في كتابه "سياحتنامه" معلومات كثيرة عن الأقطار العثمانية التي زارها، وقسم من الأقطار المجاورة لها، مدة رحلته التي دامت 40 سنة دونها في عشر مجلدات.[4]

أما في مصر والشام فلم توجد إشارات، في كتب التراجم إلى الاهتمام بعلم الجغرافيا أو تقديم شروح وحواشي، على الكتب المؤلفة سابقا في هذا العلم. كما كان المؤرخون يوردون في مدخل كتبهم فصولا عن جغرافية المنطقة التي يؤرخون لها، انطلاقا من كتب الأقدمين ، مثل كتاب الإدريسي "نزهة المشتاق" وكتاب "معجم البلدان " لياقوت الحموي، وكتاب "آثار البلاد وأخبار العباد" للقزويني. و في المقابل ازدهر التأليف في الرحلات، حيث أصبح تدوين الرحلة تقليدا متعارفا، يورد فيها المؤلف مشاهداته وملاحظاته، وتعليقاته الجغرافية والسياسية والاقتصادية، والاجتماعية والفكرية والعمرانية وأسماء الأماكن وغيرها. ولذلك سنذكر أمثلة عن رحلة أحمد الحصكفي ابن المنلا(ت1003 هـ/1594م)، الذي رحل إلى القسطنطينية وكتب رحلته المسماة " الروضة الوردية في الرحلة الرومية ".[5]

وفي القرن 17م كتب فضل الله بن محب الله الدمشقي(ت 1082 هـ/1671م)، رحلات عديدة حول المناطق التي زارها منها الرحلة الرومية، في وصف رحلته إلى القسطنطينية، والرحلة الحلبية عام 1048 هـ /1638م والرحلة المصرية.[6] ومحمد القدسي الذي دون رحلته عام 1013 هـ/1604م، إلى القاهرة والقدس ودمشق وأطال وصفه للآستانة، وسماها "أسفار الأسفار وأبكار الأفكار". وكتب الفرضي نجم الدين رحلته إلى دمشق، وضواحيها عام 1090 هـ/1679م)، سماها "الإشارات إلى أماكن الزيارات".[7] وكتب الشيخ إبراهيم الخياري المصري(ت 1082 هـ/1671م)، رحلته المسماة "تحفة الأدباء و سلوة الغرباء"، التي وصف بها رحلته إلى الآستانة، ودمشق والقاهرة والمدينة المنورة.[8]

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 651ـ653.

(2) أوزوتونا يلماز، المرجع السابق، ص 529.

(3) علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، المكتب الإسلامي، دمشق، سوريا، ط3، 1994م، ص 399، 400.

(4) المرجع السابق، ص 530.

(5) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 278.

(6) نفسه، ج3، ص 348.

(7) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج3، ص 347، 349.

(8) إسماعيل البغدادي، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن الأسامي والفنون، تص شرف يالتقايا ورفعت بيلكه الكليسي، إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د، ط)، ج1، (د، ت)، ص 240.

واشتهرت في أواخر القرن 17م و أوائل القرن 18م، رحلات عبد الغني النابلسي التي شملت بلاد الشام ومصر والمدن المقدسة في الحجاز، من أشهرها "الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز"؛ فقد صور الرحالة المواقع الجغرافية الهامة في شبه الجزيرة العربية، وكتاب "الرحلة الطرابلسية" التي كتبها بعد عام 1113 هـ/1701م، وله رحلة إلى بعلبك عام 1100 هـ/1689م سماها "حلة الذهب الإبريز في رحلة بعلبك و البقاع العزيز"، وصف فيها معبد بعلبك وصفا جيدا. ثم قام برحلة إلى القدس عام 1101 هـ/1690م وكتب رحلته المسماة "الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية"، وصف فيها المزارات الإسلامية في القدس.[1]

وفي القرن 18م اشتهرت رحلات مصطفى أسعد اللقيمي الدمياطي(ت 1178 هـ/1764م) منها "لطائف أنس الخليل في تحائف القدس والخليل"، و "موانح الأنس برحلتي لوادي القدس" وهي رحلة من دمياط إلى القدس دامت ستة أشهر، وله رحلة أخرى سماها "الحلة المعلمة البهيجة في الرحلة القدسية المهيجة".[2] وكتب عبد الله الأفيوني الطرابلسي(ت 1154 هـ/1741م)، الذي دخل مصر رحلته المسماة "العقود الدرية في رحلة الديار المصرية".[3] و مصطفى الحموي (ت 1123 هـ بحلب)، الذي كان مشهورا برحلاته الكثيرة واجتمع في بلدان عديدة بعلمائها وألف رحلته المشهورة؛ ذكر فيها غرائب الوقائع والمواقع والأمصار وأسماء الأماكن.[4]

أما في القرن 19م فتوجهت الرحلات نحو أوروبا، لتقدم صورة جغرافية وسياسية وفكرية واجتماعية، عن ما كان يحصل بأقطارها، ومن أشهرها رحلة رفاعة الطهطاوي إلى باريس "تخليص الإبريز بتلخيص باريس"، وصف فيها مدن فرنسا وعاداتهم، وأنظمتهم والعلوم لديهم وغيرها. ورحلة محمد عياد الطنطاوي إلى روسيا عام 1840 م؛ حيث مكث بها حتى مات عام 1861م، وسماها " تحفة الأذكياء في أخبار بلاد روسيا".[5]

---

(1) عبد الغني النابلسي، الرحلة الطرابلسية، ص 16ـ18.

(2) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج3، ص349،347.

(3) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 93، 94.

(4) نفسه، ج4، ص 184.

(5) جمال الدين الشيال، التاريخ و المؤرخون، ص 85، 86.

المبحث الرابع: الدراسات العلمية

لم تحظى الدراسات في المجالات العلمية، بالعناية الكبيرة من علماء العصر العثماني أمام طغيان الاهتمام بالعلوم الدينية واللغوية، ومع ذلك لم تعدم كليا، بل ظهرت في هذه الفترة مؤلفات عديدة في الطب والصيدلة والفلك والحساب وغيره.

1 ـ الطب

لقد كانت الدراسات الطبية منذ القرن 16م إلى القرن 18م، ما تزال تعتمد على المؤلفات التي كتبت في العصور السابقة، خاصة المنسوبة لابن سينا والرازي وابن النفيس، وكان الطب والفروع المرتبطة به كالتشريح والصيدلة، تدرس في مصر والشام في البيمارستانات؛ مثل البيمارستان الصغير و القيمري بدمشق، و النوري بحلب وأخرى في نابلس، الرملة، القدس وغيرها.[1] وفي مصر ظل البيمارستان المنصوري حتى القرن 19م قائما، وكان يدرس فيه الطب.[2] وكانت مدارس اسطنبول كالسليمانية تكوّن الأطباء من مصر والشام.[3]

و مع أن مستويات الطب في هذه الفترة لم تكن مزدهرة كفاية، خاصة فيما يتعلق بمكافحة الأوبئة كالطاعون وعدد الأطباء كان قليلا.[4] ومع ذلك انتشر بالموازاة مع ذلك الطب الشعبي، الذي كان يتعاطاه أناس توارثوا مهنة الطب وكثيرا ما كانوا حلاقين ويعتمدون على وصفات الطب القديمة، عن طريق العقاقير والأعشاب و الفصد و الحجامة.[5] واعتمدوا أيضا على الطب النبوي.[6] و لذلك ظهرت علاجات مفيدة فمثلا ذكر أحد الرحالة الفرنسيين، أن المصريين كانوا يشربون كميات كبيرة من البراندي، للوقاية من الإصابة بالطاعون، حتى أن أحد الأطباء الإيطاليين كانوا يعتمد على هذه الطريقة.[7]

وخلال القرن 18م كانت الدولة العثمانية هي السباقة للتطعيم من الجدري، وذلك عام 1716 م حيث شاع خبره في انجلترا، بعد الخطاب الذي كتبته ماري مونتاغو(ت 1762م)، وهي زوجة سفير انجلترا باسطنبول.[8] وكان للجاليات الأوروبية بمصر والشام، دورا فعالا في إدخال المستجدات في الطب من أوروبا

---

(1) ليلى الصباغ، المجتمع السوري، ص 200.

(2) أحمد شوكت الشطي، تاريخ الطب وآدابه وأعلامه، مطبعة طربين، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1967م، ص 348.

(3) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 488، 489.

(4) علي حسون، المرجع السابق، ص 402.

Gamal El – Din , El. Shayyal , « Some Aspects of Intellectual and Social Life in Eighteenth – Century Egypt » , In .P.M. Holt, op.cit, p.119.

(5) أحمد شوكت الشطي، المرجع السابق، ص 468، 469.

(6) كمال مغيث، المرجع السابق، ص 270، 271. =

خاصة اليهود، الذين كانوا بارعين في الطب، وعلى اطلاع بالمستجدات خلال القرن 16م و 17م.[1] و لذلك ازدادت الرغبة في الإطلاع على الجديد في الطب، عن طريق الترجمة خلال القرن 18م، حيث ظهر عدد من الأطباء الأجانب في القاهرة، وترجم كتابين أوروبيين في الطب أواخر القرن، وظهرت صيدليات يديرها أوروبيون في القاهرة أيضا.[2]

أ ـ مؤلفات الطب بين القرنين 16 و 18م :

لقد برزت العديد من الأعمال، التي كانت شروحا أو مختصرات للأعمال السابقة، مع الكثير من الإضافات، نذكر على سبيل المثال الطبيب الشهير داود بن عمر الأنطاكي (ت 1008 هـ/1599م)، الذي ولد بأنطاكية وسافر إلى مصر ودمشق، وترك ما يقرب من 50 مؤلفا في علوم شتى، على رأسها الطب، المنطق، الفلك. و من مؤلفاته البارزة في الطب ؛ كتاب "تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب"، وهو من أهم مؤلفاته حيث ذكر فيه ما اشتملت عليه كتب أطباء اليونان والعرب، مع التعديل وإضافة معلومات مستمدة من روح عصره.[3]

وأعد فيه قسما للمفردات مستعينا بكتاب "الجامع" لابن البيطار، كما أنه ذكر العديد من العقاقير التي تعرف عليها من تجاربه، وذكر حوالي 1712 دواءاً، على الرغم من أن ابن سينا لم يذكر سوى 800 علاجا في كتابه "القانون".[4] ومن مؤلفاته كتاب "غاية المرام ونزهة الأذهان في إصلاح الأبدان" في التشريح، و "الدرة المنتخبة فيما صح من الأدوية المجربة"، و "النزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة".[5] وقد ذكر حتى العلاج الفيزيائي عن طريق التدليك، لما تكلم عن علاج الطبيب محمد شريف العجمي له من شلله.[6]

وكان القرن 17م/11 هـ من أنضج عصور الطب، من خلال عدد المؤلفات التي كتبت في فروعه حيث برزت أعمال الطبيب الحلبي صالح بن نصر الله بن سلوم* (ت 1081 هـ/1670م ـ1671م) الـذي تأثر

= (7) جون أنتيس، المصدر السابق، ص 76. و البراندي هو شراب مسكر.

(8) أحمد شوكت الشطي، تاريخ الطب، ص 423، 424.

(1) يوسف نعيسة، المرجع السابق، ص 34، 35. قارن : E. Brown, op.cit, P. 126

(2) G. Shayyal, op.cit, P. 119

(3) أحمد شوكت الشطي، المرجع السابق، ص 468، المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 140.

(4) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 645.

(5) الخفاجي، المصدر السابق، ورقة رقم 137.

(6) المحبي، المصدر السابق، ص 140 ـ143.

* درس في دار الشفاء بحلب ثم رحل إلى اسطنبول عام 1654م وأصبح طبيبا للخاصة السلطانية ثم كبيراً للأطباء في دار الشفاء الفاتح ثم رئيسا عاما للأطباء عام 1656م. أنظر: أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق، ص 660.

كثيرا بالمستجدات في الطب الأوروبي، في عصر النهضة، من خلال ترجمة بعض كتب الطبيب الأوروبي باراسلسوس(1493 ـ1541م)، الذي استحـدث الطب الكيميائي، الذي وعـرف في الآستانة بالطـب الجديد، ومن أهم مؤلفاته كتاب "غاية البيان في تدبير بدن الإنسان"؛ الذي تضمن معلومات لما سبق مع وجود إضافات مبتكرة، وترجمته لكتاب الطبيب المذكور وعنوانه "أياتروكيميا "« Latro chemistry » ، الذي أضاف إليه آراءه وتجاربه، وقام بشرح نظرياته. وله أيضا كتاب "أقراباذين جديد" في علم الأدوية بالعربية والذي ترجم لاحقا للتركية.[1]

واشتهر من الشوام أيضا، الطبيب مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي(ت 1033 هـ/1623م)، الذي ألف رسالتان حول وباء الطاعون هما ؛ "تحقيق الظنون بأخبار الطاعون" و" ما يفعله الأطباء والداعون لدفع شر الطاعون".[2] وفي نفس الموضوع كتب فتح الله الحلبي البيلوني (ت 1042 هـ/1632م)، الذي برع في الطب كتابا سماه "خلاصة ما يعول عليه الساعون في أدوية دفع الوبا و الطاعون".[3]

أما من المصريين فاشتهر أحمد القليوبي المصري (ت 1069 هـ/1659م)، كان بارعا في الطب وله مؤلفات في هذا المجال؛ منها "الطب والعلاج العربيان" و"المصابيح السنية في طب البرية".[4] والطبيب مدين القصوني (ت بعد 1044 هـ/1634م)، الذي تولى مشيخة الطب بمصر وله مؤلفات فيه منها "قاموس الأطباء في المفردات".[5] والذي جمع فيه خلاصة ما قدمه الأطباء من تجارب في الطب والتشريح، مرتبا على حروف المعجم.[6] وكتب تاج الدين النقشبندي رسالة في أنواع الطب.[7]

و برع عبد الرؤوف المناوي (ت 1031 هـ /1621م)، في الطب وترك مؤلفات فيه؛ مثل "منحة الطالبين لمعرفة أسرار الطواعين"، وكتاب "التشريح والروح وما به صلاح الإنسان وفساده"، وكتاب "بغية المحتاج في معرفة أصول الطب والعلاج"، و كان له كتاب جمع فيه 10 علوم مختلفة، من بينها علم التشريح والطب.[8]

---

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية ، ص 660، 661.

(2) المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 358 ـ360.

(3) نفسه، ج3، ص 255.

(4) نفسه، ج1، ص 175، أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق، ص 343، 344.

(5) المحبي، نفسه، ج4، ص 333، 334.

(6) أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق، ص 343.

(7) ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 261.

(8) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 415، 416.

وخلال القرن 18م كان هناك عدد من الأطباء الذين مارسوا الطب، وتولوا مشيخته بمصر والشام ولكن عدد قليل منهم ترك مؤلفات؛ منهم أحمد الدمنهوري المصري (ت 1192 هـ/1778م)، الذي برع في الطب ودرس عدة كتب حوله.[1] ومحمد بن عبد الله الشهير بالريس الغزي(ت 1130 هـ/1717م)، كان ماهر في الطب والهيئة واشتهر بعلاج الناس، وله مؤلفات في الطب.[2]

ب- مؤلفات الطب خلال النصف الأول من القرن 19 م :

لقد ازداد التأثر بالغرب في مصر خاصة خلال هذه الفترة، ونتج عن ذلك ترجمة العديد من المؤلفات الأوروبية، في مجال الطب إلى اللغة العربية والتركية، مع تعريب المصطلحات الطبية الحديثة. وكان معظم المترجمين من أساتذة مدرسة الطب، وتلاميذها ومنهم أوروبيين، ومن جملة الكتب التي ترجمت، كتب كلوك بك (1793 ــ 1868م)، مؤسس مدرسة الطب حيث ألف نحو 10 كتب في عدة مواضيع، مثل "رسالة في الطاعون"، و"رسالة فيما يجب اتخاذه لمنع الجرب والداء الإفرنجي، طبعت عام 1251 هـ/1835م)، وقام العنحوري بترجمة رسالة له أيضا، هي "مبلغ البراح في علم الجراح"، وكتاب "القول الصريح في علم التشريح" وترجم الرشيدي "نبذة في تطعيم الجدري"، و كتاب "العجالة الطبية فيما لابد منه لحكماء الجهادية" الذي ترجمه السكاكيني.[3]

ومن الكتب التي ترجمت في فروع الطب مثلا؛ "نزهة الرياض في علم الأمراض" و"روضة الأذكياء في علم الفيسيولوجيا"، ترجمها يوسف فرعون السوري. وفي طب العيون ترجم الرشيدي "ضياء النيرين في مداواة العينين"، وأضاف لها أمورا كثيرة. وفي أمراض النساء والأطفال ترجم علي هيبة؛ كتاب "طالع السعادة والإقبال في علم الولادة وأمراض النساء والأطفال".[4]وفي الجراحة ترجم محمد علي البقلي (1876م)، "غرر النجاح في أعمال الجراح".[5]وفي علم الصيدلة والأدوية ترجم كتاب "الأقراباذين"، و"دستور الأعمال الأقرباذينية لحكماء الديار المصرية" من طرف يعقوب.[6]

ومن المؤلفات التي ظهرت في مصر بعيداً عن الترجمة ،كتاب "شرح النزهة" لداود الأنطاكي، الذي ألفه حسن العطار عام 1814م، كان من أهم كتب الطب في تلك الفترة، وكانت فيه إضافات هامة شغل

(1) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 117.
(2) نفسه، ج4، ص 59.
(3) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج4، ص 268، 269.
(4) نفسه، ص 171، 174.
(5) علي المحافظة، الإتجاهات الفكرية، ص 206.
(6) المرجع السابق، ص 171.

400 صفحة، وتكلم عن العديد من المواضيع معتمدا على ابن سينا، وأكد في شرحه هذا على أهمية التشريح التجريبي، من أجل التشخيص الصحيح في الطب الباطني، وقدم أفكارا من خبرته الشخصية.[1] و منظومة علي الطحان في الطب (ت 1207 هـ/1792م) .[2]

أما بلاد الشام في هذه الفترة، فكانت مرتبطة بما يحصل في مصر، فمعظم المترجمين كانوا من الشام خاصة المسيحين، لكونهم كانوا يجيدون اللغات الأوروبية مثل يوحنا عنحوري ويوسف فرعون وإبراهيم النجار (ت 1280 هـ/1863م) من لبنان، الذي درس بمدرسة الطب بالقصر العيني، وتخرج طبيبا وعين طبيبا للعساكر الشاهانية، في مارستان بيروت العسكري، وألف كتاب "هدية الأحباب وهداية الطلاب في المواليد الثلاثة".[3]

ج- الطب النفسي خلال العهد العثماني :

لقد انفصلت الأمراض العقلية عن النفسية في الدولة العثمانية، حتى قبل عام 1453م. وكان الطبيب العثماني سينوبلي مؤمن جلبي، قد دقق في الأمراض العقلية والنفسية، وفصلها في 25 بابا في كتاب "ذخيرة المرادية"، أهداه للسلطان مراد الثاني، وكتب شعوري أفندي كتابا سماه "مرآة أمزجة "، بحث فيه طرق مداواة الأمراض النفسية بالموسيقى.[4] وكتب محمد القوصوني (ت 931 هـ/1524 ـ1525م)، 10 كتب منها ما يخص الأمراض النفسية وطرق علاجها؛ مثل كتاب "دستور العلاج في إصلاح المزاج".[5] وكان العثمانيون متفوقون على أوروبا في هذا المجال.

و في مصر والشام كان الأطباء يعتمدون على الطب الروحي، و هو يشبه الطب النفسي فقد اشتهر في دمشق الطبيب أبو بكر المعروف بابن الحكيم(توفي نحو عام 1002 هـ/1593م)، درس الطب على والده، وكان يعالج بالعقاقير المعنوية عن طريق التعويذات، خاصة وأنه كان يعرف الأوفاق.[6]وكان هناك طبيب آخر هو محمد القويضي الصالحي، الذي اشتهر بالطب الطبائعي، وسافر إلى اسطنبول وأعطي رئاسة الطب بدمشق.[7] و ظهرت في مصر خلال القرن 18م، أشكال من العلاج النفسي، كالاهتمام بتفسير الأحلام

(1) بيتر جران، المرجع السابق، ص 298، 300، 301.

(2) الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص 374.

(3) خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 220، 221.

(4) أوزوتونا يلماز، المرجع السابق، ص 534، 535.

(5) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 644، 645، الخفاجي، المصدر السابق، ورقة، رقم 137.

(6) المحبي، المصدر السابق، ج1، ص 96، 97.

(7) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج2، ص 44.

و العلاج بالموسيقى وبالمياه، والمحافظة على علاقات ثابتة بين المعالج والمريض، لم تكن معروفة في أوروبا كعلم. ومثلت بعض الطقوس والحركات، التي كانت تمارسها بعض الطرق الصوفية في الواقع نوعا من العلاج النفسي.(1)

2 ـ علم الفلك*

لقد ارتبط علم الفلك بالتنجيم، فقد ربط العلماء حركات الكواكب، بما يحصل في الأرض من أحداث وكان في الدولة العثمانية منصب منجم باشي(رئيس المنجمين).(2) كما ارتبط كثيراً بعلم الميقات لتحديد مواقيت الفرائض الدينية، كمواقيت الصلوات ومواسم العبادات، وتحديد صلوات الكسوف والخسوف وتحديد القبلة ورؤية الهلال وغيره، مما جعلهم يهتمون بالبحث في المسائل الفلكية، ووجدت في مكتبات الدولة العثمانية ومصر والشام، مؤلفات كثيرة في الفلك، تعود للعصور الإسلامية السابقة، سواء كانت عربية أم فارسية أو ترجمات لكتب يونانية.(3)

ومنذ القرن 18م/12 هـ حصل تجديد في علم الفلك بشكل واضح، بازدياد حركة الإقتباس من الغرب وترجمة الأزياج** الجديدة إلى التركية والعربية، سواء بالآستانة أو بمصر والشام.(4) حيث ترجم خلال القرن 17م/11 هـ ،"زيج نويل دوريه (Moel Duret) عام 1650م من اللاتينية إلى التركية، من طرف تذكرجي كوسه إبراهيم أفندي الزيكتواري، وهي أول ترجمة أدخلت المصطلحات الفلكية الجديدة لكوبرنيكوس إلى الدولة العثمانية.(5) فقد كان زيج أولغ بك(6)من أهم ما وصل إليه علماء الفلك إلى أن ظهرت فيه أخطاء، فجاء بدلا منه زيج كاسيني(7)خلال القرن 17م، ثم صحح لالاند الراصد الفرنسي

---

(1) بيتر جران، المرجع السابق، ص 297، 298.

* و يطلق عليه أيضا "علم الهيئة"، وهو علم يمكن من التعرف على الأجرام وأشكالها وأبعادها و أوضاعها. أنظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، "هـ" ، ص 435.

(2) عباس العزاوي، تاريخ علم الفلك في العراق وعلاقاته بالأقطار الإسلامية والعربية في العهد العثماني، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، سوريا، (د.ط)، القسم 2، 1955م، ص 25.

(3) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية ، ص 478. Toderini, op. cit, pp . 140, 141 .

** الزيج كلمة فارسية؛ وهو عبارة عن جداول فلكية مرتبة بنظام خاص، تجمع من حصيلة أرصاد لعدة سنوات لتعيين مواضع الكواكب والأجرام السماوية على أساسا قواعد حسابية. أنظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، "ز"، ص 26.

(4) عباس العزاوي، المرجع السابق، ص 3.

(5) زيج أولغ بك شيده أولغ بك في سمرقند عام 832 هـ/1428م)، وعمل على تصحيح ما جاء به بطليموس وألف كتابا سماه "الزيج الجديد السلطاني" . أنظر: دائرة المعارف الإسلامية، مج 2، ص 514، 515.

(6) أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق ، ص 658.

(7) أسس في باريس (1667م/1077 هـ) أيام لويس 14 وكان كاسيني جان دومينيك مديره الأول (ت 1712م) وخلفه ابنه جاك =

أخطاءه عام 1800م، فأصبح زيج لالاند هو المعمول به.[1] وقد دخل زيج كاسيني إلى الدولة العثمانية، من طرف السفير محمد أفندي، لما ذهب إلى باريس في عهد أحمد الثالث أواخر عام 1132هـ /1719م)، ونقل إلى التركية في عهد مصطفى الثالث، وذلك عام 1184 هـ/1770م)، فحل محل زيج أولغ.[2] وكان هذا الزيج هو أولى التجديدات، في الأرصاد الفلكية في الدولة العثمانية. وفي عام 1260 هـ/1844م) ترجم بحلب وحولت درجاته إلى درجات طول حلب.[3]

وخلال عهد مصطفى الثالث أدخل البارون دوتوت "زيج لالاند"و" لوغاريتم"، وتولى الفلكي حسين حسن مؤمن زاده نقله إلى التركية، حيث بدل أرقامه وأهداه إلى السلطان محمود الثاني.[4] ودخل هذا الزيج إلى الشام، من طرف بطرس عنحوري عام 1814م، الذي جلب من أوروبا، كتبا في الفلك والكواكب.[5] وبذلك احتكت بلاد الشام بالمستجدات التي حصلت بأوروبا في علم الفلك ، بحيث واكبت ما كان يحصل في اسطنبول، فقد أدخل زيج لالاند إلى دير القمر تقريبا في نفس الفترة التي دخل فيها الآستانة.

أما في مصر فاحتك علماء الفلك لأول مرة بالمستجدات الفلكية الأوروبية، مع أواخر القرن 18م خلال عهد الحملة الفرنسية، حيث شاهد الجبرتي الفلكي الفرنسي (Nouet)، الذي اخترع آلات فلكية لمعرفة درجات الحرارة في كل برج، ومداراتها شهرا بشهر. واستنتج أنهم وصلوا إلى معارف بعيدة عما كانوا يمارسونه في الفلك بمصر، ووصف المنظار الفلكي والساعات الدقيقة.[6] ولما زار محمد الألفي(ت 1221هـ /1806م)، انجلترا عام 1803م أدخل معه العديد من الكتب الفلكية.[7]

أ ـ مؤلفات علم الفلك خلال القرنين 16 و 17م :

لقد ظهر العديد من العلماء، الذين كتبوا مؤلفات شرحوا فيها أمورا كانت غامضة، وأعدوا التقاويم المختلفة، وحالوا مواءمة أرصادهم مع المستجدات التي حصلت في أوروبا. و من أشهر هؤلاء تقي الدين بن معروف الراصد، (932 هـ ـ ت 993 هـ/1526م ـ 1585 م)، الذي كان بارعا في علم الفلك، وقد اختلف

= (1677 ـ 1756م) . أنظر: عباس العزاوي، المرجع السابق، ص 26.

(1) عباس العزاوي، المرجع السابق، ص 26 ـ 30.

(2) نفسه.

(3) نفسه، ص 46.

(4) نفسه، ص 28 ـ 30.

(5) ميخائيل مشاقة، المصدر السابق، ص 119.

(6) الجبرتي، المصدر السابق، ج3 (دار الكتب)، ص 92، 93، 58، 59.

(7) نفسه، ج3 (دار الفارس)، ص 149، بيتر جران، المرجع السابق، ص 144.

حول أصله هل دمشق أم القاهرة ، والمهم أنه اشتغل في كليهما ورحل إلى اسطنبول، وعمل على تصحيح زيج أولغ بك، وتولى إنشاء مرصد اسطنبول في عهد مراد الثالث (1574 ـ1595م)، الذي عرف بـ "الرصد الجديد"، وقد أفتى شيخ الإسلام بهدمه ؛ لاعتبار أنه تقام به أعمال التنجيم.(1) ولكن تقي الدين ترك انجازات هامة في علم الفلك خلال تلك الفترة، فقام بأرصاد مختلفة حول الكسوف والخسوف، واستخدم لأول مرة ساعة ميكانيكية وابتكر آلات فلكية ، وطور تلك التي كانت تستخدم في المراصد الإسلامية القديمة.(2)

ومن مؤلفاته "سدرة منتهى الأفكار في ملكوت الفلك الدوار" ، وهو أهم مؤلفاته جمع في هذا الكتاب الأرصاد التي أجريت في المرصد الجديد، وتناول فيه الساعات الفلكية، والتعريف بآلات الرصد وأصولها. والجديد الذي جاء به هو أنه طور طريقة جديدة، لتحديد قيمة الجيب ذي الدرجة الواحدة، وبالتالي استخدم في الحسابات الفلكية، نظام العدد ذي القاعدة العشرية، بدلا من ذي القاعدة الستينية . ومن مؤلفاته أيضا كتاب "جريدة الدرر و خريدة الفكر"، وطبق فيه لأول مرة الكسور العشرية على حسابات المثلثات. و"ريحانة الروح في رسم الساعات على مستوى السطوح"، يتحدث عن الساعات الشمسية المرسومة على المسطحات، وكتاب " الكواكب الدرية في البنكامات الدورية " و " الدر النظيم في تسهيل التقويم".(3)

واشتهر عالم فلكي آخر في الشام، وهو عبد الرحيم العجمي المؤقت بالجامع الأموي، الذي ترك مؤلفات في الفلك، مثل كتاب "الزيج في الفلك" و" فعل الكواكب الثابتة ".(4) ومحمد بن محمد الغزي الدمشقي (ت 935 هـ/1528م) ،الذي كتب " ألفية في علم الهيئة ".(5) والفلكي أحمد الحلبي الطبيب المعروف بابن النفيس (ت 971 هـ/1563 ـ 1564م) ، ولد بحلب ورحل إلى مصر ثم إلى اسطنبول حيث ألف 10 كتب في الفلك، أهمها الشرح على كتاب نصير الدين الطوسي ؛ المعروف بالزيج الإيلخاني سماه "العقد اليماني في حل الزيج الإيلخاني"، وكتاب آخر سماه " تنبيه النقاد على ما في الهيئة المشهورة من الفساد"، تناول فيه بعض النقاط التي كانت موضع الجدل آنذاك في علم الفلك.(6)

ومن المصريين كان في القرن 16م ، الفلكي أبو الفتح الصوفي (ت1494م)، وابنه شمس الدين محمد (ت1544م) الذين تركا 26 مؤلفا في الفلك أشهرها" تصحيح زيج ألغ بك" حيث رتب خطوط ألغ بك على

---

(1) عباس العزاوي، المرجع السابق، ص 47.

(2) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 494.

(3) نفسه، ص 639، 640، المرجع السابق، ص 48.

(4) نجم الدين الغزي، لطف السمر، ج2، ص 509.

(5) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج2، ص5.

(6) أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق، ص 632.

خط طول مصر، وألف الإبن "زيج محمد الفتح الصوفي"، ورسالة هامة هي "رسالة في العمل بصندوق اليواقيت"، شرح فيها آلة تحديد الوقت وهي صندوق اليواقيت* وكيفية عملها.[1]

أما خلال القرن 17م فاشتهر من الفلكيين بالشام، الطرطوسي وهو من طرطوس بالشام ،كان بارعا في الفلك ألف كتاب "كفاية المعتورات في العمل بالربع المقنطرات" كتبه عام(1090 هـ/1679م)،ورسالة في العمل بربع المقنطرات".[2] وعبد الجليل المعروف بابن عبد الهادي الدمشقي (ت 1087هـ/1676م)، درس المنطق والرياضيات والفلك،وترك مؤلفات هامة منها "الربع الجامع في أعمال الليل والنهار"،وله "رسالة في الربع المقنطر".[3] و كتاب "الدر اللامع في العمل بالربع الجامع".[4]

و بمصر اشتهر أبو الخير الأرميوني، الذي ألف 14 كتابا منها "المنهل الثاقب في تحريك الكواكب"رتبه على أبواب،وتحدث فيه عن الأجرام الثابتة وخطوط عرضها ودرجات ميلها. وله كتاب آخر سماه "النجوم الشارقات في ذكر الصنايع المحتاج إليها في علم الميقات"، رتبه في 25 بابا وتحدث فيه عن صنع الآلات الفلكية وكيفية عملها.[5] و عبد الله بن أحمد المقدسي الأزهري (كان حيا عام 1668م)، ألف كتابا عن المذنب الذي ظهر ليلة 21 رمضان 1078هـ/1668/3/6م، سماه "تحفة الألباب في بيان حكم ذوات الأذناب"،وكتاب في آلات الفلك "تحفة اللبيب وبغية الأريب".[6]

وظهر شهاب الدين أحمد القليوبي(ت 1069 هـ/1658م) بمؤلفه "الهداية من الضلالة في معرفة الوقت والقبلة من غير آلة" وهو في الميقات.[7] واشتهر الفلكي عبد الله محمد الرضواني،(ت بدمشق 1094 هـ/1682 ـ1683م)،الذي تنقل بين مصر والشام واسطنبول،وألف ثماني كتب كلها في الآلات الفكية؛ منها "بهجة الطلاب في العمل بالإسطرلاب" وصنع كرة لتحديد الوقت.[8]

---

* هي آلة لتحديد الوقت ابتكرها علاء الدين بن الشاطر الدمشقي.

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي ،الدولة العثمانية، ص 634.

(2) عباس العزاوي، المرجع السابق، ص 45.

(3) المحبي، المصدر السابق، ج 2، ص 300، 301.

(4) ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 255.

(5) أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق، ص 656، 657.

(6) نفسه، ص 657.

(7) عباس العزاوي، المرجع السابق، ص 49.

(8) المرجع السابق، ص 657، 658.

ب- مؤلفات علم الفلك خلال القرن 18م و مطلع القرن19 م :

لقد برز خلال القرن 18م عدد من علماء الفلك،قدموا أعمالا ساهمت كثيرا في تحديد التقاويم السنوية،ودراسة الظواهر الفلكية؛ومن بينها في مصر مؤلفات جمال الدين الكلارجي الفلكي(ت1153 هـ /1740م)، الذي برع في الحساب والهندسة والفلك، وألف كتابا في منازل القمر وخواصها هو "كنز الدرر في أحوال منازل القمر"، وكان له كتب وآلات فلكية لم تكن لدى غيره منها الزيج السمرقندي.[1]

ورمضان بن صالح السفطي الخانكي الفلكي(ت 1158 هـ/1745م)،كان بارعا في الفلك وقام بتصحيح الأرقام وبسط القواعد، التي جاءت في الزيج السمرقندي، وقام بتحريك 336 كوكبا من الكواكب الثابتة، المرصودة بالرصد الجديد بالأطوال والأبعاد،وحدد مطالع القمر ودرجاته لسنة 1139 هـ/1726م وترك مؤلفات هامة منها:"القول المحكم في معرفة كسوف النير الأعظم"،و"رشف الزلال في معرفة استخراج قوس مكث الهلال بطريقي الحساب والجدول".[2]

وله "نزهة النفس بتقويم الشمس بالمركز والوسط"، و"كفاية الطالب لعلم الوقت وبغية الراغب في معرفة الدائر وفضله" وله في الكسوف والخسوف "السمت والكلام المعروف في أعمال الكسوف والخسوف" و"بغية الوطر في المباشرة بالقمر". وكتب رسالة هامة في حركات أفلاك السيارة،و هيآتها وحركاتها وترتيب جداولها على التاريخ العربي،على أصول الرصد الجديد. وله كتاب أيضا "كشف الغياهب عن مشكلات أعمال الكواكب"،وحرر طريقة جديدة عن طريق"الدّر اليتيم" يحتاج إليها في أعمال الكسوف و الخسوف.[3]

واشتهرت أيضا مؤلفات رضوان أفندي الفلكي الرزاز (ت 1123 هـ/1711 ـ 1712م)، تعلم في مصر وألف 17 كتابا في الفلك، وكان بارعا في صنع الآلات الفلكية، وهو صاحب الزيج الرضواني الذي وضعه على طريق "الدر اليتيم" لابن المجدي ،على أصول الرصد الجديد السمر قندي. وله مؤلفات منها : "طراز الدرر في رؤية الأهلة والعمل بالقمر".[4] و"دستور أصول الميقات ونتيجة النظر في تحرير الأوقات"، و"نتيجة الأفكار في أعمال الليل والنهار في التقويم".[5] وله أيضا "قران العلويين زحل والمشتري بوسط المسير" تعرض فيه لاقتراب هذين الكوكبين ووضع شرحا لزيج أولغ بك "الدر الفريد على الرصد الجديد".[6]

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 245.

(2) نفسه، ص 242.

(3) نفسه، ص 130، 131.

(4) نفسه.

(5) عباس العزاوي، المرجع السابق، ص 49.

(6) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 669.

وبرز أيضا حسن الجبرتي (ت 1188 هـ/1774م)، الذي ألف 19 كتابا في الفلك منها : "حقائق الدقائق في دقائق الحقائق" تناول فيه الحساب الستيني، وله حاشية على شرح "الملخص في الهيئة" لقاضي زاده.[1] واشتهر كذلك مصطفى الخياط (ت 1203 هـ/1788م)، الفلكي البارع في الحساب وحل الأزياج وتحويل السنين، وإعداد التقاويم واستخراج أوقاتها بدقة. حيث كان يستخرج كل عام دستور السنة وله مؤلفات منها "جداول حل عقود مقومات القمر بطريق الدر اليتيم" ؛ وهو تسهيل وشرح لما كتبه رضوان أفندي في "أسنى المواهب".[2] و وضع حسن أفندي الروزنامجي ؛ تلميذ رضوان أفندي المذكور سابقا، عدة كرات نقش عليها الكواكب المرصودة ودوائر العرض والميول، وكتب أسماءها وطلاها بالذهب، وذلك عام 1112هـ و 1113هـ /1700و1701م) .[3]

وبرز في الشام خلال القرن 18م عبد الرحيم المخللاتي (ت 1140 هـ/1727م)، الذي كان له تصرف بارع في الآلات الفلكية.[4] وإبراهيم الغزي الصايحاني(ت 1197 هـ/1782م)، الذي له مؤلف في الربع المقنطر.[5] أما في مطلع القرن 19م فتراجع التأليف، ومال الكل إلى الترجمة، وأبرز عمل كان لحسن العطار (ت 1250 هـ /1834م)، وهو"رسالة في كيفية العمل بالإسطرلاب"* ، والربعين المقنطر والمجيب و البسائط.[6]

3 ـ العلوم الرياضية

لم تهمل العلوم الرياضية خلال العهد العثماني بمصر والشام، بل ظهرت مؤلفات عديدة حول الحساب والهندسة والجبر والمقابلة والمساحة، ففي القرن 16م اشتهر تقي الدين بن معروف الراصد المذكور سابقا في علوم الهندسة، وألف خمسة مؤلفات في الرياضيات ؛منها ترجمة عربية لكتاب أوكرثيد وسيوس وله كتاب عملي بعنوان "كتاب النسب المتشاكلة في الجبر والمقابلة"، و هو في الجبر وأهم أعماله تطبيقه للكسور العشرية في علم المثلثات، ومن مؤلفاته أيضا "دستـور الترجيح لقواعد التسطيح" في الهندسة، وهو يتحـدث عن تسطيح الكرات.[7]

---

(1) الجبرتي، المصدر السابق، ج1(دار الفارس) ،ص 440 ـ465 ، أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية ، ص 672.

(2) الجبرتي، نفسه، ج2 (دار الكتب)، ص 280.

(3) نفسه، ج1 (دار الفارس)، ص 178.

(4) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 201، 202.

(5) نفسه، ج1، ص 6.

* الإسطرلاب هو لفظ يوناني مركب ومعناه "مرآة النجم" وهو آلة فلكية استخدمها القدماء في تحديد ارتفاع الكواكب. أنظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات التاريخية، "أ"، ص 28.

(6) خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 155 ـ157.

(7) أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق، ص 638، 639، الخفاجي، المصدر السابق، ورقة رقم 40 ـ42.

واشتهر في الشام، عثمان بن علاء الدين بن المليك الدمشقي (كان حيا عام 1002 هـ/1593م ـ 1594م)، الذي كان له ثلاث كتب في الرياضيات؛ منها ما ألفه لمحاسبي الديوان مثل "الأسعاف الأتم بأحاسن الفنون وحساب القلم"، وكتاب في علم الحساب عرف باسم "شمس النهار في صناعة الغبار".[1] ورضي الدين الحنبلي (كان حيا 908 هـ/1502ـ1503م)، كان يعرف علوما شتى وألف ما يزيد عن 30 كتابا في المعقول والمنقول، وله في الرياضيات أربع مؤلفات منها : شرح على " غنية الحساب في علم الحساب" لأحمد بن ثبات قاضي الهمامية (ت 1233 م).[2] ومحمد ابن الحنبلي (ت 971 هـ/1563م)، الذي ألف في علوم شتى منها : شرح "النزهة في الحساب"* ، و"الكنز المظهر في حل المضمر".[3]

أما في مصر فاشتهر شيخ الإسلام، زين الدين أبو يحي زكريا الأنصاري (ت 1519م /1520م) وهو أحد رواد الرياضيات بمصر. شرح كتاب ابن الهائم في الجبر المعروف باسم "المبدع في شرح المقنع"، وشرح كتابه في الحساب المعروف باسم "الوسيلة في الحساب".[4] وجمال الدين عبد الله الشنشوري المصري، ولد عام 1530م، وعرف بكتبه في الحساب والفرائض؛ من أهمها شرح على"مرشدة الطالب إلى أسنى المطالب"، و"المعونة في الحساب الهوائي" لابن الهائم وشرح على "تحفة الأحباب في علم الحساب" لسبط المارديني، وعلى كتاب "ترتيب المجموع وإظهار السر المودوع" لابن المجدي.[5]

و خلال القرن 17م كانت مؤلفات بهاء الدين العاملي(ت 1031 هـ/1621 ـ 1622م)، خاصة كتابه "خلاصة الحساب"، محل الدراسة في المدارس العثمانية، و كتبت خلال هذا العهد شروح كثيرة عليها، فقد استطاع أن يبتكر طرائق في الحساب لم يسبقه إليها غيره، وجعل بحوث الحساب والمساحة والجبر الصعبة في قالب سهل.[6] و برز من الشوام في علوم الحساب، أحمد صاحب الخال له "منظومة في الحساب". وأحمد بن مطير الذي كان له كتاب "تسهيل الصعاب في علمي الفرائض والحساب".[7] وعبد الجليل المعروف بابن عبد الهادي الدمشقي (ت 1087 هـ/1676م)، الذي ترك رسالة في الهندسة.[8]

---

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية ، ص 629.

(2) نفسه ، ص 628.

* "نزهة الحساب" وهو لشهاب الدين أحمد بن محمد الهائم (ت 815هـ) لخصه من المرشدة في علم الغبار. أنظر: حاجي خليفة، المصدر السابق، ج2 (إحياء التراث)، ص 1942.

(3) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص 42، 43.

(4) أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق، ص 626.

(5) نفسه، ص 628.

(6) نفسه، ص 654.

(7) ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 257. =

وفي مصر كتب شمس الدين محمد الأرميوني، (كان حيا 1019 هـ/1610 ـ 1611م)، ثلاث كتب في الرياضيات أهمها شرح على "نزهة النظار في علم الغبار" لابن الهائم، والكتابان الآخران هما رسالتان حول أسئلة وأجوبة عن المسائل الرياضية. وبرز أيضا محمد الشبراملسي (ت 1032 هـ/1622م ـ 1623م)، كان له مؤلفان في الحساب هما "الإرشاد للعلم بخواص الأعداد"، و"مباهج التيسير بمناهج التكسير".[1] واشتهر عبد القادر الفيومي (ت 1022 هـ/1613م)، كان بارعا في الهندسة والحساب، و له مؤلفات منها شرح "النزهة في الحساب"، وشرح "متن المقنع في الجبر و المقابلة".[2]

ومن أشهر علماء الرياضيات والهندسة، خلال القرن 18م بمصر حسين المحلى (ت 1170 هـ/1756م). الذي برع في المعقول وعلم الحساب، والجبر والمقابلة وعلم المساحة، وحل الأعداد والفرائض، ومن مؤلفاته شرح "النزهة" وألف كتابا هاما حول الظلال ورسم المنحرفات والبسائط والمزاول، جمع فيه ما كان في كتب السابقين من الأشكال والبراهين الهندسية.[3] واشتهر أيضا أحمد الخليفي الأزهري (ت 1209 هـ/1794م)، الذي تلقى العلوم الرياضية على حسن الجبرتي، وألف حاشية على متن"الياسمينية"في الجبر والمقابلة.[4]

وألف رمضان بن صالح الحجازي الخانكي(ت 1158 هـ/1745م)، كتابا في الحساب سماه "مطالع البدور في الضرب والقسمة و الجذور".[5] ومنهم أيضا أبو العباس أحمد الدمنهوري (ت 1192 هـ/1778م) ألف نحو مائة كتاب في عدة علوم، وله في الرياضيات التقليدية كتاب سماه "إحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد".[6] وكان أشهر عالم في العلوم الرياضية بمصر خلال القرن 18 م، حسن الجبرتي المذكور سابقا الذي كان يعمل في الكسور والمساحة، ويشتغل برسم المنحرفات والمزاول.[7] واستخرج فوائد الدر اليتيم" وحقق أشكال الوسايط في المنحرفات والبسائط.[8] ومن الذين جاؤوا بعده محمد الجناحي (ت 1200 هـ /1785م)، الذي ألف رسائل هامة في الحساب واستخراج الكسور والقسمة والجذور وغيرها.[9]

= (8) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 300، 301.

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 654.

(2) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 456، 457.

(3) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 302.

(4) نفسه، ج2 (دار الكتب)، ص 391.

(5) نفسه، ج1 (دار الفارس)، ص 242.

(6) أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق، ص 667.

(7) المصدر السابق، ص 461.

(8) نفسه، ص 452. =

وكان لمصر التفوق في هذا المجال مقارنة مع بلاد الشام، ومع ذلك ظهر عدد من العلماء الرياضيين، مثل عبد الغني بن فضل الصالحي(ت 1186 هـ/1772م)، الذي برع في الحساب والمساحة.[1] وسعدي بن عبد الرحمن الحسيني الدمشقي (ابن حمزة)، (ت 1132 هـ/1719م)، الذي برع في الحساب والهندسة والمساحة وغيرهم. [2]

وخلال القرن 19م ظهرت موجة واسعة، للترجمة والاقتباس من علوم الغرب، في مجال الرياضيات سواء في الدولة العثمانية.[3] أو في مصر خاصة وبلاد الشام. فقد بدأ احتكاك المصريين بالرياضيات الحديثة خلال الحملة الفرنسية، حيث تحدث الجبرتي عن الآلات الهندسية، التي كانت لدى الفرنسيين.[4] ثم بدأت حركة الترجمة في عهد محمد علي باشا، ومن أهم كتب الرياضيات والهندسة، التي ترجمت كتاب "الجبر والمقابلة"، طبع عام 1256 هـ/1840م، ترجمة محمد بيومي(ت 1851م)، كما ترجم كتاب "الهندسة الوصفية" في مجلدين. وترجم إبراهيم رمضان كتاب" القانون الرياضي في تخطيط الأراضي"، و" اللآلي البهية في الهندسة الوصفية" . وبرز محمد عصمت الذي ترجم كتاب "الأصول الهندسية". كما قام أحد كبار أساتذة المهندسخانة وهو أحمد فايد بك (ت 1882م)، بترجمة مؤلفات في الهندسة، مثل "الأقوال المرضية في علم بنية الأرضية"، ولأحمد دقلة كتاب "رضاب الغانيات في حساب المثلثات" ، و"كشف النقاب عن علم الحساب". [5]

أما بلاد الشام فكانت مرتبطة بمصر، خلال النصف الأول من القرن 19م، وساهم عدد كبير من السوريين في الترجمة، ولكن لم تبدأ الترجمة لكتب الهندسة والرياضيات فيها، إلا في النصف الثاني من القرن عن طريق مدارس الإرساليات، برعاية الدكتور كرينليوس فانديك (1818 ـ 1895م)، الذي دخل بلاد الشام عام 1840م، وأنشأ مدرسة عبيه بلبنان، وباشر في تأليف وترجمة كتب الطب والرياضيات. [6]

ومع أن حركة التأليف خلال هذه الفترة تراجعت، أمام اتساع حركة الترجمة، إلا أنه ظهرت بعض المؤلفات في الرياضيات التقليدية، مثل الحاشية الكبيرة على "شرح أشكال التأسيس" لقاضي زاده، من تأليف محمد بن حسن العطار الحلبي الدمشقي(ت 1243 هـ/1827 ـ 1828م)، وأحمد بن محمد الجناحي الذي

= (9) نفسه، ص 651.

(1) المرادي، المصدر السابق، ج3، ص 38.

(2) نفسه، ج2، ص 157، 158.

(3) أوزوتونا يلماز، المرجع السابق، ص 536.

(4) الجبرتي، المصدر السابق، ج2 (دار الكتب)، ص 51.

(5) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج4، ص 188 ـ 190.

(6) نفسه، ص 196، 197.

كتب كتابان في الرياضيات، أحدهما حاشية على شرح زكريا الأنصاري على منظومة ابن الهائم المعروفة "المقنع في الجبر و المقابلة"، وحاشية على الشرح المعروف بـ"اللمعة الماردينية" لسبط المارديني، على "الأرجوزة الياسمينية" لابن الياسمين (ت 1205م).[1] و هذه المؤلفات في العلوم الرياضية، تعمقت في أصول الحساب و أضافت الكثير من الفوائد التي لا يمكن تجاهلها، مما ينفي القول بانعدام العلم الرياضي خلال العهد العثماني.

4 ـ علم الكيمياء والفيزياء

لم تكن العناية كبيرة بعلم الكيمياء رغم أنها مرتبطة بالصيدلة وصناعة الأدوية، خاصة وأنها ارتبطت في هذا العهد أكثر بعلم السيمياء؛ الذي اعتمد على السحر والشعوذة، وذلك بتركيب أشياء من الخواص و الأدهان والمائعات، التي تؤدي إلى تغيرات في الواقع تكون خيالية.[2] وقد وصف أحد الرحالة الذين دخلوا مصر في القرن 17م، حال الفيزياء والكيمياء؛ بأنها كانت ضربا من الشعوذة، أو اعتماد أساليب معينة لتحويل المعدن إلى ذهب وكان ذلك أكيد بلا جدوى.[3]

ولذلك كان البعض لا يحبذ دراسة الكيمياء لكونها تبعد عن الدين.[4] ورغم ذلك كان هناك من يشتغل بهذه العلوم، وكتب فيها مؤلفات كانت من وحي الكيمياء القديمة في العصور السابقة. ومن أشهر هذه المؤلفات كتاب "رسالة في الكيمياء"، التي ألفها محمد بن محمد المغوش التونسي (ت 947 هـ/1540م).[5] وكتاب "أبكار الأفكار في كشف حقيقة النفس والكيمياء ومشارق الأنوار"، في مجلدين لابن صلاح الحلبي وكتب درويش مصطفى السكاكي(من علماء القرن 16م) رسالة عامة في الكيمياء.[6] واشتهر عدد من البارعين في الكيمياء، مثل محمد شمس الدين التنوري، الذي كان مشهوراً في علم الحساب والفرائض والكيمياء (ت 1003 أو 1004 هـ/1594م أو 1595م).[7]

وخلال القرن 17م و 18م كان محمد الحجازي الحمصي الدمشقي (930 هـ ـ ت1020 هـ/1523 ـ1611م)، من البارعين في الكيمياء.[8] واشتهر بها أيضا بمصر خلال القرن 18م محمد الزبداني الذي كان فريدا في صناعة التراكيب و التقاطير، واستخراج الأدهان.[9]

---

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 679، 680.

(2) حاجي خليفة، المصدر السابق، ج2 (إحياء التراث)، ص 1020.

(3) E. Brown, op. cit, P. 60

(4)Toderini, op. cit, To.2, pp. 136-138

(5) حاجي خليفة، المصدر السابق، ج1 (د.د. النشر)، ص 430.

(6) أكمل الدين إحسان أوغلي، المرجع السابق، ص 646.

(7) نجم الدين الغزي، لطف السمر، ج1، ص 147.

(8) نفسه، ج2، ص 162. =

وأحمد الدمنهوري (ت 1192 هـ/1778م).[1] واشتهر محمود الجزري بالسيمياء.[2] أما في الفيزياء فاشتهرت خلال القرن 16م، مؤلفات تقي الدين الراصد المذكور سابقا في الهندسة الميكانيكية؛ حيث ألف ثلاث كتب في الفيزياء والميكانيكا، وكانت مؤلفاته تدل على فكر متقدم.[3] ومن هذه المؤلفات كتاب "الطرق السنية في الآلات الروحانية"، وكتاب "الكواكب الدرية في وضع البنكامات الدورية" الذي استفاد فيه من الساعات الميكانيكية ذات الأصل الأوروبي.[4]

وكان حسن الجبرتي (ت 1188 هـ/1774م)، من البارعين في الهندسة الميكانيكية، حيث صنع الآلات المستعملة لدى الحرفيين وصنع الموازين والساعات، وقد جاءه طلاب من الإفرنج، وأخذوا عنه فن صناعة آلات جر الأثقال واستنباط المياه، وصنع الآلة المربعة لمعرفة الجهات و بركار الدرجة وغيرها.[5] أما في علم البصريات، فاخترع حسين بن قرنق الدمشقي، مرآة قادرة على إظهار الغائب عن طريق الرؤية المباشرة، وكان ذلك تطلع فكري سابق، أثبت العلم الحديث إمكانية حدوثه لولا أنه ارتبط كثيرا بالسحر.[6] واخترع محمد بن العنز اليماني، ناظورا يدرك به البعيد في نفس الفترة، التي اخترع فيها غاليليه منظاره الفلكي، الذي اعتبر ثورة كبرى خلال القرن 17م.[7]

واحتكت مصر بالفيزياء والكيمياء الحديثة، مع دخول الحملة الفرنسية، حيث تحدث الجبرتي عن المختبر الفرنسي الذي دخله، واصفا تجربة كيمياوية أدهشته هو وباقي العلماء الحاضرين، حيث شاهدوا السائل يتحول حجراً، بمزج بعض العناصر مع بعضها.[8] كما أظهر الجبرتي إعجابه بالطرق الهندسية في البناء لدى الفرنسيين والآلات المستعملة لجر الأثقال وتطيير المناطيد.[9] وفي عهد محمد علي تمت ترجمة كتب في الكيمياء مثل مؤلف الدكتور الفرنسي برون، "الجواهر السنية في الأعمال الكيماوية" طبع عام 1260هـ /1844م) في ثلاث مجلدات، وكتاب "الأزهار البديعة في علوم الطبيعة" طبع 1254 هـ/1838م) وغيرها.[10]

= (9) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 461.

(1) المرادي، المصدر السابق، ج1، ص 117.

(2) نفسه، ص 44، 45.

(3) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية ، ص 638.

(4) نفسه ، ص 638، 641.

(5) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 461، 462.

(6) ليلى الصباغ، أعلام الفكر، ص 24، 258.

(7) نفسه، ص 24.

(8) الجبرتي، المصدر السابق، ج3 (دار الكتب)، ص 59، 60.

(9) نفسه، ص 56.

(10) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج4، ص 168، 169.

5 ـ علم النبات و الحيوان ومؤلفات في علوم أخرى

أ ـ علم النبات والحيوان:

لقد عمل العلماء خاصة بين القرنين 16م و 18م على إحياء تراث أجدادهم في هذه العلوم، شرحا وتلخيصا وتعليقا و انتقاءاً، وأضافوا أشياء تخص عصرهم. ومن أمثلة الذين كتبوا حول النبات محمد الغزي (ت 935 هـ/1528 ـ 1529م)، الذي ألف كتابا في الزراعة سماه "جامع فرائس الملاحة وجوامع فوائد الفلاحة"، أو "الملاحة في علم الفلاحة".[1] وكتب ابن طولون الدمشقي كتابا في الزهور سماه "ابتسام الزهور في منافع الزهور والخضر" وكتاب في الخضر "عرف البان فيما ورد في الباذنجان".[2] وألف محمد بن إبراهيم المعروف بابن الحنبلي (ت 971 هـ/1563م) كتابا سماه "مخائل الملاحة في مسائل الفلاحة".[3] وخلال القرن 18م كتب أبو العباس الدمنهوري المصري (ت 1192 هـ/1778م)، كتابا حول استخراج المياه الجوفية سماه "عين الحياه في استنباط المياه".[4]

وفي علم الحيوان و البيطرة اشتهر كتاب "المصابيح المزهرة في علم البيزرة"* لتقي الدين الراصد خلال القرن 16م.[5] وقام ابن كنان الدمشقي باختصار كتاب "حياة الحيوان" للدميري كمال الدين (ت 808هـ /1405م) وألف رسالة حول خصائص الحصان، ورسالة حول الحيوانات سماها "زهر البان في نعوت الحيوان".[6] وترك عبد الرؤوف المناوي (ت 1031 هـ/1621م)، عدة رسائل حول النبات والحيوان و هي : "غاية الإرشاد إلى معرفة أحكام الحيوان والنبات والجماد"، وله كتاب في أسماء الحيوان سماه "قرة عين الإنسان بذكر أسماء الحيوان"، وكتاب آخر في أحكام الحيوان".[7]

و خلال القرن 19م شاهد علماء مصر في فترة الحملة الفرنسية، مدى تطور العلوم الطبيعية لدى الفرنسيين، و عاينوا التقنيات الحديثة في دراسة الحيوانات والنباتات؛ كتصوير الأسماك مثلا والحشرات والحيوانات، وتدوين أسمائها وأوصافها. وشاهد الجبرتي كيف كانوا يحفظون جثث الكائنات الحية في الماء الحافظ لتسهيل دراستها.[8]وهذا ما لم يكن موجوداً لا بمصر ولا بالشام. ولكن خلال عهد محمد علي نقلت

---

(1) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج2، ص 5.

(2) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 352.

(3) المصدر السابق، ج3، ص 42، 43

(4) المرجع السابق، ص 607.

(5) نفسه، ص 641.

* هو علم البيطرة.

(6) نفس المرجع ، ص 352.

(7) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 415. =

إلى اللغة العربية عدة كتب في مجال الحيوان والنبات و البيطرة؛ مثل يوسف فرعون الذي ترجم عدة كتب في البيطرة منها : "رسالة في علم البيطارية" وأخرى في "الطب البيطري"، و"تحفة الرياض في كليات الأمراض البيطرية".[1] وفي النبات ترجمت عدة مؤلفات منها "تصحيح كتاب النبات"، لمؤلفه أنطون فيجرى الذي ترجم من طرف غانم الرشيدي التونسي من تلاميذ البعثة الأولى.[2]

ب ـ المؤلفات في العلوم المختلفة

لقد كتب علماء العصر العثماني، مؤلفات في علوم مختلفة نذكر منها على سبيل المثال :

- **في الموازين والمكاييل والنقود :**

مثل كتاب "رسالة في عمل الميزان الطبيعي" لتقي الدين الراصد (القرن 16م) .[3] وألف محمد بن أبي الفتح الصوفي (ت 950 هـ/1543 ـ1544م) أربع كتب في الموازين والمكاييل منها : "إرشاد الوزان لمعرفة الأوزان"، و"تحفة النظار في إنشاء العيار من أصل المعيار"، وألف عثمان بن علاء الدين عام 997 هـ/1588 م ـ1589م كتابا سماه "نخبة الزمان وصناعة القبان".[4]

وألف حسن الجبرتي كتابا في الموازين سماه "الدّر اليتيم في علم الموازين"،وكان خبيرا في هذا المجال حيث كان يرسم المثاقيل و الصنج، ويصلحها على أساس هندسي.[5] و في مصر أيضا برز علي بن خليل شيخ القبان بمصر(ت 1199 هـ/1784م)، الذي كان ماهرا في علم الحساب وله معرفة جيدة بالموازين و القبان ودقائقه ودرس على حسن الجبرتي.[6]

ومن أشهر المعروفين بتحويل النقود في مصر خلال القرن 18م، الشيخ محمد بن موسى الجناحي المعروف بالشافعي (ت 1200 هـ/1785م)، ألف رسالة في تحويل النقود.[7] ومنصور الذهبي الكاملي (ت 1136 هـ/1723م)، كان له كتاب في النقود سماه "كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية".[8]

=(8) الجبرتي، المصدر السابق، ج3 (دار الكتب)، ص 59.

(1) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج4، ص 170، 171.

(2) نفسه، ص 169، 176.

(3) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 641.

(4) نفسه، ص 649.

(5) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 462.

(6) نفسه، ص 606.

(7) نفسه، ص 650، 651.

(8) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج3، ص 365.

- **في فنون القتال و الحرب و الصيد :**

ألف عدد من المهتمين مؤلفات في هذا المجال، مثل زين الدين عبد القادر أحمد الفقيهي عام947 هـ / 1540م ـ 1541م كتابا سماه "مناهج السرور في الرمي والسباق والصيد والجهاد". وكتب محمد بن عالي الحنفي (توفي نهاية القرن 15م) كتابين هما "الأس في العمل بالسيف والترس" و"الكفاية في علم الرماية". [1]

وكتب الدرويش علي الشاذلي الدمشقي نحو(1130 هـ/1717م)، كتابا بعنوان "مفتاح كنز النظام في أصل الرماية وتعليم الغلام"، وهو في علم الصيد. وبرز في نفس المجال كتاب "فضل القوس العربية" لمصطفى الشورنجي الفرحاتي (ت 1140 هـ/1727م). ووصف إبراهيم بن أحمد الأندلسي المعجام الرياش، آلات الحرب، ووضحها بالرسوم في كتابه "العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع". [2]

وخلال القرن 18م أيضا كتب محمد البخشي كتابا في الخيول، اسمه "رشحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد"، وتضمن مطارحات أدبية في الخيل، وما ورد فيها من الأحكام، ووصفها وذكر ما يتعلق بها من آيات، وأخبار ونوادر، وذكر خيول الرسول صلى الله عليه وسلم. [3]

- **في الأمثال والأحاجي والألغاز :**

ألف محمد الغزي الدمشقي (ت 1060 هـ/1650م)، كتابا في مقولات السلف سماه "عقد النظام لعقد الكلام". [4] وكتب القس حنانيا المنير (كان حيا عام 1222 هـ/1807م)، كتابا يشمل مجموعا من أمثال لبنان وبلاد الشام نحو أربعة آلاف مثل. [5] أما في الألغاز فألف عبد الرؤوف المناوي، كتابا سماه "بلوغ الأمل بمعرفة الألغاز والحيل". [6] ومحمد بن إبراهيم ابن الحنبلي (ت 971 هـ/1563م، له كتاب في الأحاجي والمعميات سماه "كنز من حاجى وعمى". [7]

- **في الآداب السلطانية والآداب العامة :**

ترك أدباء العصر العثماني، كتبا كثيرة حول الآداب والأخلاق والنصائح العامة، كما كتبوا حول الآداب التي تستوجب في السلطان، ومن أمثلتها كتاب إبراهيم ابن الحنبلي الحلبي (ت 959 هـ/1552م) في

---

(1) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص 648.

(2) جورجي زيدان، المرجع السابق، ج3، ص 364، 365.

(3) نفسه.

(4) المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 197.

(5) خليل مردم بك، المرجع السابق، ص 203، 204.

(6) المصدر السابق، ج2، ص 415.

(7) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص 42، 43.

آداب الرئاسة، عنوانه "مصابيح أرباب الرياسة ومفاتيح أبواب الكياسة".[1] وعبد الرؤوف المناوي الذي ألف كتابا في آداب الملوك سماه "الجواهر المضية في بيان الآداب السلطانية".[2] وكتب مرعي الكرمي المقدسي (ت 1033 هـ/1623م)، كتابا سماه "المسرة والبشارة في فضل السلطنة والوزارة".[3]

- **في الأوفاق والزايرجة والرمل وعلوم الحرف*:**

لقد راجت هذه العلوم الحرفية، كما كانت تسمى خلال العهد العثماني، وكانت مرتبطة بعلم الفلك والتنجيم والسحر، وظهرت أسماء لعلماء و حتى لفقهاء برعوا في هذه العلوم، ومن المؤلفات التي وضعت فيها، كتاب علي النبتيتي(ت حوالي 1060 هـ/1650م)، سماه "مطالع السعادة الأبدية في وضع الأوفاق والخواص الحرفية والعددية".[4] و في علم الرمل** كتب عبد الجليل بن عبد الهادي الدمشقي (ت 1087هـ /1676م) كتاب "الممتنع السهل في علم الرمل".[5]

واشتهر خلال القرن 18م محمد الكنثاوي الدانراكوي (ت 1154 هـ/1741م)، الذي ألف في هذا المجال عدة كتب منها: "الدر المنظوم والسر المكتوم في علم الطلاسم والنجوم"، ألف بمصر عام 1146هـ /1733م)، وكتاب "بهجة الأفاق وإيضاح اللبس و الأغلاق في علم الحروف والأوفاق"، و وضع شرحا على كتاب "الدّر و الترياق في علم الأوفاق".[6]

(1) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج2، ص 81.

(2) المحبي، المصدر السابق، ج2، ص 416.

(3) نفسه، ج4، ص 358 ـ360.

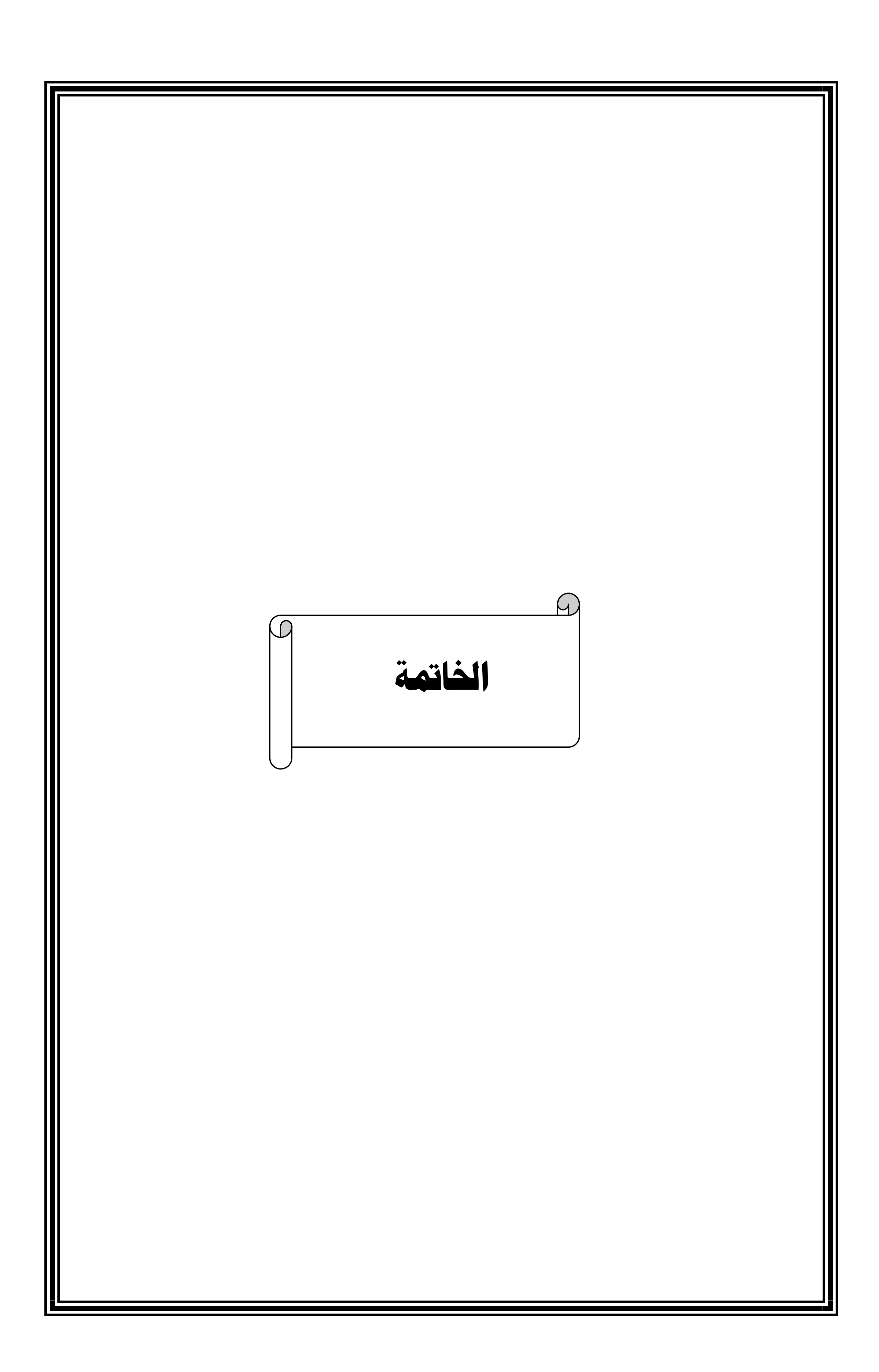
* هي العلوم المرتبطة بالعدد والحروف، تنظم وترتب حسب أشكال معينة لمعرفة أمور غيبية وسبق تعريف كل منها.

(4) المحبي، نفسه، ج3، ص 162.

** و هو علم تعرف به المسائل بأشكال الرمل، و هو 12 شكلا على عدد البروج وهو نوع من أنواع التنجيم. أنظر: حاجي خليفة، المصدر السابق، ج2، ص 441.

(5) المصدر السابق، ج2، ص 300، 301.

(6) الجبرتي، المصدر السابق، ج1 (دار الفارس)، ص 238.



الخاتمة

خاتمة

لقد عاشت الولايات العربية المتمثلة في مصر و الشام ،مرحلة من مراحل التطور الفكري خلال الفترة العثمانية ،كانت لها مميزات خاصة، تميزها عن المراحل السابقة، رغم وجود أوجه شبه كثيرة . كما أن هذه المرحلة عرفت تحولات عميقة ،أثرت على مستقبل الفكر بالمنطقة . فقد تبين من خلال دراسة العوامل المؤثرة في الحياة الفكرية، أن ظروف النهوض الفكري وعوامله ،كانت متاحة لدى المصريين وأهل الشام قبل القرن 19م . سواء ما تعلق بالمؤثرات الداخلية ،التي رغم سيرها في طريق التقليد، إلا أن الجديد لم يكن محظورا. أو ما تعلق بالمؤثرات الخارجية ،فالمجتمع لم يكن في عزلة تامة، عن العالم الخارجي ونقصد به أوروبا، بل إن روافد التواصل الفكري والحضاري كانت موجودة، ولكن هناك أمور حالت دون أن يحصل التأثير الإيجابي. فالتعصب الديني والنظرة الدونية للأوروبي باعتباره كافرا . و الإنعزال الذي كان يعيشه هذا الأخير، ضمن المجتمع الإسلامي، لكونه من فئة أهل الذمة عرقل سبل التواصل كثيرا.

فضلا عن أن الإنغلاق على الذات، و الإكتفاء بمقومات الحضارة التليدة، لم يولد لدى المجتمع العربي الرغبة في اكتشاف حضارة الآخر ،ولا تعلم لغته أو حتى زيارة أراضيه. بل طغت عقدة الخوف من كل جديد قادم من الغرب ،وحال كل ذلك دون حصول التأثير. ولذلك لما تبدلت النظرة إلى الأوروبي، وازدادت الرغبة في تعلم لغاته، والأخذ بخبراته ونظمه ،و إرسال بعثات علمية إلى أوروبا ،زالت الحواجز بين المجتمعين ،ودخلت المؤثرات الغربية من بابها الواسع.

كما أنه كان بإمكان الأوضاع الفكرية أن تتطور، انطلاقا من البنى الداخلية ولكن تدريجيا وببطىء . فقد ظهر مفكرون وعلماء في عدة ميادين، قدموا دراسات في الطب والرياضيات والفلك، وعلوم اللغة شعرا ونثرا، و علوم الدين والتاريخ والكلام وغيره. وكان في الإمكان أن تتطور تطورا طبيعيا ،مما يبعث أمجاد الماضي وينتهي الأمر إلى نهضة فكرية أصيلة . إلا أن المؤثرات الغربية التي اجتاحت المنطقة ،أدت إلى ظهور يقظة فكرية استمدت أصولها من الغرب، لا من الثقافة العربية الإسلامية . فظهر الفرق بين ازدهار فكري منبثق من الأصول، وآخر كان انعكاسا لوميض ثقافة غريبة عن المجتمع.

ولذلك توقفت حركة التأليف ومالت إلى الترجمة ،وتوقف الاهتمام بالعلوم الدينية والأدبية وتحولت الوجهة إلى العلوم المادية، رغم أنه كان بالإمكان استمرار التطور الفكري الأصيل، بالاستعانة بالأفكار

والنظم الأوروبية، دون إحداث قطيعة مع الماضي. إلا أن النتيجة كانت بظهور الإزدواجية التي حصلت في النصف الأول من القرن 19م، بين النظام التقليدي الذي ظل صبغة عامة بين الشعب، و النظام الحديث الذي انحصر بين فئة معينة من المجتمع. ولذلك يمكن القول أن الحياة الفكرية، بين القرن16م والنصف الأول من القرن 19م، شهدت تحولات مختلفة ساهمت في تطورها ،وإحداث تغييرات في عدة مجالات . أما ما حصل خلال النصف الأول من القرن 19م فكان في الواقع صدمة حضارية، لها سلبياتها وإيجابياتها على الحياة الفكرية بالمنطقة، في تلك الفترة وفي المرحلة التي تلتها.

ومن الملاحظات العامة على الفترة العثمانية بمصر و الشام، شيوع ظاهرة التصوف؛ الذي تحول إلى أسلوب حياة، وطريقة تفكير أكثر منه اتجاه فكري . وقد أثر شيوعه سلبا وإيجابا على الحياة الفكرية، فبقدر ما شاعت منكرات المتصوفة المنحرفة عن الدين، بين كل طبقات المجتمع بما فيها الطبقة المثقفة ، بقدر ما كان ذلك حافزا لدق ناقوس الخطر، لدى مفكرين آخرين قدموا مؤلفات، انتقدوا فيها الحالة التي آل إليها مجتمعهم وكان ذلك دليلا على تواصل التطور الفكري، واستمرار النبض في وسط غلب عليه الزهد ، على الرغم من أن بعضهم تبنى طريقة صوفية على الأقل . ولكن كانوا على عكس غيرهم، يدركون الفرق بين التصوف كفكر وبين الدروشة، التي شاعت في عصرهم تحت غطاء التصوف.

ومن المظاهر الرائعة التي ميزت هذه الفترة أيضا؛ هي ازدهار مؤسسة الوقف التي ساهمت فيها كل فئات المجتمع، وعبرت فعلا عن استمرار قيم الحضارة الإسلامية، التي تسعى للتكافل الإجتماعي. ومن جهة أخرى عبر الوقف على أن المجتمع لم يكن في جمود فكري ،بالنظر إلى عدد الكتاتيب والزوايا والمدارس التي أنشأت، أو استمرت في نشاطها مدعمة بالأوقاف، سواء التابعة للمسلمين أو المسيحيين. و قد كان للدولة العثمانية، دورا كبيرا في ازدهار هذه المؤسسة ،لما أولته لها من عناية ،لكونها من القيم الإسلامية النبيلة فالفضل يعود إلى الوقف، في استمرار النشاط التعليمي خلال ثلاثة قرون وربع.

ومن الملاحظ أيضا أن في هذه الفترة ارتقت قيمة العلم والعلماء، سواء عند السلطة الحاكمة أو عند طبقات المجتمع، باختلاف مستوياتها. فقد حظيت طبقة العلماء بمكانة هامة، وكان لها دور قيادي في مجال العلم؛ بتحكمها في معظم الوظائف الدينية ؛كالخطابة والتدريس والقضاء والإفتاء وغيره. كما لعبت دورا هاما في توجيه سياسة الدولة في الآستانة، وحتى في مصر والشام ،ولعبت دور الوسيط بين الرعية والسلطة. وساهمت في تحديد الملامح الفكرية للمنطقة، بمحافظتها على القيم الأصيلة للحضارة العربية الإسلامية

بالتشدد الديني الذي غلب عليها. ومع أنها أثرت سلبا في كثير من المواطن، بوقوفها ضد كل جديد قادم من الغرب، بغرض حماية الدين والوحدة الإسلامية ،فأخرت سبل الإصلاح و الإنفتاح . إلا أنها انفتحت خلال القرن 19م على المؤثرات الغربية،وتأثر بها العلماء الذين نشأوا في النظام التقليدي،وتقبلوها متحفظين على الكثير من الأمور. وساهموا في النمو الفكري الجديد ،الذي عرفته المنطقة في تلك الفترة . إلا أن أولئك العلماء قبل أن ينفتحوا، كانوا قد فقدوا الكثير من سلطاتهم ،ووظائفهم المكتسبة في النظام التقليدي؛ لأن السلاطين والأمراء المصلحين فرضوا عليهم الإصلاحات الجديدة، فكان لزاما عليهم مسايرة الوضع الجديد.

و من خلال هذه الدراسة بينا أن مصر والشام، ظلت طيلة ثلاث قرون على اتصالات وثيقة مع الأقطار الأخرى في العالم الإسلامي. فالحكم العثماني وطد تلك العلاقات التي كانت قائمة من قبله،و لذلك ظل انتقال العلماء قائما ومستمرا وعلى نطاق واسع، ليس ضمن الحيز العثماني فحسب بل في أنحاء العالم الإسلامي ككل، فكانت الرحلة في طلب العلم تقليدا لا يستغنى عنه.

والملاحظ من دراسة هذه الحركة خلال الفترة العثمانية، أن الشوام كانوا أكثر ترحالا من المصريين الذين اكتفوا بالأزهر، خاصة وأنه كان يستقطب إليه أشهر علماء العالم الإسلامي. كما كان الشوام أكثر ارتباطا بالقسطنطينية من المصريين؛ حيث تعلموا في مدارسها ودرّسُوا بها، وتولوا مناصب عديدة فيها . وقد أدت هذه الحركة إلى صبغ الحياة الفكرية في مصر والشام، وباقي الأقطار الإسلامية بصبغة واحدة،وسهلت انتقال الأفكار والمؤلفات، وساهمت أيضا في استمرار الثقافة العربية،والحفاظ على التراث خلال القرون الأولى من العهد العثماني،بينما ساعدت على نشر أسس الفكر الحديث، خلال القرن 19م مما ينفي أن البلاد العربية كانت تعيش في عزلة.

كما أن حركة التعليم استمرت في نشاطها ،ولم تقف الدولة العثمانية في وجهها، بل على العكس من ذلك عملت جاهدة،على ضمان استمرار ها كما كانت في السابق. فقد واصلت العديد من المساجد الجامعة مثل الجامع الأزهر والأموي بدمشق،والمسجد الأقصى بالقدس والمدارس الأخرى،وحتى الكتاتيب في وظيفتها إلى غاية منتصف القرن 19م . وشهد العهد العثماني فوق ذلك كله،إنشاء مؤسسات أخرى . والأمر الملاحظ هو كثرة وتنوع مراكز التعليم؛ فحتى الطرق الصوفية كان لها مدارس خاصة،وكان في البيمارستانات أماكن خاصة بتعليم الطب التطبيقي،ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل كانت هناك مراكز

للتعليم الحرة، في البيوت وعند أصحاب الحرف بما يشبه التكوين المهني ؛ الذي يعد الطالب لمهنة مناسبة . ولم يتدخل العثمانيون في طرائق التدريس أو العلوم المدرّسة، وإنما اقتصرت مهمتهم على حماية الأوقاف التي تمول تلك المؤسسات ، وتعيين الموظفين فيها تحت إشراف القاضي .

والنتيجة التي نستخلصها من دراسة النظام التعليمي، خلال العهد العثماني طيلة ثلاثة قرون وربع هي أن نظام التعليم التقليدي استمر في نشاطه ، حتى مع ظهور مؤسسات التعليم الحديثة خلال القرن 19م وأثبتت هذه الدراسة ، أنه لم يكن عقيما كما يصوره البعض، وإنما قدم المعرفة لكل فئات المجتمع مجانا ودون تمييز ، وكان يلبي حاجات المجتمع حينها، على الرغم من أنه كان غير مواكب للتعليم الأوروبي في نواحي كثيرة. إلا أنه ظل يحقق أهدافه، وتخرّج عنه علماء ومفكرين لا يمكن تجاهلهم، فضلا عن أنه خرّج جيلا تقبل الإصلاح وتزعمه.

أما التعليم الحديث الذي ظهر منذ القرن 19م، وقوي نشاطه إلى عام1841 م، على الرغم من أنه قدم خطوة هامة في مواكبة التطورات العالمية في هذا المجال، ومهد الطريق لظهور نظام تعليمي حديث ومتكامل إلا أنه أخفق في تحقيق الكثير من أهدافه، على الأقل في النصف الأول من القرن. واقتصر على فئة معينة من المجتمع وظلت الغالبية العظمى، تستمد المعرفة من المؤسسات التقليدية . ولو نظرنا إلى هذه الإزدواجية في التعليم لوجدنا أن النظامين رغم الإختلافات بينهما، كانا يشتركان في العديد من المزايا . وأن النظام التقليدي لم يكن بعيدا من حيث أنظمته ، وطرائقه وأساليب التدريس، والعلوم المدرسة وإدارة المؤسسات، عن ما كان في النظام الحديث، بل كان هذا الأخير امتدادا له.

ولو نظرنا إلى المستوى الثقافي في ذلك العصر، لوجدنا أن علماء تلك الحقبة، كانوا مثقفين ثقافة واسعة، فكان منهم الفقيه والنحوي والشاعر والطبيب وكان أقلهم شأنا ، حافظا للقرآن وعارفا بالتفاسير. ولم تكن سنين التعلم محدودة ولا أماكنه، فكان الطالب لا يكف عن التنقل بين المدارس والشيوخ، والرحيل وتحمل المشاق، في سبيل ملاقاة شيخ عارف يأخذ عنه العلم. وازدهر مظهر خاص في التعليم خلال هذه الفترة ؛ وهو الملازمة فمنهم من كان يلازم أستاذه مدى حياته، ولا ينقطع عن طلب العلم حتى وهو عالم ، غير أن العلم الذي اعتنوا به، هو العلم الديني بالدرجة الأولى ، ثم علوم اللغة والأدب ، وشيء قليل من العلوم الأخرى. وقد أبدى علماء مصر والشام خلال الفترة العثمانية، من خلال مؤلفاتهم وأفكارهم ما يوحي بأن عصرهم لم يكن عصر تخلف فكري. بل ظهر مفكرون خلفوا إنتاجا فكريا، عبروا فيه عن الإنتماء

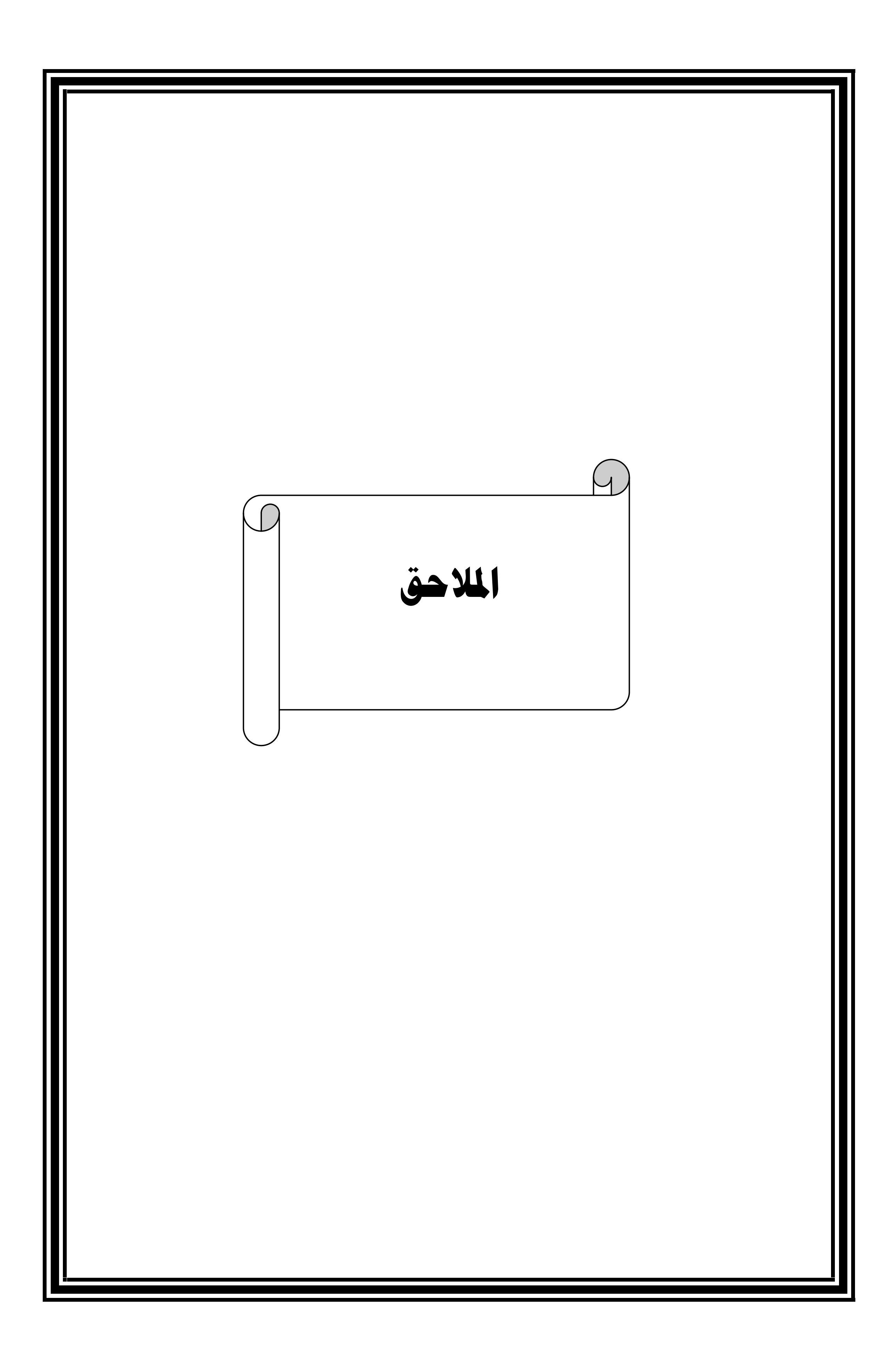
للثقافة العربية الإسلامية،حتى مع وجود سلطة حاكمة غير عربية الإنتماء . فقد عبر مفكري ذلك العصر عن الشعور بالتمايز القومي بينهم وبين الأتراك،رغم الغطاء الديني الإسلامي العام،الذي ميز العهد العثماني،وكان ذلك واضحا في كتابات النجم الغزي،و الخفاجي وابن أبي السرور المصري، و المحبي و البوريني والنابلسي والجبرتي، الذين عبروا عن شعورهم بالقومية والهوية العربية .

كما ألف علماء الأزهر والشام، مؤلفات انتقدوا فيها الولاة والسلاطين،وأعابوا عليهم مخالفتهم للقوانين والتقاليد المتعارف عليها، فمثلا شارك نجم الدين الغزي (ت1651م)، في الأحداث السياسية التي حصلت في بلده. وكان له موقف واضح وجريء من الحكم العثماني،فقد أعاب على قوانين الدولة العثمانية بأنها لا تلتزم بالشرع، ولمح إلى ظلمهم للرعية . وسلط قلمه وشعره لاستنكار مظالمهم ؛مثل كتابه " زجر الإخوان عن إتيان السلطان،"ونظم كتاب " ما رواه الأساطين في عدم الدخول على السلاطين " للسيوطي. كما أنه طرح إشكالية تخلف الأمة العربية الإسلامية، ووضع مؤلفا من 7 أجزاء سماه " حسن التنبيه لما ورد في التشبيه"،استخلص فيه نتائج أخلاقية تدعو إلى بعث ماضي الأمة. وطرح عبد الغني النابلسي(ت1731م)،خلال القرن 17م و18م في مؤلفاته الكثيرة أوضاع مجتمعه،فدافع عن الفلاحين، واستنكر الظلم الواقع بهم من رجال الإقطاع، في كتابه " تخيير العباد في سكن البلاد ". وانتقد الشهاب الخفاجي المصري أحوال مجتمعه، وتفاعل مع الأحداث التي جرت في عصره ، وأوضاع الحكم والسلاطين وحالة العلم والعلماء والقضاء. وقيد ذلك في مقاماته ورسائله التي كتبها .

وفي أواخر القرن 18م ومطلع القرن 19م،برزت كتابات عبد الرحمن الجبرتي التي صورت الوقائع والمحن والأحداث التي نزلت بعصره،وقدم نماذجا عن علماء عصره،ووصف التغيرات السياسية والإجتماعية التي عاشها،بنظرة المؤرخ الناقد والمتفاعل مع الأحداث التاريخية التي قدمها . ومثّل عبر مواقفه من الحملة الفرنسية ،والإحتكاك بالغرب ،ورأيه في إصلاحات محمد علي باشا، تحولات الفكر في عصره . وظهر إلى جانبه الشرقاوي، وحسن العطار والطهطاوي، وفارس الشدياق وغيرهم من المفكرين .

ومع أن هذا العصر شاعت فيه ظاهرة شراء المناصب،وكان هناك مدرسين ليسو أهلا للتدريس وعلماء ليسو أصحاب علم أصلا. وكان هناك تساهل في منح الإجازات العلمية،والسعي وراء المناصب والراتب والشهرة،أكثر من السعي وراء العلم في ذاته. غير أن مثل هذه المظاهر،لا يخلو منها عصر من العصور. وكانت معظم مؤلفات العصر شروحا وحواشي، وكثر النثر المسجوع والشعر المتكلف فيه، ولكن لا يجوز الحكم على قيمة هذه الأعمال، قبل تحقيقها ومقارنتها بما سبقها ؛ لأن الكثير منها جاءت بمعرفة

إضافية لا تقل أهمية . ومع أنه ساد في المجتمع جهل وتخلف، إلا أنه لا يجوز أن نغلب هذه المظاهر، على كل الوضع الفكري، ونجعلها الصورة الغالبة على المشهد الثقافي في الفترة العثمانية .


الملاحق

ملحق رقم : 1

نموذج من مرتبات المدرسين و الموظفين والمجاورين في المدرسة الأحمدية بحلب

الشخص (الموظف)	الراتب يوميا
للمدرس يكون عالما في المعقول والمنقول من الأكراد	40 قرشا
للمدرس ليقرأ الدلائل عند قبر والد الواقف بالمدرسة كل جمعة	4 عثمانيات
لأرشد ذرية (المدرس) ليقرأ الحديث يوم الجمعة والثلاثاء	10 عثمانيات
لفقيه حنفي يقرأ كل يوم الأربعاء والأحد	10 عثمانيات
لثلاث (03) معيدين	4 عثمانيات
لـ 20 قارئا يقرؤون 20 جزءاً من القرآن في المدفن والمدرسة	60 عثمانيا
لكناس المدرسة داخلا وخارجا وخادم سبيله	20 عثمانيا
لبواب، شعال، خادم التربة، لقارئ الدلائل.	20 عثمانيا
لقنوي المدرسة والسبيل	4 عثمانيات
لكل مجاور بالمدرسة	8 عثمانيات
لكاتب في وقفه	80 عثمانيا
للجابي	20 عثمانيا
لخازن المكتبة	20 عثمانيا

كامل الغزي، نهر الذهب، ج2، ص 56، 57، 58.

ملحق رقم : 2

نموذج من مرتبات المدرسين والطلاب في مدرسة محمد أبي الذهب بمصر

		رواتب المدرسين الحنفية		
		المدرس (1)	المدرس (2)	المدرس (3)
أجر المدرس	اليوم	150 نصف فضة	70 نصفا فضة	50 نصفا فضة
	السنة	150 أردبا من البرقي	30 أردبا	30 أردبا
أجر المقرئ	اليوم	14 نصفا فضة	10 أنصاف فضة	14 نصفا فضة
	السنة	10 أرادب	10 أرادب	10 أرادب
أجر الطلبة	اليوم	70 نصفا فضة	140 نصفا فضة	49 نصفا فضة
	السنة	100 أردبا	200 أردبا	/
عدد المقرئين		1	1	1
عدد الطلبة		10 طلاب	20 طالبا	7 طلبة

		رواتب المدرسين المالكية					
		المدرس (1)	المدرس (2)	المدرس (3)	المدرس (4)	المدرس (5)	المدرس (6)
أجر المدرس	اليوم	150نصفا	150نصفا	50 نصفا	50 نصفا	152نصفا	20 نصفا
	السنة	150 أردبا	150 أردبا	30 أردبا	30 أردبا	30 أردبا	30 أردبا
أجر المقرئ	اليوم	14 نصفا	14 نصفا	14 نصفا	14 نصفا	14 نصفا	14 نصفا
	السنة	10 أرادب	10 أرادب	10 أرادب	10 أرادب	10 أرادب	10 أرادب
أجر الطلبة	اليوم	70 نصفا	126 نصفا	126 نصفا	126نصفا	126 نصفا	126نصفا
	السنة	100 أردبا	180 أردبا	180 أردبا	180 أردبا	180 أردبا	180 أردبا
عدد المقرئين		02	02	01	/	01	/
عدد الطلبة		22 طالبا	28 طالبا	07	/	4 طلبة	05

		رواتب المدرسين الشافعية						
		المدرس (1)	المدرس (2)	المدرس (3)	المدرس (4)	المدرس (5)	المدرس (6)	المدرس (7)
أجر المدرس	اليوم	150نصفا	50نصفا	50 نصفا	50نصفا	50 نصفا	30نصفا	20نصفا
	السنة	150 أردبا	50 أردبا (شهريا)	30أردبا (شهريا)	50أردبا (شهريا)	50أردبا (شهريا)	30أردبا	30 أردبا
أجر المقرئ	اليوم	14 نصفا	14 نصفا	14نصفا	14نصفا	14 نصفا	14نصفا	14 نصفا
	السنة	10 أرادب	10 أرادب	10أرادب	10أرادب	10 أردب	10أرادب	10 أرادب
أجر الطلبة	اليوم	70 نصفا	70 نصفا	70 نصفا	70 نصفا	70 نصفا	70 نصفا	70 نصفا
	السنة	100 أردب	100 أردب	100 أردب	100 أردب	100 أردب	100 أردب	100 أردب
عدد المقرئين		01	/	/	/	/	01	01
عدد الطلبة		10 طلبة	/	/	/	/	7 طلبة	7 طلبة

علي مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج5 ، ص107.

ملحق رقم : 3

تعيينات المدرسين والموظفين في المدارس الابتدائية بمصر في عهد محمد علي باشا

التعيينات في الشهر	الباشخوجة	الناظر	المدرسون الثلاث	الكاتب	الخدم
الخبز	600 درهم	600 درهم	300 درهم	300 درهم	300 درهما
العدس	80 درهم	80 درهم	40 درهم	40 درهما	300 درهما
الأرز	40 درهم	40 درهم	20 درهما	20 درهما	300 درهما
الزيت	24 درهم	24 درهم	4,5 دراهم	4,5 دراهم	300 درهما
الصابون	2,5 درهم	2,5 درهم	1,5 درهما	1,5 درهما	300 درهما
الوقود	800 درهم	800 درهم	400 درهم	400 درهم	300 درهما
اللحم	30 درهما	30 درهما	15 درهما	15 درهما	300 درهما
الملح	4 دراهم	4 دراهم	6 دراهم	6 دراهم	300 درهما
الفول	/	/	40 درهما	40 درهما	300 درهما
الزبد	/	/	10 دراهم	10 دراهم	300 درهما

محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص663، 664.

رواتب وتعيينات التلاميذ في مدارس محمد علي باشا

مرتبات التلاميذ في الشهر بالقرش					
السنوات / المدارس	السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة	السنة الخامسة
الابتدائية	08 قروش	10	12	-	-
التجهيزية	15 قرشا	20	25	30	-
الخصوصية	40 قرشا	50	60	70	80
مدرسة العمليات	80 قرشا	90	100	-	-

تعيينات التلاميذ	المدارس الابتدائية	التجهيزية	الخصوصية
الخبز	300 درهم	300 درهم	300 درهم
العدس	40 درهم	10 دراهم	10 دراهم
الملح	6 دراهم	5 دراهم	5 دراهم
الفول	30 درهما	-	-
الزبد	10 دراهم	14 درهما	18 درهما
الزيت	4 دراهم	4 دراهم	4 دراهم
الصابون	2 درهم	-	-
الشمع	3 دراهم	3 دراهم	3 دراهم
الرقود	200 درهم	400 درهم	400 درهم
الضأن	-	60 درهما	80 درهما
الأرز	-	40 درهما	50 درهما
الدقيق	-	20 درهما	25 درهما
العسل الأسود	-	5 دراهم	5 دراهم
الخضراوات	-	100 درهم	120 درهما

محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص 638، 639.

ملحق رقم : 4

نموذج الإجازة العلمية "نثرا"

أجاز الشيخ عمر بن أحمد بن عقيل لحسن الجبرتي (ت 1188 هـ/1774م) جاء فيها :

« ..... بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، خصوصا أفضل أنبيائه ... و بعد :

فإن ما تطابقت عليه النصوص ،وتوافقت عليه ألسنة العموم والخصوص، أن الباحث عن السنة الغراء لاتباع هدى سيد الأنبياء ... هو الفائز بالقدح المعلى .... فذو الهمة هو الذي يثابر على تحصيل أعلاه وينافس في فهم متنه ويفحص عن معناه ... ألا وهو الشيخ الأجل الراقي بعزمه المتين من العلم والعمل...الشيخ حسن بن المرحوم إبراهيم الجبرتي ...فطلب من هذا الفقير أن أجيزه ... قلت سائلا التوفيق في الأول والفعال : أجزت مولانا الشيخ حسن المذكور المنوه بذكره أعلى السطور... ما يجوز لي وعني روايته من مقروء ومسموع وأصول وفروع بشرطه المعتبر من تقوى الله ... حسبما أجازني بذلك شيوخ أكابر... وقد سمع... مني أوائل البخاري ومسلم وأبي داود... فليروعني المجاز ... متى شاء مما اتصلت بي روايته متى أراد ... وقد أجزت الشيخ المذكور ... بالأسماء الأربعينية الإدريسية السهر وردية بقراءتها وإقرائها ... كما أجازني بذلك جملة من الشيوخ... سائلا من الشيخ المذكور أن لا ينساني وأصولي ومشايخي في الدين ... من صالح الدعوات في خلواته وجلواته ... وأوصيه ... من ملازمة التقوى ... وإتباع سبيل الهدى والرشاد وأسأل الله تعالى الكريم المنان أن يوفقني وإياه والمسلمين لصالح القول والعمل ويجنبنا الخطأ والزلل... وأن يميتنا على سنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابته أجمعين في كل وقت وحين . »

عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار، ج1 (دار الفارس)، ص 455، 456.

ملحق رقم : 5

نموذج الإجازة العلمية "نظما"

ذكر المرادي أن والده قرأ وهو في الحج على الشيخ إسماعيل بن محمد الشهير بالجراجي العجلوني الدمشقي (ت 1162 هـ/1748م) وأجازه إجازة عامة نظما وكان قرأ عليه "صحيح البخاري" جاء فيها :

أجزت نجل العارف المــــرادي	اعنـى علـيـا فــاز بـالمـــــراد
وهو الشريف اللوذعي الكامل	الأريب و المفضال ذو الأيادى
أجزتـــه بكــل مـــا أخذتـــه	عن الشيوخ الفضـلا الأطـواد
أجزتـه بكـل ما صنفتـــــــه	كالفيض والكشف مع الإرشاد
أجزتـه بكل ما فـــي ثبتنــــا	الجـامـع النوعـين بالســـــداد
أجزتــــه إجازة بشرطهــــا	عنـد أولى التحـديث والنقـــاد
أجزته في الروضة الفيحــــاء	بطيبه المختـار طـه الـهــــادى
صلى عليــــه ربنا وسلمــا	وآلـــه وصـحبـه الأمجـــــاد
ما غردت قريـــة فأطربــت	وأمــطرت سحب وسال وادى

المرادي، سلك الدرر، ج1، ص 261.

ملحق رقم:6

أسماء بعض الكتب المدرسة في المدارس بمصر والشام خلال العهد العثماني

العلم	الكتاب
النحو	"المقدمة الأزهرية" لخالد بن عبد الله الأزهري (ت 905 هـ/1499م) "مقدمة الأجرومية في النحو" لأبي عبد الله محمد الصنهاجي المعروف بابن آجروم (ت 723 هـ/1323م) وشروحها. - "قطر الندى وبل الصدى" وهو مقدمة في النحو لأبي محمد عبد الله بن يوسف النحوي (ت 762 هـ/1325) وشرح الفاكهي المسمى "مجيب الندا" عام 924 هـ/1518م. - "شذور الذهب" في النحو لجمال الدين أبي محمد المعروف بابن هشام النحوي (ت 762 هـ/1360م) . - ألفية في النحو ولامية الأفعال لابن مالك .
البيان	- رسالة أبي القاسم السهر قندي (ت 809 هـ) في الاستعارات ومع شروحها وحواشيها - تلخيص المفتاح للقزويني (ت 739 هـ/1338م).
المنطق	- "السلم المرونق" للأخضري وشروحه. - "الشمسية" هو متن مختصر في المنطق لنجم الدين عمر القزويني (ت 693 هـ/1293م) وشرحها. "إيساغوجي" واضعه فرفريوس الحكيم والمختصر عليه الذي وضعه أثير الدين مفضل بن عمر الأبهري (ت 1300م) - "هدية الحكمة" لأخير الدين الأبهري وهي في المنطق.
الحديث	- الكتب الستة وهي الصحيحين (مسلم والبخاري) وجامع الترميذي وسنن ابن داود وكتاب ابن ماجة. - "الشفاء في تعرف حقوق المصطفى" للحافظ عياض (ت 544 هـ/1149م).
التفسير	- تفسير فخر الدين الرازي (ت 606 هـ/1209م). ومؤلفات الجلالين المحلى(ت864 هـ /1459م) والسيوطي (ت 911 هـ/1505م) . - "السراج المنير" للخطيب الشربيني (ت 977 هـ/1569م) . - تفسير البيضاوي (ت 716 هـ/1316م) و هو "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" .
الفقه	- "جمع الجوامع" لعبد الله السبكي (ت 771 هـ/1369م) "ومنهاج الطالبين" للنووي (ت 676 هـ/1277م) . - "الاقناع" للخطيب الشربيني . - "كنز الدقائق" في فروع الحنفية لعبد الله بن أحمد النسفي (ت 710) . ـ"الأشباه والنظائر" في الفروع لزين العابدين ابن النجيم المصري (ت 970 هـ/1562م).
الحساب	- "الوسيلة في الحساب" لأحمد بن الهائم (ت 815 هـ/1412م) .
الهيئة	متن الجغميني في الهيئة .

(1) دائرة المعارف الإسلامية ، مج 2 ، ص 66 ، 67،68.

(2) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج2 (إحياء التراث) ، ص : 1297،1029،1053،1473،1052،1055،1296،1352،1798، 1515،1516،2010.

(3) نفسه ، ج1 (د.د. النشر) ، ص 136،91.

(4) محمد جميل الشطي ، المرجع السابق ، ص 214، 215.

(5) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج1 (دار الفارس) ، ص 411.

ملحق رقم : 7

خطة الدراسة لطلبة المهندسخانة

1252هـ/1836م

قسم الطرق والسكارى

الأيام	الاستيقاظ		الإفطار		لغة عربية	علوم	الغذاء والصحة	جغرافية – رسم	استذكار	العشاء والفسحة	تلاوة واستذكار	النوم
السبت		طبوغر-افية		طبوغرافية								
الأحد		جبر		جبر								
الاثنين		طبوغر-افية		طبوغرافية								
الثلاثاء		جبر		جبر								
الأربعاء		طبوغر-افية		طبوغرافية								
الخميس		جبر		جبر								

1253هـ/1837م

قسم الطرق والسكارى

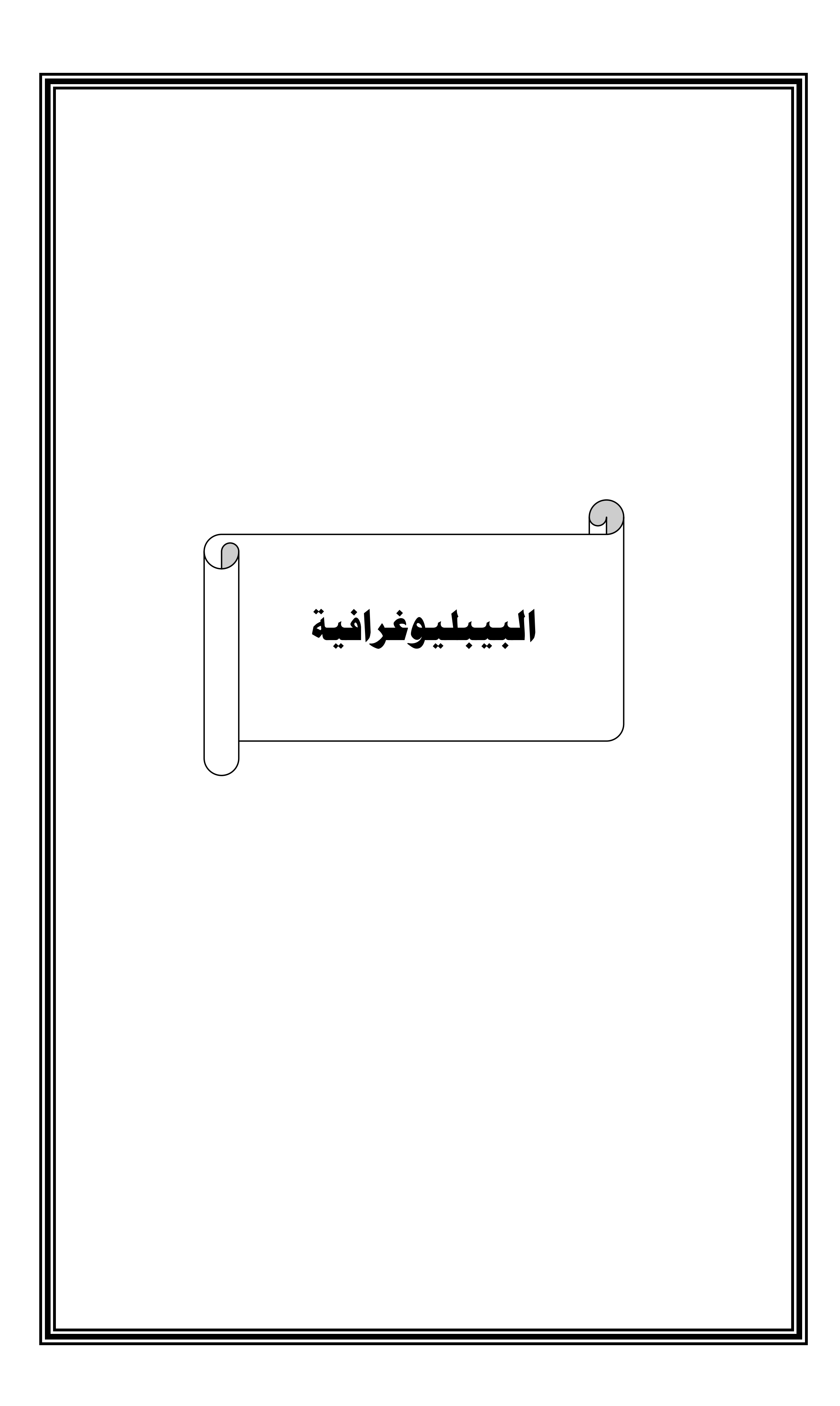
الأيام	الاستيقاظ		الإفطار	رسم	لغة عربية	دراسات علمية	الغذاء والفسحة	جغرافيا	استذكار اللغة العربية	رسم	العشاء والفسحة	دراسات علمية	النوم
السبت		طبوغرافية											
الأحد		فن البناء											
الاثنين		ميكانيكا											
الثلاثاء		طبوغرافية											
الأربعاء		فن البناء											
الخميس		هندسة وصفية											

محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص646.

توزيع المناهج والتمرينات بالمهدسخانة في القاهرة في عام 1253 ـ 1254 هـ/ 1837 ـ 1838م

القسم الأول يتألف من ثلاثة وعشرين طالبا يعدون ليكونوا أساتذة. وقد شرعوا هذا العام (1253 ـ 1254 هـ في دراسة المنهج المقرر على طلبة السنة الأولى بمدرسة الهندسة في باريس													
	نصف ساعة	ساعة	نصف ساعة	من ساعة إلى ساعتين	من ساعة إلى ساعتين	من ساعة ونصف إلى ساعتين	من ساعة ونصف إلى ساعتين	ساعة واحدة	ساعة واحدة	من ساعة إلى ساعة ونصف	ساعة ونصف	ساعة ونصف	نصف ساعة
السبت	الاستيقاظ	لغة عربية وتركية وفارسية في الفصول	الأفطار	خـــــــــــروج			الفسحة والغداء	خط ورسم (بالفصل)	رسم خرائط (بالفصل)	استذكار (بالفصل)	الفسحة والعشاء	أسئلة يوجهها الأساتذة بالفصل	النوم
الأحد				فن البناء (بالفصل)	رسم (بالفصل)	طبيعة (بالمدرج)							
الاثنين				ميكانيكا بالفصل	قطع الأحجار وصنع السقوف بالمدرج								
الثلاثاء				طبيعة (بالفصل)	رسم (بالفصل)	علم المعادن (بالمدرج)							
الأربعاء				طبيعة (بالفصل)	أشغال يدوية بالمردج								
الخميس				هندسة وصفية (بالفصل)	رسم (بالفصل)	ميكانيكا بالمدرج							

محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع السابق، ص652.


البيبليوغرافية

قائمة المصادر والمراجع

1 ـ المخطـوطـات :

1 ـ الخفاجي أحمد بن محمد: ريحانة الألبا و زهرة الحياة الدنيا، مخطوط مكتبة جامعة الرياض، رقم 2960. (www.al-mostafa.cm).

2 ـ الزرقاني حسن زغلول: الروض الأنضر في مبادئ الفنون المشهورة بالجامع الأزهر، موقع مخطوطات الأزهر (www.alazharonline.org)، رقم 339359.

2 ـ المصادر (الكتب المنشورة) :

أ ـ العربية :

1ـ أنتيس جون: مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن 18م، تر. أحمد علي الناصري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1997م.

2 ـ الجبرتي عبد الرحمن: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تح. عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر (د.ط)، ج2، ج3، 1969م. وج1، ج3 (دار الفارس)، (د، ط)، (د.ت).

3 ـ جلبي أوليا: سياحتنامه مصر، تر. محمد علي عوني، تح. عبد الوهاب عزام، أحمد السعيد سليمان، مر. أحمد فؤاد متولي، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، مصر، (د.ط)، 2003م.

4 ـ حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تص. محمد شرف الدين يالتقايا، رفعت بيلكه الكليسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ط)، ج2، (د، ت).

5- / : نفسه، (د.ط)، (د.د. النشر)، (د.م. النشر)، (د، ت)، ج1.

6- دافين بريس: إدريس أفندي في مصر، مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسي بريس دافين في مصر (1807م- 1879م)، تر. أنور لوما، دار الكتب، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1991م.

7 ـ الدبس يوسف: تاريخ الشعوب المشرقية في الدين والسياسة والاجتماع، دار نظير عبود، (د.م.النشر)، ط1، ج8، ج9، 2000م.

8 ـ الدميري: قضاة مصر في القرن العاشر والربع الأول من القرن الحادي عشر الهجري، تح. عبد الرازق عبد الرازق عيسى، يوسف مصطفى المحمودي، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2000م.

9 ـ ابن أبي السرور البكري محمد: النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، تح عبد الرازق عبد الرازق عيسى، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1998م.

10 ـ / : الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة، تح. تع.عبد الرازق عبد الرازق عيسى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 1997م.

11 ـ دي. شابرول، ج: وصف مصر (المصريون المحدثون)، تر. زهير الشايب، (د.د.النشر)، القاهرة، مصر، ط3، 1992م.

12 ـ ابن شاشو عبد الرحمن: تراجم بعض أعيان دمشق من علمائها وأدبائها، بالتزام نخلة قلفاظ، المطبعة البنانية، بيروت، لبنان، 1886م.

13 ـ دي. نارفال جرار: رحلة إلى الشرق، تر.كوثر عبد السلام البحيري، مر. سهير القلماوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (د.ط)، (د.ت).

14ـ ابن شداد عز الدين أبي عبد الله: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح. دومينيك سورديل، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، دمشق، سوريا، (د.ط)، ج1، 1953م.

15 ـ الشدياق طنوس: أخبار الأعيان في جبل لبنان، تق. فؤاد أفرام البستاني، المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، (د.ط)، ج1، 1982م.

16 ـ ابن طولون محمد: إعلام الورى بمن ولي نائب من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تح. محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1984م.

17 ـ الطنطاوي محمد عياد : تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا1840 ـ 1850، تق، تح. محمد عيسى صالحية ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1992م.

18 ـ الطهطاوي رفاعة رافع: تخليص الإبريز في تلخيص باريز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، (د.ط)، ج2، 1993م.

19 ـ الغزي نجم الدين : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، تح. جبرائيل سليمان جبور ، محمد أمين دمج وشركاه ، بيروت ، لبنان ، ج1 ، ج2 ، ج3 ، 1945م.

20 ـ / : لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر ، تح. محمود الشيخ ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، سوريا ، (د.ط) ، ج1 ، ج2 ، (د.ت).

21 ـ المحامي محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تح. إحسان حقي ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1981م.

22 ـ المحبي محمد الأمين: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، ج1 ، ج2 ، ج3 ، ج4 ، (د.ت).

23 ـ المرادي محمد خليل : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، مكتبة المثنى ، بغداد ، العراق ، (د.ط) ، ج1 ، ج2 ، ج3 ، ج4 ، (د.ت).

24 ـ مشاقة ميخائيل: مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ، (د.د. النشر ، القاهرة ، مصر ، (د.ط) ، 1908م.

25 ـ مصطفى سيد: نقد حالة الفن العسكري والهندسة والعلوم في القسطنطينية 1803م ، خالد زيادة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، (د.م.النشر) ، ط1 ، 1979م.

26 ـ النابلسي عبد الغني: الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز ، تح. رياض عبد الحميد مراد ، دار المعرفة ، دمشق ، سوريا ، ط1 ، ج1 ، 1989م.

27 ـ / : / ، تق. أحمد عبد المجيد هريدي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر ، (د.ط) ، 1986م.

28 ـ / : التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية ، تح. هريبرت بوسه ، المركز الإسلامي للطباعة والنشر ، الأهرام ، مصر ، (د.ط) ، (د.ت).

29 ـ النعيمي عبد القادر : الدارس في تاريخ المدارس ، تح. إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، ج1 ، ج2 ، 1990م.

ب ـ الأجنبية :

1- Brown. E : Le voyage en Égypte 1673-1674, Trad. Marie Thérèse Bréant, Institut Français d'Archéologie, Le Caire, Égypte, 2[ém] Ed, 1974.

2- Creasy. E.S : History of the Ottoman Turks from the Beginning of their Empire to the present Time, Henry Holt and Compagny, New york, U.S.A, 1[st] Ed, Tome 1.2, 1878.

3- Hammer. J : Histoire de l'empire Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours, Trad J-J. Hellert, Bellizard, Paris, France, Tome 1, 3,6,7,8,17, sans Dat.

4- Toderini. A, De la Littérature Des Turcs, Trad. L'Abbé de Cournand, Royal Libraire, Paris, France, Tome 1.3 , 1789.

5- Volney .C.F : Voyage en Égypte et en Syrie pendant les Années 1783, 1784 et 1785, Bossange Frères Librairies, Paris, France 5[èm] Ed, Tome 1, 1822.

3ـ المراجع :

أ ـ العربية :

1 ـ إبراهيم سمير عمر: الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، المؤسسة المصرية لطباعة الكتاب، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1992م.

2 ـ إحسان أوغلي أكمل الدين: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تر. صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول، تركيا، (د.ط)، ج2، 1999م.

3 ـ إحسان أوغلي أكمل الدين: سعداوي صالح، الثقافة التركية في مصر، جوانب من التفاعل الحضاري بين المصريين والأتراك مع معجم الألفاظ التركية في العامية المصرية، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول، تركيا، (د.ط)، 2003م.

4 ـ أحمد سعد مرسي، إسماعيل علي: تاريخ التربية والتعليم، عالم الكتب، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1972م.

5 ـ الأرناؤوط محمد: معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن 16م، دار الحصار للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1993م.

6 ـ آصاف حضرة عز تلو يوسف بك: تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، تق. محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مد بولي، القاهرة، مصر، ط1، 1995م.

7 ـ أنيس محمد: مدرسة التاريخ المصري في العهد العثماني، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1962م.

8 ـ إينالجيك خليل: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الإنحدار، تر. محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2002م.

9 ـ / : التاريخ الاقتصادي والإجتماعي للدولة العثمانية، تر. عبد اللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، ح1، 2007م.

10 ـ باموك شوكت: التاريخ المالي للدولة العثمانية، تر. عبد اللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2005م.

11 ـ بركلمان كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، تر. نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط5، 1968م.

12 ـ برنار لويس: اسطنبول حضارة الخلافة الإسلامية، تر. سيد رضوان علي، الدار السعودية، الرياض، السعودية، ط 2، 1982م.

13 ـ / : اكتشاف المسلمين لأوروبا، تر. ماهر عبد القادر محمد، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، مصر، ط1، 1996م.

14 ـ بيات فاضل: الدولة العثمانية في المجال العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2007م.

15 ـ جب هاملتون و بوون هارولد: المجتمع الإسلامي والغرب، تر. أحمد عبد الرحيم مصطفى، أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د.ط)، ج1، ج2، 1971م.

16 ـ جحا فريد: الحياة الفكرية في حلب في القرن التاسع عشر، الأهالي، دمشق، سوريا، ط1، (د.ت).

17 ـ جران بيتر: الجذور الإسلامية للرأسمالية في مصر 1760 ـ 1840م، تر.محروس سليمان، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1992م.

18 ـ جدعان فهمي: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، (د.ط). (د.ت).

19ـ حسون علي : تاريخ الدولة العثمانية ، تر. بشير السباعي ، دار الفكر ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، ج2، 1993م.

20 ـ الحلواني سعد بدير : العلاقات بين مصر والحجاز ونجد في القرن 19م ، دار الطبع ، (د.م. النشر) ، ط2 ، 1995م.

21ـ حنبكة عبد الرحمن حسن : أجنحة المكر الثلاثة و خوافيها التبشير ـ الاستشراق ـ الاستعمار و دراسة منهجية شاملة للغزو الفكري ، دار القلم ، دمشق ، سوريا ، ط8، 2000م.

22ـ حوراني ألبرت : الفكر العربي في عصر النهضة 1798م ـ 1939م ، تر. كريم عزقول ، مر. أديب القنطار ، نوفل ، بيروت ، لبنان ، ط4 ، 1997م.

23 ـ خالدي مصطفى ، فروخ عمر : التبشير والاستعمار في البلاد العربية عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 1953م.

24ـ داغر يوسف أسعد : مصادر الدراسة الأدبية ، الفكر العربي الحديث في سير أعلامه ، منشورات جمعية أهل القلم ، بيروت ، لبنان ، (د.ط) ، 1956م.

25ـ ذهني إلهام محمد علي : مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنيين السادس عشر و السابع عشر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر ، (د.ط) ، 1991م.

26ـ رافق عبد الكريم : العرب والعثمانيون 1516 ـ 1916 ، مكتبة أطلس ، دمشق ، سوريا ، (د.ط) ، 1974م.

27 ـ الرفاعي شمس الدين : تاريخ الصحافة السورية (الصحافة السورية في العهد العثماني 1800 ـ 1918م) ، دار المعارف ، مصر ، (د.ط) ، ج1 ، 1969م.

28ـ ريمون أندري : المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ، تر. لطيف فرج ، دار الفكر ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1991م.

29ـ زيادة خالد : اكتشاف التقدم الأوروبي ، دراسة في المؤثرات الأوروبية على العثمانيين في القرن 18م ، دار الطليعة ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1969م.

30 ـ زيدان جورجي : تاريخ آداب اللغة العربية ، مر. شوقي ضيف ، دار الهلال ، مصر ، د.ط ، ج3 ، 4 ، (د.ت).

31 ـ سابايارد نازك : الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة ، نوفل ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1992م.

32 ـ سالم لطيفة محمد، الحكم المصري في الشام 1831 ـ1841م، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط1، 2001م.

33 ـ سليمان منير عطا الله، لبيب رشدي، شفشق محمود عبد الرزاق: تاريخ ونظام التعليم في جمهورية مصر العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط3، 1972م.

34 ـ سليم محمود رزق: الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1957م.

35 ـ السيد جار الله منال عبد المنعم: أثر الطريقة الصوفية في الحياة الاجتماعية لأعضائها، دراسة أنثروبولوجية في مصر والمغرب، رسالة دكتوراه في الآداب، إشراف محمد علي أبوريان، فاروق أحمد مصطفى، 1990م.

36 ـ الشطي محمد جميل: أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر1201 هـ ـ 1350هـ، المكتب الإسلامي، دمشق، سوريا، ط2، 1972م.

37 ـ الشطي أحمد شوكت: تاريخ الطب وآدابه وأعلامه، مطبعة طربين، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1972م.

38 ـ شكري محمد فؤاد، العناني عبد المقصود، خليل سيد محمد: بناء دولة مصر محمد علي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1948م.

39 ـ شلبي عبد الجليل: الإرساليات التبشيرية، كتاب يبحث في نشأة التبشير وتطوره وأشهر الإرساليات التبشيرية ومناهجها، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، (د.ط)، (د.ت).

40 ـ الشيال جمال الدين: التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن 19م، إشراف أحمد عزت عبد الكريم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1958م.

41 ـ / : تاريخ الترجمة في عهد الحملة الفرنسية، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، مصر، ط1، 2000م.

42 ـ شيخو لويس: تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط3، 1991م.

43 ـ الصاوي أحمد حسين: فجر الصحافة في مصر، دراسة في إعلام الحملة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، (د.ط)، 1975م.

44 ـ الصباغ ليلى: المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، (د.ط)، 1973م.

45 ـ / : من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول محمد الأمين المحبي المؤرخ وكتابه خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1986م.

46 ـ / : الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر و السابع عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، ج1، ج2، 1989م.

47 ـ الصمد قاسم: تاريخ الضنية السياسي والإجتماعي في العهد العثماني،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، (د.م.ط)، ط1، (د.ت).

48 ـ ضاهر محمد كامل: الصراع بين التيارين الديني والعلماني في الفكر العربي الحديث والمعاصر، دار البيروني، بيروت، لبنان، ط1 ، 1994م.

49 ـ دي. طرازي فليب: تاريخ الصحافة العربية، المطبعة الأدبية، بيروت، لبنان، (د.ط)، ج1، 1913م.

50 ـ طقوش محمد سهيل: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الإنقلاب على الخلافة، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط2، 2008م.

51 ـ الطنطاوي علي: الجامع الأموي في دمشق وصف وتأريخ، دار المنارة، جدة، السعودية، ط1، 1990م.

52 ـ طوسون عمر: البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهد عباس الأول و سعيد، مطبعة صلاح الدين، الإسكندرية، مصر، (د.ط)، 1934م.

53 ـ الطويل توفيق: التصوف في مصر إبان العصر العثماني، مكتبة الآداب، الإسكندرية، مصر، (د.ط)، 1946م.

54 ـ عبد الرحيم عبد الرحيم عبد الرحمن: المغاربة في مصر في العصر العثماني 1517ـ 1798م، دراسة في تأثير الجالية المغاربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية، المجلة التاريخية المغربية، تونس، ط1، 1982م.

55 ـ عبد الغني قاسم عبد الحكيم: المذاهب الصوفية ومدارسها، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط2، 1999م.

56 ـ عبد الغني مصطفى: الجبرتي والغرب رؤية حضارية مقارنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1995م.

57 ـ عبد الكريم أحمد عزت: دراسات في تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1970م.

58 ـ عبد المعطي حسام محمد: العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر، الهيئه المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1999م.

59 ـ العطار سلوى: التغيرات الاجتماعية في عهد محمد علي، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1989م.

60 ـ العزاوي عباس: تاريخ علم الفلك في العراق وعلاقاته بالأقطار الإسلامية والعربية في العهد العثماني وفيه بيان تطوره وتأثره بالمعاصرين من أهل الأقطار الإسلامية والعربية، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، سوريا، (د.ط)، القسم 2، 1955م.

61 ـ عنان عبد الله: تاريخ الجامع الأزهر، مؤسسة الخانجي، القاهرة، مصر، ط2، 1958م.

62 ـ عمر سميرة فهمي علي: إمارة الحج في مصر العثمانية 1517 ـ 1798م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، (د.ط)، 2001م.

63 ـ الغزي كامل بن حسين: نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية، حلب، سوريا، (د.ط)، ج1، ج2، 1342هـ.

64 ـ الفقي محمد كامل: الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة، المطبعة المنيرية، القاهرة، مصر، ط1، ج3، 1956م.

65 ـ كرد علي محمد: خطط الشام، مطبعة الترقي، دمشق، سوريا، (د.ط) ج4، 1926م، ج6 (مطبعة المفيد، دمشق، 1928م).

66 ـ كوثراني وجيه: السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1988م.

67 ـ الكيلاني محمد سيد: الأدب المصري في ظل الحكم العثماني (1517 ـ1805م)، دار الفرجاني، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1965م.

68 ـ مبارك علي: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، ط1، ج1، ج5، ج7، 1305هـ.

69 ـ مجيب المصري حسين: في الأدب العربي والتركي، دراسة في الأدب الإسلامي المقارن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1962م.

70 ـ / : صلات بين العرب والفرس والترك، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2001م.

71 ـ المحافظة علي: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1798ـ1914م الاتجاهات الدينية والسياسية والعلمية، الأهلية للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، ط5، 1987م.

72 ـ / : الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن، الأهلية للنشر والتوزيع، (د.ط)، 1987م.

73 ـ محمد سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، القاهرة، مصر، (د.ط)، ج1، 1971م.

74 ـ مردم خليل: أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع، تق، عدنان مردم بك، لجنة التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1971م.

75 ـ مصطفى أحمد عبد الرحيم: أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط2، 1993م.

76 ـ المعلوف علي اسكندر: تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1966م.

77 ـ منتران روبير: تاريخ الدولة العثمانية، تر. بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، ج1، ج2، 1993م.

78 ـ النجار عامر: الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها، د. المعارف، القاهرة، مصر، ط5، (د.ت)

79 ـ نصيرات فدوى أحمد محمود: المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية في بلاد الشام ومصر 1840 ـ 1918م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2009م.

80 ـ نعيسة يوسف: يهود دمشق، دار المعرفة، دمشق، سوريا، ط1، 1988م.

81 ـ النملة علي بن إبراهيم: الوراقة وأشهر أعلام الوراقين دراسة في النشر القديم ونقل المعلومات،

مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، السعودية، (د.ط)، 1995م.

82 ـ نوفل عبد الله حبيب: تراجم علماء طرابلس وأدبائها، مطبعة الحضارة، طرابلس، لبنان، د.ط، 1929م

83 ـ هريدي علي صلاح أحمد: الجاليات الأوروبية في الإسكندرية في العصر العثماني1517 ـ 1798م، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، (د.ط)، 1989م.

84 ـ يلماز أوزوتونا: تاريخ الدولة العثمانية، تر. عدنان محمود سلمان، مر. محمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، اسطنبول، تركيا، (د.ط)، ج2، 1988م.

ب ـ الأجنبية :

1- Guémard. G : Les Réformes en Égypte d'Ali-Bey El kébir à Méhémet Ali 1760-1848, Thèse pour le Doctorat, Imprimerie Paul Barbey, Caire, Égypte, 1936.

2- Vandal. A : Le Pacha Bonneval, Cercle Saint- Simon, Paris, France, 1885.

4 ـ الدوريات والمقالات :

- **المقالات العربية**

أ ـ مجلة دراسات تاريخية :

1 ـ أمين حسين: «المسجد وأثره في تطوير التعليم»، مجلة دراسات تاريخية، ع. 05، يوليو 1981م.

2 ـ صالح حبيب محمود: "البعثات التبشيرية الأرثوذكسية الروسية في بلاد الشام (سورية و فلسطين) 1840ـ1914م، مجلة دراسات تاريخية، ع. 65ـ66، أيلول، كانون الأول 1998م.

3 ـ عامر محمود: «الأوضاع العامة للقدس في ظل الإدارة العثمانية»، مجلة دراسات تاريخية، ع.59، 60، كانون الثاني ـ نيسان، 1997م.

4 ـ عامر محمود: «الوقف في الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر (حماه و حمص أنموذجا)»، مجلة دراسات تاريخية، ع.107، 108، أيلول، كانون الثاني، 2009م.

5 ـ العلي راغب: « بعض معالم دمشق الاجتماعية في أواخر القرن الثامن عشر و مطلع القرن التاسع عشر الميلاديين (1795م ــ 1809م) دراسة وثائقية»، مجلة دراسات تاريخية، ع.103، 104، أيلول ـ كانون الأول، 2008م.

6 ـ المحافظة علي :«النشاط التبشري الألماني في فلسطين بين عامي 1841 ـ 1918م»، دراسات تاريخية، ع .2، 1980م.

ب ـ المجلة التاريخية المغربية للعهد الحديث والمعاصر :

1 ـ التميمي عبد الجليل : « تاريخ العلاقات الثقافية بين إسطنبول والمغرب الأقصى خلال العصر الحديث»، المجلة التاريخية المغربية، ع.21ـ 24، تونس، نوفمبر 1981م.

2 ـ الصباغ ليلى : « الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث »، المجلة التاريخية المغربية، ع.7،8، تونس، جانفي 1977م.

3 ـ عبد الرحيم عبد الرحيم عبد الرحمن : « الاتصال الثقافي بين الزيتونة والأزهر وأثره على الحياة الثقافية في مصر وتونس»، المجلة التاريخية المغربية، ع.21ـ 24، تونس، نوفمبر، 1981م.

4 ـ عزباوي عبد الله : « الروابط الثقافية بين مصر وبلاد المغرب في القرن الثامن عشر»، المجلة التاريخية المغربية، ع.17ـ 20، تونس، أكتوبر 1980م.

جـ ـ المجلة المغربية للتوثيق والمعلومات :

1- Gdoura. W : « Le Début de l'imprimerie Arabe a Istanbul et en Syrie : évolution de l'environnement culturel (1706-1787) », المجلة المغربية للتوثيق والمعلومات، ع.04، منشورات مركز البحوث في علم المكتبات والمعلومات، تونس، مارس 1986م.

2 ـ المحاسني سماء زكي : « من تاريخ المكتبات في سوريا »، المجلة المغربية للتوثيق والمعلومات، ع.03، منشورات مركز البحوث في علم المكتبات والمعلومات ، مارس 1985م.

د ـ مجلة جامعة دمشق :

1 ـ أحمد محمد : «الحياة الثقافية والفكرية في القدس في العصر العثماني»، مجلة جامعة دمشق، عدد خاص : القدس عاصمة الثقافة العربية لعام 2009م، 30 أفريل 2009م.

2 ـ أحمد محمد : «الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني (1876 ـ 1918م)»، مجلة جامعة دمشق، ع. 1، 2، مج 27، 2011م.

هـ ـ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق :

1 ـ المعلوف عيسى اسكندر : « خزائن الكتب العربية وعلم وصف مخطوطاته»، مجلة المجمع العلمي العربي، ع.5ـ 6، مج . 03، دمشق، أيارـ حزيران 1933م.

و ـ المجلة التاريخية المصرية :

1 ـ عزباوي عبد الله محمد: « الشوام في مصر في القرن الثامن عشر»، المجلة التاريخية المصرية، مج. 28، 29، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، مصر، 1981م، 1982م.

ز ـ مجلة أوراق :

1 ـ جحا فريد: « المدارس الأثرية في مدينة حلب»، مجلة أوراق، ع.5، 6، المعهد الاسباني العربي للثقافة، مدريد، اسبانيا، 1982، 1983م.

ح ـ مجلة حراء :

1 ـ رئيس متين: « دروس الحضرة السلطانية »، مجلة حراء، ع.35، اسطنبول، مارس، أفريل 2013م.

- **المقالات الأجنبية:**

1- El. Shayyal. G : « Some Aspects of Intellectual and Social Life in Eighteenth-Century Egypt »,In : Holt.P.M, Political and Social Change in Modern Egypt , Historical studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic, Oxford University Press, London, 1968.

2- Lotfi El Sayed. A : « The Role of the « Ulama » in Egypt during the Early Nineteenth – century in Egypt » ,In : Holt.P.M,

3- Tomiche. N : « Notes sur la hiérarchie sociale en Egypte à l'époque de Muhammad Ali » ,In : Holt.P.M,

5- المؤتمرات و الندوات :

أ ـ المؤتمرات :

1ـ بكر عبد الوهاب: « المستوى الثقافي لمؤرخي القرن الثامن عشر في مصر: دراسة نقدية لمخطوطة الأمير الدمرداش كتخدا عزبان الدرة المصانة في أخبار الكنانة »، المؤتمر العالمي الثالث للدراسات العثمانية حول الحياة الفكرية في الولايات العربية في العهد العثماني، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية و الموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، تونس، (د، ط)، ج3، 1990م.

2 ـ أبو نهرا جوزيف: « عبد الله زاخر رائد الطباعة العربية في لبنان في العهد العثماني 1866م»، المؤتمر العالمي الثالث للدراسات العثمانية حول الحياة الفكرية...، (نفسه).

3 ـ هنكل باريرا كلنر: «عبد الغني النابلسي وتلامذته الأتراك»، نفسه.

ب ـ الندوات :

1 ـ سافريونوف فلاد يمير:« الذاتية المصرية والأدب العربي في عهد محمد علي الكبير»، إصلاح أم تحديث؟ مصر في عهد محمد علي، ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2000م.

2ـ الطباع إياد: « بواكير الطباعة والنشر في بلاد الشام في العهد العثماني »، الندوة الدولية حول بلاد الشام في العهد العثماني، دمشق، من 26 إلى 30 سبتمبر 2005م، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول، تركيا، 2009م.

6 ـ القواميس والمعاجم ودوائر المعارف :

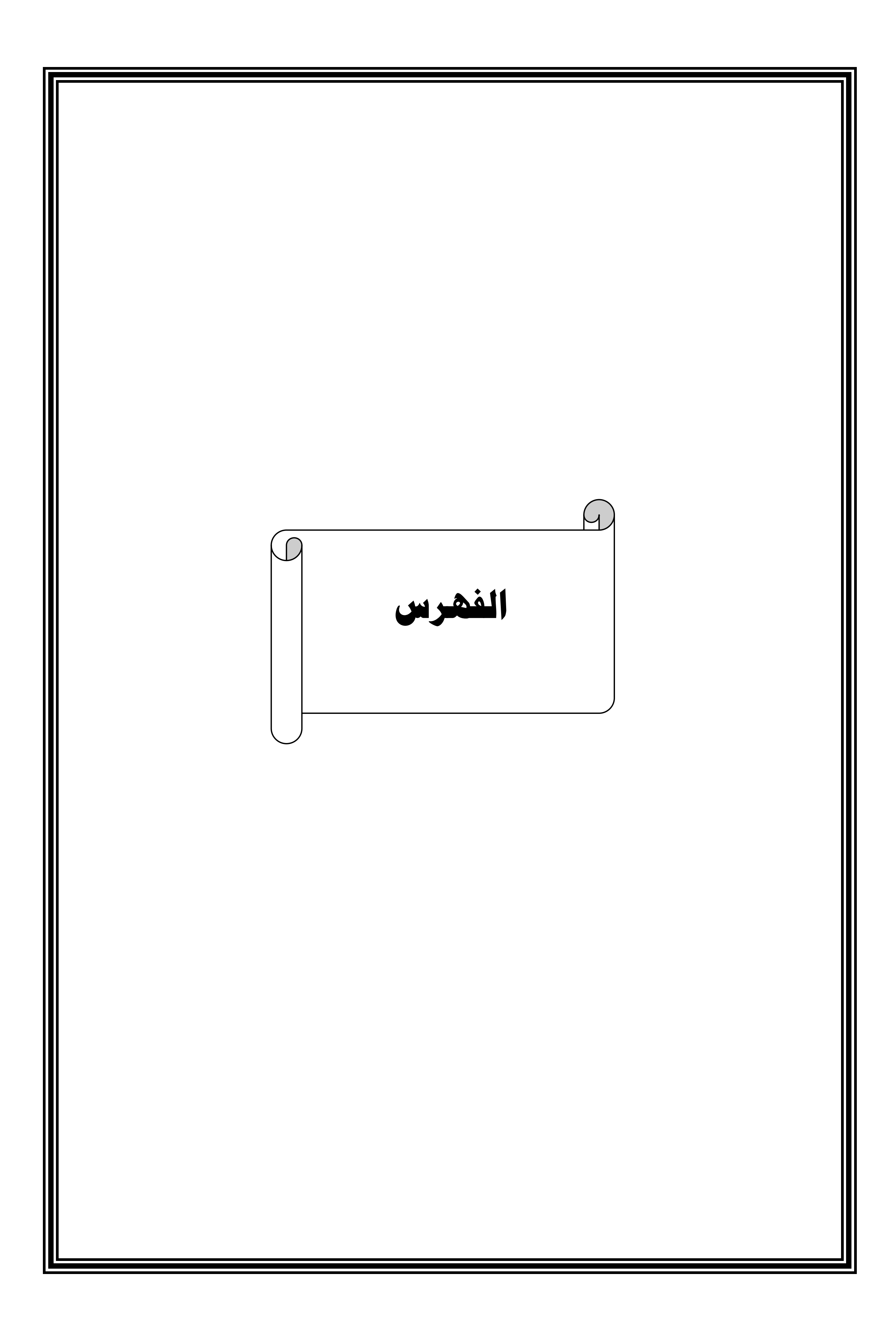
1 ـ حلاق حسان، صباغ عباس: المعجم الجامع في المصطلحات العثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية والأيوبية والمملوكية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2009م.

2 ـ الخطيب مصطفى عبد الكريم: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1996م.

3 ـ دائرة المعارف الإسلامية: تر.محمد ثابت أفندي، أحمد الشنتاوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، (د.م.ط)، (د.ت)، مج1، 2، 4، 12، 7، 5، 8.

4 ـ الزركلي خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، مطبعة كوستاتسوماس وشركاه، (د.م.ط)، ط2، ج9، (د.ت).

5ـ يعقوب إيميل بديع، عاصي ميشال : المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، مج1، 1987م.


الفهرس

الفهرس

